



نفسية

سُورَةُ هُودٍ

دراسة تحليلية - موضوعية

الدكتور أحمد نوفل

تفسير

سورة هود

مَحْفُوظٌ جَمِيعُ حَقُوقِ

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٧ / ١٢ / ٦٢٣٣)

ISBN ٩٧٨ - ٩٩٥٧ - ٦٣٨ - ٤٦ - ٧ (ردمك)

من منشورات

جمعية المحافظة على القرآن الكريم
إملاك الأردن الإسلامية



هاتف: +٩٦٢ ٦ ٤٦٢٨٣٣٣ فاكس: +٩٦٢ ٦ ٤٦٢٨٣٣٦

ص.ب: ٩٢٥٨٩٤ - الرمز البريدي: ١١١٩٠

حسابنا لدى البنك الإسلامي الأردني / فرع الحسين (١٧٦٧١)

عمان - الأردن

www.hoffaz.org

E-mail: hoffaz@hoffaz.org

تفسير سورة هود

للدكتور أحمد نوفل

جمعية الحفاظ على القرآن الكريم



الإهداء

إلى الأخ الحبيب الصفي والصديق القريب الوفي
الأخ "أبو صلاح الدين" بهاء الدين الشنابلة
أحد أهم مؤسسي شركة أطلس للأدوية
بالمغرب



تقديم

١ - القرآن.. هو الكنز العظيم.. القرآن.. هذا النور المبين.

القرآن.. هذا الكتاب الكريم.

هذا القرآن الذي قال عنه من أنزله سبحانه: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١﴾ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾.

هذا الكتاب الذي حفظه من أنزله، فلم تتبدل فيه كلمة ولم تتغير ولم تزد عليه كلمة ولم تنقص، وهو يتحدى الوجود كله بقضية هذا الحفظ، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ١﴾.

القرآن كلمات.. لكنها كلمات الله، الذي أنشأ هذا الكون بالكلمة ﴿كُنْ﴾.

كلمات.. نعم.. لكنها كلمات مَنْ خَلَقَ هذا الإنسان، فلامست الكلمات الفطرة فأحييتها كما يحيي ماء السماء الأرض بعد موتها. كلمات أزهقت الباطل وأقامت صرح الحق.

وهل في الدنيا كلها أرقى وأجل من الكلمة.. فكيف إذا كانت كلمة الله؟ وهل حفظ العلوم والآداب والفنون والتاريخ والحضارة والفكر إلا الكلمة.. فكيف إذا كانت كلمة الله؟

وهل تشعل الحروب وتقضى الأحكام وتعقد المعاهدات إلا بالكلمات؟ نقول هذا لمن يهونون من شان الكلمة وهي أعظم ما في الوجود. ألا فلتستهيئوا

بالأوكسجين الذي فيه حياتكم ولا تستغنون عنه دقيقة، أو بالماء الذي هو أنتم في الحقيقة وفيه حياتكم وحياة هذه الأرض التي أنتم ساكنوها.

القرآن.. حياة هذا الإنسان كالماء والهواء، وقد يعيش الإنسان بالعنصرين الماء والهواء لكنه لن يرشد ويعرف الحق ويقيم المجتمع اللائق بكرامة الإنسان إلا بالقرآن. ولن يهتدي ويتراحم ويتزكى ويسمو ويحيا بالعدل إلا بالقرآن. لن يدخل الجنة في حياته الثانية الباقية إلا إذا استنار بنور القرآن في هذه الحياة.

ومهما قلنا في شأن القرآن فإن ما نقول لا يعدو قطرة في بحر عظمتها المطلقة الباذخة الشاخحة.

٢- هذا القرآن الحق هو الذي عرفنا ربنا تعالى وهو الذي أرشدنا إلى عبادته وعمارة هذا الكون وفق منهجه.. هو الذي عرفنا من نحن، وكم تاه الإنسان في توصيف ذاته، فمن غالٍ فيه حتى التأليه، ومن محقر له حد التسفيه. والقرآن هو من أنصفه وأعطاه قيمته ووزنه الحق إذ قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وإذا أسجد له الملائكة لبيان كرامته وعظمته شأنه.

كيف كنت تعرف نشأة الحياة وغاية وجودك ومن مدبر هذا الكون إلا بالقرآن؟ وكم تفلسف الإنسان ليفهم وجوده فخطب خطب عشواء وتاه في بيداء، حتى جاءت الكلمة السواء، فهتدته إلى الحق في كل شيء وكل شأن.

هذا القرآن هو هادينا إلى الله، وهو الذي أيقظ فينا العقل من تيه ومن سبات، وهو الذي وجهنا إلى الكون وما فيه من آيات لنعرف به ومن خلاله من خلقه ومن يملكه ومن يدبر أمره..

وهو الذي شرع لنا شرعة الحق في النفس والمال والعلاقات الاجتماعية وسياسية واقتصادية وأخلاقية وقانونية.

فيه الماضي والحاضر والمستقبل، ولا تزيده الأيام إلا تجلياً والقاءً، ولا تزيده الكشوف إلا تحققاً وتصديقاً، مصداقاً للوعد: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتُنَا فِي آفَاقٍ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

٣- أما وإن الكتاب بهذه العظمة فما الذي صرف أمته عنه؟ والجواب أن الصارف من داخل ومن خارج، أما الداخل فعوامل كثيرة لا نحصيها ولكن نشير إليها إشارة عابرة حتى لا نطيل، فأولاً الترف وهو داء الأمم قديماً وحديثاً وأمتنا من بين هذه الأمم ولا نفصل أيضاً. وثانياً فشو الجهل، وأخطر الجهل: الجهل باللغة العربية وهي التي بيّناها الرائع نزل الكتاب. والجهل منه متعمد ومنه طبعي، أما المتعمد فالتخطيط للتجهيل، والطبعي ينشأ من الكسل والخمول والانشغال بالقوت عن ترقية الفكر والملكات. وثالثاً: التخلف. وأمتنا الآن في قاع التخلف ولا يغرنك الشاهقات من المباني، والفاخر من الطعام والأواني، والثياب والمغاني، فنحن في البحث العلمي في الذيل، وكيفي أن نعلم أن دولة العدوان المحتلة مقدساتنا في القدس الشريف وفلسطين تطبع من الكتب سنوياً بقدر العالم العربي مجتمعاً تقريباً.

ورابعاً أنماط من التدين الجامد المغلق الذي أغلق نوافذ العقل بحجة أو ذريعة أن الدين ليس بالعقل، ولكنه لن يفهم الدين وتتفتح كنوز الكتاب المبين إلا بمجهود العقل وتربية العقل.

ولا أريد أن أستقصي وإلا لبلغت أعداداً واحتجت كتاباً.

وأما العوامل الخارجية فأخطرها الغزو الثقافي والفكري واستعمار العقول. وأن نقبس ما يفيدنا شيء وأن نغرق في التبعية وازدراء الذات وما عندنا شيء آخر، ولا أفصل في هذه النقطة بل أحيل القراء الأعزاء إلى ما كتب في الغزو الثقافي من عشرات الكتب لجلال كشك وغيره، ومن أهم ما أحيل إليه كتاب الظاهرة القرآنية

المالك بن نبي رحمه الله، والمقدمة التي كتبها مالك والمقدمة الأولى التي كتبها العلامة محمود شاكر في خمسين صفحة.

وبعد، فقد آن الأوان أن نعود إلى جنة القرآن ويستأن المعاني وحدائق العلم والمعرفة فيه، ونكتشف من عطائه الذي لا ينتهي ما يدهش العقل والفكر ويغني المعارف والعلوم وينهض بالمجتمعات.

٤- ولفهم سورة هود عليه السلام لا بد من استحضار جو تنزل السورة وكيف كان القرآن يعمل في تلك الأجواء الملبدة، فملاً متحكمون وأصنام تملأ الكعبة وتنتشر حولها وتحول الدين إلا عادات وطقوس جامدة، وسادت ثقافة فاسدة من تعظيم المال وأصحابه ومن تصور خرافي للكون وللحياة والموت وما بعد الموت، وجود على هذه الثقافة وتمسك بها باعتبارها الثابت الوحيد والحق الأوحد، والمؤمنون ضعفة فقراء مستضعفون والنظرة إليهم دونية، فكيف يؤمن السادة والكبراء وكبار تجار قريش وتمولوها وشيوخ قبائلها وعشائرها، وإنما المؤمنون حفنة من الفقراء وبعضهم من الموالي وبعضهم ينتمي إلى أصول طبقية ينظر لها المجتمع بزرارية.

فعندما يطلب سادة قريش طرد المؤمنين ويقص القرآن قصة نوح ويسرد طلب الطرد ذاته تقرأ المأهاة والتناظر والتقابل والتماثل بين العقليات والنظرة والمقاييس والثقافة السائدة.

كيف عمل القرآن وسط هذه البيئة الجامدة على التقاليد السائدة كيف غير من النظرة ومن منهج التفكير وأعاد صياغة العقل.

كل هذا ينبغي استحضاره ونحن نقرأ السورة، ونتملى كيف كانت تعمل على صعيد الصف المسلم وقيادته، وعلى صعيد المدعوين في المجتمع المكي.

ولا ننسى كذلك أن القرآن وجه المؤمنين إلى التوجه إلى بيت المقدس مما زاد الشقة بعداً، وما زادها كذلك مرجعية اليهود الثقافية لأهل مكة، الذين كانوا يذهبون إليهم خصيصاً ليزودوهم بالردود على الحجج التي يسوقها القرآن، وبالشبهات التي يحاولون بها صد المؤمنين.

كيف كان القرآن يعمل على كل هذه الجبهات، كيف كان يشكل منهجية التفكير في العقل المسلم، كيف كان يدحض الشبهات، ويفند الأفكار المعطلة للعقل والبعيدة عن الحق..

جبهات عدة مفتوحة والقرآن يخوض المعركة فيها جميعاً والآفاق ملبدة ولا يبدو بصيص ضوء، لكن القرآن كسب المعركة في النهاية.. وانتصرت كلمة الله وكانت العليا ودحض الباطل وكانت كلمته السفلى، وانهمز معسكر الشرك..

كل هذا ينبغي تمليه واستحضاره ونحن نقرأ السورة الكريمة، وتفسيرها، ونحاول أن نفهم عمل الآيات في الواقع، ولا نتعامل مع نص مطلق معلق في الهواء، دون أن نرى ونفهم كيف كان اشتباكه مع واقعه، واليوم ما أشبه الليلة بالبارحة، وواقع العرب البئيس بواقعهم التعيس الأول، عادت الأمور سيرتها، ولكننا نخوض معركة لم تنسلح فيها بآليات الدعوة وسلاح الفكر والحجة كما ينبغي. مع أن المعركة يقودها اليوم دهاقنة في الغرب ومن بني صهيون، وعقول جبارة مجتهدة للباطل، وجيوش جرارة، وأموال تنفق بغير حساب لحرب هذا الكتاب.

وسيخرج منها منتصراً بإذن من أنزله لكن علينا أن نكون مؤهلين كما كان أسلافنا من الأولين، وقائد الميامين يقودهم إلى الفتح المبين والنصر العزيز.

٥- أما عن منهجي في تفسير هذه السورة فهو ما نهجته في تفسير أخواتها سورة يوسف والقصص والإسراء ويونس. وهو أن أكتب معنى الآية من المصحف إلى الورق بما ينقدح في ذهني من معنى ويفتح الله به، على قدر جهدنا الضعيف، ثم

وجدت كما قلت في السورة السابقة أنه كلما رجعنا إلى أقوال المفسرين اتسعت دائرة الفهم، ونحن نلتقط من رياضهم أينع الأزهار بمتهى الاختصار.. ولو أعطينا الآيات حقها لبلغت صفحات هذا الكتاب أضعاف ما هي عليه.

ومن منهجي كذلك أن أبين أنساق القرآن، ومنها بالطبع تناسق الآية مع سياقها وسبقها ولحقها.. ومع جو السورة عموماً، وأختم تفسير الآية ببعض الدروس المستفادة منها بإيجاز وعدم استقصاء، وإلا لطال الأمر أيضاً.

ومن منهجي كذلك ألا أغرق القارئ وأغلبهم من جمهورنا الكريم من غير المتخصصين ربما، ألا أغرق في النحو ومصطلحات البلاغة، إلا ملاماً، لكن البلاغة لا تغيب في عرض جمال التراكيب والترتيب في الكلام من تقديم وتأخير واختيار الألفاظ والإيقاع والجرس والبعد النفسي الذي أحاول أن أعطيه بعض حقه لأهميته، ولأن البلاغة هي فن التأثير في النفس واستجاشة طاقاتها، ومن هذا القبيل ومن هنا قول الله تعالى ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

ومن منهجي كذلك الربط بالواقع، فمن دون هذا الربط يكون النص مدرسياً نظرياً معزولاً مزوياً عن الحياة، وهذا نقيض روح هذا الكتاب الروح، فلا بد من إدراك الواقع لفهم القرآن فهماً واقعياً لا نظرياً، ولا بد من إدراك القرآن ومقاصده لفهم الواقع فالمسألة دائرية تؤدي إلى بعضها.

وبعد.

فهذا جهدنا يعلم الله أنا لا نبغي به إلا الدعوة إلى الله والدعوة إلى فهم كتابه ومقاصده، وأن تنهض الأمة على أساس من هذا الكتاب ويكفيها مئة سنة أخيرة من التجارب للنهوض خارج دائرة الكتاب فلم تزدنا إلا رهقاً وتحلفاً وتردياً وتمزيقاً وتشردماً وبعداً عن مقصدنا في النهوض، فلم الإصرار على الاستمرار في التيه، والإعراض عن الكتاب الذي ينهي كل ما نحن فيه؟

وختاماً لهذه المقدمة أقول: لا بد من أن تعود بهذا الكتاب الروح لهذا الجسم المهدود المكدود أمة المليارين إلا ربعاً، أما آن لها أن تقود العالم بدل حضارة الجشع والربا والظلم والاستعباد والاستعمار وغطرسة القوة والمخدرات ونهب الثروات من الشعوب الفقيرة لتزداد فقراً ويزداد الناهبون ثراء، أما آن لحضارة العدل والاعتدال القائمة على هذا الكتاب أن تراث حضارة الشذوذ والاعتلال والاحتلال والاختلال؟ هذه صيحة أحاول من خلال هذا الكتاب أن أبلغها إلى كل أذن واعية وعقل سليم صحيح لم يحتل ولم يعجب بثقافة المستعمر إلى حد الذوبان فيها.

وإن لم يكن القرآن مدخلنا إلى التوعية فما يكون سواه؟ إنه هو الروح والدواء والشفاء والنور في هذا الظلام والمخرج من هذا القتام، والنصر بعد مسلسل الانهزام والانهدام.. فيا أمتنا ويا شبابنا بالذات عودة إلى ينبوع السلسل الصافي العذب لتعود لنا الحياة ونعود إلى الحياة هادين حاملين مشعل الحق والرشاد لسائر العباد.

هذه رسالتنا وهذه مهمتنا وهذه وظيفتنا التي فيها عزتنا ونهضتنا فلا يصرفنكم عنها صارف ولا مؤامرات ولا تهویش وتشويه وتشويش وتضليل، أقدم بين يدي أعزائنا قراءنا جهدنا في هذا الكتاب.

فإن كان من فضل وتوفيق فإلى الله مرجعه وإن كان من تقصير فهو من عند أنفسنا وعدم بذل ما ينبغي من جهد والتزود بما ينبغي من زاد، ونسأل الله القبول والعفو عن القصور والزلات.

وأختم بقول الله: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

﴿وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

سورة هود

الحمد لله حمدًا يليق بجلال الله، والصلاة والسلام على رسول الله، خير من تلا كلام الله، وبينه وجلاه، وبعد؛
فانا قبل أن نشرع في تدبر السورة الكريمة، وجب أن نستحضر قول النبي ﷺ:
«شيبتي هود وأخواتها قبل المشيب»^(١).

قال سيد قطب: أما سورة هود فالقصص فيها هو جسم السورة. وهو وإن جاء شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها إلا أنه يبدو فيه أن استعراض حركة العقيدة الربانية في التاريخ البشري هو الهدف الواضح البارز. لذلك نجد تركيب السورة يحتوي على ثلاثة قطاعات متميزة:

القطاع الأول يتضمن حقائق العقيدة في مقدمة السورة ويشغل حيزاً محدوداً.
والقطاع الثاني يتضمن حركة هذه الحقيقة في التاريخ ويشغل معظم سياق السورة.

والقطاع الثالث يتضمن التعقيب على هذه الحركة في حيز كذلك محدود..
وواضح أن قطاعات السورة بجملة تتعاون وتناسق في تقرير الحقائق الاعتقادية الأساسية التي يستهدفها سياق السورة كله وأن كل قطاع منها يقرر هذه

(١) حديث صحيح، الألباني، صحيح الجامع الصغير.

الحقائق وفق طبيعته وطريقة تناوله لهذه الحقائق. وهي تختلف بين التقرير والقصص والتوجيه^(١).

الآية ١:

﴿الرَّكَتَبُ أَحْكَمَتْ أَيْشُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ أَلَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾

الربط والمناسبة: سورة هود هي ثاني سور مجموعة آلر ويونس أولها، وقد بدأت قصصها بقصة نوح لكنها جاءت جملة في آيتين فقط، وقد فصلت بما لم تفصل في سورة أخرى في سورة هود فجاءت في (٢٥) آية من الآية ٢٥ إلى نهاية الآية ٤٩.

وفي سورة يونس طوى قصص النبيين ما بين نوح وقصة موسى وفرعون فقال في إجمال في آية واحدة: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ وفصل هذا الإجمال في سورة هود فقد جاءت قصص هود وقومه وشمود ونيهم صالح، واستمر هذا من الآية ٥٠ حتى الآية ٦٨ أي ما مجموعه تسع عشرة آية (١٩) بينما جاءت قصة موسى في سورة يونس في (١٩) آية.

ثم تكلمت سورة هود عن قصة إبراهيم ولوط في (١٥) آية من الآية ٦٩ إلى الآية ٨٣ ثم عرضت السورة قصة شعيب مع قومه مدين من الآية ٨٤ إلى الآية ٩٥ بما مجموعه (١٢) آية.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ١٨٤٤.

ثم عرضت السورة قصة موسى وفرعون من الآية ٩٦ إلى الآية ٩٩ أي (٤) آيات فقط، لأنها القصة الوحيدة التي فصلت بعض الشيء في سورة يونس، فتأمل كيف تتناسق السور وتتكامل في قصصها وموضوعاتها بمنهجية عجيبة تأخذ بالألباب.

فمجموع الآيات القصصية في سورة هود هو (٨٥) آية (خمس وثمانون آية).

من أصل ١٢٣ آية أي بنسبة ٦٩٪ من مجموع الآيات، بينما هي في سورة يونس بنسبة ١٩٪.

وأما العلاقة بين ختام سورة يونس وفتحة سورة هود فهي كالتالي: كلمات الختام في سورة يونس: ﴿وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَازِمِينَ﴾ فقد ذكرت مشتقات الحكمة مرتين.

وفي فتحة سورة هود ﴿كَتَبْنَا حِكْمًا لِّإِبْنِهِ ثُمَّ فَصَّلْنَا مِن لَّدُنَّ حِكْمٍ خَيْرٍ﴾ وقد ذكرت مشتقات الحكمة مرتين كذلك.

وفي الآية الثالثة قبل الختام قوله تعالى في سورة يونس: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ وفي الآية الثالثة من أول سورة هود ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾.

وفي الآية (١٠١) من خواتيم سورة يونس: ﴿وَمَا تَنْفَعِي الْآيَاتُ وَالنَّذِيرُ...﴾ وفي الآية (٢) من فواتح سورة هود: ﴿إِنِّي لَكُرْمَنَةٌ نَّذِيرٌ...﴾.

أما علاقة فواتح السورتين ببعضهما ففي أول سورة يونس: ﴿إِلَّا رَبُّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، وفي فواتح سورة هود: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾.

المعنى: الر: حروف مقطعة أي تقرأ حرفاً حرفاً غير متصلة كأنها كلمة واحدة، وتسمى فيها أسماء الحروف ألف لام را، وهي إشارة للتحدي والإعجاز، كما تكرر مراراً فيما نقول وفيما قال كل من كتب في التفسير والإعجاز.

وهي بالقطع مرتبطة بالسورة ارتباطاً عضوياً منهجياً بحيث لا يصلح مكانه الم، فتلك منسجمة مع سورها، وهذه المنظومة المفتحة بحروف الر متسقة قطعاً مع سورها، وقد رأيت بالاستقراء والتأمل ولغيري أن يخالف فهذه ذوقيات، رأيت أن موضوع سور (الر) يركز على قضية الربوبية والرسالة. والله أعلم.

وقد جاءت كلمة ﴿رَكَّذُ﴾ في الآية ٣ من كل من سورتي يونس وهود^(١). وهذه نظرة على فواتح سور الحروف المقطعة التي مرت بنا حتى الآن:

﴿آل٢﴾ ذَلِكَ أَنْكَرَ... ﴿[البقرة].

﴿آل١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابَ... ﴿[آل عمران].

﴿الْمَص١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ... ﴿[الأعراف].

﴿الر٢﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ... ﴿[يونس].

﴿الر٢﴾ كِتَابٌ أُخِيتَ آيَاتُهُ... ﴿[هود].

وهذه ملاحظة سريعة أن الأعراف وهود ذكرت فيهما الحروف وأعقبها مباشرة كتاب وقد جاءت فيها القصص مفصلة.

وسورة البقرة ويونس أعقب الحروف اسم الإشارة ثم الكتاب أو آياته وفيها.

القصص بمجمل وبنسبة غير كبيرة، هذه ملاحظة عابرة.

(١) وجاءت كلمة ربك مرتين في الآية ٦ من سورة يوسف.

أما آل عمران فجاءت متفردة في فاتحتها وهي متفردة في موضوعها الذي استغرقت غزوة أحد ثلث آياته، وقلّ في السورة القصص جداً إلى نسبة لا تكاد تذكر أصلاً.

وهذه الآية (١٠) كلمات و(٣٥) حرفاً وترتيبها (١٤٧٤).

كتاب: الجذر كتب يعني الضم والكتيبة تضم وتجمع عشرات الجنود.. والكتابة ضم الحروف، والكتب الخياطة كذلك فهي تضم قطع القماش، وقد ذكر الكتاب في القرآن بمشتقاته مئات المرات^(١)، وهذا في البيئة الأمية شيء عجيب، فكانت هذه إشارة إلى أن هذا الكتاب ليس ابن البيئة ولا نتاجها!

وجاء ﴿كَتَبُ﴾ منكرّاً لتعظيمه من ناحية وتفخيمه، ثم لوصفه أي لتعقبه الصفة ﴿أُكْتُبْتُ﴾ كأنه قال في صفته: محكمة آياته.

والإحكام معناه: عدم تطرق الخلل أو النقص إلى الشيء، وأما إحكام الآيات فمجيئها على أتم الأوصاف من حيث المعنى والمبنى فلا يتطرق إليها نقص ولا نقص ولا تقبل تبديل حرف أو زيادة حرف أو نقصان حرف، فهي محكمة متقنة تامة مكملة لا تعديل عليها ولا تبديل، لأنها كلمات الله الذي أحسن كل شيء وأتى به على أعلى درجات الكمال.

(١) وردت كتاب معرفة ومنكرة (٢٣٠) وكتاباً (١٢) مرة فهذه (٢٤٢) مرة، أما عدد صيغ الجذر كتب فهو (٣٥) صيغة ذكرنا لك مجموع صيغتين منهما فقط.

(٢) وقد ورد الكتاب في سورة يونس ٤ مرات وفي سورة هود كذلك ولكنه ورد في السورتين الأوليين الزهراوين البقرة وآل عمران ٥٩ مرة، (٢٧ للأولى و٣٢ للثانية).

وفي النساء ١٦ والمائدة ١٥ والأنعام ١٢ والأعراف ٧ ومرتين في كل من الأنفال والتوبة، فيكون مجموع ما سبق حتى هذه الكلمة هو ١١٧ مرة.

وقد وصف الكتاب بالإحكام فقال القرآن: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

وقال عنه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس، لقمان] ﴿يَسَّ ۝﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿وقال عنه كما هنا: ﴿أُحْكِمْتَ آيَاتَهُ﴾ وقال عنه: ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾.

ووصف بالحكمة: ﴿وَمَعْلَمٌ لَكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

وقرن الكتاب بالحكم وهو الحكمة مرات فقال: ﴿الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، [والأنعام: ٨٩].

أحكمت آياته: أي جاءت محكمة لا يتطرق إليها خلل في رصفها وصياغتها ومعناها وبلاغتها وأحكامها وتناسقها وتطابقها وتوافقها. والكلام في هذا لا ينتهي.

ثم فصلت: ثم: للتراخي الرتبى لا الزمنى.. فهو محكم مفصل منذ لحظة نزوله إلا إذا أردنا ترتيبه سوراً بعد تمام نزوله فيكون التراخي هنا زمنياً ولا بأس في ذلك. وأرى أن المعنى الأهم هو التراخي الرتبى، فرتبة التفصيل رتبة أخرى بعد الإحكام، ومعنى التفصيل متعدد: فتقسيمه سوراً تفصيل، وتقسيم السور إلى آيات كل آية معلوم بدوؤها ومنتهاها تفصيل. وتفصيل أحكامه بعد إجمالها تفصيل، فكم من معنى جاء مجملأ ثم فصل، أو جاءت الإشارة تفيد معنى ثم حسم المعنى في آيات متأخرة كتحريم الخمر مثلاً أو حد الزنا مثلاً.

وقصص القرآن تجمل في سورة البقرة مثلاً وتفصل في الأعراف مثلاً، وكثير من آياته وأحكامه كالجهاد مثلاً تُغطى أحكامه في سور متعددة كالأنفال والتوبة وسورة البقرة والنساء والفتح والقتال والأحزاب والحشر والصف وآل عمران..

فكل سورة تزيد تفصيلاً معيناً بحسب مقتضيات الظروف ومتطلبات الحال والمرحلة..

والمعاملات المالية تفصل في سور عدة كالبقرة والنساء والحشر..

وأحكام النساء ومعاملتهن وحقوقهن والمهور وميراثهن ولباسهن وزيتهن يفصل في سور عديدة كالبقرة والنساء والطلاق والتحريم.

والأحزاب والمجادلة وغيرها من السور.

حتى العقيدة فتفصل أحوال القيامة في عشرات السور، فتكون جملة كما في الفاتحة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ ثم تفصل في عشرات السور كل سورة تضيف تفصيلاً فتتكمّل في النهاية الصورة إذ تعطي كل سورة تفصيلاً وجزءاً من الصورة.

وهكذا فإن الحديث أيضاً لا ينتهي وكل هذا في معاني فصلت، ولو جئت أضرب المثل للإحكام والتفصيل فيمكن ضرب عشرات الأمثلة، فلو جئنا نطلع على المسجد الأقصى مثلاً، فإننا نأخذ نظرة كلية من علٍ أو عن بعد فنرى الكتلة والمساحة والأجزاء المكونة للصورة، ثم ندخل في التفاصيل من الزخارف إلى النقوش، ثم تفاصيل الكتابات وأنواع الخطوط والفيسفساء والمنمنمات وما إلى ذلك.

أو لو أردنا أن نطلع على الجامعة فيمكن أن نلقي نظرة من مروحية على الموقع بكتلته ثم ننزل إلى التفاصيل كلية وكلية وقسماً قسماً ومرفقاً مرفقاً.

أو لو أردنا أن نرى عمان فإننا نلقي عليها نظرة من الطائرة.

ثم ننزل إلى معالمها الرئيسة كالمدرج والمساجد والجبال السبعة، والمباني المميزة والوزارات والأماكن الثقافية ومعاهد العلم، ثم التفاصيل المختلفة من مرافق ونحوها.

والأمثلة كثيرة والشواهد عديدة والنماذج بلا آخر، فالإحكام سابق التفصيل، وهكذا تصميم المباني مثلاً، يرسم المهندس تخطيطاً لموقع البناء من الأرض، ثم يزيده تفصيلاً، ثم يرسم خارطة تفصيلية لكل غرفة ومرفق.

وفي التعليم يستحسن بل يجب أن يبدأ بالنظرة الكلية التي يسمونها بالألمانية «نظرية الجشتلت» في التعليم ثم نأخذ في التفصيل. وهل يعقل أنني إذا أردت أن أعرف غربياً بالإسلام أبدأ من التفاصيل كالمسح على الجوارب والخفين.. إنك تبدأ بتعريفه بالله الخالق، وأن الإسلام منهجه ونظامه لخلقه ثم العبادات نظرة كلية ثم.. بعد مرحلة تبدأ بالتفصيل التدريجي شيئاً فشيئاً.

هكذا الحياة كلها.. فنحن جئنا الدنيا لا نعلم شيئاً فبدأنا التعرف على تفاصيل الحياة شيئاً فشيئاً وبالتدرج.

هذا ناموس كلي يتظم كل شيء.

﴿أَحْكَمْتَ آيَاتَهُ ثُمَّ قُلْتَ﴾ ما أبداع هذا القرآن.

بينما يكلمك عن مسألة إذ تنفتح لك مسائل بلا عدد كلها ترتبط بالمعنى المعروض والقضية محل النظر.

وإذ بالنظرة الكلية والحكم الكلي ثم النظرة التفصيلية إذ بها تستغرق الحياة كلها، فتأمل!

من لدن حكيم خبير: أي أنه أحكم آياته من قبل حكيم وفصلت آياته من لدن خبير ومن عند العليم بالدقائق والتفاصيل، وقد ورد ﴿خَيْرٌ﴾ في القرآن ٣٣ مرة و﴿خَيْرًا﴾ ١٢ مرة فهذه (٤٥) مرة، واقرن اسم الخبير بالحكيم مرات كما هنا وكما في الأنعام ١٨، ٧٣.

واقترن الخبير باسم اللطيف: وجاء دائماً يسبقه اسم اللطيف: كما في الحج ٦٣ ولقمان ١٦ والملك ١٤.

واقترن الخبير باسم العليم كما في لقمان ٣٤ والتحريم ٣ والحجرات ١٣.
وجاء بما تعملون خبير، بما تعملون خبيراً وخبير بما تعملون.. في آيات كثيرة
كما في البقرة ٢٣٤، ٢٧١، وآل عمران ١٥٣، ١٨٠، والمائدة ٨ وغيرها كثير.
واقترن الخبير بالبصير كما في فاطر ٣١ والشورى ٢٧.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «﴿أُحْكِمْتَ آيَاتَهُ﴾ فجاءت قوية البناء دقيقة الدلالة، كل كلمة فيها وكل عبارة مقصودة. وكل معنى فيها وكل توجيه مقصود ومطلوب، وكل إيماء وكل إشارة ذات هدف معلوم متناسقة لا اختلاف بينها ولا تضارب ومتسقة ذات نظام واحد».

يقول الشيخ محمد علي طه الدرة: «﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ لدن مضاف وحكيم مضاف إليه، خبير: بدل عن حكيم ولا يجوز اعتباره صفة له لأنه اسم من أسماء الله الحسنى».

قال الشيخ حسنين مخلوف في صفوة البيان في معنى أحكمت ثم فصلت: «هذا كتاب نظمت آياته تنظيماً محكماً متقناً، لا يتطرق إليه نقص ولا خلل، من الإحكام وهو الإتيان، كالبناء المحكم الرصين، يقال: أحكمت الشيء إذا أتقنته فاستحكم. ثم فصلت: جعلت مفصلة كالعقد المفصل بالفرائد، أو فرقت في التنزيل، فنزلت نجوماً على حسب الوقائع والمصالح ﴿ثُمَّ﴾ على الأول للترتيب الإخباري وعلى الثاني للترتيب الزماني. أ. هـ.

قال الزمخشري: «هي محكمة أحسن الأحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل. أي من عنده إحكامها وتفصيلها، وفيه طباق حسن: لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها. أي: بينها وشرحها خير عالم بكيفيات الأمور».

قال ابن عاشور: «الحكيم مقابل (أحكمت)، والخير مقابل (فصلت) وهما وإن كانا متعلق العلم ومتعلق القدرة إذ القدرة لا تجري إلا على وفق العلم».

قال الخازن: «فصلت بمعنى فسرت، وثم في قوله ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ ليست هي للتراخي في الوقت ولكن في الحال، كما تقول هي محكمة أحسن الأحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل»^(١).

من دروس الآية ١:

١- الإحكام ثم التفصيل ناموس شامل من نواميس الكون والحياة والتشريع والقرآن ذاته.

٢- هذا الكتاب بسوره وآياته محكم لا يقبل الخلل ولا الريب ولا التناقض ولا التعديل ولا النقص ولا الزيادة.

٣- كل آية في هذا الكتاب تشهد أنه كلام الله.

٤- يحكم الله الكتاب عن حكمة، ويفصله عن خبرة هكذا جاءت من لدنه على النحو الذي أنزل على الرسول لا تغيير ولا تبديل.

(١) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج ٢، ص ٤٧٠.

الآية ٢:

﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ فَقُلُوبُهُمْ غَائِبَةٌ﴾

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت وأنه من عند الله، وجاءت هذه الآية بعدها تبين أهم قضايا هذا الكتاب وتفصل أعظم مطالبه وتلخصها في آن معاً فتقول بصيغة الحصر والقصر: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ فقد اختصرت المطالب في واحد واقتصرت العبادة على الواحد سبحانه.

وهذه الآية (٩) كلمات و(٣٥) حرفاً وترتيبها (١٤٧٥).

المعنى: ألا: هي أن لا، وأن تفسيرية، ولا نافية بمعنى الناهية، أو هي لا الناهية مباشرة.

تعبدوا: اختصر الدين كله في العبادة لله وحده، وهي لو تأملنا تلخص الدين كله، فالدين في نهاية المطاف منهج عبادة، وما الحياة إلا محراب عبادة، وعمارة الأرض عبادة، والاستخلاف فيها للعبادة، والعلم عبادة، والتحضر وتخضير الأرض عبادة، فالحصر والقصر حقيقي لا إضافي إن أخذنا العبادة بمفهومها الشامل، وإن اقتصرناها على الشعائر وهو ما لا نرتضيه فيكون الحصر والقصر واختصار الدين في العبادة إضافياً، مثلما أقول: ما أقاموا الصلاة، مع أن الدين ليس الصلاة فقط، والملحظ الأول أولى.

إلا الله: فرق في قوة المعنى ودقته بين أن نقول: أن تعبدوا الله وحده وأن نقول: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ﴾، فالثانية أوجز وأبلغ وأكثر حسماً بأن لا يُعبد إلا الله، فقد يعبد بعض الناس الله، ولكنهم يعبدون معه ما لا يحصى من معبودات باطلة بدءاً من أهوائهم ومصالحهم وانتهاء بأصحاب القوة والنفوذ والسلطان.

وعبر بلفظ الجلالة الجامع لسائر الأسماء والصفات لأنه أدعى للاستجابة وترية المهابة.

إنني لكم منه نذير وبشير: الآية الكريمة قسمان متقاربان الأول منهما ما مضى وهذا الثاني، وقد ركز القسم الأول على عبادة الله وهنا ابتداء بذكر الرسول عليه الصلوات وأنه نذير لمن لم يلتزم خطة العبادة وبشير لمن التزم هذه الخطة ونهج هذه الطريقة.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ نذير: خبر إن، وبشير: معطوف عليه، وقدم الإنذار لأن التخويف أهم إذا يحصل به الانزجار.

قال الشيخ مخلوف: «أي أحكمت وفصلت لتمحضوا العبادة لله تعالى، فإن الإحكام والتفصيل يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد وما يتفرع عليه من الطاعات أ. هـ».

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «توحيد الله وحده هو مفرق الطريق بين الفوضى والنظام في عالم العقيدة، وما يمكن أن يتحرر البشر من الذل ويستمتعوا بالكرامة إلا حين يتفرد الله سبحانه بالربوبية، وما كان الخلاف على مدار التاريخ بين الجاهلية والإسلام على الهوية الله إنما كان الخلاف وكانت المعركة على من يكون هو رب الناس الذي يحكمهم».

قال ابن عاشور: «مضمون البشير والنذير هو جامع عمل الرسول ﷺ في رسالته فهو بشير لمن آمن وأطاع، ونذير لمن أعرض وعصى وذلك أيضاً جامع للأصول المتعلقة بالرسالة وأحوال الرسل وما أخبروا به من الغيب فاندرج في ذلك العقائد السمعية، وهذا عين الإحكام».

قال الزجاج: «إنني: مقول قول مقدر، أي قل يا محمد لهم إنني لكم منه. أي من جهة الله نذير: أي مخوف من عذابه لمن كفر. وبشير: بالجنة لمن آمن»^(١).

من دروس الآية ٢:

- ١- الدين يمكن تلخيصه بأنه منهج عبادة.
- ٢- الحياة بهذا المفهوم محراب عبادة ولا يتوهم متوهم أن هذا يضيق الحياة أو يضيع الحياة بل يشرفها ويزكيها ويفسح آفاقها.. أليس هذا خيراً مما هي فيه من مستنقع الأهواء؟
- ٣- العبادة لا تكون إلا لله، وهذا المفهوم سهل ترديده نظرياً صعب تطبيقه عملياً لأنه ستقوم في وجهك مئات العقبات والتحديات.
- ٤- مهمة الرسول عليه الصلوات نذارة لمن ابتعد عن مراد الله وبشارة لمن اقترب وحقق وتحقق.

الآية ٣:

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَأَنَّه يُغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَإِنَّ ثَمَرَهُ خَيْرٌ مِّمَّا يُخْلَقُ ۚ﴾^(٢)

الربط والمناسبة: طالت هذه الآية نسبياً حتى بلغت مجموع الآيتين السابقتين وزادت ست كلمات، والافتتاح بالوجيز مطلوب ثم تطول المطالب، وبينما تضمنت الآية السابقة طلب العبادة جاءت هذه تفصل، على منهج القرآن كما ذكرت الآية الأولى: ﴿أَحْكَمَتْ أَيْنُتُهُ ثُمَّ قُضِلَتْ﴾ فطلبت من العباد الاستغفار والتوبة

(١) الزجاج، معاني القرآن، ج ٣، ص ٣٨.

لأنهم مظنة التقصير ثم تكلمت عما ينتظر من فعل هذا من عائد ومردود في الدنيا والآخرة، وركز ختامها على النذارة لمن أعرض وتولى: ﴿وَإِنْ نَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ فالآيات نسق.

وهذه الآية (٢٥) كلمة و(٩٧) حرفاً وترتيبها (١٤٧٦).

المعنى: وأن: عطف على أن لا في الآية السابقة فعطف الأمر على النهي.

استغفروا ربكم: الألف والسين والتاء تعني الطلب، فالأمر استغفروا: طلب تحقيق الاستغفار من العباد، وهو طلب المغفرة، وهنا عبر بالرب فجمع بين الاسمين: الإله، والرب، أي بين هذه الآية وسابقتها، هناك لتربية المهابة وهو أليق باسم الجلالة، وهنا استجاشة معاني ودوافع الاستجابة وهذا أليق بخطابنا باسم الرب تعالى.

وإضافة ضمير المخاطب إلى اسم الرب للمحظ لاستجاشة الدواعي للاستجابة. ثم توبوا إليه: الاستغفار في القسم السابق لطلب المغفرة لوقوع التقصير وهو المتوقع، أما التوبة فالرجوع إلى الله بعد الخطأ وعدم المضي في طريق الجهالة والضلالة والشroud، فالآية مرتبة منسقة منضدة. و(ثم) للترتيب الرتي.

بمتعكم متاعاً حسناً: هذا جزاء الاستغفار أو عاجله بعبارة أدق، والمتاع كل ما يستمتع به ووصفه بالحسن ليستبعد كل ما ليس كذلك من متعة حرام.

إلى أجل مسمى: الأجل المسمى هو المحدد لكل فرد وهنا أجل مسمى لهلاك الأمم أو حياتها.. وأجل مسمى لبعث الناس ونشورهم.

ويؤت كل ذي فضل فضله: ويعطي كل صاحب فضل وإحسان فضله جزاء ما قدم من فضل، وإحساناً جزاء ما قدم من إحسان.

والفضل الزيادة، والفضل ما تفضل به وأعطاه دون استحقاق أو فوق الاستحقاق. والمعنى: ويؤت الله فضله كل ذي فضل في عمله.

وإن تولوا، فإني أخاف عليكم، عذاب يوم كبير:

وإن تولوا: وإن تولوا أي تعرضوا وتديروا ظهوركم لدعوة الحق.

فإني أخاف عليكم: أخشى عليكم خشية مؤكدة محققة وليست متوهمة.

عذاب يوم كبير: العذاب كبير في يوم كبير.. والرسول يخشى على قومه كل هذا، واليوم الكبير هو يوم القيامة.. أو يوم عذاب الاستتصال.. في الدنيا قبل يوم القيامة.. أو هذا وهذا.. وليس هذا أو هذا.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «المتاع الحسن قد يكون بالنوع كما يكون بالكم في هذه الدنيا، أما في الآخرة فهو بالنوع والكم وبما لم يخطر على قلب بشر. وربما نشاهد كثيراً من الطيبين الصالحين مضيقاً عليهم في الرزق، ولا بد لإدراك المعنى الكبير الذي يتضمنه النص القرآني أن ننظر إلى الحياة من زاوية أوسع».

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «لقد اختلف في بيان الفرق بين الاستغفار والتوبة، الاستغفار هو طلب الغفر والستر والتوبة الرجوع عما كان فيه من شرك ومعصية، فلهذا قدم الاستغفار على التوبة».

قال القرطبي: ﴿يُنْعَكُمُ﴾ هذه ثمرة الاستغفار والتوبة أي يمتنعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم أ.هـ.

يقول مخلوف: «وأن استغفروا: معطوف على ألا تعبدوا أي ولاستغفاركم ربكم من ذنوبكم ولإخلاصكم في توبتكم منها، وأن مصدرية وهي توصل بالامر والنهي كما توصل بغيره. أ.هـ».

قال الزمخشري: «معنى (ثم) في قوله تعالى ﴿ثُمَّ تَوَبَّأُ إِلَيْهِ﴾ معناه استغفروا من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة. أو استغفروا والاستغفار توبة ثم اخلصوا التوبة واستقيموا عليها».

قال ابن عاشور: «﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ وهو غاية للتمتع، وذلك موعظة وتنبية على أن هذا المتاع له نهاية، فعلم أنه متاع الدنيا، والمقصود (بالأجل) أجل كل واحد وهو نهاية حياته وهذا وعد بأنه نعمة باقية طول الحياة».

قال حومد: «وَأَسْأَلُوا رَبَّكُمْ مُتَضَرِّعِينَ إِلَيْهِ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ مَا كَانَتْ مِنْكُمْ مِنْ أَعْمَالِ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ وَالْإِجْرَامِ، ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ، وَبِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَخَذَهُ دُونَ سِوَاهُ، فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ، وَاسْتَغْفَرْتُمْ رَبَّكُمْ، وَتُبْتُمْ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُمَتِّعُكُمْ فِي الدُّنْيَا مَتَاعًا حَسَنًا، وَيَرْزُقُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْأَلُكُمْ فِي آجَالِكُمْ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي قَضَىٰ عَلَيْكُمْ فِيهِ بِالْمَوْتِ، وَيَجْعَلُكُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ نِعْمَةً وَقُوَّةً وَعِزَّةً، وَيُعْطِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ، مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ، جَزَاءً فَضْلِهِ. أَمَّا إِنْ تَوَلَّيْتُمْ وَأَعْرَضْتُمْ عَمَّا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ الْهَوْلِ، شَدِيدِ الْبَاسِ»^(١).

من دروس الآية ٣:

- ١- البشر مظنة التقصير والوقوع في الخطأ والزلل وعلاج هذا الاستغفار.
- ٢- التوبة رجعة إلى الله، وربما يظن المخطئ أنه يفر من الله، وليس هذا مجل بحال، ولكن الحل هو في الفرار إلى الله.
- ٣- العبادة أساس السعادة، ويظن الواهمون أن الدين يضيق عليهم مسالكهم وهو إنما يسد منافذ الشر عنهم ونوافذ العدوان والأذى والحرام.

٤- المتاع الحسن يضمه هذا الدين، والمتاع أي متاع هو الذي يسعى إليه أغلب الناس من أي طريق بأي معنى لا يهم، وهذا لا يليق بإنسانية الإنسان بل ينحط به إلى درك الحيوان.

٥- لكل فرد أجل مسمى ولكل أمة شأنها شأن الأفراد أجل مسمى، والدين يضمن لك أن تمتع المتاع الحسن إلى أن يأتي الأجل الذي أجل لك حيث يبدأ المتاع الذي لا ينفد ولا ينتهي، فالدين يحقق لك أقصى مرادك في الدنيا والآخرة.

٦- حسن عرض الدين كفيل باجتناب كل الباحثين عن الحق من البشر، وسوء عرضه ينفر من هم من أهل الدين نفسه.

٧- من تولى عن دعوة الحق فالعذاب والضنك العاجل والأجل بانتظاره.

٨- البشرى للتائبين والوعيد للمتولين هما قوام الرسالة وهما عنصرا الترويح والترهيب اللذين علم الله من طبيعة البشر أنهما الحافز القوي العميق.

الآية ٤:

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَفِيرٌ ۝٤﴾

الربط والمناسبة: ختمت الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ والاحتمال الكبير أن المراد به الآخرة ويرجح هذا التفسير قوله تعالى في هذه الآية ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي في ذلك اليوم، فتكون الايتان نسقاً واحداً فصلت تاليتهما أو أخراهما ما أجملت أولاها.. على نهج ﴿أَخَذَتْ إِبْنَتُهُ ثُمَّ قُتِلَتْ﴾.

وهذه الآية (٨) كلمات و(٢٨) حرفاً وترتيبها (١٤٧٧).

المعنى: هذه الآية قسمان: أولهما: «إلى الله مرجعكم» وثانيهما: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والثاني تعليل للأول، فكيف لا يكون مرجعكم إليه وهو على كل شيء قدير؟ وهما متقاربان في عدد الحروف ١٣: ١٤.

وقدم حرف الجر ولفظ الجلالة فقال ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ للاعتناء والأهمية، فالمرجع إليه أهم من الراجع والرجوع.. فقدمه.

والمرجع: المآل والمعاد والمآب والعودة والمنقلب والمصير وقل ما تشاء في هذا المعنى.. فالرجوع قطعاً إليه سبحانه لا إلى أحد سواه. فالمرجع: مصدر ميمي بمعنى الرجوع.

وهو على كل شيء قدير: الواو عطف أو استئناف والضمير يعود إلى لفظ الجلالة في أول الآية.

وقدم ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ على كلمة ﴿قَدِيرٌ﴾ ليس مراعاة للفاصلة فحسب فهذا أمر ثانوي وإنما لإحاطة القدرة على كل شيء وهنا موضع الحديث ومعقد المعنى. وكلمة شيء مطلقة تشمل كل الممكنات بلغة المنطق.

وقدير وصيغة فعيل عموماً تفيد المبالغة كما في اللغة وليس في أسماء الله تعالى وصفاته مبالغة، وأرى أن هذه الصيغة تفيد الإحاطة والسعة والشمول.

قال ابن عاشور: «وهو على كل شيء قدير: أنسب بالمصير الدنيوي لأنه المسلّم عندهم، وأما المصير الأخروي فلو اعترفوا به لما كان هنالك قوي مقتضٍ لزيادة ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾». ولسنا مع الشيخ فيما قال.

قال الألوسي: «إليه تعالى رجوعكم بالموت ثم البعث للجزاء في مثل ذلك اليوم لا إلى غيره جميعاً لا يتخلف منكم أحد وهو على كل شيء قدير فيندرج في

تلك الكلية قدرته سبحانه على إماتتكم ثم بعثكم وجرائكم فيعذبكم بأفانين العذاب، وهذا تقرير وتأكيد لما سلف من ذكر اليوم وتعليل للخوف^(١).

من دروس الآية ٤:

- ١- المرجع إلى الله والمرد بين يديه للحساب والجزاء.
- ٢- الناس بلا عقيدة الآخرة وحوش كاسرة يأكل قويهم ضعيفهم.
- ٣- ما كرر القرآن شيئاً وأعاد فيه كما صنع في عقيدة التوحيد والبعث.
- ٤- قدرة الله تعالى تشمل كل الممكنات فهو سبحانه لا يعجزه شيء وهذه بدئية لو آمن بها الناس لانحلت كثير من العقد فالكفر بالآخرة هنا حل عقده.
- ٥- التلويع بالقدرة على كل شيء مناسب للبعث الذي كانوا يستبعدونه ويستصعبونه.

الآية ٥:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ بِصُدُورِهِمْ لَيْسْتَ تَخْفُوا مِنْهُ أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَعِشُونَ شِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَىٰ ذَاتِ النَّاصِرِينَ﴾

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن إحاطة قدرة الله على بعث الخلائق وتحدثت هذه الآية عن إحاطة علمه فتكاملت الآية بالحديث عن القدرة والعلم وهما عقدة المعنى في البعث والقيامة. وكم كلمتنا سور عن هذين الركنين المهمين للبعث، راجع مثلاً سورة ق وراجع مثلاً سورة البروج وغيرها كثير بالطبع.

وهذه الآية (١٩) كلمة و(٨٥) حرفاً وترتيبها (١٤٧٨).

(١) الألوسي، روح المعاني، ج ٦، ص ١٩٥.

المعنى: ألا إنهم يشنون صدورهم: ألا: أداة استفتاح.

إنهم يشنون صدورهم: إن واسمها وخبرها. وهذا التعبير كناية عن محاولة تخفيفهم، ومسارتهم بالحديث. فانت إذ تكلم شخصاً في أمر لا تريد أن يطلع غيره عليه تشني باتجاهه وتقترب من سمعه ثم تهمس بكلمتك.. وقد فسرت الكلمة التالية في الآية سر هذه الحركة إذ قالت: «ليستخفوا منه» وزيدت السين والتاء للمبالغة في الاستخفاء والتكتم والمسارة. وعبر بالضمير لأنه أليق، إذ ورد لفظ الجلالة في الآية السابقة ثم عبر بالضمير هو، فكان من الطبيعي عود الضمير إلى الضمير وعودهما للفظ الجلالة. ثم إنهم يستخفون منه فناسب أن يعبر بالضمير.

والذين فسروا الضمير بإعادته إلى النبي عليه الصلوات، أظن أنهم أبعدوا النجعة.. وأظن أن هذا العود أولى من ذاك أي مرجع الضمير إلى ذي الجلال سبحانه أولى. وثني الصدور: إمالتها وحنيها تشبيهاً بالطي، وهذا الكلام يحتمل الإجراء على حقيقة ألفاظه من الثني والصدور وهو تمثيل لهيئة نفسية بهيئة حسية.

ثم إنهم لا يخفون موقفهم من النبي ﷺ ومن مجاهرته بالعداء والقلب والنفور ثم إن الرسول ليس ملازماً لمجالسهم.

ألا حين يستغشون ثيابهم: هذه حركة ثانية للمسارة سوى الأولى، وهي تغطية رؤوسهم بثيابهم طلباً للكتمان والاختفاء وتغطية ما يريدون أن يقولوه ولا يريدون أن يظهروه.

وزيدت السين والتاء مرة أخرى لزيادة الاستغشاء لزيادة الاستخفاء، وعبر بثيابهم للمبالغة أيضاً في التغطية والتخفية والتعمية.

يعلم ما يسرون وما يعلنون: لا يختلف اثنان على عودة الضمير هنا إلى ذي الجلال سبحانه، فتناسق الضمائر فيما أرى أولى من تفرقها.. إذ يعود الضمير على

قول سادتنا في لفظ منه إلى الرسول ويعود الضمير في لفظ يعلم إلى الله، وأرى التوحد خيراً من التشتت. والله أعلم.

وقدم يسرون على يعلنون لأنه البق بالسياق، فالكلام كله عن المسارة فكيف يقدم يعلنون، ثم إن علم ما يسرون دليل على علم ما يعلنون فقدم الدليل على ما يدل عليه..

والإسرار: نقل الحديث بطريقة خفية متكتمة.. لكنها لا تغيب عن عالم الأسرار سبحانه.

والإعلان: التصريح بالقول والجهر به، وفي هذا قول نوح عليه السلام: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانَتْ عَفَا رًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١﴾ [نوح: ٨-١١] ^(١).

إنه عليم بذات الصدور: إنه سبحانه العليم المطلق بكل ما تحتزنه صدورهم وما يعتمل فيها وما يدور، فكيف لا يعلم ما يسرون وما يعلنون وكل ما يدور في الصدور معلوم له. والصدور: مراد بها النفوس لأن العرب يعبرون عن الحواس الباطنية بالصدر.

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعليقاً على ﴿عَلَيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: «عليم بالأسرار المصاحبة للصدور التي لا تفارقها والتي تلزمها كما يلزم صاحبها أو المالك ملكه فهي لشدة خفائها سميت ذات الصدور ومع ذلك فالله بها عليم».

قال الشيخ مخلوف: «يثنون صدورهم: يطوونها على ما يسترونه من العداوة والبغضاء، من ثنيت الثوب إذا طويته على ما فيه من الأشياء المستورة، نزلت في

(١) لاحظ التناسق بين أول هود: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ ونفسها في نوح، ثم الإعلان والإسرار بين السورتين.

الأخنس بن شريق من منافقي مكة، وكان رجلاً حلو المنطق، حسن السياق للحديث يضمم للرسول الكراهة ويطوي صدره على بغضه ويظهر له المحبة والمودة ويظن أن ذلك يخفى على الله ليستخفوا منه من الله جهلاً منهم.

ألا حين يستغشون: أي ألا حين يبالغون في الاستخفاء كمن يجعلون ثيابهم أغشية لهم حتى لا يظهر منهم شيء.

يعلم ما يسرون وما يعلنون: أي يعلم الله سرهم وعلايتهم فيجازيهم على نفاقهم، إنه عليم بذات الصدور. أ. هـ.

وأقول: نص الآية مطلق عن تشخيصه بشخص فأولى أن يظل كذلك. والله أعلم. وقوله يظهر المودة أرى أنه غير وارد، وقوله نفاقهم غير وارد في مكة النفاق. قال الزخشري: «يثنون صدورهم: يتوارون عن الحق وينحرفون عنه لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدوره، ومن أوزر عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشح». أ. هـ.

قال ابن قتيبة: «يُثْنُونَ صُدُورَهُمْ: أي يطوون ما فيها ويسترونه لِيَسْتَخْفُوا بذلك من الله. ألا حين يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ أي يستترون بها ويتغشونها»^(١).

من دروس الآية ٥:

١- على تفسير الآية بأن إسرارهم كان تخفياً عن الله فهو يدل على جهل مطلق مطبق بالله، وإن فسرنا الآية بأن التخفي عن رسول الله فهو كذلك لأن الله سيعلمه.

٢- القرآن بكلماته المعجزة ينقل خلجات الأنفس وحركات الجسد ونوايا القلوب ومكنونات الصدور.

(١) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص ١٧٥.

- ٣- علم الله مطلق لا تخفى عليه خافية، وهذا الاعتقاد لصالح العباد فلو غاب عن علم الله شيء، وحاشا، لفاتهم كثير من أجور نواياهم الحسنة.
- ٤- حسن الاعتقاد في الله يقوّم السلوك والتصرف.

الآية ٦:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي

كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾

الربط والمناسبة: كانت الآية السابقة تتحدث عن علم الله عز وجل وأنه لا يخفى عليه شيء وهذه الآية تكمل ما جلته تلك وتزيد عليه، أما أنها تؤكد في قول الآية: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ تميم لقوله تعالى هناك: ﴿يَعْلَمُ مَا تُيْرُوكَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وزادت هنا توزيع الأرزاق على كل الموجودات، وهذا مرتبط بالعلم والقدرة والغنى والكرم بالطبع، وختمت الآية بتأكيد العلم وكأنه ختام للآيتين معاً لا لإحداهما فقط و﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فكل ما يعلمه الله بعلمه المطلق مسجل في الكتاب المبين، فالآيتان نسق وأي نسق!

وهذه الآية (١٦) كلمة و(٦٣) حرفاً وترتيبها (١٤٧٩).

المعنى: وما من دابة في الأرض: الواو للاستئناف أو للعطف.

وما: نافية، ومن: يقولون في النحو إنها مزيدة للتأكيد وليس من مزيد في القرآن المجيد، وكان ﴿مِنْ﴾ هذه أحاطت بها وأحصتها واحدة واحدة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾ وكقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ...﴾ والشواهد كثيرة. دابة: كل ما يدب على الأرض من عاقل أو غير عاقل.. وأياً كانت طريقة ديبه.. مشياً على رجلين أو زحفاً على البطن، أو مشياً على أربع أو أياً كان.

في الأرض: عبر بفي لإفادة احتواء الأرض لهم وتمكنهم فيها وكأنها وعاء لهم يحفظهم ويحتويهم، وهي كذلك ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِنَانًا ﴿١٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

إلا على الله رزقها: ما النافية وإلا الاستثنائية تفيد الحصر والقصر وهو حصر حقيقي لا إضافي بالقطع، فما من رازق إلا الله.

وقدم ﴿عَلَىٰ اللَّهِ﴾ على ﴿رِزْقَهَا﴾ للأهمية، فالبدء بمصدر الرزق أهم من الرزق قطعاً.

ويعلم مستقرها ومستودعها: الرزق يحتاج إلى قدرة وعلم، فلو ملك القدرة ولم يملك العلم لم يوصل الرزق لمستحقه، ولكن تأمل فقد بدأ بالقدرة على الرزق وثنى بالعلم، وذكر حالين من أحوال المخلوقات تشملان كل الأحوال، فالمستقر والمستودع اختصرت كل الأماكن وكل الأوضاع.

كل في كتاب مبين: كل الشؤون ما ذكر وما لم يذكر مسجل مقيد مسطور في الكتاب المبين أو اللوح المحفوظ والمبين الواضح الموضح.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «قد أوجب الله سبحانه على نفسه مختاراً أن يرزق هذا الحشد الهائل الذي يدب على هذه الأرض فأودع هذه الأرض القدرة

على تلبية حاجات هذه المخلوقات جميعاً وأودع هذه المخلوقات القدرة على الحصول على رزقها من هذا المودع في الأرض».

قال البيضاوي رحمه الله: «وكانه أريد بالآية بيان كونه عالماً بالمعلومات كلها، وبما بعدها بيان كونه قادراً على الممكنات بأسرها، تقريراً للتوحيد، وبياناً لما سبق من الوعد والوعيد».

قال الشيخ العلامة حسنين مخلوف: «وما من دابة: بيان لإحاطة علمه بكل شيء، ويعلم مستقرها: موضع قرارها في الأصلاب (قلت: والنص أعم) ومستودعها: موضع استيداعها في الأرحام وما جرى مجراها من البيض ونحوه. (قلت: ومستودعها أعم كذلك فالاستيداع في الأرض بعد الموت صورة من صور الاستيداع)».

قال ابن عاشور: «على الله رزقها: معنى أن الله تكفل برزقها ولم يهمله لأن «على» تدل على اللزوم والمحاقية، ومعلوم أن الله لا يلزمه أحد شيئاً، فما أفاد معنى اللزوم. فإنما هو التزامه بنفسه بمقتضى صفاته المقتضية ذلك كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَعَدَّا عَلَيْنَا﴾ [الأنبياء] ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ [يونس].

قال العاني: «اسم لكل حيوان دبّ على وجه الأرض أي مشى عليها، ويطلق على ذوات الأربع عرفاً، والمراد هنا ما هو عام للإنسان وغيره «إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا» تفضلاً منه وتكرماً لا واجباً «وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا» وبقائها في عالم الشهادة، ومقدار ثباتها فيه وانفكاكها عنه، ومكانها ومسكنها، ومحل وكرها الذي تأوي إليه في الأرض والبحار والجبال والهواء وغيرها، «وَمُسْتَوْدَعُهَا» قبل خروجها إلى عالم

الظهور وقبل استقرارها في الأصلاب والأرحام والبيوض وغيرها، وبعد انعدامها من المحلات التي تدفن فيها أو تضمحل بها»^(١).

من دروس الآية ٦:

- ١- كل موجودات الأرض تحتاج إلى رزق، وكلها رزقها على الله الرزاق.
- ٢- الرزق يحتاج أمرين: القدرة والعلم وهما لله مطلقاً لا ينازعه ولا يشاركه أحد فيهما.
- ٣- الكتاب المحفوظ المبين لا تصله يد فتغير فيه كما يحصل في كتب البشر ومدوناتهم ووثائقهم ومحفوظاتهم، فتضيع الحقيقة.
- ٤- لا يقعدن أحد عن السعي وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.

الآية ٧:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُكُمْ مِنْ (٧)﴾

الربط والمناسبة: عرفنا الآية السابقة من مظاهر قدرة الله على أنه هو يرزق العباد ويعلم كل نفس مستقرها ومستودعها وأنه سجل كل شيء في الكتاب المحفوظ المبين، وأما في هذه الآية فبين من مظاهر قدرته خلق السماوات والأرض، وهو أدل الدلائل على الله وقدرته.

وهذه الآية (٣١) كلمة و(١٢٥) حرفاً وتسلسلها (١٤٨٠).

(١) العاني، بيان المعاني، ج ١، ص ٩٣ - ص ٩٤.

المعنى: وهو الذي خلق السماوات والأرض: الواو للعطف عطف موضوع من دلائل قدرته على موضوع، أو الواو للاستئناف.

هو: أي لا أحد سواه، والضمير عائد على لفظ الجلالة في الآية السابقة.

الذي: الاسم الموصول لا ينفصل عن صلته، فإذا قلت الذي فأنت تريد أن تحدد حيثية معينة للحديث، فالله تعالى يمكن أن نتحدث من مظاهر قدرته على ما لا يحصى من الحثيات، فهنا اختار أن يتحدث النص الكريم عن الخلق فقال ﴿الَّذِي﴾ ثم أردفها بصلة الموصول وهي الخلق فقال: «خلق السماوات والأرض».

والخلق: الإيجاد من العدم، والخلق أدل الدلائل على الإله وتوحيده. ولذا فإن المادية الإلحادية حاربت عقيدة الخلق بعقيدة التطور Creation & evolution ونظرية التطور أيديولوجيا وفلسفة وليست علماً لكنهم ألبسوها ثوب العلم ليلبسوا بها على الناس ويخرجوهم من دين الله.

والكلام في هذا يطول.

في ستة أيام: الله يخلق بكن فلم الستة أيام؟ لا علم إلا عند الله، ونؤمن ونقر بما جاء في الكتاب العزيز، إنما كان السؤال عن الحكمة!

ولقد فصلت سورة فصلت هذه الأيام فقالت: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ثم قالت: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسًا مِنْ قَوِّهَا وَكَرَّهَا فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَفْوَاجًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ... ﴿فَالْأَرْضُ الَّتِي هِيَ هَبَاءٌ فِي حَجْمِ الْكُونِ وامتداداته تستغرق أربعة أيام من الستة أيام، والسماوات على اتساعها الهائل الذي يقاس - فيما يعلم البشر - بمئات بلايين السنين الضوئية في يومين.. ولو شاء الله لم يخبرنا بكل هذا فهو بالنسبة لنا غيب نؤمن به، يقيناً، ونحاول البحث عن حكمته، فإن توصلنا إلى شيء فيها

ونعمت، وإن لم نتوصل إلى شيء فيستمر اليقين بحكمة الباري في كل ما فطر وخلق وسوى، سبحانه.

وقد ورد خلق السماوات والأرض ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ سبع مرات بدءاً من السورة رقم ٧ وهي الأعراف وانتهاء بالسورة رقم ٥٧ وهي الحديد.

وهذه هي المواطن: الأعراف آية ٥٤ ويونس ٣ وهود ٧ والفرقان ٥٩ والسجدة ٤ وق ٣٨ والحديد ٤.

وهل هي أيام بأيامنا المعهودة أم بالأيام التي قال الله عنها ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ أو ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؟ لا علم قطعياً عندنا. وإن كان الأرجح ما دامت لم تقترن بما يخرجها عن مألوفنا أن تكون كأيامنا والله أعلم.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: هذه معلومة غيبية نؤمن بها ونوقن ولا نعلم كيف وليس مطلوباً منا بالطبع، والماء له أحوال: البخار (وهي دخان) أو الماء المألوف في درجة السيولة، أو الماء في صورة ثلج أو جليد، فهذه حالات كلها ماء، وأيضاً نقول: الله أعلم، وإن كان المتبادر أنه الماء في حالته المعهودة.

ولماذا نخبرنا مولانا بهذه الحقيقة؟ والجواب أن الإيمان بالغيب مطلوب منا، ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

فالله يمتحن عباده بالإيمان بالغيب، والتصديق بعالم الشهادة يستوي فيه العالم والجاهل، والمؤمن والكافر والإنسان والدواب.. فلا فضل فيه.

ولما الفضل والتميز في إيمانك بالغيب، وفيه تجلي إنسانية الإنسان وارتقاء روحه بهذا الإيمان، وقد كشفت الكلمة التالية لهذه الكلمة التي نتحدث عنها كشفت سر هذا الإخبار إذ قال تعالى: ﴿يَبْلُوكُمْ بِإِيمَانِكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولن يكون

العمل الأحسن إلا عن إيمان وتصديق بالغيب. والابتلاء: أي اختبار شيء لتحصيل علم بأحواله.

فطلب منا الإتيان بقاعدة العمل وهي الإيمان قبل العمل.

ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت: انتقل من الإيمان بالله تعالى، وعرشه، إلى الإيمان باليوم الآخر، وهو ثاني أعظم عقائد هذا الدين، وهو الذي يعطي لسايرها الجدية، وإلا فإن كفار مكة كانوا يؤمنون بالله، وسجل القرآن هذا، لكنهم أبداً لا يقبلون الإيمان بالآخرة، مثلهم مثل الطالب الذي يريد أن يدرس في الجامعة ولا يقدم الامتحانات بل لا يؤمن بفكرتها أصلاً، فالإيمان بهذه الطريقة راحة بلا تكاليف، وهذا ما لن يكون.

الموت هو انتهاء الحياة بجمود حرارة البدن وبطلان حركته وموت القلب قسوته فلا يتأثر بالمواعظ ولا يستفيع بالنصائح.

ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين: واللام الأولى التي في ﴿وَلَيْنَ﴾ هي لام القسم أو الموطئة للقسم، وهذه اللام هنا في ﴿يَقُولُونَ﴾ هي الواقعة في جواب القسم. والنون المشددة كذلك واقعة في الجواب وتعطي التأكيد.

والاسم الموصول ﴿الَّذِينَ﴾ لاستحضار صلته وهي ﴿كَفَرُوا﴾ ليسجل عليهم الكفر بالموصول وصلته.

ماذا كان قولهم؟ كان بالحصر من خلال النفي في كلمة ﴿إِنَّ﴾ وأداة الاستثناء ﴿إِلَّا﴾ والحصر يفيد التأكيد الشديد بحيث إنه لا احتمال آخر.

ووصفُ السحر بالمبين للتدليل بزعمهم على ظهوره ووضوحه وعدم التردد في ذلك، فهو أوضح من أن يختلف فيه أو عليه، بزعمهم.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «وكما جهز الخالق هذه الأرض وهذه السماوات بما يصلح لحياة هذا الجنس، جهز هذا الجنس كذلك باستعدادات وطاقات وبني فطرته على ذات القانون الذي يحكم الكون، وترك له جانباً اختيارياً في حياته يملك معه أن يتجه إلى الهدى فيهديه أو أن يتجه إلى الضلال فيمد له فيه».

قال الزمخشري: «أيكم أحسن عملاً: أعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن، فأما أعمال الكافرين والمؤمنين فتفاوتها إلى حسن وقبيح. قلت: الذين هم أحسن عملاً هم: المتقون وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض الله من عباده فخصهم بالذكر واطرح ذكر من وراءهم تشریفاً لهم وتنبيهاً على مكانهم منه وليكون ذلك لطفاً للسامعين وترغيباً في حياة فضلهم».

قال الشيخ حسنين مخلوف رحمه الله: «وكان عرشه على الماء: أي ليس تحت عرشه غير الماء قبل خلق السماوات والأرض، ليبلوكم: أي خلق السماوات والأرض وما فيهما الذي منه أنتم، ورتب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من مبادئ وجودكم وأسباب معاشكم، ليعاملكم معاملة من يختبركم، ليميز المحسن من المسيء، والمطيع من العاصي، ويظهر للناس حاله في الدنيا ويوم الحساب، ويجري حكم القضاء الإلهي في أمره على حسب ما يظهر من حاله (أي الإنسان المحسن والمسيء) أيكم أحسن عملاً: أي بطاعة الله.. وأورع عن محارمه.. فيجازيكم على أعمالكم. أ. هـ».

قال بعض العلماء: «وفي خلق جميع الأشياء وجعلها على الماء ما يدل على كمال القدرة، لأن البناء الضعيف إذا لم يكن له أساس على أرض صلبة لم يثبت فكيف بهذا الخلق العظيم؟!».

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء» أخرجه مسلم، عن الدرة: القرآن الكريم بيانه وإعراجه.

قال الطبري: «أفيعجز من خلق ذلك من غير شيء أن يعيدكم أحياء بعد أن يميتكم؟»^(١).

وقال السعدي: «كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ: فوق السماء السابعة. فبعد أن خلق السماوات والأرض استوى عليه، يدبر الأمور، ويصرفها كيف شاء من الأحكام القدريّة، والأحكام الشرعيّة. ولهذا قال: لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا أي: ليمتحنكم، إذ خلق لكم ما في السماوات والأرض بأمره ونهيه، فينظر أيكم أحسن عملاً. قال الفضيل بن عياض رحمه الله: أخلصه وأصوبه قيل يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟. فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً، لم يقبل. وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متبعا فيه الشرع والسنة... فالله تعالى خلق الخلق لعبادته ومعرفته بأسمائه وصفاته، وأمرهم بذلك، فمن انقاد، وأدى ما أمر به، فهو من المفلحين، ومن أعرض عن ذلك، فأولئك هم الخاسرون، ولا بد أن يجمعهم في دار يجازيهم فيها على ما أمرهم به ونهاهم. ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء»^(٢).

من دروس الآية ٧:

١- الإيمان بالغيب هو الدين.

٢- وضحت الآيات غاية الإيمان بالغيب وهي ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

(١) الطبري، جامع البيان، ج ١٥، ص ٢٤٤.

(٢) تفسير السعدي، ص ٣٧٧.

٣- الإيمان بالغيب أساس الدين.

٤- المستهترون يريدون دنيا بلا عمل ولا حساب، ولذلك يرفضون عقيدة البعث والقيامة.

٥- يضل الإنسان نفسه إذ يقطع بما يجهل ويستخدم التأكيد على ما لا يعلم وذلك قولهم لعقيدة البعث ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّيْنٌ﴾.

٦- خلق الأرض في ستة أيام واحد من أوجه حكمها أن نعلم أن التدرج سنة الكون.

٧- النظريات العلمية قابلة للانقلاب رأساً على عقب والقرآن هو الأصل والنظريات العلمية توافقه أو تخالفه سواء.

الآية ٨:

﴿وَلَيْنَ آخَرًا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِنَّكَ أَنْتَ مَعْدُودٌ لِّقَوْلِكَ مَا بِحِسِّهِ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾

الربط والمناسبة: بين في الآية السابقة إنكار الكافرين لعقيدة البعث بعد الموت، ووصفهم لهذا بأنه ﴿سِحْرٌ مُّيْنٌ﴾ وبين في هذه الآية استحقاقهم بهذا الكفر للعذاب، وما يؤخره عنهم إلا أنني ضريت أجلاً لكل شيء، فإذا جاء أجلهم أي وقت عذابهم ونزل بهم فلن يصرفه عنهم صارف، فهي دعوة مجددة للإيمان وإلا نزل بهم العذاب والهوان، هذا وجه ووجه ثان لفظي أن ختام الآية السابقة كان ﴿وَلَيْنَ قُلْتُ...﴾ وافتتحت هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَلَيْنَ آخَرًا...﴾ وثالثاً هم قالوا

عن الإيمان بالآخرة ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فهذا سخر واستهزاء وسينزل بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

وهذه الآية (٢٢) كلمة و(٩٣) حرفاً وترتيبها (١٤٨١).

المعنى: ولئن: الواو للاستئناف أرجح وللعطف موضوعاً على موضوع تجوز، واللام هي الموطئة للقسم، وإن شرطية، فتأمل الإيجاز!

أخبرنا عنهم العذاب: الأجلال إذا جاءت لا تتأخر ولا تتقدم، ولكنه قال هنا ﴿أَخْرَجْنَا﴾ واعتقد أنها بمعنى لم نعجل لهم العقوبة والعذاب على كفرهم.. والمقصود أن الذنب أو الكفر لو اقترن بعقابه مباشرة لما أعطي البشر فرصة للمراجعة، والمرادة والمحاورة والإقناع.. وإذا ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَخْرِجُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١] ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥]، فالتأخير في الخلاصة ترك مهلة بين الفعل والعقاب بحيث سمي هذا تأخيراً بهذا المعنى^(١).

وقدم عنهم على العذاب للأهمية إذ هو معقد المعنى وهو إمهالهم بلطف الله ورحمته وعدم تعجيله العذاب.

إلى أمة معدودة: يعبر القرآن عن الزمان في بعض الأحيان بالأمة أي بالمظروفين في هذا الزمان والمشمولين والموجودين وإن شئت قلت المأسورين في هذا الزمان أو المنظرين هذا الزمان.. فعبر بالمظروف وأراد الظرف، وأحياناً يعبر بالظرف ويريد

(١) أرجو ملاحظة أن آية هود في فواتح السورة وآية النحل في أواسطها وآية فاطر هي آية الختام للسورة وختام موضوع الترك في القرآن في موضوعنا، ولاحظ أن المواطن الثلاثة ذكرت التأخير وهو بالمعنى الذي بينا بحيث أنه ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَخْرِجُونَ﴾.

المظروف، ويجوز أن ينصرف الذهن بالمعنى إلى الأمة بالمعنى الحقيقي أي تنشأ في هذا الزمن أمة وتستحدث أناس وكل ذلك محتمل، أما نظير هذا التعبير الذي الحنا إليه في أول معنى هذا الجزء من الآية فقد جاء في سورة يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ...﴾ أي بعد هذه السنين التي قضاها يوسف في السجن.. أو كما قلنا إن أمة نشأت في هذا الزمن والأول أوجه وأولى..

فالأمة إذاً هي السنوات أو الأجل أو المهلة أو العمر أو الفترة المسموح بها لبقائهم، وإن شئت - في وجه ثالث - قدرت مضافاً محذوفاً، أي أجل أمة وهو أضعفها والأول أليقها وأقواها وأولاها كما سبق. ومعدودة أي محدودة قصيرة مهما بلغت فهي في عمر الزمان والكون كلا شيء، وهي مع كر الليالي تنقضي مثل لمح البصر، واختلاف النهار والليل ييليان كل جديد ويخلقان العمر كما تخلق الثياب وتبلى، فما تشعر بالأيام كيف انقضت ومضت، ولو راجع كل منا عمره لاستشعر أنه خطفة برقت أو ومضة لمعت ثم انطفأت أو زهرة تفتحت ثم ذوت.. أو طرفة عين ثم أغلقت.. ألا ما أسرع انقضاء الزمان وتقلته من البنان كالممسك الماء أو الريح فانتبه أيها الإنسان!

ليقولن ما يحبس: اللام واقعة في جواب القسم، وأما قائلو القول فهم من تأخر عنهم العذاب، وأما باعث القول فهو الاستهزاء والاستخفاف وعدم التصديق والغرارة والسذاجة والجهل، أبا جالكم وهي أعلى ما تملكون تقامرون؟! ألا تفترضون لمجرد الاحتمال ولو بنسبة ضئيلة أن الكلام حق فلم لا تتخذون الحيلة؟! عجب هذا الإنسان! لو شك للحظة أن العملة ستتنخفض لسارع بتغييرها وما أمسكه شيء ولعقب على هذا: إنه الاحتياط وهو واجب، ولم نقامر بالرصيد؟ فما أنت تقامر بأعلى رصيد وأثمن من كل ذهب الأرض إنه عمرك وإنه مصيرك..

ومرة أخرى عجيب هذا الإنسان كيف عطل أغلى الجواهر العقل والروح والفترة ولم يتركها لتكون هاديه إلى الله ورائده إلى مرضاته والنجاة.

ما: استفهامية، وقلنا معنى الاستفهام وأنه الإنكار، يحبس: يمنعه ويؤخره.

إن ما يستدعي أعظم الشكر قاد من عطل ملكاته إلى أعتى درجات الكفر.

قال ابن عاشور: «والحبس: إلزام الشيء مكاناً لا يتجاوزه. ولذلك يستعمل في معنى المنع كما هنا، أي ما يمنع أن يصل إلينا ويحل بنا وهم يريدون التهكم».

الا يوم يأتيهم: ألا: أداة استفتاح مهمتها جلب الانتباه والاهتمام وقلنا مراراً إنها مفضلة عند العرب في افتتاح الكلام شعراً ونثراً.. وها هي في تاج بلاغة لغة العرب: القرآن ها هي تستخدم^(١).

يوم: ظرف للإتيان المذكور بعدها.

يأتيهم: فعل وفاعل هو العذاب ضمير مستتر لكنه في الذهن مقرر حاضر وفي الواقع نازل قاهر، وأما الضمير «هم» فهو الكافرون الواقعون في العذاب والواقع بهم العذاب والغارقون في الغم والهم! والضمير هم مفعول به.

وعبر بالإتيان المفيد البعد إما لتصورهم بعده، وإما للإلماح إلى سعة حلم الله وأنه الصبور فقد أمهلهم الوقت الكافي، كما قال: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا...﴾.

(١) وقد افتتح بها عدة آيات في سورة يونس انظر مثلاً ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [٥٥]، ﴿أَلَا

إِنَّ أَوَّلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [٦٢]، ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [٦٦].

ليس مصروفاً عنهم: إذا وقع بهم لا يدفعه ولا يرفعه ولا يصرفه عنهم أحد ولا شيء ولا شركاؤهم الذين يزعمونهم وهم من الوهم. والصرف: الدفع والإقصاء.

ولاحظ تكرار ﴿عَنَّهُمْ﴾ في أول الآية وأواخرها، ولاحظ أنه قدم ﴿عَنَّهُمْ﴾ عن ﴿أَخْرَأَ﴾ و﴿أَخْرَأَ عَنَّهُمْ﴾ عن ﴿مَصْرُوفًا﴾.. للاهتمام في كل وكل بما يناسبه فالحهم الصرف الآن لا ﴿عَنَّهُمْ﴾.. وكان المهم ﴿عَنَّهُمْ﴾ في أول الكلام لا التأجيل مجد ذاته.

وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون: حاق: حل ونزل وأحاط، وبهم للملابسة والإلصاق وما موصوله بمعنى الذي، وعبر بكانوا لتفيد قدم هذا الأمر فيهم ورسوخهم عليه واستمرارهم واستقراره في أخلاذهم.. وقدم ﴿بِهِ﴾ على ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ للاهمية.. فالعذاب الذي كانوا به يستهزئون نزل بهم الآن.

وقد تكررت هذه الكلمة ﴿وَحَاقَ﴾ ٩ مرات في القرآن ٨ منها ختمت بمثل ختام آيتنا هذه ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. والحق: الإحاطة.

والمعنى أنه حال بهم حلولاً لا مخلص منه بحال.

والموضع الأول في الأنعام وهذا الثاني. والأخير في الأحقاف.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَأَ...﴾ ونا هذه تسمى نون العظمة وليست دالة على الجماعة كما يزعم الكافرون والملاحدون، فالله تعالى لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وكثيراً ما يتكلم به العبد فيقول: أخذنا وأعطينا وليس معه أحد.

قال مخلوف: «أمة معدودة: طائفة من الأيام معلومة أو قليلة، وحق بهم: أي احاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه استهزاء. أ. هـ».

قال الزخشري: «ما كانوا به يستهزون: العذاب الذي كانوا به يستعجلون وإنما وضع يستهزون موضع يستعجلون لأن استعجالهم كان على وجه الاستهزاء. والمعنى: ويحق بهم إلا أنه جاء على عادة الله في إخباره».

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم يكذبون الرسول ﷺ بقولهم: إن هذا إلا سحر مبين فحكى عنهم في هذه الآية نوعاً آخر من أباطيلهم وهو أنه متى تأخر عنهم العذاب الذي توعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم به أخذوا في الاستهزاء ويقولون: ما السبب الذي حبسه عنا؟ فأجاب الله تعالى بأنه إذا جاء الوقت الذي عيئه الله لنزول ذلك العذاب الذي كانوا يستهزون به لم ينصرف ذلك العذاب عنهم وأحاط بهم ذلك العذاب... [ثم قال]: السؤال الثاني: ما المراد بقوله: إلى أمة معدودة».

الجواب من وجهين: الأول: أن الأصل في الأمة هم الناس والفرقة فإذا قلت: جاءني أمة من الناس. فالمراد طائفة مجتمعة قال تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْتَفْهِمُونَ﴾ [الفصل: ٢٣] وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أي بعد انقضاء أمة وفنائها فكذا هاهنا قوله: ﴿وَلَكِنِ آخَرَنَا عَنْهُمْ الْعَذَابُ إِلَآ أُمَّةٌ مَّعْدُودَةٌ﴾ أي إلى حين تنقضي أمة من الناس انقضت بعد هذا الوعيد بالقول، لقالوا ماذا يحبسه عنا وقد انقض من الناس الذين كانوا متوعدين بهذا الوعيد؟ وتسمية الشيء باسم ما يحصل فيه كقولك: كنت عند فلان صلاة العصر، أي في ذلك الحين. الثاني: أن

اشْتِقَاقُ الْأَمَّةِ مِنَ الْأَمِّ، وَهُوَ الْقَصْدُ، كَأَنَّهُ يُعْنِي الْوَقْتَ الْمَقْصُودَ بِإِقَاعِ هَذَا الْمَوْعُودِ فِيهِ»^(١).

من دروس الآية ٨:

- ١- كم غريب أن تقود رحمة الله الناس إلى التجرؤ على الاستخفاف بعذابه.
- ٢- من رحمة الله أنه لم يجعل العذاب مقترناً بلحظة المعصية أو الكفر أو التصريح بالاستهزاء.. بل أخر العقاب وأعطى فسحة.
- ٣- إذا جاء الأجل المضروب للعذاب فلا صارف له.
- ٤- الذين يستهزئون بالعذاب سينزل بهم ويحيط بهم إحاطة ذلك العذاب الذي كانوا به يستهزئون!
- ٥- لا جدوى من التصديق خارج الوقت الذي ينفع الناس فيه التصديق، كطالب تذكر الإجابة بعد الخروج من قاعة الامتحان فلا ينفعه تذكره حيثئذ ولا يسمح له بالعودة إلى قاعة الامتحان.
- ٦- أعظم مهدور هو العمر وفسحة الأجل ومهلة الوقت.
- ٧- إن عذاب الله لا تستعجله نفس مؤمنة ولا نفس جادة، وإذا ما أبطأ فهي حكمة ورحمة ليؤمن من يتهاى للإيمان.

الآية ٩:

﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ ﴿٩﴾﴾

الربط والمناسبة: كانت الآية السابقة والتي قبلها تحدثان عن استحقاق الكافرين للعذاب وأن عدم نزوله بهم ليس عن عدم استحقاق بل بسبب لطف الله بعباده ورحمته بإمهالهم، وتكلم في هذه الآية عن إذاقتهم الرحمة بدل إنزال العذاب، مزيد تلطف منه، ومنهم مزيد إعراض، وهم الفقراء وهو الغني، ثم من ناحية أخرى فإن في الآية بيان طبيعة هذا الإنسان فالحديث متسق من وجوه.

وهذه الآية (١١) كلمة و(٤٥) حرفاً وترتيبها (١٤٨٢).

المعنى: ولئن أذقنا الإنسان: الواو للاستئناف ماضية، للتعطف قابلة، واللام كما مر موطنه وملمحة إلى القسم وإن هي الشرطية. أو عبر بالذوق وهو مفيد القلة لأن الدنيا كلها كأنها ذوق الطعام على رأس اللسان، فكل سرائها وضرائها ونعمائها وبأسائها كأنها ذوق طعام، أو حلم في منام.

والإذاقة مستعملة في إيصال الإدراك على وجه المجاز.

والإنسان مطلق وليس مقصوداً بها كما تقول بعض التفاسير أنه الإنسان الكافر بل الإنسان على العموم، ويمكن استثناء الإنسان المؤمن، أقصد إلى القول أن الآية تتكلم عن طبائع قارة وسمات ثابتة وخصائص متجدرة، وشنشات عتيقة عريقة.. وليست عوارض تاركة مفارقة، بل هي رواسخ ما لها نواسخ، إلا بالإيمان.. وأي إيمان؟! إنه الإيمان المتغلغل في الكيان والواصل أعماق الوجدان..

فهذا الذي يهذب وينسخ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١١﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ

مَنُوعًا ﴿١٣﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿١٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿١٦﴾

لِّلنَّاسِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٥٥﴾ وَالَّذِينَ يُصْرِفُونَ يَوْمَ الْبَيْنِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ... ﴿٥٩﴾

وأكملت الآية تعديد صفاتهم من رعاية الأمانة والقيام بالشهادة وختمت بما ابتدأت به من إقامة الصلاة والمحافظة عليها.

منا رحمة: قدم منا على رحمة للاهتمام، فهي عظيمة لأنها منه سبحانه، ونكر رحمة إما لإفادة إطلاقها مطلقاً رحمة، أو لتعظيمها وتكثيرها أي رحمة عظيمة كثيرة واسعة.

وكل الاحتمالات مستقيمة سليمة صحيحة ولا تتناقض، فالإنسان تبطره الرحمة فمن أوتي ثراء قليلاً بطر على قدر ما أعطي، ومن أعطي ثراء واسعاً بطر على قدر سعة ثرائه، فالبطر قاسم مشترك بين البشر، إلا من آمن وشكر.

ثم نزعناها منه: أي بمعصيته وبطره وأشره وكبره، وعبر بالنزع لشدته ومن هنا قال: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا﴾.

ولم ترد نزعناها في القرآن كله إلا هنا.

وليست هذه الكلمة الشديدة إلا عن جريمة نكراء وفعله شنعاء فالله الصبور الرشيد اللطيف الرحيم الودود لا ينزع من يد العبد شيئاً أعطاه إلا إذا تجاوز العبد المدى^(١).

(١) لاحظ بعض تعبيرات نزع في القرآن سوى والنازعات: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ﴾ [الأعراف:

٤٣، والحجر: ٤٧] ﴿وَنَبِّئِ الْكَلْبَ﴾ [آل عمران: ٦٦] ﴿نَبِّئِ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَفْعَاءُ غَلِيٌّ مُّثْقَرٌ﴾ [القمر: ٢٠]

﴿ثُمَّ لَنَزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَشَدَّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ [مريم: ٦٩] ﴿وَلَا تَنْزِعُوا﴾ ﴿وَتَنْزِعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾

إلى آخر الآيات.

منه: خلصناها من بين يديه.. واقتلعناها من وجوده وحياته، وبقي محروماً منها متحسراً عليها متأسفاً.. بعد أن كانت له، فقد بانت الآن منه.

إنه ليؤوس كفور: إعطاؤه النعمة أبطره ونزعها منه أكفره، فما الحل معه؟ وعبر بأن المفيدة أشد التوكيد مع اللام المرحقة في خبرها، لمزيد التوكيد ووصف بوصفين فعول فعول: يؤوس كفور وهما من صيغ المبالغة المفيدة القوة في الشيء كجهول وكنود ومنوع.. إلخ.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إنها صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر الذي يعيش في لحظته الحاضرة، فلا يتذكر ما مضى ولا يفكر فيما يلي فهو يؤوس من الخير كفور بالنعمة بمجرد أن تنتزع منه، مع أنها كانت هبة من الله له، وهو فرح بطر بمجرد أن يجاوز الشدة إلى الرخاء».

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «الكفر ستر الحق بالجهود والإنكار وكفر فلان النعمة يكفرها كفوراً وكفوراً وكفراناً، إذا جحدتها وأنكرها، وكفر الشيء عطاءه وستره، وسمي الزارع كافراً لأنه يلقي البذر في الأرض ويغطيه بالتراب».

قال تعالى: ﴿كَمْثَلْغَيْثٍ أَحْبَبَ الْكُفَّارَ بَيَّأْتُهُ﴾.

وسمي الليل كافراً لأنه يستر كل شيء بظلمته.

قال لبيد بن ربيعة الصحابي رضي الله عنه في معلقته:

حتى إذا ألفت لدأ في كافِرٍ وأجنّ عورات الثغور ظلامُها

قال خلوف: «إنه ليؤوس كفور: أي لشديد اليأس من أن يعود إليه مثل ما سلب منه.. كثير الكفران لما سلف له التقلب فيه من النعم، يقال: يش من الشيء يئس إذا قنط منه. أ. ه».

قال ابن عاشور: «اليؤوس الكفور: مثالا مبالغة في الآيس وكافر النعمة، أي جاحدها، والمراد بالكفور: منكر نعمة الله لأنه تصدر منه أقوال وخواطر من السخط على ما انتابه كأنه لم ينعم عليه قط».

قال السمرقندي: «أصبنا الإنسان مِتًّا رَحْمَةً، يعني: نعمة وخيراً وعافية ثم نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْسٌ كَفُورٌ يعني: آيس من رحمة الله، كفور بنعم الله تعالى. ثم قال: وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ يعني: أعطيناه خيراً وعافية وسعة في الرزق بعدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ يعني: أصابته لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي يعني: فلا يشكر الله تعالى... إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ يعني: بطراً فرحاً بما أعطاه الله تعالى، وهو الطغيان في النعمة، فَخُورٌ في نعم الله تعالى، ومتكبر على الناس. ثم استثنى، فقال تعالى: إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا، وهم المؤمنون... إِذَا ابْتَلُوا صَبَرُوا وَإِذَا أُعْطُوا شَكَرُوا»^(١).

من دروس الآية ٩:

- ١ - كم نكرر عجيب هذا الإنسان كيف لا يصلحه حال لا الرحمة تجلبه ولا نزعها يقربه بل كلاهما يباعده.
- ٢ - قد يفسد الشيء حال شخص لكن النقيض قد يصلحه أما أن يفسده الشيء ونقيضه فهذا أعجب العجب.
- ٣ - اليأس من رحمة الله مع المصاب الذي يقع بالإنسان جراء فعله من أشد ما يقع من الإنسان.. ويقع به.
- ٤ - واليأس والكفر قرينان كما في هذه الآية وكما في آية يوسف، ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

٥- المعصية خطيرة واليأس من عفو الله ومغفرته بعد المعصية أخطر من المعصية.

٦- دوام الحال محال، فوطن نفسك على تقلب الأحوال.

٧- المؤمن مع الرضا عن الله لا يفارقه بحال مهما تبدلت الأحوال.

الآية ١٠:

﴿وَلَيْنَ أَذَقْتُهُ نِعْمًا بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ

فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾

الربط والمناسبة: هذه ثالث آية مفتحة بقوله تعالى ﴿وَلَيْنَ﴾ فهي من هذه الناحية نسق، وهي نسق تام مع سابقتها التي أولها: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ وعطف هذه بضمير الإنسان: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْتُهُ﴾.

وتكلمت السابقة عن رحمة جاء بعدها نزع، وتكلمت هذه عن نعماء بعد ضراء، فالآيتان نسق متسق متصل.

وهذه الآية (١٣) كلمة و(٥٥) حرفاً وترتيبها (١٤٨٣).

المعنى: ولئن أذقناه: الواو عطف على لئن أذقناه السابقة، واللام للقسم وإن شرطية والفعل فعل الشرط، وهو الفعل ﴿أَذَقْتُهُ﴾ وهو فعل وفاعل ومفعول به في كلمة واحدة.

نعماء: نعمة، أو أي عطاء إلهي، من رزق، أو عافية أو مركز...

بعد ضراء مسته: والماء على عطش الذئ، والنعماء بعد ضراء أوقع وأجل وأنفع وأمتع.

ولاحظ أن الكلمات ﴿أَذَقْنَهُ﴾ و﴿مَسَّتْهُ﴾ كلها تدل على سرعة حصول الشيء وسرعة انقضائه.

ليقولن: جواب الشرط والقسم.

ذهب السيئات عني: إنه لم يردّ الفضل إلى الله ولكن ركز نظره على ذهاب ما سماه ﴿السَّيِّئَاتُ﴾ وانها قد انصرفت أو صرفت أو ذهبت وانقشعت وزالت، وهذا هو المهم، وليس المهم من أزالها وأذهبها وصرفها هكذا يفكرون وهكذا يفسرون. إنه لفرح فخور: بعد كلامه الذي تفوه به ونطق به يعلق القرآن بوصف حالته: إنه: إن المؤكدة واسمها ضميره الغائب.

واللام في لفرح: المرحلقة المؤكدة مزيداً وهي الواقعة في خبر إن أول، فخور خبر ثان.

وفرّح: الفرح الذي يذكره القرآن في مقام الذم غالباً هو فرح البطر والكبر، والأشر الفرح بالأشياء وكان الكبار غدوا صغاراً يلغون لغو الأطفال، ويفرحون فرح الأطفال، وقد يهتز الواحد منهم طرباً لأنفه مكاسب الدنيا، ولا يحزن لحاله من قطع الصلة بالله أو عدم عبادته، أو توليه، أو التوكل عليه. إنه يفرح بأشيائه وأسبابه وعلائقه ومكاسبه وما يمت إلى الدنيا الفانية الزائلة ولا يفرح بالباقي الدائم.

وأضاف القرآن إلى الفرح الفخر، ولاحظ أن الفاء اختفت من الآية إلا من هاتين الكلمتين المتجاورتين.

والفخر: التعظم بالأشياء، وعرف العرب بالفخر بالآباء، وعرف الشعراء كالمثني بشعر الفخر أو الفخريات، وهي تعظيم الذات والثناء عليها.. وأجود شعره في الفخر.. كما قيل.. وهو صحيح، والامتلاء بالزهو هو الفخر.

والفخر: تباهي المرء على غيره بماله من الأشياء المحبوبة للناس.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن الإيمان الجاد المتمثل في العمل الصالح هو الذي يعصم النفس البشرية من اليأس الكافر في الشدة، كما يعصمها من البطر الفاجر في الرخاء وهو الذي يقيم القلب البشري على سواء في البأساء والنعماء ويربطه بالله في حاله».

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «ذهبت الشدائد والسقم والمرض عنه وإنما يقول الإنسان الكافر ذلك غرة بالله وجراءة عليه لأنه لم يصف الأشياء والأحداث إلى الله، وإنما أضافها إلى العوائد».

﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ الفرح لذة تحصل في القلب بنيل المراد والمشتهى.

يقول مخلوف: «ضراء مسته: نائبة ونكبة أصابته، إنه لفرح فخور: بطر بالنعمة مغتربها، كثير التعاضم على الناس بما أوتي منها، مشغول بذلك عن القيام بحقها. أ. هـ».

قال ابن عاشور: «إنه لا يشكر الله على النعمة بعد البأساء وما كان فيه من الضراء فلا يتفكر في وجود خالق الأسباب وناقل الأحوال، وفي معنى الآيتين قوله تعالى: ﴿وإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحِجَّ بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يُمَاقِدَتِ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى]».

قال الزمخشري: «أشر بطر فخور على الناس بما أذاقه الله من نعمائه قد شغله الفرح والفخر عن الشكر».

من دروس الآية ١٠:

- ١- كل الناس يرى الأسباب وقليل من يذهب بذهنه إلى مسببها.
- ٢- يعبر القرآن بالذوق والمس وهي تنطوي على معاني القلة والسرعة والدنيا كذلك.. وقل من يتبته هذه الحقيقة.
- ٣- الله هو الذي يصرف السوء وبدل الفخر كان ينبغي التوجه إلى الشكر.
- ٤- الفرح الذي هو الأشر والكبر والبطر هذا هو المذموم، أما فرح الكبار بالطاعة والعبادة فمأمور ومحمود.
- ٥- كثير من الناس يصبرون على الشدة تجلداً أن يظهر عليهم الضعف والخور ولكن القلة هي التي تصبر على النعمة فلا تغتر ولا تبطر.
- ٦- البأساء في الأموال كالفقير، والضراء في الأنفس كالمرض.

الآية ١١:

﴿لَا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١١)

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن الذي فرح بزوال ما سماه السيئات وامتلأ بالفخر والكبر، وهنا تستثني الآية من مثل هذه المشاعر السلبية المذمومة في نظر الشرع، تستثني المؤمنين الصابرين، فهم إن جاءت النوازل صبروا وأن أذهبها الله شكروا واعتبروا وأجروا.

وهذه الآية (١٠) كلمات و(٤٦) حرفاً وترتيبها (١٤٨٤).

المعنى: إلا: أداة استثناء وما بعدها مستثنون مما قبلها واللافت أنه عبر في السابقة بالفرد أدقناه، مسته، ليقولن، إنه لفرح فخور. فالكلام عن حالة فردية لكنها تشكل في النهاية ظاهرة اجتماعية وإنسانية، هذا أمر، لكن يظل ملحظ التعبير بالفرد ملفتاً محتاجاً لتفسير، وأرى أنه أي هذا الفرد الذي تطحنه الشدة وتبطره النعمة فرد يعيش لذاته، ولا يفعل إلا بها ولها، وصحيح أنه لبنة في مجتمع، لكنه يعيش في قوقعة الذات، وفي «غيتو» مغلق على الذات، وهو سجين هذه الذات وحبيس الأنانيات.

أما المؤمن فصحيح أن له خصوصياته أيضاً.. لكنه اجتماعي بطبعه، واجتماعي بشرعه، أي بأمر الشرع وتعاليم الدين، فهو يعلم أن إيمانه متقصد إن بات شعبان وجاره إلى جنبه جائع، وهو كذلك مشكوك في إيمانه إن لم يحزن لحزن الحزين ويتألم لألم المريض ذي الأنين.

هذا هو المسلم، وهذا هو فيما أرى مفتاح فهم التعبير بالفرد هناك وبالجمع هنا، وهذا من دقائق التعبير القرآني ولطائف إشارات النفس والاجتماعية فيما أرى.

وعبر بالموصول ﴿الَّذِينَ﴾ لاستحضار ما في صلته وهو ما بعده ﴿صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

وقد ورد الفعل ﴿صَبَرُوا﴾ في القرآن (١٥) مرة هذه هي الثالثة بينها، ولم يتكرر الفعل صبروا في سورة إلا في النحل (٣) مرات.
وآخر مرات ورودها في سورة الإنسان فتأمل!

والصبر: حمل النفس على ما تكره وتحمل المكروه وانتظار الفرج وبذل أقصى الوسع ومعناه ومفهومه واسع، وهو صبر على المكاره وصبر عن المعاصي وصبر في الجهاد.. وصبر بمعنى شدة الاحتمال.

والدين نصفان كما يقولون: نصف صبر ونصف شكر.

ولم يذكر الذين آمنوا بهذه الصفة وإنما ذكرهم بالصبر الذي يدل على الإيمان فعبر عن الشيء بلازمه وقرينه، وعبر عنه بثمرته.. فهو كل ذلك.

وعملوا الصالحات: هذه الصفة دائمة الاقتران بالإيمان، وجاءت هنا قرينة قرين الإيمان.. وهو الصبر.

فدل على الإيمان بهذه القرينة الثانية، وعمل الصالحات كذلك مفهوم واسع شاسع شامل يشمل مساحات الحياة ومساحات العمل الإنساني.. ورأس عمل الصالحات العبادات المفروضة المقررة، ثم يتسع النطاق ليشمل كل شيء بدءاً من الكلمة والبسمة في وجه أخيك إلى ما لا يتناهى من الصور.

والصالحات صفة الأعمال التي حذفت وذكرت صفتها فدلّت على اثنين الموصوف والصفة.

وقد وردت الصالحات في القرآن (٦٢) مرة جاءت مقترنة بالفعل ﴿وَعَمِلُوا﴾ وبصيغ أخرى مثل عمل، ويعملون، ويعمل في (٦٠) مرة.

فلم ترد ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ مفردة مستقلة عن العمل إلا في (٣) مواضع: في النساء:

﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنِينَتُ﴾ [٣٤] ومريم ﴿وَالْبَيِّنَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ [٧٦] وفي الكهف ﴿وَالْبَيِّنَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ [٤٦].

وأما عمل فقد وردت مرة ووردت يعمل ٣ مرات ووردت يعملون مرتين في السورتين المتاليتين الإسراء والكهف والصيغة واحدة: ﴿وَيَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا...﴾ حسناً في الكهف ٢ وكبيراً في الإسراء ٩. فهذه إطلالة سريعة على هذه الكلمة في القرآن وأنها بنسبة حوالي ٩٠٪ مقترنة بـ ﴿وَعَمِلُوا﴾ وأما بالعمل مطلقاً فهي بنسبة حوالي ٩٢٪.

فأولئك لهم مغفرة وأجر كبير: الفاء فصيحة واسم الإشارة بعدها ليرزهم ويشهرهم ويشير إليهم وليبتدئ به ثم يخبر عنه (أي مبتدأ وخبر) في قوله ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ...﴾ فما بعد أولئك خبر عنه، ونكر مغفرة ليدلل على عظمتها وقدم لهم على المغفرة للاهتمام، ونكر الأجر للعللة ذاتها من التعظيم ووصفه بالكبير لمزيد تعظيمه وتفخيمه.

قال الزمخشري: «إلا الذين: آمنوا فإن من عادتهم إن نالتهم رحمة أن يشكروا، وإن زالت عنهم نعمة أن يصبروا».

يقول الدرة في المجلد السادس: «الذين: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب على الاستثناء».

قال الفراء: متصل، لأنه استثناء من الإنسان بمعنى الناس، والناس يشمل المؤمن والكافر.

وقال الأخفش: هو استثناء منقطع، إذ المراد بالإنسان شخص معين هذا وجوز اعتباره مبنياً على الفتح في محل رفع مبتدأ».

قال خلوف: «إلا الذين صبروا: استثناء منقطع أ. ه».

قال ابن عاشور: «من معاني الصبر انتظار الفرج، ولذلك أوتر هنا وصف «صبروا» دون «آمنوا» لأن المراد مقابلة حالهم بحال الكفار ودل الاستثناء على أنهم متصفون بضد صفات المستثنى منهم».

من دروس الآية ١١:

- ١- الصبر قيمة عظيمة في هذا الدين وكل دين وكل نظام للأخلاق.
- ٢- عبر بالصبر وأشار إلى الإيمان به لأنه من أهم ثمرات الإيمان.
- ٣- لا يكاد يذكر عملوا الصالحات إلا مقترناً بالإيمان فهما قرينان لا ينفكان.
- ٤- النص القرآني ينبغي أن ينظر فيه إلى كل لفظة وكل لحة فكل لحة لها دلالة.. كالتركيز في مغفرة وأجر.

الآية ١٢:

﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾

الربط والمناسبة: تكلم السياق من الآية ٣ عن الذين ﴿تَوَلَّوْا﴾ وعن الذين ﴿يَنْتَوْنُ صُدُورُهُمْ﴾ [٥] وعن الذين يقولون عن خبر الآخرة إنه ﴿سِحْرٌ مُّثِينٌ﴾ [٧] والذين يقولون عن عذاب الله إذا تأخر عنهم ﴿مَا يَحِيسُهُ﴾ [٨] وعن الذي إذا نزعته منه الرحمة فإنه ﴿يَكُونُ كَقُورٍ﴾ [٩] وعن الذي إذا مسته النعماء أو أذاقه الله منها بعد الضراء فإنه ﴿لَفَجٍّ فَخُورٍ﴾ [١٠] بعد كل هذا الحديث عن الكافرين والمعرضين، التفت السياق إلى النبي الكريم محذراً من أن يكون موقف هؤلاء على

ثقله داعياً لك إلى التخلي عن بعض الوحي أو ضيق الصدر بما يقولون أو يتقولون.

فبعد أن أنهى الحديث عن أولئك ثم ختمه بجزء المؤمنين الصابرين التفت إلى سيد المرسلين بهذا الكلام المبين.

وهذه الآية (٢٧) كلمة و(٩٥) حرفاً وترتيبها (١٤٨٥).

المعنى: فلعلك: الفاء تفريع على ما مر، ولعل من أخوات إن عملاً وهي من الكلمات المفيدة - في الأصل - التمني، والتعلل كما يقال.. أو التوقع، وهنا تفيد معنى التحذير.

تارك: اسم فاعل بمعنى متخل، ومفارق، ومبتعد.

بعض ما يوحى إليك: وحاشاه صلى عليه الله من كل ذلك، ولكن ليعلم الخلق جميعاً أنه لا أحد فوق التنبيه والتعليم والتحذير، وأن الرسول العظيم لا يعدو مقام العبودية، فهو أشرف مقام وأعلى منزلة.

وهذا الترك افتراضي غير واقع، ولكنه خطاب الأمة من خلاله ﷺ، ولعل الكلام هنا عما يمكن أن نسميه قضايا غير جوهرية أو تنظيمية أو إدارية، فقد كان المشركون يقترحون للسادات يوماً وللعبدان يوماً، فلا يجتمع الكبراء الأغنياء مع الفقراء الضعفاء، فربما يظن لوهلة أن هذا أمر شكلي إداري، وهو في الحقيقة جوهرية، أما أن الرسول يقبل التفاوض في أمر التوحيد أو العبادة فمعاذ الله!

وضائق به صدرك: تارك وضائق، والأخيرة عطف على الأولى. وهاتان الكلمتان لم تردا في القرآن إلا في هذا الموطن. والضيق مستعمل مجازاً في الغم والأسف كما استعمل ضده وهو الانشراح في الفرح والمسرة.

ولن يضيق صدره عليه الصلوات، وإنما هو كما قلنا في الموطن السابق: وكيف وقد شرح الله صدره إذ قال له ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وقد مر في الأعراف نهيه أن يكون في صدره حرج: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ ولكن الكلمة تشي بالمقاومة الشرسة التي يبديها الكفر في مكة لدعوة الله ودين الله ورسول الله، حتى إن أعظم الرجال يخاطب بهذا الخطاب، فنفهم منه أن الحملة شديدة، والكيد متين شديد.

والباء في «به» للسببية.

ثم ذكر السياق عينة من معاضلات ومعاظلات القوم ومقولاتهم فقال:

أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز: هلا إذا كان رسولاً، يقول المشركون هلا أنزل عليه كنز، لأن مفاهيم الزعامة والقيادة عندهم مرتبطة بمواصفات ومواضع البيئة ومقاييسها وهي فاسدة تلتخص في الثراء، فما من زعيم ليس له ثروة، وإلا فكيف يستقطب الأتباع؟ ولم تكن المبادئ هي محور التجميع، وإنما المصالح والأموال.

وعبروا بالفعل المبني للمجهول: ﴿أُنْزِلَ﴾ أي من أي مصدر كان من السماء أو من أي جهة لا يهم! وكل كلمة في القرآن لها ظلالها وإيماءاتها وإيجاءاتها النفسية ودلالاتها الثقافية.

وعبر بالجار ﴿عَلَيْهِ﴾ ليفيد ما يقولون عنه: هبط عليه الثراء.. أي من عل، أما من جهة تملك هذا الثراء فعلوها معنوي، أو من عند الله فالعلو مطلق وحقيقي.

ونكروا كلمة ﴿كَزْرٌ﴾ للتعظيم.

والفعل كنز يفيد معنى المراكمة والاختزان والإخفاء والجمع والتكثير.

أو جاء معه ملك: ما زلنا ندور في فلك مقترحاتهم الناشئة عن مقاييسهم المستقاة من البيئة الفاسدة، وهي أن الزعامة تقتضي السير في موكب ومع مرافقين

وفخامة ومركب فاره.. واقترحوا للملء هذا الفراغ أن ينزل معه ملك لوجاهة الموقف من ناحية وليشهد له أنه رسول من ناحية أخرى.

ونكروا كلمة ﴿مَلَكٌ﴾ للتعظيم أو للتعميم أي أي ملك ممن يعرف الناس أسماءهم كجبريل أو سواه.

إنما أنت نذير: وليس مطلوباً للنذير أن يكون في موكب ومركب وأبهة وفخامة، وأنت يا رسول الله لست إلا نذيراً، أي يحذر الناس من عاقبة ما هم فيه، والنذارة الخبر غير السار على أمر مستقبلي نتيجة واقع راهن أو فعل قائم.. واستخدم صيغة ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ لتفيد الحصر والقصر، وهو هنا إضافي إن اعتبرنا مهمة التعليم والتبشير والتزكية والحكم والقضاء بين الناس والدعوة والجهاد مهمات أخرى، فالقصر كما قلنا إضافي، وإن اعتبرنا أن كل المهمات تصب في النذارة فالقصر الحقيقي والمسألة في النهاية فهم وذوق للنص ولا تضيق على دائرة الفهم فالمندوحة موجودة والمتسع موجود.

والله على كل شيء وكيل: والله هو المتوكل بكل شأن وكل شيء مما يخصك أو يخصهم ويخص دعوتك لهم واستجابتهم أو عدم استجابتهم، فالله الوكيل لا أنت، فأنت تنتهي مهمتك بالإنذار.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «هي الآية تشي بجو تلك الفترة في تاريخ الدعوة وما كان يعتور صدر رسول الله ﷺ من الضيق، كما تشي بثقل المواجهة والمعاندة للجاهلية المتمردة ومن بين كلمات الآية نحس جواً مكروباً تنزل فيه هذه الكلمات الربانية بالبشاشة وتسكب فيه الطمأنينة وتريح القلوب».

قال الزمخشري: «والله على كل شيء وكيل: يحفظ ما يقولون: وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل، فتوكل عليه وكل أمرك إليه وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح غير متلفت إلى استكبارهم.

فإن قلت: لم عدل من ضيق إلى ضائق؟ قلت: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت، لأن الرسول ﷺ كان أفسح الناس صدرًا».

قال الشيخ حسين مخلوف: «فلعلك تارك: أي فلعلك تارك تبليغ بعض ما يوحى إليك، وهو ما يثير غضب المشركين، وضائق بتبليغه صدرك، مخافة تكذيبهم واستهزائهم بقولهم: هلا أعطي مالا كثيرا يغتني به، وهلا جاء معه ملك يصدقه، ويشهد له بالنبوة! فدم على التبليغ ولا تضق بأمرهم ذرعا، فما عليك إلا الإنذار علينا الحساب، ولعل للترجي والتوقع، ولا يلزم من توقع الشيء وقوعه، فقد يتمتع للمانع. وهنا لا يتوقع منه ﷺ ترك تبليغ شيء مما أوحى إليه، ولا ضيق الصدر به، لثبوت عصمته من ذلك (العصمة هنا تحتاج إلى وقفة طويلة..). وفي الآية تنديد بالمشركين وإنذار لهم بسوء العاقبة، وحث له على عدم المبالاة بهم، وكيل: قائم به حافظ له. أ. هـ».

قال ابن عاشور: «وما شمله عموم «كل شيء» أن الله وكيل على قلوب المكذبين وهم المقصود، وإنما جاء الكلام بصيغة العموم ليكون تذيلا وإتيانا للغرض بما هو كالل دليل، وليستقل من ذلك العموم إلى تسلية النبي ﷺ بأن الله مطلع على مكر أولئك وأنه وكيل على جزائهم وأن الله عالم ببذل النبي جهده في التبليغ».

قال رضا: «إن ضيق الصدر وكتمان بغض الوحي مما يخطر بالبال، وشأنه أن تقتضيه الحال، بحسب المفهود من طباع الناس، فهل أنت مجترح لهذا الترك، أو مستسلم لما يعرض لك بمقتضى البشرية من ضيق الصدر؟ كلا لا تفعله. فهو

كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧] وَقَوْلِهِ: ﴿الْمَصَّ ۝ كُتِبَ عَلَيْكَ إِذَا وَقَعَ فِي سُدْرِكَ كِتَابٌ مِّنْهُ لَتُنذِرْ بِهِ. وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ تَفْسَكَ عَلَىٰ مَا نَرَاهُمْ إِن لَّزَّ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] وَقَوْلِهِ: ﴿طَسَّرَ ۝ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْغَيْبِ ۝ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ تَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الشعراء: ١-٤] إِنَّ شَأْنًا نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿١﴾ [الشعراء: ١-٤] أَيْ لَعَلَّكَ قَاتِلُهَا عَمًا وَالتَّحَارًا؟ أَيْ لَا تَفْعَلْ، وَخَاصِلُهُ أَنَّ عِبَادَهُمْ وَجُحُودَهُمْ وَإِعْرَاضَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَشِدَّةَ اهْتِمَامِكَ بِأَمْرِهِمْ فِيمَا لَيْسَ أَمْرُهُ بِيَدِكَ، مِمَّا شَأْنُهُ أَنْ يُفْضِيَ إِلَىٰ ذَلِكَ لَوْلَا عِصْمَتُنَا إِيَّاكَ وَتَلَيُّنُنَا لَكَ، فَهَلْ تُصِرُّ عَلَيْهِ حَتَّىٰ تُبْنَحَ نَفْسَكَ؟ لَا لَأَ، وَيُوضِّحُ هَذَا الْمَعْنَى فِي كَوْنِ الْإِرْسَادِ مَبْنِيًّا عَلَىٰ بَيَانِ الْوَاقِعِ فِي تِلْكَ الْوَاقِعِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبَشِّرَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] ^(١).

من دروس الآية ١٢:

- ١- الرسول نذير وليس من الضروري أن يكون النذير في وضع من الفخامة والأبهة، بل الأقرب أن يكون بخلاف ذلك.
- ٢- في الدعوة وصف النبي نفسه بقوله «أنا النذير العريان» وكان من عادة العرب أن يخلع النذير قميصه إشارة للخطر.
- ٣- حاشا أن يترك النبي شيئاً من شؤون الدعوة ولكنه التعليم على طريقة إياك أعني.
- ٤- الكلام كلام الكافرين - على هوان شأنه - لكنه يضيق الصدر ويؤدي الشعور.
- ٥- الله هو الوكيل والرسول ليس إلا أنه نذير.

الآية ١٣:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِمِثْلِ سُورَةِ مِثْلِهِ مُمْفِرِينَ يَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

الربط والمناسبة: تحدثت الآية السابقة عن الرسول عليه الصلوات وتحذيره من أن يؤثروا عليه بصددهم عن دينه وعن دعوته، وفي هذه الآية يواصل حديثه السياق عن حملة الكافرين على الدين وهجومهم هذه المرة على الكتاب العزيز والرسول الكريم معاً، فيعرض القرآن قولهم عن القرآن أن الرسول افتراه ويتحداهم أن يأتوا بعشر سور إن كانوا صادقين.

وهذه الآية (١٨) كلمة و(٧٣) حرفاً وترتيبها (١٤٨٦).

المعنى: أم: بمعنى بل، وكأنه إضراب عن كلامهم السابق كله، وانتقال إلى موضوع أخطر وهو زعمهم أن القرآن مفترى من قبل الرسول، وهو اتهام مفند من كل وجه، ومن كل جهة، فأما القرآن في ذاته فهو يتحدى العالم كله أن يأتي بشيء أو بسورة من مثل هذا الكتاب. وأما الرسول فهو أصدق من مشى على هذه الأرض وليس الافتراء له بطبع ولا خلق، ورد الدعوى من مئة وجه لا من وجه أو اثنين.

يقولون افتراه: وعبر بالمضارع ليصور جرميتهم حاضرة عتيدة.

وافترى: اختلق وادعى وتقول الشيء وزوره، وأصله قطع الأديم أو الجلد.

افتراه: فعل وفاعل ومفعول به، والمدعى افتراؤه هو القرآن الذي لا تستطيع الجن والإنس إن اجتمعت أن تأتي بمثل أو بحديث من مثله فكيف يقول مثله أمي لم يمارس الكتابة ولا التأليف.. إن في هذا القرآن من المعجزات ما تعجز العقول عن إدراكه لا عن الإتيان بمثله.. فكيف الإتيان بمثله من أمي؟

والافتراء: الكذب الذي لا شبهة لصاحبه، فهو الكذب عن عمد.

لو اجتمع كل علماء اللغة والاجتماع والفلسفة والنفس والتاريخ والسياسة والاقتصاد وكل ما يخطر بالبال من علوم ثم اتفقوا على الإتيان بقطعة من مثل هذا القرآن لا يستطيعون فكيف استطاع الأمي؟ قل: الأمر لرسول الله ﷺ أن يقول.

فأتوا: أمر إثر أمر، الأول لمن علمت أعني رسول الله عليه الصلوات، والثاني أمر منه لهم أن يأتوا بمعنى أن يقولوا أو يؤلفوا.. والإتيان أوسع في المخارج والمنافذ، فيمكن أن يستعينوا عليه، ويمكن أن يستوردوه جاهزاً إن استطاعوا.. المهم أن يأتوا.. والسبل أمامهم مفتحة مشرعة بعشر سور مثله مفتریات: لاحظ أنه سبق سورة هود عشر سور، بينما سبق البقرة سورة واحدة فقال هناك: ﴿فَأْتُوا سُورَ﴾ مثله: أي مماثلة له ومشابهة ومناظرة، والضمير فيما أرى لا يحتمل العود إلى رسول الله ﷺ، وإنما العود إلى القرآن نفسه.

وقال مفتریات بمعنى مختلقات أي بزعمكم أن القرآن مختلق، فما دام كذلك فيمكن الإتيان بمثله، فاختلاق يقابل الاختلاق الأول، والمسألة هينة على هذا التصور، فإن عجزتم فقد حسمت القضية أنه غير مفترى ولا مؤلف من البشر ولا مختلق، فهل استطاعوا في الزمن الممتد المفتوح أن يقفوا له جيلاً بعد جيل وأمة بعد أمة وقبلاً بعد قبيل؟ اللهم لا، فانحسنت القضية لصالح القرآن المجيد.

وادعوا من استطعتم: ادعوا لمعاونتكم في هذه المهمة المستحيلة من استطعتم أن تدعوه من الفصحاء والبلغاء والعلماء ومن تشاؤون من أهل الاختصاص أو غير الاختصاص، فالأمر عائد لكم، وادعوا الجن إن استطعتم أيضاً.

من دون الله: أي ادعوا من شئتم سوى الله، لأنه هو الذي أنزل هذا الكلام العظيم الذي تنعتونه بما تقولتم وزعمتم أنه مفترى، وكيف تدعونه أي تدعون الله وقرآنه بين أيديكم؟

إن كنتم صادقين^(١): أي إن كنتم محققين صادقين مطابقين للواقع في هذه المسألة وهي زعمكم أن القرآن مفترى.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «قال المبرد: إن سورة يونس نزلت أولاً، قال ومعنى قوله تعالى في سورة يونس ﴿فَأَنذَرْتُ يُونُسَ مَن مَّثْلِهِ﴾ يعني مثله في الإخبار عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد، وقوله تعالى في سورة هود: ﴿فَأَنذَرْتُ يُونُسَ مَن مَّثْلِهِ﴾ يعني في مجرد الفصاحة والبلاغة من غير خبر عن غيب».

قال الشيخ حسنين مخلوف: «﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾: أي بل يقولون اختلق محمد القرآن من تلقاء نفسه، فتحداهم الله بقوله: ﴿فَأَنذَرْتُ يُونُسَ مَن مَّثْلِهِ﴾ في البلاغة ﴿مُفْتَرَيْنَا﴾: مختلفات من عند أنفسكم إن صح أنني اختلقته من عند نفسي، فإنكم عرب فصحاء بلغاء، وقد وقع التحدي بالقرآن كله كما في سورة الإسراء، ثم بعشر سور كما هنا، أو بسورة واحدة كما في سورتي البقرة (آية ٢٣) ويونس (آية ٣٨) وقد عجزوا عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه فدل على أنه منزل من عند الله. أ.هـ».

(١) وردت كلمة ﴿صَادِقِينَ﴾ في القرآن (٥٠) مرة جلها ومعظمها مقترنة بهذا الشرط ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أو ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وتقال من الأقوام للأنبياء، وفي البقرة وحدها وردت هذه الصورة ٤ مرات وآل عمران ٣ مرات.

وورد إن كنتم صادقين في الاستفسار عن القيامة على لسان الكافرين: ﴿وَيَقُولُ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الملك، أما آخر مواردها ففي القلم: ﴿فَيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

قلت: وقد فطن كثير من العلماء كما أشرت سابقاً إلى أن سورة هود رقمها ١١ وقبلها ١٠ سور فجاء التحدي بعشر سور أي بعدد ما سبقها من السور. وفي سورة البقرة سبقها سورة واحدة فوقع التحدي بسورة واحدة وهي لطيفة كزهر الربيع، كما يقول الألوسي رحمه الله في مثلها تشم ولا تفرك.. فافطن لذلك.

قال ابن عاشور: «من دون الله: وصف لـ «من استطعتم»: ذكر هذا الوصف التذكير بأنهم أنكروا أن يكون من عند الله. فلما عمم لهم في الاستعانة بمن استطاعوا أكد أنهم دون الله، فإن عجزوا عن الإتيان بعشر سور مثله مع تمكنهم من الاستعانة بكل ما عدا الله تبين أن هذا القرآن من عند الله».

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف يكون ما يأتون به مثله مفترى وهذا غير مفترى؟ قلت: معناه: مثله في حسن البيان والنظم وإن كان مفترى. (أقول: أو مفترى على تصوركم)».

قال القشيري: «في الآية بيان أن المكلف مزاح العلة لما أقيم له من البرهان وأهل له من التحقيق. وأن الإيمان بالواسطة ﷺ واجب لما خص به من المعجزات التي أوضحها الكتاب المنزل والقرآن المفصل الذي عجز الكفار عن معارضته»^(١).

من دروس الآية ١٣ :

١ - من صور الحرب على هذا الدين ادعاء أن القرآن ملفق مفترى، وهو ما يسميه الملاحدة منا أي العرب والمسلمين ومنهم أي الأمم الأخرى والكفرة عموماً: بشرية القرآن.

(١) القشيري، لطائف الإشارات، ج ٢، ص ١٢٨.

٢- العجيب أن تدعى الدعاوي الفاجرة الباطلة ثم تلبس ثوب العلم وثوب المنطق أعني دعوى تأليف القرآن من قبل البشر مع أن تفنيدها حسم منذ نزول القرآن.

٣- القرآن معجز من كل وجه وإذا عجزنا عن اكتناه أوجه إعجازه فهل نستطيع الإتيان بكتاب معجز مثله؟ أنى هذا؟

٤- من أنساق القرآن العجيبة أن سورة هود سبقها عشر سور فكان التحدي بعشر سور، وسورة البقرة سبقتها سورة فكان التحدي بسورة. فتامل.

٥- احتراز القرآن في التعبير من أعجب العجب وذلك قوله سبحانه ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهي شهادة أخرى وأخرى لربانية القرآن.

الآية ١٤:

﴿فَلَا تَسْتَجِيبُوا لَهُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ

مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

الربط والمناسبة: كان الخطاب في الآية السابقة لرسول الله ﷺ في مواجهة الكافرين بهذا القرآن وتفنيده زعمهم بأن الرسول افتراه بتحديهم بأن يأتوا بعشر سور مفتريات كما يزعمون أنه مفترى وليستعينوا بمن شاءوا.. وفي هذه الآية يكمل دحض شبهتهم ويحسم المعركة بين الإيمان والكفر، فإن لم يستجب لكم هؤلاء الكافرون فاعلموا إذا أن القرآن أنزل بعلم الله وأنه لا إله إلا هو سبحانه.. فهل أنتم أيها المسلمون وأنتم أيضاً أيها الكافرون بعد أن دحضت حججتكم وشبهتكم فهل أنتم مسلمون؟

وهذه الآية (١٦) كلمة و(٦٤) حرفاً وترتيبها (١٤٨٧).

المعنى: فللم: هكذا رسمت كلمة واحدة وهي في الأصل: فإن لم، والفاء تفرع على ما سبق وإن شرطية ولم بعدها نافية جازمة.
يستجيبوا: فعل وهو فعل الشرط مجزوم وفاعل وهو ضمير الكافرين المشركين الذين يتحدث عنهم السياق.

لكم: كان الخطاب في الآية السابقة للرسول عليه الصلوات، والآن انتقل إلى الأمة المؤمنة كلها أيًا يكن عددها في ذلك الحين، والمقصود من لكم لحجتكم ومن قبلها لدعوتكم إياهم.

فاعلموا: الفاء واقعة في جواب الشرط واعلموا مجزوم بكونه جواباً للشرط، والعلم المراد هنا القطع واليقين الجازم بأنكم على الحق وأنهم على الباطل، وليس علماً مالم يكن جزءاً وقطعاً وحسماً.

أنما: أن وما الكافة التي تحولها إلى أداة حصر وقصر.

أنزل: أي هذا القرآن، أنزل وبناه للمجهول لأن مصدره معلوم، حتى لو لم نذكره في كل حين، وظلال أنزل ووحياها في ذهن السامع أن القرآن بعكس دعوى المشركين الذين زعموا بشريته أنه رباني المصدر موحى به من عند الله بالقطع واليقين منزل من لدنه سبحانه.

بعلم الله: إما أن الباء للواسطة أو الباء بمعنى من أي بأمر من الله أو من علم الله، وهما معاً صحيح أيضاً وطبعاً.

وأن لا إله إلا هو: كان موضع الحاجة ربانية القرآن وهذه الحقيقة هنا أي كلمة التوحيد موقعها من الكلام السابق كالتعليل أي أن الكون له إله واحد، ومن المحتم

أن يكون لملك الكون ومالكة كتاب دستور للخلق ينظم حياتهم، أما أن الله لا ينزل كتاباً يسير حياة البشر فهذا محال،

وأن: الواو عطف، وإن معطوفة على أنما فهي المخففة من أن المشددة والضمير هو عائد على لفظ الجلالة في الجملة السابقة.

فهل أنتم مسلمون: الفاء تفريع وهل للاستفهام، ومعنى الاستفهام التحضيض، والمخاطب بالضمير أنتم الرسول عليه الصلوات وأمته.. ولا يمنع أن يكون بعد أمته كل أمة الدعوة وهي العالم كله. فإن ثبت لكم أن هذا القرآن يستحيل ألا يكون إلا من عند الله.. فما يمنعكم من أن تسلموا له؟ فهل أنتم بعد تجلي الحقائق لكم مسلمون؟

قال الزمخشري: «**فهل أنتم مسلمون:** مبايعون بالإسلام بعد هذه الحجة القاطعة، وهذا وجه حسن مطرد، ومن جعل الخطاب للمسلمين، فمعناه: فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه وازدادوا يقيناً وثبات قدم على أنه منزل من عند الله وعلى التوحيد، ومعنى فهل أنتم مسلمون! فهل أنتم مخلصون».

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «لقد كان الحق واضحاً ولكنهم كانوا يخافون على ما يتمتعون به في هذه الحياة الدنيا من متاع وسلطان وتعبيد للناس كي لا يستجيبوا لداعي الحرية والكرامة والعدل والعزة».

قال القشيري: «فإن لم يستجيبوا لكم يعني إلى الإتيان بمثله - وهم أهل بلاغة - فتحققوا أنه من قبل الله، وليس على سنة التحقيق؛ إنما العمى في بصائر من ضلوا عن الحق، وتاهوا في صدفه الحيرة»^(١).

من دروس الآية ١٤:

- ١- العناد أحد أهم أسباب منع الناس عن اتباع الحق.
- ٢- لو قصد البشر الحق وأن يصلوا إليه لكان الطريق معبداً والأمر سهلاً.
- ٣- إن حسمت قضية الإعجاز حسمت أهم قضايا هذا الدين.
- ٤- التحدي للعالم قائم إلى نهاية الحياة والناس.. أن يأتوا بشيء من مثل القرآن.
- ٥- الله مالك الملك وملك الكون ويستحيل أن يترك الناس بلا قانون ولا دستور ولا منهج.
- ٦- الوحي ضرورة دينية وعقلية معاً.

الآية ١٥:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَنُفِّرُهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥)

الربط والمناسبة: تبدو الآية تحتاج إلى تأمل لاستخراج وجه الربط، والأمر سهل، فالكلام عن الذين تحداهم القرآن وسأهم فهل أنتم مدعون للحق إن تبين لكم، والجواب لدينا معروف، لكن التعليل هو الذي يحتاج إلى توضيح، وجاءت هذه الآية تفسر دوافع الكفر الحقيقية وأنها ليست لا فكراً ولا فلسفة ولا شيئاً من هذا وإنما إرادة المتاع في هذه الحياة الدنيا.

وهذه الآية (١٤) كلمة و(٦١) حرفاً وترتيبها (١٤٨٨).

المعنى: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها: من: اسم شرط جازم، وعبر بكان يريد دون التعبير بيريد مباشرة للدلالة على قدم وعمق تلك الإرادة وأنها تصاحبه

منذ البدايات المبكرة لوعيه، وجمع بين الماضي كان والحاضر يريد ليدل على الاستمرارية والقدم والرسوخ والدوام على الشيء.

وعبر بالحياة الدنيا وأحياناً يعبر بالدنيا فقط ليدل على شدة التعلق بها.

وأضاف إلى الحياة الدنيا قوله بعد حرف العطف: وزيتها أي وزخرفها ومباهجها.

فهو يريد الحياة الدنيا ويريد زهرتها وزيتها وبهجتها ويصرف النظر عن الآخرة.

نوف إليهم أعمالهم فيها: هو أراد الدنيا وعمل لها ونحن لن نخرمه ثمرة عمله، بل سنوفي لهم أعمالهم فيها.. وهذا من عدل الله وكرم الله، فإنسان يريد شيئاً ونحن نعطيهِ ما يريد.. أوليس هذا عين الكرم والعدل؟ لن نظلمه ثمرة عمله مع أنه معاند لنا كافر بنا صاد عن ديننا ولرسلنا.. فيا رب ما أحلك وأعظمك وأكرمك!!
وهم فيها لا يبخسون: الواو إما للعطف وإما للحال وإما للاستئناف فهي تصلح لكل ذلك.. هنا.

وأعاد الضمير ﴿وَمَرَّ﴾ لإبرازهم وإبراز العطاء الإلهي، وعدم حرمانهم من ثمرة عملهم.

فيها: وقدم فيها لأنها مركز اهتمامهم فمن الطبيعي أن يقدمها.

لا يبخسون: لا يظلمون ولا يتقصون ولا يجرمون من ثمرة ما يعملون.

والبخس القلة والنقص، ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة يوسف ﴿وَشَرَوْهُ

بِثَمَنٍ بَخِيسٍ﴾؟ أي قليل مبخس فيه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «قال ميمون بن مهران: ليس أحد يعمل حسنة إلا وفي ثوابها، فإن كان مسلماً مخلصاً وفي الدنيا والآخرة، وإن كان كافراً وفي في الدنيا»^(١).

قال ابن عاشور: «المعنى: من كان لا يطلب إلا منافع الحياة وزيتها وهذا لا يصدر إلا عن الكافرين لأن المؤمن لا يخلو من إرادة الخير في الآخرة وما آمن إلا لذلك. فمورد هذه الآيات ونظائرها في حال الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة».

قال الشيخ حسنين مخلوف في صفوة البيان: «هذه الآية نزلت في الكفار الذين يعملون أعمالاً صالحة في الدنيا مع تشبههم بالكفر، فهؤلاء يجعل الله لهم ثوابها كاملاً في الدنيا، بسطة في الأموال والأولاد والجاه والسلطان، وليس لهم في الآخرة إلا النار جزاء على كفرهم، ﴿لَا يَبْخُسُونَ﴾ أي لا ينقصون، من البخس وهو نقص الحق ظلماً»^{أ. هـ.}

قال السمعاني: «نوف إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا: يَغْنِي: نجازيهم على أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ بِسَعَةِ الرِّزْقِ وَدَفْعِ الْمَكَارِهِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ: فِيهَا أَي: فِي الدُّنْيَا، لَا يَبْخُسُونَ يَغْنِي: لَا يَنْقُصُ حَظَّهُمْ»^(٢).

وقال البغوي: «وقيل: هَذَا فِي الْكُفَّارِ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَرِيدُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَإِرَادَتُهُ الْآخِرَةُ غَالِبَةٌ، فَيَجَازِي بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَيُثَابُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ»^(٣).

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن العمل للحياة الأخرى لا يقف في سبيل العمل للحياة الدنيا، بل إنه هو مع الاتجاه إلى الله فيه ومراقبة الله في العمل لا

(١) المجلد السادس صفحة ٢٤٩.

(٢) تفسير القرآن للسمعاني، ج ٢، ص ٤١٨.

(٣) البغوي، معالم التنزيل، ج ٢، ص ٤٤٢.

تقلل من مقداره ولا تنقص من آثاره بل تزيد وتبارك الجهد والثمر وتجعل الكسب طيباً والمتاع به طيباً.

من دروس الآية ١٥:

- ١- من الناس من يحرم نفسه من إرادة الآخرة ويقصر همه وهمته على الدنيا فهذا مغبون ولو أرادهما لنالهما، فيا لقصر الأمل والنظر!
- ٢- التعبير القرآني وإن كان كلمات معدودات إلا أنه يتغلغل في الأعماق والمكنونات للناس الذين يتحدث عنهم في محكم الآيات.
- ٣- العدل الإلهي المطلق أن من كفر بالله لا يجرمه الله ثمرة عمله في الدنيا.

الآية ١٦:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

الربط والمناسبة: بين الآيتين رابطة أقوى من أن تحتاج إلى بحث وتبيين فقد تكلمت الآية السابقة عن الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها، وأنهم لن يجرموا ثمرة جهدهم وإرادتهم فيما طلبوه أي الدنيا، وهذه الآية الآن تبين ما ينتظرهم في الآخرة فقد تكاملت الآيتان، الأولى بينت ما لهم في الدنيا والثانية بينت ما لهم في الآخرة.

وهذه الآية (١٦) كلمة و(٦٥) حرفاً وترتيبها (١٤٨٩).

المعنى: أولئك: اسم الإشارة واللام فيه للبعد لا للمكانة والكرامة ولكن للإبعاد والنفي عن الرحمة، والإشارة إليهم تستحضر ما تم من حديث عنهم في الآية السابقة.

الذين: الاسم الموصول ليستحضرهم بحشية جديدة غير التي في اسم الإشارة، وهي هنا مع صلتها تبين حالهم وتكشف عنهم.

ليس لهم في الآخرة إلا النار: صيغة الحصر والقصر لبيان الحق في حقهم، ولتئيسهم وأمثالهم، فهم لا ينتظرهم إلا هي أي النار، والتعبير ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ هذا النفي في البدء ثم لهم المفيدة ما يخصهم ويعود إليهم، ثم أداة الحصر ﴿إِلَّا﴾ لقطع رجائهم.. ثم الفاجعة الكبرى: النار. نسأل الله العافية والسلامة والنجاة منها.

وحبط ما صنعوا فيها: أي بطل ما صنعوا في الدنيا.. بطل في ساحة الآخرة.

وعبر بصنعوا المفيدة التكلف والتدقيق والإتقان والصنعة، ولكنه جميعاً كان لا لهذه الدار فكيف يكون لهم فيها نصيب من خير؟

وباطل ما كانوا يعملون: أثبت لصنعهم الحبوط في النص السابق لهذا الجزء من الكلام، وفي هذا أثبت لعملهم البطلان من الأساس، فعلمهم كله محبط وباطل.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «نحن نشهد في هذه الأرض أفراداً وشعوباً تعمل لهذه الدنيا، وتنال جزاءها فيها ولدنياها زينة وانتفاخ، فلا يجوز أن نعجب وأن نسأل، لأن هذه سنة الله في الأرض».

قال ابن عاشور: «معنى الكلام: تنبيه على أن حظهم من النعمة هو ما يحصل لهم في الدنيا وأن رحمة الله بهم لا تعدو ذلك».

وقد قال النبي ﷺ: «لعمرك لما ذكر له فارس والروم وما هم فيه من المتعة أولئك عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا».

قال الزمخشري: «وحبط في الآخرة ما صنعوه أو صنعهم يعني لم يكن له ثواب لأنهم لم يريدوا به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا وقد وفي إليهم ما أرادوا».

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «البطلان عبارة عن عدم الشيء إما بعدم ذاته أو بعدم فائدته ونفعه، والمراد من بطلان عملهم أنه لا يعود عليهم بنفع ولا يدفع عنهم ضرراً لأنه عمل لغير الله تعالى، فكان باطلاً لا نفع فيه، والله أعلم بمراده»^(١).

قال مخلوف: «حبط: بطل في الآخرة، ما صنعوا فيها: أي في الدنيا، يقال: حبط حبطاً وحبوطاً: بطل، وأحبط الله عمله: أبطله. أ. ه».

من دروس الآية ١٦:

- ١- من أراد الدنيا حصراً وقصراً لا نصيب له في الآخرة قطعاً.
- ٢- لا ظلم في إعطاء كل إنسان مراده ومطلوبه.
- ٣- من لم يقصد وجه الله بعمله فعمله محبط وباطل من الأساس.

الآية ١٧:

﴿أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ يَدَيْهِ أَنْ يُصِيبَهُمْ غَمٌّ مِنْ رَبِّهِمْ، وَيَتْلَوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَتْهُ إِمَامًا
وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ، فَإِنَّا مُوَعِدُهُ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ
مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

الربط والمناسبة: بعد أن تحدثت الآيتان السابقتان عن الذين يريدون الدنيا وحرمانهم من نعيم الآخرة، تحدثت هذه الآية عن المؤمنين الذين هم على بينة.. ليدلل أن الأوائل كانوا على عمى، وأما هؤلاء فهم على بصيرة وبينة وهدى ورشد. و﴿أُولَئِكَ﴾ في هذه الآية والسابقة. فالكلام فيهما عن الفريقين وكل واحد مشار إليه باسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾.

وهذه الآية (٣٩) كلمة و(١٤٥) حرفاً وترتيبها (١٤٩٠).

المعنى: آمن: الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة وبينها وبين الهمزة معطوف عليه محذوف، ومن موصولية تتضمن معنى الشرط لكن من المقصود بمن؟ أهو الرسول ﷺ، أم كل مؤمن فتضمنت الرسول أولاً ثم كل من آمن؟ كان على: تفيد القدم والرسوخ، وعلى تفيد التمكن.

بينه: العلامة الواضحة والدلالة الظاهرة، ومن هذا سورة البينة وقوله تعالى: ﴿لَا يَكْفُرُ الْإِسْلَامُ عَنْ يَدَيْهِمْ وَأُولَئِكَ يَتْلَوْنَ مِنْهُ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ وما المقصود من البينة؟ أهو القرآن؟ أم هو كل بينة بما فيها القرآن؟ أعتقد أنها القرآن بدلالة السياق وبخاصة قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَتْهُ إِمَامًا﴾.

ويتلوه شاهد منه: القرآن يشهد على صدقه.. أي صدق القرآن، فشاهده منه، وهل المقصود ما يتجلى من معانيه وما يحققه الواقع من موضوعاته ويجليه التطبيق من شرائعه وسننه ونواميسه؟

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ ﴿وَلَعَلَّكَ بَنَاهُ بِعَدَجِينَ﴾ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ومن قبله كتاب موسى: أي ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ولم لم يذكر الإنجيل في هذا المقام؟ لأن كتاب موسى هو الأصل، والإنجيل تعديل وتكميل.

إماماً ورحمة: إماماً: يؤتم به، أي يعمل به ويرجع إليه، ويقتبس منه ومرشداً يهتدى بهديه، وأما أنه رحمة، فكل كتب الله نزلت لتكون رحمة بالعباد بما تشرع من عدل وحق، فدين الله تيسير لمعاش العباد وتنظيم لشؤونهم ونظامه الأخلاقي يجعل الحياة الإنسانية ممكنة فهي بغير أخلاق تستحيل غابة فيها مفترسات يأكل بعضها بعضاً، فأنسنة الإنسان أعظم رحمة، وتحويل الإنسان إلى وحش بهجر الدين، أو خلو الحياة من منهج الدين هو القسوة والهوة السحيقة والظلام الدامس والتخبط في دياجير الهوى والتظالم والتجاوز والتمييز والعدوان.

فالدين رحمة والرسول رحمة لأن كل ذلك من عند الله الرحيم بالعباد.

أولئك يؤمنون به: اسم الإشارة أولئك إشارة إلى المتحدث عنهم باستحضار ما تضمن السياق من صفاتهم وتفصيلاتهم وأهمها كونهم على بينة، وعبر بأولئك بينما أول الآية ﴿أَمَّنْ﴾ وهذا مفهوم.

فصحيح أن «من» تعني المفرد، لكنها في النهاية تعود إلى الجميع أو تؤول إلى معنى الجمع باعتبار تعدد الداخر تحتها.

وعبر بأولئك الجمع باعتبار ما تؤول إليه وتنتهي إليه.

فاستحضر صفاتهم السابقة وأضاف إليها الآن الإيمان: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

وعبر بالمضارع ليفيد الاستمرارية المتجددة، ولاستحضار حالهم.

والضمير في «به» عائد على القرآن المتضمن في البينة والضمير في «ويتلوه» والضمير في منه وهنا به، وجملة يؤمنون به جواب الشرط.

ومن يكفر به من الأحزاب: عطف وتفصيل على أفمن.. وإن كانوا النقيض فالتناس أمام الكتاب صنفان مؤمن وكافر، والمتروك أو المنافق يعود إلى أحد المذكورين.

ومن: اسم موصول فيه معنى الشرط ويكفر به هو فعله و﴿فَالْتَأَذُّ﴾ جوابه، والضمير في به هو الضمير في السابقة.. وهو يعود إلى ما قلنا هناك قبل كلمات.

وأما الأحزاب فهم الجمهرة المتفقون على شيء، وغالب ورود الأحزاب في القرآن في مقام الذم، وفي ص: ﴿جُذُتْ مَا هَاتِلِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ ۝١٢﴾ وَنَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿ ولا ننسى الإشارة إلى سورة الأحزاب.

فالتار موعده: الفاء واقعة في جواب الشرط والمبتدأ والخبر مؤولان بمعنى جواب الشرط.

فلا تك^(١) في مرية منه: الفاء تفرع ولا الناهية و«تك» فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وأصله تكون حذفت الواو إعراباً والنون تخفيفاً.

وقد ذكر أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) نقلاً عن أبي بكر بن الأنباري وما استدركه عليه نحواً من مئة وخمسين موضعاً في القرآن الكريم حذفت فيه الياء آخر الكلمات في صيغ مختلفة ولأسباب متعددة.

وقد حفل كتاب أبي عمرو بعدد آخر وأنواع آخر من الحروف في المصحف حذفت لفظاً ورسماً يثير كثيراً من قضايا النسق الصوتي وأثره في النسق القرآني عموماً.. إلخ^(٢).

(١) قال في كتاب النسق القرآني دراسة أسلوبية ص ٧٥ ما يلي: وحذف النون (من أكن وتكن ويكن) اقتضى تتبعه في ثمانية عشر موضعاً في القرآن الكريم دل معظمه إن لم نقل كله على ضرورة اختصار الموقف لأسباب متعددة فناسب حذف النون من اللفظ (أك، يك، فلا تك.. إلخ) مناسبة ذلك الاختصار. هذا، وقد علل الزركشي في البرهان ذلك كله بأنه جاء «تنبيهاً على صغر مبدأ الشيء وحقارته وإن منه ينشأ ويزيد إلى ما لا يحيط بعلمه غير الله».

وتتبع هذا الحذف في كلمة «أك ويك وتك».. وبيان بعض أسرارهِ وجماله في مطابقة الاختصار في الصوت الاختصار في الموقف يصل بنا إلى مقارنة حالة الحذف هذه بألوانها المختلفة مع حالة ذكر النون وإثباتها في حالة أخرى، فإذا بلغ الغيظ والألم في نفس النبي ﷺ حدّاً كاد يؤذيه فاقضى الأمر اختصار الموقف وتعزية الرسول بالصبر، فكان حذف النون من الفعل «تك» إشارة إلى ضرورة حذف الضيق من النفس أصلاً وهذا تطيب مناسب لضخامة الأمر وبالغ الحزن وتخفيف الأمر وتهوينه على النفس.

(وللكرماني كلام مشابه لما قيل وقريب منه).

(٢) الجاجي، د. محمد ديب: النسق القرآني، دراسة أسلوبية، ص ٧٥-٧٧ باختصار: ط ١ سنة ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

دار القبلية جدة ومؤسسة علوم القرآن- بيروت.

وارجع إلى البرهان في علوم القرآن للزركشي ص ٤٨٧-٤٨٨. والبرهان في مشابه القرآن- للكرماني ص ٢٢٤ وتفسير الرازي ١٤١/٢٠.

والمقنع في رسم المصاحف للداني ص ٣٧.

والتصوير الفني لسيد قطب ص ١٠٦.

والبقاعي نظم الدرر ج ٧ ص ٣٤٧ وبلاغة الكلمة في التعبير القرآني لفاضل السامرائي ص ٢٤.

«وفي» تفيد الاستغراق والمرية الشك، وحاشاه أن يكون كذلك لكنه التأكيد على مقام العبودية وأن لا أحد فوق القانون وفوق التذكير والأمر والنهي، والضمير في منه عائد إلى معنى القرآن الذي بيناه والمتجلى في الإشارات والضمائر التي عددناها.

إنه الحق من ربك: تأكيد المؤكد لمزيد اليقين والثقة ومراعاة للظرف وضغط الواقع على أعصاب المؤمنين، فالواقع يلقي بأثقاله وظلاله على حملة الحق ودعوة الحق فيحتاجون إلى مثل هذا التوكيد واليقين، وإذا قلنا إن الخطاب للأمة من خلال الرسول ﷺ لم نبعد، وأضاف إلى الحق قوله ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ لمزيد المزيد من التأكيد، وخاصة أن السياق قبل ثلاث آيات فقط كان يعالج قولهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ ويرد عليه بقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ...﴾.

وتعريف «الحق» لإفادة قصر جنس الحق على القرآن، وهو قصر مبالغة لكمال جنس الحق فيه حتى كأنه لا يوجد حق غيره.

ولكن أكثر الناس لا يؤمنون: تكرر في القرآن مثل هذا الحكم، والواو في ولكن عاطفة وتقبل أن تكون استثنائية أو حالية.

ولكن: استدراك، ومعناه أنه برغم وضوح البينات وتجلي الحقائق فإن الغالبية من الناس لا يؤمنون. والإيمان هو التصديق بما جاء به الرسول ﷺ من الدين.

قال الزغشري في كشفه في معنى الآية: «أمن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة أي لا يعقبونهم في المنزلة ولا يقاربونهم، يريد أن بين الفريقين

تفاوتاً بعيداً وتبايناً بيناً، وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره^(١).

كان على بينة ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ أي على برهان من الله وبيان أن دين الإسلام حق، وهو دليل العقل ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ ويتبع ذلك البرهان ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي شاهد يشهد بصحته وهو القرآن، ﴿وَمِنْهُ﴾ من الله أو شاهد من القرآن فقد تقدم ذكره آنفاً ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ ومن قبل القرآن ﴿كَتَبَ مُوسَى﴾ وهو التوراة، أي ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾.

ويواصل الزمخشري فيقول ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ ويتلو من قبل القرآن التوراة^(٢).

﴿وَأَمَّا﴾ كتاباً مؤمناً به في الدين قدوة فيه ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمة عظيمة على المنزل إليهم.

﴿أُولَئِكَ﴾ يعني من كان على بينة ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يؤمنون بالقرآن، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ مِنَ الْأَحْزَابِ يعني أهل مكة ومن ضامهم من المحترزين على رسول الله ﷺ ﴿قَالَتَارُ مَوْعِدُهُ﴾ فَلَا تَكُ فِي رَيْبٍ وهو الشك ﴿وَمِنْهُ﴾ من القرآن أو من الموعد^(٣).

(١) قلت: عبد الله بن سلام أسلم في المدينة وهذه السورة مكية، فتفسير الآية بضربه غير مطابق، إلا إذا قصد تفسير القرآن بما أتى من بعد من حوادث باعتبار ما سيكون لا ما كان أو ما هو كائن الآن، فساعتئذ نلتمس وجهاً للقبول، وإنما نحن نضع احتمالات.

(٢) لما الزمخشري في تفسير يتلو الآن منحي آخر لا بمعنى يتبع وإنما بمعنى يقرأ، وهذا فيما أرى بعيد، وهو يقصد أن الشاهد من بني إسرائيل يقرأ من قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة.

(٣) الكشف ج ٢ ص ٢٦٢-٢٦٣ ط مصطفى الحلبي - القاهرة.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ الفاء: حرف عطف على رأي من يميز عطف الإنشاء على الخبر، وابن هشام يعتبرها للسببية المحضة، وأراها الفصيحة لأنها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: وإذا كان كذلك واقعاً لا محالة، لا: ناهية جازمة»^(١).

قال الشيخ حسنين مخلوف: «أفمن كان على بينة: بيان لحال الذين يريدون بأعمالهم وجه الله تعالى، إثر بيان حال أضدادهم الذين يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا، أي أفمن كان على برهان جلي من ربه يدل على حقية الإسلام وهو القرآن ويؤيده ويقويه شاهد منه على كونه من عند الله وهو إعجازه في نظمه، وكتاب موسى من قبله كمن ليس كذلك؟ لا يستويان، والبينة: القرآن. والثُلُوءُ: التبعية بمعنى التقوية، والشاهد: إعجازه.

والتوراة المؤيدة له، والضمير في منه للقرآن، لإفادة أن إعجازه وصف ثابت له في ذاته غير خارج عنه ومن قبله: حال من كتاب موسى، المعطوف على شاهد وكلمة شاهد أي على تنزيله وهو إعجاز نظمه، فلا تك في مرية منه: أي في شك من كون القرآن نازلاً من عند الله، أو من أن موعدهم النار، والخطاب للرسول والمراد أمته، كما في نظائره، أو لكل من يصلح للخطاب، والمراد: التحريض على النظر الصحيح المزيل للشك». أ. هـ.

قال ابن عاشور: «مَنْ كان على بينة: لا يراد بها شخص معين، فكلية «مَنْ» هنا تكون كالمعرف بلام العهد الذهني صادقة على ما تحققت له الصلة، أعني أنه على بينة من ربه، وبدون ذلك لا تستقيم الإشارة».

قال أبو حيان: «وَالَّذِي يَظْهَرُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ آيَةِ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ الْكُفَّارَ وَأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا النَّارُ، أَغْشَبَ بَصِيْدَهُمْ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ، وَهُمْ الَّذِينَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ، وَالشَّاهِدُ الْقُرْآنُ، وَمِنْهُ عَائِدٌ عَلَى رَبِّهِ. وَيَذُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّاهِدَ الْقُرْآنُ ذِكْرُ قَوْلِهِ: وَمِنْ قَبْلِهِ، أَي: وَمِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ كِتَابُ مُوسَى، فَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ تَضَافَرُ عَلَى هِدَايَتِهِ شَيْئَانِ: كَوْنُهُ عَلَى أَمْرٍ وَاضِحٍ مِنْ بُرْهَانِ الْعَقْلِ، وَكَوْنُهُ يُوَافِقُ ذَلِكَ الْبُرْهَانَ هَذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ الْإِلَهَيْنِ الْقُرْآنَ وَالتَّوْرَةَ، فَاجْتَمَعَ لَهُ الْعَقْلُ وَالنُّقْلُ»^(١).

وقال السعدي: «يذكر تعالى، حال رسوله محمد ﷺ ومن قام مقامه من ورثته القائمين بدينه، وحججه الموقنين بذلك، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم ولا يكون أحد مثلهم، فقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ بالوحي الذي أنزل الله فيه المسائل المهمة، ودلائلها الظاهرة، فتيقن تلك البينة. وَيَقْلُوبُهُ: أَي: يتلو هذه البينة والبرهان برهان آخر شَاهِدٌ مِنْهُ: وهو شاهد الفطرة المستقيمة، والعقل الصحيح، حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه، وعلم بعقله حسنه، فازداد بذلك إيماناً إلى إيمانه. وَ: ثم شاهد ثالث وهو كِتَابُ مُوسَى: التوراة... أفمن كان بهذا الوصف قد تواردت عليه شواهد الإيمان، وقامت لديه أدلة اليقين، كمن هو في الظلمات والجهالات، ليس بخارج منها؟ لا يستوون عند الله»^(٢).

من دروس الآية ١٧:

١- العيش على بينة هو العيش والعيش في العمى والتهيه عين الموت.

٢- هذا القرآن شواهد صدقه من داخله وفي طياته وتطبيقاته.

٣- كُتِبَ اللهُ غَايَتَهَا وَاحِدَةً: الهدى والرحمة.

(١) أبو حيان، البحر المحيط، ج ٦، ص ١٣٥.

(٢) تفسير السعدي، ص ٣٧٩.

- ٤- برغم وضوح حقائق الدين فإن أكثر الناس لا يؤمنون.
- ٥- إن هذا القرآن لا يتدوقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة ويواجه مثل تلك المواقف.

الآية ١٨:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

الربط والمناسبة: افتتحت الآية (١٥) بقوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ...﴾ والآية (١٧) ﴿أَتَمَنَّكَ...﴾ والآن هذه الآية مفتحة أيضاً بقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ...﴾ فهي من هذه الناحية الظاهرية نسق، وأما من الناحية المعنوية فإن السياق كان يتكلم عن الكافرين الذين يتهمون الرسول ﷺ يقولهم إنه افتراه، وهم في هذا هم المفترون، وفي هذه الآية تهديد لهم بأنهم أظلم الخلق لأنهم ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وثالثاً فإن الآية السابقة تضمنت قوله تعالى ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وفي هذه الآية ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ فالشهادة والشهود في الآيتين.

وهذه الآية (٢٣) كلمة و(٩٨) حرفاً وترتيبها (١٤٩١).

المعنى: ومن أظلم: تكررت هذه الصيغة في القرآن مرات^(١) وتنوع ما بعدها.

(١) وردت صيغة أظلم بضم ميم آخره أفعّل تفضيل ١٦ مرة كلها مقترنة بكلمة ومن أو فمن عدا مرة واحدة في قصة قوم نوح: ﴿وَقَوْمٌ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَيْهِمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَمَ﴾ [النجم: ٥٢] وورد أظلم مرة بفتح الميم فعلاً.

والواو للعطف أو الاستئناف ومن: اسم موصول مستخدم هنا في معنى الاستفهام.

أظلم: أفعّل التفضيل وكثرة الصفات المدخلة في هذه الأظلمية للدلالة على إن كل واحد منها يجعل صاحبه أظلم.

فمنع مساجد الله يجعل المانع أظلم، وافتراء الكذب على الله يجعل المفتري أظلم.. وهكذا.

من: أصلها من مَن، أدغمت فصارت ممن.

معناها: من الذي.

افترى على الله كذباً: اختلق الكذب على الله وادعاه ونسبه إلى الله تعالى الله.

أولئك: اسم الإشارة لاستحضارهم بجرمتهم التي سجلتها الكلمات السابقة من الآية.

يعرضون على ربهم: وكفى بهذا عقوبة مهولة مرعبة أن تعرض على الله متلبساً بجريمة الافتراء عليه! تخيل لو أن شخصاً افترى على مسؤول كبير فرية ثم جيء به أمامه، ما يكون موقفه؟ فكيف إذا تصورت أنه المثل بين يدي الله ملك الكون سبحانه.

وقال ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ولم يقل على الله، مع أنه قال في البداية افترى على الله، أرى أنه أولاً حتى لا يكرر، وثانياً أن الافتراء على من يتعهدك ويربيك ويرزقك وينميك فظيع ولا يليق.. فهو ادعى لخنجلة مرتكب الفعل، وثالثاً فيما أرى ليجمع بين الاسمين الكريمين: الله والرب، سبحانه.

ويقول الأشهاد: ويقول الشهود في ساحة القضاء في الآخرة، وإما أنهم الملائكة الذين كانوا يكتبون كل صغيرة وكبيرة وإما أنهم البشر الذين كانوا حاضري تلك

الفعلة، وإما أنهما معاً ومعهم الرسل فهذا أجمع، وأضف إليه أن شهودهم أيضاً جلودهم وأيديهم وأرجلهم.

هؤلاء الذين كذبوا على ربهم: هؤلاء: اسم الإشارة للقريب لضبطهم متلبسين وتعيينهم وتحديدهم وتشخيصهم مسربلين بخزيهم مستحضرين جريرتهم وجريمتهم.

الذين: الاسم الموصول وصلته للغرض ذاته الذي ذكرناه في الكلمة السابقة. كذبوا على ربهم: صلة الموصول، وهي الجريمة التي قطعت صلتهم برحمة الله، وعفو الله.. فالكذب على الله من أكبر الكبائر، وعبر بقوله ربهم لمزيد استحضار بشاعة جرمهم فهو الذي يربيههم وهم يفترون عليه ويكذبون. ألا لعنة الله على الظالمين: ألا: أداة استفتاح.

وما بعدها حملة خبرية من مبتدأ وخبر، واللجنة: الطرد والإبعاد من رحمة رب العباد.. وإضافتها أعطتها مزيداً من الرهبة والقوة.

على الظالمين: تغشاهم وتجللهم وتأتيهم من فوقهم فتسربلهم.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «القول: يطلق على خمسة معان: أحدها اللفظ الدال على معنى، الثاني حديث النفس ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾ الثالث: الحركة والإمالة، يقال: قالت النخلة أي مالت، الرابع ما يشهد به الحال كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَئِنَّمَا طَائِفَتَانِ﴾ الخامس الاعتقاد كما تقول: هذا قول المعتزلة أي ما يعتقدون»^(١).

قال الشيخ مخلوف: «ومن أظلم ممن افترى: بعد أن بين الله تعالى حال المؤمنين المتصفين بالصفة الحميدة السابقة، بين حال الكافرين، وذكر من أوصافهم أربعة عشر وصفاً، أولها: افتراء الكذب، وآخرها: الخسران في الآخرة، كذبوا على الله تعالى بنسبة ما يستحيل عليه من الشريك والولد، ويقول الأشهاد: أي الحاضرون في موقف العرض والحساب، وهم الملائكة مطلقاً، أو الحفظة منهم، أو الملائكة والأنبياء والمؤمنون، والأشهاد جمع شاهد أو شهيد بمعنى حاضر. أ. هـ».

قال في التحرير: «والإتيان بالموصول في الخبر عنهم إيماء إلى سببية ذلك الوصف الذي في الصلة فيما يرد عليهم من الحكم وهو ﴿أَلَا لَعَنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ على أن المقصود تشهيرهم دون الشهادة، والمقصود من إعلان هذه الصفة التشهير والخزي لا إثبات كذبهم لأن إثبات ذلك حاصل من صحف أعمالهم، ولذلك لم يسند العرض إلى أعمالهم وأسند إلى ذواتهم في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾».

قال ابن عطية: «وَمَنْ استفهام بمعنى التقرير، وكأنه قال: لا أحد أظلم ممن افترى كذباً، والمراد بمن: الكفرة الذين يدعون مع الله إلهاً آخر ويفترون في غير ما شيء، وقوله: أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ: عبارة عن الإشادة بهم والتشهير لخزيهم وإلا فكل بشر معروض على الله يوم القيامة. وقوله: يَقُولُ الْأَشْهَادُ: يريد الشهداء من الأنبياء والملائكة، فيجيء قوله: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ: إخباراً عنهم وشهادة عليهم»^(١).

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج ٣، ص ١٥٩.

من دروس الآية ١٨:

- ١- جريمة الكذب والافتراء على الله جريمة عظمى، وإذا كان الكذب على العباد جريمة فكيف على رب العباد.
- ٢- الشهود للشهادة حاضرون وهم الوجود كله أرضاً وسماءً وحواسهم ذاتها والملائكة المرافقون ومن حضر فعلتهم أو ناله الأذى منهم.
- ٣- لعنة الله الطرد من رحمته، والظلم والكذب على الله وعباده يتسبب في الوقوع في دائرتها.
- ٤- تحليل ما حرم الله صورة من صور الكذب على الله والصور بلا عدد.
- ٥- الظالمون هم المشركون الذين يفترون على ربهم ليصدوا عن سبيله.

الآية ١٩:

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كُفْرُونَ﴾ (١٩)

الربط والمناسبة: انتهت الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وهم من تحدثت عنهم الآية ذاتها، وهذه الآية تكمل الحثيثات التي من أجلها لعنوا، وهي تتحدث هنا عن صدهم عن سبيل الله ودعوته ودينه، وإكراه الناس على الكفر وكفرهم بالدار الآخرة الذي يترتب عليه ما لا يتناهى من الجرائم، ف﴿الَّذِينَ﴾ في الآية السابقة هم ذاتهم ﴿الَّذِينَ﴾ في هذه الآية، ثم إن السابقة سجلت ظلمهم وهذه سجلت كفرهم.

وهذه الآية (١١) كلمة و(٥٠) حرفاً وترتيبها (١٤٩٢).

المعنى: الذين: استعمال الاسم الموصول لاستحضار ما في حيّزه من الصلة، فيؤتى بالشخص مقترناً بصلة اسمه الموصول إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

يصدون: والصد: المنع والرد والمقاومة والإعاقة والتضييق.. واستعمال الفعل المضارع لإفادته الاستمرارية، التي هي واقعهم الفعلي.

عن سبيل الله: عن متعلقة بيصدون، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ والسبيل: الطريق مطلقاً، فإذا أضيف إلى الله فهو الطريق المرضي منه والوصول إلى مرضاته، فمن سار فيه كان مرضياً ومن صد عنه كان عن الرحمة قصياً، وسبيل الله من مبتكرات القرآن، ونستعير المصطلح من ابن عاشور علامة تونس والعالم العربي والإسلامي، ولا أدري أعداً الكلمة هذه من المبتكرات أم لا. ويغونها عوجاً: ويريدونها أي السبيل معوجة مائلة حائدة عن وجهتها التي لا يريدوها الله إلا مستقيمة لا عوج فيها.

وضمير المؤنث في قوله ﴿وَيَبْغُوهَا﴾ عائذ على سبيل الله لأن السبيل يجوز اعتباره مؤنثاً.

والمعنى: أنهم يبغون أن تصير سبيل الله عوجاء.

وهم بالآخرة هم كافرون: كرر «هم» لمزيد التسجيل عليهم واستحضارهم بجرمتهم وتعينهم بأعيانهم.

وعقيدة الآخرة والتوحيد هما الدين كله، وتوحيد الإله بلا اعتقاد بالمثل بين يديه للحساب في الآخرة تفرغ من كل مضمون وتفقد كل تأثير، وتسلب كل معاني جدية العقيدة، وقد كان عرب الجاهلية لا يجادلون كثيراً في وجود الإله، بل يعترفون بوجوده ويعظمون بيته، لكن الذي كان يقف حجر عثرة في سبيل إيمانهم

هو عقيدة الآخرة، لأنها تمثل الجدلية والالتزام، فأنى يقرون بها، لأنهم يعون ما تعني وهم لا يريدون الامتثال لما تعني..

وهل ما سبق من أول الآية هو نتيجة لخاتمة الآية أم سبب؟

بمعنى هل الصد عن سبيل الله ناشئ عن كفرهم بالآخرة، أم كفرهم بها ناشئ عن الصد عن سبيل الله؟

الحقيقة أن الأمرين صحيحان، وهذه هي العلاقة الجدلية كما يسميها أصحاب النظرية الديالكتيكية الجدلية.. ولسناستعير منها، لكن اللغة مشاع وليست حكرأ على جهة أو أحد.

وكلمة كافرون تعني أنهم منكرون، والجذر يعني التغطية وهي بالإنجليزية ذات الكلمة فيقولون (cover) بمعنى غطى، وهو المعنى ذاته عندنا ونحن الأصل والقصد من هذا أن الكافر يغطي فطرته والحقيقة الصارخة الواضحة.. ليمضي ما في ذهنه الخرب من فساد وخراب وعدوان.

قال مخلوف: «ويغونها عوجاً: يطلبون سبيل الله مغلوطة».

قال الزمخشري: «يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة، أو ييغون أهلها يعوجوا بالارتداد و«هم» الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة».

من دروس الآية ١٩:

- ١- الصد عن سبيل الله جريمة عظمية فكيف تمنع عباد الله عبادة الله؟
- ٢- الصد عن سبيل الله يعني بصورة تلقائية أن فاعل الصد يريد الحياة أن تمشي معوجة والأمور كلها في هذه الدنيا.
- ٣- الكفر بالآخرة أساس كل شر وكل بلية وجريمة ولو استحضرت العتاة هول الحساب ودقته لارتدعوا.

٤ - العقيدة الفاسدة تنشئ تلقائياً سلوكاً منحرفاً فاسداً.

٥ - لا استقامة إلا في منهج الله ودين الله.

٦ - لا تنتج الدينونة لغير الله سبحانه إلا العوج في كل جانب من جوانب النفس وجوانب الحياة.

الآية ٢٠:

﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾

الربط والمناسبة: افتتحت الآية (١٦) بكلمة أولئك كما هنا وفي الآية ذاتها هناك تكررت ﴿مَا﴾ مرتين وهنا تكررت ﴿مَا﴾ ٣ مرات، فأيتنا نسق مع السياق العام، أما اتساقها وتناسبها مع الآية السابقة مباشرة، فهي متصلة تمام الاتصال فذلك كانت مفتحة بـ ﴿الَّذِينَ﴾ وهذه مفتحة بـ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ تشير إلى ﴿الَّذِينَ﴾ أي إلى مواصفاتهم كما في الآية السابقة فبينهما كمال اتصال وتماثل.

وهذه الآية (٢٤) كلمة و (٩٩) حرفاً وترتيبها (١٤٩٣).

المعنى: أولئك: اسم الإشارة ليشير إليهم بجنابات جرمهم كما بينها السياق قبل.

لم يكونوا معجزين في الأرض: أي برغم أنه كان لهم جهد في الصد عن سبيل الله لكنهم لم يكونوا معجزين ولا غالبين، والدليل الملموس المحسوس أن الدين انتشر وانتصر وجهدهم غبر واندثر وما أثر.. فهل بعد هذا محتاج إلى دليل؟ ومعنى معجزين غالبين قاهرين منتصرين.. ومعاذ الله أن يكونوا بل هم العاجزون

المغلوبون المقهورون.. وصدق شاعر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين وفيهم كثرة من الشعراء على ما هي سليقة العرب، صدق إذ قال: «وليغلبن مغالب الغلاب» وما أجملها وأجمعها وأوجزها كلمة!

في الأرض: ظاهرها مطلق، وهي في حقيقتها مخصوصة مقيدة أي بالأرض التي كانت فيها الدعوة وكان فيها الصد عن هذه الدعوة. ولو قلنا في الأرض مطلقاً كان صحيحاً أيضاً.. بالطبع بل بالأولى.

فمن عجز في الأرض المحصورة المحدودة، أفيعجز في الأرض الواسعة المفتوحة المطلقة على مستوى العالم؟ بالطبع والقطع لا.

وما كان لهم من أولياء: وليس لهم ناصر ولا مغيث ولا من يتقون به أو بمدده، ولا ولي يواليهم.

من دون الله: فلا يقف أمام الله أحد، وطالما أنهم لم يوالوا الله، فمهما كان أولياؤهم فهم أمام الله لا شيء.. وليس كلا شيء فحسب.. بل لا شيء.

يضاعف لهم العذاب: يضاعف: لم يحدد السياق كم يضاعف بل جاء النص مفتوحاً وأول الضيعف اثنين من الأصل ثم إلى ما لا نهاية..

وطالما أن النص لم يحدد فهو على أفقه الواسع على مراد الله..

فكلما أضلوا واحداً انضاف إلى رصيدهم، وأصحاب النظريات الإلحادية أو العلمانية أیظنون أن كل ضال يضل لا ينالهم من ضلاله نصيب؟ ساء ما يحكمون!

ما كانوا يستطيعون السمع: ما موقع هذه الكلمة؟ وهل هي سبب أم نتيجة؟ وحقيقة أم مجاز؟ اما أنها حقيقة فهم حقيقة يسمعون ولكنهم لما صموا عن سماع الحق كانوا لا يسمعون، والسمع إذا صم عن الحق ففيم هو؟ وفيم وجوده إن وجوده وعدمه حيثئذ سواء، فهي مجاز.

ونضيف سؤالاً رابعاً: هل هي في الدنيا أم في الآخرة؟

واعتقد أن الكلام عنهم في هذه الدار أمام هذه الدعوة.

وأما أنها نتيجة أم سبب فكما قلنا في السابقة أنها نتيجة وسبب، وبعد هذا يكون موقعها واضحاً، أي أنها تفسر عجزهم وتفسر عدم استجابتهم وتفسر أشياء كثيرة من شؤونهم التي حدثتنا عنها الآيات. ولاحظ أن النفي ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ وليس ما كانوا يسمعون، وواضح أن الصيغة القرآنية أبلغ، فقد لا يسمع الإنسان لا عن عدم استطاعة ولكن لضعف الصوت أو تشوشه كما في المحطات.. ولكن الشخص سميع فهنا نفى الاستطاعة من الأصل والمصدر. وما كانوا يبصرون: ولم يكرر نفي الاستطاعة لحصولها بالمجاورة والعطف مع تقديرها دون حاجة لتكريرها.

وما قيل عن نفي السمع لا نكرره هنا فهو ذاته الذي قيل هناك فلا حاجة للتكرار ولا داعي لقرب الذكر وعدم مغادرة الفكر لقرب عهدها.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: ﴿﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾﴾ أي ما كانوا يستطيعون في الدنيا أن يسمعوا سمعاً ينفعهم مع كونهم لهم آذان وما كانوا يبصرون الحق مع كونهم لهم عيون، وذلك لشدة بغضهم النبي ﷺ وشدة عداوتهم له، فلم يكن عندهم استعداد لأن يسمعوا سماع قبول ولا أن يبصروا تبصر اهتداء وانتفاع^(١).

قال مخلوف: «معجزين: مفلتين أنفسهم من عذابه لو أراد الله ذلك».

قال الزمخشري: «وما كان لهم من دون الله من أولياء: وما كان لهم من أولياء أنهم جعلوا ألهتهم أولياء من دون الله، وولايتها ليست بشيء، فما كان لهم في الحقيقة من أولياء».

قال ابن عاشور: «ما كانوا يستطيعون السمع: لأنهم لو سمعوا ووعوا لاهتدوا لأن الكلام المسموع مشتمل على تركيب الأدلة ونتائجها فسماعه كاف في حصول الاهتداء».

قال ابن الجوزي: «قال ابن الأنباري: لما كانت عادة العرب جارية بقولهم: لا وَرَرَ لك مني ولا تَفَقْ، يعنون بالوزر: الجبل، والتفق: السرب، وكلاهما يلجأ إليه الخائف، أعلم الله تعالى أن هؤلاء الكافرين لا يسبقونه هرباً، ولا يجدون ما يحجز بينهم وبين عذابه من جميع ما يستر من الأرض ويلجأ إليه. قال: وقوله: مِنْ أَوْلِيَاءَ: يقتضي محذوفاً، تلخيصه: من أولياء يمنعونهم من عذاب الله، فحذف هذا لشهرته»^(١).

من دروس الآية ٢٠:

- ١- قد يبدو الكفر ظاهراً قاهراً وإنما هي فترة وجيزة وشبكة الزوال، ومهما طالَت في نظر البشر فهي قصيرة في نظر من يعون دورات الحضارات وتفكك القوى والأمم.
- ٢- لا ولي على الحقيقة إلا الله، ولا ولاية مستمرة إلا ولايته أما باقي الأولياء فولايتهم خذلان متقلبة وغير مضمونة، وغير مجدبة إذا كان الله لا يريد لها ذلك.
- ٣- تعطل الحواس عن إدراك الحق مصيبة تلحق بالإنسان.
- ٤- الكافرون عاشوا معطلي المدارك مغلقي البصائر كأن لم يكن لهم سمع ولا بصر.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير، ج ٢، ص ٣٦٥.

الآية ٢١:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾

الربط والمناسبة: افتتحت السابقة بأولئك وهذه كذلك، لكن تلك بينت حيثيات واقعهم، وهذه بينت نتيجتهم وهي الخسران فبينهما تمام الاتصال شكلاً وموضوعاً.

وهذه الآية (٩) كلمات و(٤١) حرفاً وترتيبها (١٤٩٤).

المعنى: أولئك الذين خسروا أنفسهم: هم كانوا يريدون أن يكسبوها ويربجوها أي الأنفس ولكنهم كانوا يسرون في الطريق المعاكس أي السائر باتجاه الخسران فحصدوا الخسار والبوار، واسم الإشارة أولئك لاستحضارهم بهذه الحثيثة.

وخسارتهم هي كناية عن إدخالها جهنم وهم كانوا يسعون جاهدين لسعادتها وراحتها فاي غفلة وأي ذهول هم فيه غارقون؟ والخسران الحقيقي هو خسران الأنفس فما ينفع المتاع والممتع مفقود؟ هذا إن افترضنا وجود المتاع، أما الواقع فهو فقدانهما النفس المتمتعة بالمتاع، والمتاع كله في ضياع، فهل بعد هذا خسران؟

وكثيرة الآيات في هذا المعنى ﴿قَدْ إِنَّ لِّلْخٰسِرِيْنَ الَّذِيْنَ خَسِرُوْا اَنْفُسَهُمْ وَآهْلِيْهِمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ ۖ﴾.

وضل عنهم ما كانوا يفترون: وتاه عنهم ما كانوا يدعون من آلهة ونصرة وشيع وأحزاب وقوى عالمية يستندون إليها.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «الذي يخسر نفسه لا يفيد شيئاً مما كسب غيرها والذين خسروا أنفسهم فأضاعوها في الدنيا. لم يحسوا بكرامتهم الآدمية التي تتمثل في الارتفاع عن الدينونة لغير الله من العبيد كما تتمثل في الارتفاع عن الحياة الدنيا مع المتاع بها إلى ما هو أرقى وأسمى».

قال الزمخشري: «اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله فكان خسرانهم في تجارتهم ما لا خسران أعظم منه، وهو أنهم خسروا أنفسهم».

قال ابن عاشور: «أي إذا بلغكم أن قوماً خسروا أنفسهم فهم المقترون على الله كذباً، وخسارة أنفسهم عدم الانتفاع بها في الاهتداء، فلما ضلوا فقد خسروها».

قال البيضاوي: «خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِاشْتِرَاءِ عِبَادَةِ الْآلِهَةِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَضَلُّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ مِنَ الْآلِهَةِ وَشَفَاعَتِهَا، أَوْ خَسَرُوا بِمَا بَدَلُوا وَضَاعَ عَنْهُمْ مَا حَصَلُوا فَلَمْ يَبْقَ مَعَهُمْ سِوَى الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ. لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ لَا أَحَدَ آيِنَ وَأَكْثَرَ خَسِرَاناً مِنْهُمْ»^(١).

من دروس الآية ٢١:

- ١- الخاسر الأعظم والخاسر الحقيقي من خسر نفسه.
- ٢- ما ينفعك أنك جمعت الدنيا بخذافيرها وخسرت الآخرة.
- ٣- كل نعيم الدنيا خيال وإلى زوال واضمحلال.
- ٤- لن ينفع في الآخرة أحد أحداً.
- ٥- ما أسوأ النظريات والافتراضات التي يخترعها الناس ثم تتكشف عن سراب.

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل، ج ٣، ص ١٣٢.

الآية ٢٢:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ (٢٢)

الربط والمناسبة: تكلمت السابقة عن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وهذه تأكيد للحقيقة ذاتها فتقول إنهم ليسوا خاسرين فقط بل هم الأخسرون. وهذه الآية (٧) كلمات و(٢٨) حرفاً وترتيبها (١٤٩٥).

المعنى: لا جرم: لا ريب ولا شك.

أنهم في الآخرة هم الأخسرون: أن هؤلاء الذين تحدثت عنهم الآية السابقة وسابقتها في الآخرة التي لم يكونوا يؤمنون بها بل كانوا بها كافرين أنهم فيها هم الأخسرون أي أخسر الناس وأبينهم خسراناً.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «لا جرم: في إعراب هذا اللفظ أربعة أقوال: نأخذ منه.. أن معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾ لا حد ولا منع ولا صد، ويكون جرم بمعنى القطع.. تقول: جرمت كذا أي قطعته.

أي لا منع من خسرانهم وهذا القول عزاه مكي للكسائي»^(١).

قال ابن عاشور: «فكانوا أخسرين لأنهم اجتمعت لهم خسارة الدنيا والآخرة».

قال الزمخشري: «لا ترى أحداً أئين خسراناً منهم».

قال مخلوف: «لا جرم: وردت هذه الكلمة في خمسة مواضع متلوة بأن واسمها وليس بعدها فعل، وجهور النحاة على أنها مركبة من لا وجرم تركيب خمسة عشر ومعناها بعد التركيب معنى فعل وهو: حق وثبت والجملة بعدها فاعله أي حق وثبت كونهم في الآخرة أنهم الأخسرون، وقيل: لا نافية للجنس وجرم اسمها وما

(١) إعراب القرآن للدرة المجلد السادس صفحة ٢٦١.

بعدها خبرها والمعنى لا محالة في أنهم في الآخرة هم الأخسرون أي في خسرانهم.
أ. هـ.

وقال العز بن عبد السلام: «لا جَرَمَ: لا بد، أو لا صلة، جرم: حقاً، أو لا نفي
لدفع العذاب عنهم، ثم استأنف جرم بمعنى كسب أي كسبوا استحقاق النار، قال:
نصبنا رأسه في رأس جذع بما جرمت يده وما اعتدينا»^(١).

من دروس الآية ٢٢:

- ١- كل الناس يسعى للربح والسعيد الموفق من وفق للطريق.
- ٢- قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم
يحسبون أنهم يحسنون صنعا.
- ٣- كيف يغفل الناس عن أخطر الحقائق المتصلة بهم؟

الآية ٢٣:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَاجْتَمَعُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

الربط والمناسبة: ما أجل موقع هذه الآية في نهاية ربع، وعقب الحديث عن
نتيجة الكافرين وأنهم الأخسرون، فجاءت هذه تبين مصير المؤمنين وأنهم
الفائزون.

(١) سلطان العلماء - العز بن عبد السلام، تفسير القرآن (اختصار تفسير الماوردي)، ج ٢، ص ٨٥. وفي المصباح
النير: ص ١٣٤: قال الفراء: هي في الأصل بمعنى لا بد ولا محالة ثم كثرت فحولت إلى معنى القسم وصارت
بمعنى حقاً ولهذا يجاب باللام نحو: لا جرم لأفعلن.

وهذه الآية (١٤) كلمة و(٦٤) حرفاً وترتيبها (١٤٩٦).

المعنى: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات: كلام عن المؤمنين مفتوح بالتأكيد وأداته الأولى ﴿إِنَّ﴾ وأول خطوات الفوز بالإيمان وأول ثمرات الإيمان عمل الصالحات.

والصالحات مفهوم شامل مطلق مفتوح متنوع واسع بلا حدود.

وأخبتوا إلى ربهم: أنابوا إلى الله الذي يربيههم ورجعوا.

وكما أشير بأولئك إلى السابقين يشار باسم الإشارة ذاته ﴿أُولَئِكَ﴾ لكن هذه المرة للفائزين.

أولئك أصحاب الجنة: تملكة لهم مقرّون فيها.

هم فيها خالدون: باقون لا ينزعون ولا يخرجون ولا يغادرون إلى ما لا نهاية فلا النار تنفى ولا الجنة، والكفار لا يغادرون النار أبداً والمؤمنون لا يغادرون الجنة أبداً.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ» أنابوا وأطاعوا خشعوا وخضعوا، والإخبات الخشوع للمخافة الثابتة في القلب، من الخبت: وهو الأرض المستوية الواسعة^(١).

قال النسفي: «وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ»: اطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع، من الخبت، وهي الأرض المطمئنة^(٢).

(١) الدرة المجلد السادس صفحة ٢٦٢.

(٢) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج ٢، ص ٥٣.

قال مخلوف: «بيان لأحوال المؤمنين في الدنيا وربهم في الآخرة إثر بيان أحوال الكافرين في الدنيا وخسرانهم في الآخرة، وأخبتوا: اطمأنوا، وأصل الإخبات: نزول المطمئن من الأرض ثم أطلق على الاطمئنان والخشوع تشبيهاً للمعقول بالحسوس ثم صار حقيقة فيه ويعدى إلى واللام».

من دروس الآية ٢٣:

- ١- بالضد تميز الأشياء ومن عادة القرآن إذا تحدث عن أهل الجنة أن يعقبهم يذكر أهل النار أو العكس.
- ٢- الإيمان أول عناوين الاستقامة على صراط الله المستقيم.
- ٣- أول دلائل الإيمان وثمراته عمل الصالحات.
- ٤- عمل الصالحات مفهوم واسع شامل لكل خير.
- ٥- الجنة والنار باقيتان بلا نهاية.. هذه عقيدتنا.
- ٦- الإخبات الطمأنينة والاستقرار والثقة والتسليم هو حال المؤمنين.

الآية ٢٤:

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْرَ وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٤)

الربط والمناسبة: بعد أن تكلم السياق عن الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله والمؤمنين الذين أختبوا إلى ربهم تحدثت هذه الآية عن الفريقين فقالت ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ وقالت الآية (٢٠) عن الكافرين ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا

يُصِيرُونَ ﴿ فضربت لهم هذه الآية المثل بالأعمى والأصم أما المؤمن فمثله مثل البصير والسميع فتأمل!.

وهذه الآية (١١) كلمة و(٦١) حرفاً وترتيبها (١٤٩٧).

المعنى: أمثال القرآن من أروع ما في القرآن وكله الروعة المطلقة الكاملة والأمثال ليس كمثليها يقرب المعنى إلى الأذهان ويغرسها في الوجدان، ويقربها من العقل ويحفز الهمم لالتزام القيم المطلوبة.

وافتححت هذه الآية بالتصريح بالمثل، وقد يأتي المثل دون التصريح بلفظ المثل صريحاً.. فقالت هنا:

مثل الفريقين: أي صورة الفريقين ونموذجهما هذا النموذج الذي سيعرض وأما الفريقان فقد ذكرهما السياق السابق بوضوح حاسم فأراد المولى أن يزيد الأمر وضوحاً وبياناً وقوة فجاء هذا المثل. والفريق: الجماعة التي تفارق، أي: تحالف حالها حال جماعة أخرى في عمل أو نحلة.

كالأعمى والأصم: والأعمى الذي فقد القدرة على الرؤية والأصم من فقد حاسة السمع، وهذا مثل الذين قال عنهم القرآن في السياق المذكور آنفاً: ﴿مَا كَانُوا بِسَتِّيطِعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ فهم إذاً صم بكم، وأما المؤمن فقد استجاب للحق لما سمع الآيات وآمن لما رأى الآيات فهو سميع بصير أو بنص الآية ﴿وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ﴾. وفي مقابلة ﴿كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى﴾ بـ ﴿وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ﴾ محسن الطباقي.

هل يستويان مثلاً: وهم بالقطع لا يستويان أو لا يستويان إذ هما فريقان، وهذا في بدائه العقول مقرر معقول ومقبول ولا ينازع فيه، وإنما الجديد الآن نقل هذا

المعنى من التسليم النظري إلى الموضوع الذي قد يتنازع فيه أو عليه وهو قضية الإيمان والكفر.

ولا يختلف اثنان أنهما لا يستويان، فكيف لم نطفنوا إلى تعدية المثل ومعناه ومقتضاه إلى القضية العقلية والإيمانية.

أفلا تذكرون؟: والهمزة للاستفهام والفاء للعطف وبينهما محذوف معطوف عليه، ولا للنفي، والمراد بالاستفهام التحضيض على المسؤول عنه، وعبر بالذكر لأن القضية بديهية لا تحتاج إلى إقناع بل إلى مجرد التذكير.

وقد تضمنت الآية على قصرها، استفهامين متتاليين: هل يستويان مثلاً ثم قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

والسؤال للمقصود مخاطبتهم وهم من لم يؤمنوا حتى لحظة تنزل هذه الآيات.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا» قال الفراء: لم يقل هل يستويان: لأن الأعمى والأصم في حيز كأنهما واحد، وهما من وصف الكافر: والبصير والسميع في حيز كأنهما واحد وهما من وصف للمؤمن^(١).

قال ابن عاشور: «شبه حال فريق الكفار في عدم الانتفاع بالنظر في دلائل وحدانية الله الواضحة من مخلوقاته بحال الأعمى، وشبه في حال عدم الانتفاع بأدلة القرآن من هو أصم.

وشبه حال فريق المؤمنين في ضد ذلك بحال من كان سليم البصر، سليم السمع فهو في هدى وبقين من مدركاته».

قال ابن جزي: «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ: يعني المؤمنين والكافرين كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ: شبه الكفار بالأعمى والأصم، وشبه المؤمنين بالبصير والسميع،

نعود إلى تناسب الآية مع سياقها، فبعد أن تكلم السياق عن فريقين المؤمنين والكافرين ومصير كل وحسم أمرهما بمثل قاطع الدلالة مقنع للعقل، مرضٍ للمنطق والحجة.. انتقل بعد كل هذا إلى القصص، والقصص والأمثال قريب من قريب، فكلاهما أروع ما يجلي المعاني، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن قصة نوح ستجلي النموذجين: المؤمنين والكافرين أتم تجلية، فابن نوح أصر على عناده والأرض تمور من حوله وتندفق عيوناً غير مسبوقة ولا معهودة والتحذير يصم آذانه وهو راكب مركب العناد واللجاجة كأنه لا يسمع ولا يرى.. فانسق السياق أي اتساق!

وهذه الآية (٩) كلمات و(٣٥) حرفاً وترتيبها (١٤٩٨).

المعنى: ولقد: الواو للاستئناف أرجح وللعطف موضوعاً على موضوع تجوز واللام للقسمة أو الموطئة له والدالة عليه، وقد للتحقيق.

أرسلنا نوحاً إلى قومه: حملنا رسالتنا ووحينا لعبدنا نوح إلى قومه وهم الذين عاش بينهم ويعرفهم ويعرفونه، وهم في فجر الحياة البشرية مع بدايات تشكل الجماعات والمجتمعات والأقوام.

إني لكم نذير مبين: أي فحوى رسالته لهم قوله ما سجلته الآية إني يا قومي لكم أنتم لا لغيركم وأنتم من تعرفوني، نذير: منذر يحذر من سوء عواقب ما أنتم فيه، مبين: واضح الإنذار لا لبس فيما أقول ولا تعمية ولا تعقيد، بل كلام بسيط مفهوم، والتحذير واضح أن الكفر والشرك عواقبه في الدنيا والآخرة وخيمة وبيلة، وإن الظالم لا يؤدي إلا إلى سوء النتائج.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني: ولم يقل (قال إني) لأن التعبير القرآني يحبي المشهد فكأنما هو واقعة حاضرة لا حكاية ماضية، وكأنما هو يقول لهم الآن ونحن نشهد ونسمع، هذا من ناحية، ومن ناحية

أخرى يلخص وظيفة الرسالة كلها «إني لكم نذير مبين» وهو أقوى في تحديد هدف الرسالة.

قال ابن عاشور: «انتقال من إنذار المشركين ووصف أحوالهم وما ناسب ذلك إلى موعظتهم بما أصاب المكذبين قبلهم من المصائب، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ بما لاقاه الرسل عليهم السلام قبله من أقوامهم».

يقول الشيخ محمد طه الدرة في إعراب ﴿وَلَقَدْ﴾ الواو: حرف قسم وجر والمقسم به محذوف وتقديره والله، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره، أقسم اللام: واقعة في جواب القسم، قد: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال^(١).

قال أبو حيان: «هَذِهِ السُّورَةُ فِي قَصَصِهَا شَبِيهَةٌ بِسُورَةِ الْأَعْرَافِ بِدَيْءِ فِيهَا بَنُوحٌ، ثُمَّ يَهُودٌ، ثُمَّ بَصَالِحٌ، ثُمَّ بَلُوطٌ، مُقَدِّمًا عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمَ بِسَبَبِ قَوْمِ لُوطٍ، ثُمَّ بِشَعِيبٍ، ثُمَّ بِمُوسَى وَهَارُونَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ... [ثم قال]: أَلِيمٌ صِفَةُ مُبَالِغَةٍ مِنَ الْأَلَمِ، وَهُوَ مِنْ كَثَرِ أَلَمِهِ. فَإِنْ كَانَ أَلِيمٌ بِمَعْنَى مُؤْلِمٍ، فَتَنَسَّبَتْهُ لِلْيَوْمِ مَجَازًا، وَلِلْعَذَابِ حَقِيقَةً»^(٢).

من دروس الآية ٢٥:

١ - القصص القرآني جزء مهم من القرآن الكريم يعطي النماذج العملية لما تطرحه السورة من قضايا.

٢ - ليس القصص القرآني كقصص سواه من الكتب السماوية بعد تحريفها فهي أي قصص الإسرائيليات أقرب إلى حكايات مغزاها سلبي في كثير من الأحيان، حاشا، ولكنه قصص محدد الهدف منسجم مع السور التي يكون فيها.

(١) الدرة المجلد السادس صفحة ٢٦٦.

(٢) أبو حيان، البحر المحيط، ج ٦، ص ١٤٠.

- ٣- قوم نوح هم أول قوم يتشكل في التاريخ أو تجمع بشري لكن عيوب المجتمعات بدأت فيهم وأخطر العيوب الشرك ثم تكون مراكز القوى.
- ٤- لا بد من تحذير من عواقب ما فيه الناس من فساد.

الآية ٢٦:

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ إِلَهِمِ﴾

الربط والمناسبة: أوضح من أن يبحث فيها أو عنها أي المناسبة ففي السابقة بدأت قصة نوح وبين أنه نذير مبين، وهنا يوضح فحوى رسالته وأهم ما فيها وهو ان لا يعبدوا إلا الله وإلا فإنه العذاب العاجل والآجل.

وهذه الآية (١١) كلمة و(٤٠) حرفاً وترتيبها (١٤٩٩).

المعنى: أن لا تعبدوا إلا الله: هذه الكلمة هي قاعدة الدين ومحوره وعموده وملخصه، التوحيد وإفراد الله بالعبادة، والإنسان عابد بالفطرة، لا يملك إلا أن يعبد، فهو إما أن يعبد الإله الحق وإما أن يعبد الشيطان أو الهوى أو الأوثان والمال والشهوات.. إلى آخر المعبودات، والأنبياء مهمتهم أن يردوا الناس إلى عبادة رب الناس وحده. وما أجل كلمة الصحابي ربعي بن عامر لرستم قائد جيوش الفرس إذ قال له: «الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد..».

ولاحظ أنه لم يقل أن تعبدوا الله، ولكن أتى بها بصيغة الحصر والقصر «ألا تعبدوا إلا الله»، فكثير من الناس يؤمنون بالله ويعبدونه، ولكنهم يشركون في كل ذلك كما قال تعالى في أكثر من موطن من قرآنه ومن ذلك ما في السورة التالية لهذه

السورة، سورة يوسف، إذ قال سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

والعبادة مفهوم شامل، كما لا يخفى، ينتظم شؤون الحياة كلها، فكل ميادين الحياة ميادين عبادة، وكل نشاط في هذه الحياة إن ابتغي به وجه الله فهو عبادة، وكما أقول دوماً: العادات بالنيات تغدو عبادات. والعبادات بلا نيات عادات.

إني اخاف عليكم عذاب يوم الأليم: إني أخشى عليكم وأشفق أن يقع بكم ويصيبكم عذاب الأليم في يوم الأليم.. وعذاب عظيم في يوم عظيم.. ولاحظ أن «الليم» جاءت صفة لليوم لا للعذاب، وكان المتوقع أن يكون الأليم وصفاً للعذاب، وإذا كان اليوم يوصف بالأليم فكيف العذاب فيه، والأليم بمعنى مؤلم.

قال ابن عاشور: «وصف اليوم بالأليم مجاز عقلي، وهو أبلغ من أن يوصف العذاب بالأليم، لأن شدة العذاب لما بلغت الغاية جعل زمانه اليماً، أي مؤلماً».

قال البيضاوي: «مؤلم، وهو في الحقيقة صفة المعذب لكن يوصف به العذاب وزمانه على طريقة جد جده ونهاره صائم للمبالغة وأرى أنه صفة عذاب وجر للمجاورة فهو منصوب وعلامة نصبه فتحه مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بالكسرة التي جلبها حركة الجوار»^(١).

قال الشيخ مخلوف في معنى ألا تعبدوا إلا الله: «أي أرسلناه ألا تعبدوا إلا الله. يوم الأليم مؤلم ونسب الإيلام إلى اليوم مجازاً لوقوع العذاب فيه، كما في نهاره صائم

من دروس الآية ٢٦:

١- الأنبياء عليهم السلام أحرص الناس على أقوامهم لكن صدقهم معهم يجعلهم ينفرون منهم ويميلون إلى من يزينون لهم أهواءهم وما هم فيه.

(١) منقول عن الدررة المجلد السادس صفحة ٢٦٨.

- ٢- من لم يحذر عواقب ما هو فيه أصابه المحذور.
- ٣- النظر في العواقب أمر في غاية الأهمية وقُلْ من يفعله.
- ٤- من أعجب أمور الناس أن ينفروا ممن يصدقهم ويصارعهم ويحذّره.

الآية ٢٧:

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا

الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بِدَى الرَّأْيِ وَمَا زَيَّ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبًا ۝٢٧﴾

الربط والمناسبة: هذا هو جواب قادة قوم نوح على دعوته لقومه بعبادة الله، فالآيتان نسق لا يحتاج إلى طول نظر.

وهذه الآية (٢٩) كلمة و(١١٢) حرفاً وترتيبها (١٥٠٠).

المعنى: فقال الملأ: الفاء عطف يفيد التعقيب والمسارة في الجواب.. أي أنهم لم ينظروا فيما قال ولم يتدبروا ولم يتعقلوا ولم يتمعنوا ولم يتفكروا.. بل أجابوا على الفور حتى يقطعوا الطريق على باقي القوم.

والملأ هم أصحاب المراكز والقيادات والممثلون بالثروة والمالئون المقاعد القيادية والمهمة في البلد.

وهي كلمة تلفت النظر بقوة، فإن تظهر هذه الفئة منذ فجر التاريخ هذا أمر ينبغي أن يلفت أصحاب الدراسات الاجتماعية والنفسية السيكلوجية والأنثروبولوجية والسياسية، فهو أمر ملفت. هذه الكلمة في هذا المشهد في هذه القصة في هذا الوقت المبكر من طفولة البشرية وفجر تاريخها تلفتت بقوة، فاحظر الظواهر اليوم نشأت منذ أول يوم، كأنه لا جديد على البشرية إلا مقدار الهيمنة

وأدواتها وصورها والملاّ واحد والهيمنة واحدة، لكن صور النفوذ والسيطرة والأدوات قد تختلف والمبدأ واحد.

الذين كفروا من قومه: والاسم الموصول يؤتى به دائماً لاستحضار ما في حيزه من الصلة.. إذ لا يتم تشخيصه أي الموصول إلا بصلته. والصلة هنا ﴿كَفَرُوا﴾ ويبدو أن القوم كلهم على هذه الصفة.

لكن يبدو أن هؤلاء هم منظرو الكفر ومزبنوه ومروجوه والمستفيدون منه وهم مستثمروه وقادته وطيئته وحراسه.

من قومه: أي من قوم نوح، ولا يتصور أن القوم كانوا أعداداً غفيرة لكن القرآن لا يتعرض لمثل هذه التفاصيل، ولكن يمكن أن نتصور، وهذا شيء والنقل عن الإسرائيليات من التفصيلات التي لا معنى لها شيء آخر.

ما نراك إلا بشراً مثلنا: بصيغة الحصر والقصر أجابوا نوحاً، بأننا لا نراك إلا بشراً تام البشرية مثلنا فكيف نتبعك وكيف تقودنا؟ ونسوا هم أنهم يقودون المجتمع وهم بشر.. بل من أرذل البشر.

وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا: صيغة الحصر والقصر للمرة الثانية في هذه الآية، وهي صيغة مقصودهم منها الاعتراض والرفض والاستخفاف.

والرؤية بصيرية وبصرية معاً بمعنى أننا نتفكر في أمركم فنجدكم الأفقر، أو نراكم بعيوننا انكم فقراء المجتمع فكيف ندخل في دين هؤلاء هم مادته وهؤلاء هم رجاله وأتباعه.

ويبدو أن التفكير الطبقي مبكر في المجتمعات، وأن هذه النظرة العنصرية عميقة عتيقة قديمة، والنظر إلى الناس بفوقية الذات ودونية الآخر قد نحتت في صخر

الواقع الاجتماعي منذ عصور سحيقة، فنحن الآن في تفسير هذه الآية نتحدث عن فجر البشرية وبواكيرها.

والأراذل في نظرهم هم الأراذل طبقاً لا أخلاقياً، فحتى وإن كان ابن الطبقة الثرية منحطاً في النظرة الأخلاقية فهو من العرق المقدس أو المنزه أو الأعلى في النظرة الطبقية، والمهم في نظرهم مقياسهم لا مقياس الحق والواقع والدين والرسالات!

بادي الرأي: يعيرون عليهم أي على المؤمنين سرعة استجابتهم لدعوة نوح واعتبروها سذاجة وفجاجة وتسرعاً وسطحية وقلة تعمق في المسألة وهذا رأي فطير غير نضيج ولا خبير.. لم تنضجه تقليبات الأنظار فيه ولا الأفكار، وكانهم هم عقلاء ذلك الزمان وراشده، وما هم إلا حمقى فارغة عقولهم وقلوبهم ملاءى كروشهم وجيوبهم! وهم قد مارسوا ما عابوه بأن ردوا الدعوة بادي الرأي. فتأمل.

وما نرى لكم علينا من فضل: هذه هي المرة الثالثة التي يستخدم فيها الملاء فعل الرؤية فقالوا أولاً: ﴿مَا نَرٰكَ إِلَّا بَشَرًا...﴾ ثم قالوا ﴿وَمَا نَرٰكَ إِلَّا...﴾ والآن ﴿وَمَا نَرٰكَ إِلَّا...﴾ فالمهم هو ذواتهم ونظرتهم ورؤاهم وعبقريتهم الفائقة وموازينهم الدقيقة.. لا يهم الحقيقة ما تكون. المهم أننا بموازيننا نرى أن لا فضل لكم ولا ميزة ولا شرفاً ولا تقدماً علينا في شأن، طبعاً هم قد أسقطوا سلفاً القيمة الدينية والاعتبارات الأخلاقية.. فما بقي إلا القيمة المادية والنظرة الاجتماعية والمقاييس الطبقية.

وقدموا ﴿لَكُمْ﴾ على ﴿عَلَيْنَا﴾ لتأكيد تجرد المؤمنين - بزعمهم - من الامتيازات عليهم، وكل كلمة تعبر عن مكنون نفسي وغزون فكري وثقافي والقرآن بكلماته التي تنقل كلماتهم ينقل لنا الشحنة الشعورية والعاطفية والفكرية

التي ترافقت مع الكلمات، وما عليك إلا التدقيق والنظر والتحديق والتحقيق... تتجل لك السطوح والأعماق في نفوس هؤلاء.. ويا عجباً لا ينتهي ممن لا ينهل كل المعاني من كلمات القرآن والسبع المثاني.

بل نظنكم كاذبين: بل للإضراب الانتقالي، كأنهم يقولون لم نسترسل في الكلام فلنختصره ولندلف إلى النتيجة في التو والحال، فنقول ما يحسم المسألة من أصلها.. أنتم في نظرنا وظننا من الكاذبين.. فلم إطالة الرد والسؤال والكلام؟!

ومن منهجية القرآن العجيبة أن الملاً في كل قصص القرآن لم يميزوا بكذب المؤمنين، وحاشا بطبيعة الحال، فالأنبياء أول مزاياهم الصدق البشري المطلق، أعني ضمن طاقة البشر^(١).

فكانوا يعبرون دوماً بالظن، وهنا مؤشر على شيء من فطنة فحتى لا ترد دعواهم فوراً عبروا بالظن، لكن هذه التهمة وجهت منذ وقت مبكر للأنبياء وحاشاهم لكن بصيغة الظن لا اليقين!

قال الزمخشري: «الملاً: الأشراف من قوهم: فلان مليء بكذا إذا كان مطيقاً له وقد ملأوا بالأمر، لأنهم ملأوا بكفايات الأمور واضطلعوا بها وتبديروها، أو لأنهم يتماثلون، أي: يتظاهرون ويتساندون أو لأنهم يملؤون القلوب هيبة والمجالس أبهة، أو لأنهم ملأوا بالأحلام والآراء الصائبة».

قال الشيخ حسنين مخلوف: فقال الملاً: الأشراف والسادة، بشراً مثلنا: أي إنساناً مائلاً لنا، ليس فيك مزية تخصك من بيننا بالنبوة.

بادي الرأي: أي اتبعوك ظاهراً لا باطناً أو في أول الرأي، من غير تفكير وتلبث، ولو تفكروا ما اتبعوك. وبادي على (القول) الأول، من البدو بمعنى

(١) ولذلك أتوقف طويلاً عند رواية الثلاث كذبات!!!.

الظهور يقال: بدا الشيء بَدَواً وبُدِواً وبَدَاءَ: ظهر، وعلى القول الثاني من البدء، يقال: بدأ يبدأ، إذا فعل الشيء أولاً، والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها، من فضل: زيادة في شيء تؤهلكم لاتباعنا لكم. أ. هـ.

قال ابن عاشور: «ما نراك إلا بشراً مثلنا: هؤلاء الكفرة من قوم نوح لما قصروا عن إدراك أسباب الكمال وتطلبوا الأسباب من غير مكانها نظروا نوحاً عليه السلام وأتباعه فلم يروه من جنس غير البشر، وتأملوه وأتباعه فلم يروا في أجسامهم ما يميزهم عن الناس، وربما في عموم الأمة من هم أجل وجوهاً أو أطول أجساماً، من أجل ذلك أخطأوا الاستدلال».

قال ابن كثير: «هَذَا اغْتِرَاضُ الْكَافِرِينَ عَلَى نُوحٍ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَتْبَاعِهِ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى جَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ وَعَقْلِهِمْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِعَارٍ عَلَى الْحَقِّ رَذَالَةٌ مَنِ اتَّبَعَهُ. فَإِنَّ الْحَقَّ فِي نَفْسِهِ صَحِيحٌ، وَسَوَاءٌ أَتَّبَعَهُ الْأَشْرَافُ أَوِ الْأَرَاذِلُ، بَلِ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ أَتْبَاعَ الْحَقِّ هُمُ الْأَشْرَافُ، وَلَوْ كَانُوا فَقَرَاءً، وَالَّذِينَ يَأْتُونَهُ هُمُ الْأَرَاذِلُ. وَلَوْ كَانُوا أَغْنِيَاءَ. ثُمَّ الْوَاقِعُ غَالِبًا أَنَّ مَا يَتَّبِعُ الْحَقَّ ضَعْفَاءُ النَّاسِ، وَالْغَالِبُ عَلَى الْأَشْرَافِ وَالْكَبَرَاءِ مُحَالَفَتُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]»^(١).

من دروس الآية ٢٧:

- ١- في القصص القرآني من الدلالات النفسية والاجتماعية ما لا يحصى.
- ٢- ليت من شغلوا بنقل تفاهات الإسرائيليات اشتغلوا باستخراج الدلالات المستفادة من القصص إذا لأنوا بشيء ذي قيمة.
- ٣- التفكير الطبقي والتمييز على أساسه قديم في البشرية ومتجدد.

- ٤- هذا التفكير يخدم نظرية التسلط.
- ٥- الدين ثورة على القيم الفاسدة بالإضافة - بالطبع - إلى نفسه للشرك.
- ٦- لم يَكُذِّبْ الرسل ومن آمن معهم بصيغة القطع وإنما دائماً وبمنهجية قرآنية عجيبة كان الملائ يواجهون الرسل بتهمة الكذب بصيغة الظن لاشتهارهم المطلق بالصدق المطلق!
- ٧- يزعم الفاسدون والذين يقاومون دعوات الإصلاح والتغيير الذي هو سنة الكون أنهم ينطلقون من فكر نضيج ولا يتعسفون الآراء ويعتقدونها فجأة.
- ٨- رسالات التوحيد هي حركات التحرير الحقيقية للبشر في كل طور وفي كل مكان.

الآية ٢٨:

﴿قَالَ يَقُولُونَ مُبْتَدِئُ الْوَحْيِ إِنَّا كُنَّا عَلَىٰ يَتَيْنٍ مِّن رَّبِّي وَإِنَّا لَمِّن رَّحْمَةِ رَبِّهِ فَغَبِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاهُ لَكُمْ هَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (٢٨)

الربط والمناسبة: تضمنت الآية السابقة رد قوم نوح أو الملائ منهم على دعوة نوح لهم بعبادة الله وحده، وفي هذه الآية رد نوح عليهم وعلى ردهم، وقد استعمل قومه في ردهم كلمة الرؤية ٣ مرات، واستعمل نوح في رده عليهم ذات الكلمة فقال: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ فتأمل دقائق القرآن ولطائف الإشارات فيه.

وهذه الآية (١٩) كلمة و(٨٠) حرفاً وترتيبها (١٥٠١).

المعنى: قال يا قوم: قال: أي نوح عليه السلام، مخاطباً قومه متودداً متقرباً إليهم: يا قوم، ولاحظ أن الرسم القرآني رفع الألف بين ياء النداء وكلمة قوم،

وجعلهما كلمة واحدة لإفادة معنى القرب كما سلف الإشارة، وحذفت الياء من قوم للبناء على المنادى.

أرايتم: الهمزة للاستفهام ومعناها التعجب والرؤية بصرية أو بصرية والثانية ارجح.

إن كنت على بينة من ربي: ما تقولون وكيف ترون إن كنت على الحق والوضوح والحجة القاطعة البينة، وهذه الحجة مقطوع أنها من الله، بدالاتها الناصعة القاطعة وعجز البشر عن مثلها.

وأتاني رحمة من عنده: وأعطاني ووهبني رحمة واسعة كائنة من عنده. ولعل الرحمة هنا هي النبوة، أو النبوة وسائر عطاء الله له، فقد جاءت رحمة منكرا للتكثير والتعظيم.

فعميت عليكم: أي خفيت عنكم البينة والرحمة فلم تروا أنها من عند الله. أنلزمكموها: هذه الكلمة من أطول الكلمات في القرآن.

وهي تتكون من استفهام وفعل وفاعل ومفعول به بل مفعولين، فكأنها خمس في واحدة، فتأمل هذه اللغة، وتأمل تاج اللغة القرآن الذي جاء شمس البلاغة فيها. وأنتم لها كارهون: الواو حالية على الأرجح والجملة تتكون من مبتدأ وخبر أي وأنتم لهذه الحجة والبينة كارهون مفارقون، فكيف يكون هذا والدين اختيار وليس بإجبار.

قال سليمان الجمل رحمه الله: «استعمال أرايت في الإخبار مجاز أي أخبروني عن حالتكم العجيبة، ووجه المجاز أنه لما كان العلم بالشيء سبباً للإخبار عنه، والإبصار به طريقاً إلى الإحاطة به علماً، وإلى صحة الإخبار عنه، استعملت الصيغة التي لطلب العلم أو طلب الإبصار في طلب الخبر لاشتراكهما في الطلب.

إعراب كلمة ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾.

الهمزة: حرف استفهام.

نلزمكم: فعل مضارع، والكاف مفعول به أول والميم علامة جمع الذكور وحركت بالضم فتولدت واو الإشباع.

ها: مفعول به ثان، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن^(١).

قال الزمخشري: «أنلزمكموها يعني: أنكرهكم على قبولها ونفسركم على الاهتمام بها وأنتم تكفرونها ولا تختارونها ولا إكراه في الدين وقد جيء بضميري المفعولين متصلين جميعاً، ويجوز أن يكون الثاني منفصلاً كقوله: أنلزمكم إياها».

أرايتم: أخبروني، قال الشيخ مخلوف: «على بينة من ربي: حجة وبرهان يشهد لي بالنبوة والصدق، فعميت عليكم: أخفيت عليكم عقوبة لكم (وأرى أن المعنى: عماها عليكم تعصّبكم لا العقوبة..) والضمير للبينة أو الرحمة بمعنى النبوة، يقال: عمي عليه الأمر. أي أخفي عليه حتى صار هو بالنسبة إليه كالأعمى أ. ه».

قال ابن عاشور: «فعميت: من بديع هذه الاستعارة هنا أن فيها طباقاً لمقابلة قولهم في مجادلتهم «ما نراك إلا بشراً» «وما نراك اتبعك» «وما نرى لكم علينا من فضل» فقابل نوح عليه السلام كلامهم مقابلة بالمعنى واللفظ إذ جعل عدم رؤيتهم من قبيل العمى».

قال السمين الحلبي: «عماها الله عليكم، أي: أذهبهما عقوبة لكم، ثم بُني الفعل لما لم يُسم فاعله، فحُلِفَ فاعله للعلم به وهو الله تعالى، وأقيم المفعول وهو ضمير الرحمة مقامه... [ثم قال]: أنلزمكموها: أتى هنا بالضميرين متصلين، وتقدم

(١) منقول عن الدرّة المجلد السادس صفحة ٢٧١.

ضمير الخطاب لأنه أخص، ولو جيء بالغائب أولاً لانفصل الضمير وجوباً. وقد أجاز بعضهم الاتصال^(١).

من دروس الآية ٢٨:

- ١- الدين إقناع وليس بالإخضاع.
- ٢- الأنبياء يستخدمون الحجة لإلزام الناس المحجة وليس الإكراه.
- ٣- الحجاج فن يحتاج إلى ملكة وتدريب، والأنبياء هم أساتذة هذا الفن.
- ٤- البينة حجة عقلية وبرهان قد تخفى على المادي في تفكيره والمحبوس في قوقعة مألوفاته.
- ٥- «يا قوم» تلطف نوح إلى قومه في توجيه أنظارهم ولس وجدانهم، وهذا يرشدنا إلى ضرورة التلطف.

الآية ٢٩:

﴿وَيَنْقُورُ لَا أَسْتَلْكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُؤَارِيهِمْ وَلَكِنِّي أَزْكَرُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ (٢٩)

الربط والمناسبة: لا نحتاج إلى طول تأمل لمعرفة وجه الربط، فالآية تواصل مرافعة النبي الكريم نوح عليه السلام في تفنيد موقف قومه.. ففي السابقة بين ما آتاه الله من بينة ومن رحمة، وفي هذه يبين أنه هو لا يسأل على دعوته شيئاً فهما متكاملتان، متدرجتان.. وهناك افتتحت الآية بـ﴿يَنْقُورُ﴾ وهنا كذلك ﴿وَيَنْقُورُ﴾

(١) السمين الحلبي، الدر المصون، ج٦، ص٣١٣ - ص٣١٦.

وقوله في هذه الآية ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ...﴾ رد على إشارتهم في الآية قبل السابقة أن أتباعه من الفقراء والبسطاء ﴿أَرَادُنَا﴾ بقولهم.

وهذه الآية (٢٣) كلمة و(٩٢) حرفاً وترتيبها (١٥٠٢).

المعنى: **ويا قوم:** الواو عاطفة، ويا للنداء، قوم منادى.

لا أسألكم عليه مالاً: لا أطلب منكم على دعوتي لكم وإرشادي مالاً وأجراً تدفعونه لي، ونكر مالاً ليفيد العموم أي مالاً أي مال.

إن أجري إلا على الله: استخدم صيغة الحصر والقصر بإن النافية بمعنى ما، وأداة الاستثناء إلا، لتأكيد الجملة السابقة إنني لا أسأل أحداً أجراً. ولاحظ أنه لما نفى سؤالهم استخدم في النفي مالاً ولما أثبت استخدم كلمة الأجر، فقال: ﴿إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ لأن أجر الله عز وجل أعم وأعظم وأهم من المال، فما المال الذي يعظمه الناس إلا باب واحد من أبواب العطاء الإلهي ولعله آخر ما يشغل بال المؤمنين.

واستخدم النص الكريم حرف الجر ﴿عَلَى﴾ ولم يقل من الله، ليفيد أن الله كتب على نفسه ولم يلزمه أحد أنه يأجر من عمل له ولدينه.

وما أنا بطارد الذين آمنوا: وردت إشارة من قوم نوح إلى أتباعه من المؤمنين وأنهم الفقراء وجلهم من المعدمين، فكأنهم يلمحون إلى طردهم، ولعلمهم يصرحون، فهنا يقول لهم رسول الله: ولست بطارد المؤمنين من مجلسي وحضرتي... لطلبكم ولكسب رضاكم.

إنهم ملاقو ربهم: فهم حسابهم على الله إذ يلقونه بخيرهم وشرهم، وأنتم كذلك، وهذا يتضمنه المعنى السابق، حسابكم كذلك على الله خيركم وشركم، وعبر بربهم إي الذي يتعهدهم في الدنيا ويميزهم في الآخرة.

ولكني أراكم قوماً تجهلون: رد على تكرارهم نراك.. فهو يقول لهم إني أراكم قوماً تنطلقون في أقوالكم وأفعالكم وأحكامكم من الجهل لا من العلم وعبر بالمضارع لإفادة التجدد.. والمواصلة.

والرؤية هنا بصرية أو بصرية أو هما معاً.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «الجهل هو السَّفَه والطيش والحمق والجاهل هو الذي يجهل ما يتعلق به من المكروه والمضرة، وعن السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، ومن حق الحكيم العاقل أن لا يقدم على شيء حتى يعلم كيفيته وحاله. ولا يشتري الحلم بالجهل، ولا الأناة بالطيش، ولا الرفق بالخرق.

آمن أصله آمن بهمزين قلبت الثانية مدأً مجانساً لحركة الأولى، كما قلبت في مصدره، إيمان، فإن أصله إا، فقلب الثانية مدأً مجانساً لحركة الأولى وهي الكسرة»^(١).

قال الشيخ حسنين مخلوف: «وما أنا بطارد: أي لا أطرد المؤمنين الذين اتبعوني، ووصفتهم بأنهم أراذل وأخساء، كما طلبتم مني ذلك أنفة من مجالستهم، واستكباراً عن الانتظام في سلوكهم، إنهم ملاقو ربهم: لقاء فوز ورضوان. أ. هـ».

قال الزرخشري: «إنهم ملاقوا ربهم: معناه أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم، أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم».

قال ابن عاشور: «وتأكيد الخبر بـ«إن» إن كان اللقاء حقيقة لرد إنكار قومه البعث، وإن كان اللقاء مجازاً فالتأكيد للاهتمام بذلك اللقاء».

قال ابن عادل: «وهذا جوابٌ على الشبهة الثانية، وهي قولهم: اتَّبَعَكَ الْأَرَاذِلُ، فقال: أنا لا أطلبُ على تبليغِ الرُّسالةِ مالاَ حَتَّى يتفاوت الحالُ بسبب كون المستجيب فقيراً، أو غنياً، وإنما أجري على هذه الطاعة على رب العالمين، وإذا كان كذلك فسواء كان غنياً أو فقيراً، لم يتفاوت الحال في ذلك.

ويحتمل أنه قال لهم: إنكم لما نظرتُم إلى هذه الأمور وجدْتُموني فقيراً، وظننتُم أنني إنما أتيت بهذه الأمور لأتوسَّل بها إلى أخذ أموالكم، وهذا الظَّن منكم خطأ، وإني لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩] ^(١).

من دروس الآية ٢٩:

- ١- أساس الدين تسوية بين العباد فلا يتفاوتون إلا بمقدار تقواهم وتقربهم إلى الله.
- ٢- لا يقاس الناس بدخولهم واستهلاكهم وغط معيشتهم وإنما بقيمتهم وأخلاقهم.
- ٣- طلب طرد المؤمنين تكرر مع الأنبياء منذ نوح إلى خاتم الأنبياء عليهم السلام، ومن هنا قال الله لخاتم المرسلين ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.
- ٤- جميع الخلق حسابهم على الله، وليس حساب أحد على أحد.
- ٥- الجهل أخطر أعداء الإنسان.

(١) ابن عادل، اللباب، ج ١٠، ص ٤٧٣ - ص ٤٧٥.

الآية ٣٠:

﴿وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣٠)

الربط والمناسبة: هذه الآية مواصلة لمرافعة نوح فلا تحتاج إلى بحث في وجه الربط.

وهنا يرتب الكلام على طلبهم بطرد المؤمنين بقوله من يحمني من الله إن طردتهم، تأكيداً على قوله في الآية السابقة أنه لن يطردهم، والآية مفتحة بما افتتحت به سابقتها ﴿وَيَقُولُ﴾.

وهذه الآية (٩) كلمات و(٣٧) حرفاً وترتيبها (١٥٠٣).

المعنى: يا قوم: واو عاطفة ويا نداء ومنادى، مع أنها في الرسم القرآني كلمة واحدة.

من ينصرني من الله: من يدفع عني غضب الله إن طردت عباده، والنصر هنا بمعنى الحماية ودفع العذاب، إشارة إلى أن طرد المؤمنين يستحق تعذيب فاعله ولست مستعداً لذلك، ولا أحد يمنعني من وقوع العذاب علي إن فعلته.

إن طردتهم: من يحمني إن طردت المؤمنين.

أفلا تذكرون: ختمت الآية السابقة بإثبات جهلهم، وهنا كذلك لكن ختمت بالاستفهام ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وتقال هذه الكلمة تذكرون للبيهات العقلية.. التي لا تحتاج إلى أعمال عقل كثير.

وخفت إحدى التائين لما قلنا.. للتخفيف ولسرعة الاستجابة للتذكر فتأمل.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «من يعصمني من الله إن أنا أخللت بموازينه، وبغيت على المؤمنين من عباده وهم أكرم عليه وأقررت القيم الأرضية الزائفة التي أرسلي الله لأعدها لا لأتبعها».

قال ابن عادل: «على أنَّ العقل والشرع تطابقا على تعظيم المؤمن الثَّقي، وإهانة الفاجر، فلو عَظُمْتُ الكافر وطردتُ المؤمن وأهنتُهُ كنت على ضيِّدٍ دين الله؛ فأستوجبُ حيثُ العِقَابَ العظيم، فمن الذي ينصُرُنِي من الله، ومن الذي يُخَلِّصُنِي من عذابِ الله»^(١).

من دروس الآية ٣٠:

- ١- طرد المؤمنين يستحق تعذيب فاعله، والأنبياء يدعون الناس للنجاة من عذاب الله فكيف يفعلون ما يجعلهم يتعرضون لعذابه؟
- ٢- لا ينصر أحد أحداً من غضب الله وعذابه إن ارتكب مخالفة طرد المؤمنين.
- ٣- التذكر يستخدم في البديهيات، وهؤلاء القوم غابت عنهم البديهيات.

الآية ٣١:

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣١)

الربط والمناسبة: مواصلة لكلام نوح عليه السلام في الرد على قومه وقد بين هنا أنه لا يدعي ملك خزائن الله وأنه لا يعلم الغيب أي أنه يؤكد بشريته، ويواصل ردهم على ازدراء المؤمنين من البسطاء.

(١) ابن عادل: اللباب، ج ١٠، ص ٤٧٥.

وهذه الآية (٣١) كلمة و(١٢٢) حرفاً وترتيبها (١٥٠٤).

المعنى: ولا أقول لكم عندي خزائن الله: لم أزعم يوماً ولم أقل لكم اني أملك خزائن الله، أو أنها عندي وفي متناولي، هذا ما لم أدعه يوماً.. وخزائن الله إما خزائن رزقه، أو خزائن غيبه.. كما قال تعالى وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو.. أو خزائن أي شيء مما لا نعلمه.

ولا أعلم الغيب: وأنا لا أعلم الغيب وأصرح بهذا بأعلى صوت، ولا يضيرني فالرسول لا يعلم الغيب، ولا يدعيه، إلا أن يعلمه الله شيئاً.

ولا أقول إنني ملك: لم أقل لكم يوماً إنني ملك من ملائكة الله أملك قدرة خارقة، أو أملك مواصفات لا يحوزها البشر.

بل أنا بشر مثلكم لا أختلف عنكم إلا أن الله اصطفاني لحمل هذه الأمانة.

وهذا النفي الثلاثي للملك خزائن الله، ولعلم الغيب، ولكونه ملكاً، تأكيد على بشريته وهو ما يستهجنونه، وهو يؤكد، ولا يتصل منه، ولا يتبرأ، وهذا النفي كله، فيما أرى، رد على قولهم ﴿مَا نَزَّلْنَا إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ فهو يؤكد أنه كذلك بأزيد مما قالوا، كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

وبعد أن كتبت ما قرأت ومضى عليه زمن ثم طبع جدلي من المعنى ما ستقرؤه:

إن قومه ممثلون بتعظيم القيم المادية، بحيث لا يرون سواها، ولا يرون مستحقاً للاستماع إليه وللإحترام وللاتباع إلا من حازها، وإنني لن أدعي ما ليس لي كسباً لودكم أو لفتاً لانتباهكم، أو استجلاباً لمتابعتكم لي وموافقتي فيما أدعوكم إليه، ولذا لن أقول لكم: عندي خزائن الله لأكسب احترامكم إذ ستظنونني غنياً ولا

أقول لكم ولن أقول في أي وقت إنني أعلم الغيب، فتعيروني أسماعكم لأجل الاهتمام بالمخبوء من أموركم والمغيب عنكم، ولا أقول الآن ولن أقول مستقبلاً: إنني ملك من الملائكة، لأكسب وذكى إذ ترونني فوق مستواكم البشري فتهتمون بما أقول، وتتبعونه وتقدرونه، لأن قائله عنده مواهب خارقة، ولا أقول عن المؤمنين الذين تستصغرون شأنهم لأوافق أهواءكم لن أقول: هؤلاء لن يحوزوا رضوان الله، ولن يعطيهم الله خيراً، لن أخطب وذكى بالافتراء وتصنع وادعاء ما ليس لي ولا في ولا عندي.. فمن شاء منكم فليؤمن على ما بلغتكم دون دعاوى، ومن شاء فلا.. والله أعلم.

ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً: هذا هو النفي الرابع وهو عود على بدء في موضوع المؤمنين الذي كان عليه التركيز في هذا السياق، وقد أشار القوم إليه في الآية ٢٧ ورد عليه نوح في الآية ٢٩، ٣٠ وهذه الآية.

وهو هنا يقول عنهم: إنني لا أقول هؤلاء المؤمنين أو عنهم وهم الذين تزدرهم وتنتقصهم أعينكم ومقاييسكم، وتستخف بهم موازينكم الفاسدة، لن أقول إن الله لن يعطيهم خيراً، كما تزعمون.

الله أعلم بما في أنفسهم: فالله يعطيهم جزاء ما في أنفسهم فإن كان خيراً أعطاهم خيراً، وإن كان غير ذلك أعطاهم بحسبه، وهذا لا أعلمه أنا ولا هو من اختصاصي.

إنني إذاً لمن الظالمين: إنني إذا قلت هذا كنت من الظالمين، والتنوين في إذاً تنوين عوض، يسد مسد الجملة أو الجمل السابقة التي تحدثت عن المؤمنين.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «بلا تملق ولا زيف ولا محاولة استرضاء على حساب الرسالة وحقيقتها البسيطة، فيعطي أصحاب الدعوة في أجيالها، جميعاً

نموذجاً للداعية، ودرساً في مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد دون استرضاء لتصوراتهم مع المودة التي لا تنحني معها الرؤوس».

يقول الشيخ محمد طه الدرة: ﴿أَعْيُنُكُمْ﴾ جمع عين، وتجمع على عيون وأعيان أيضاً، وأعيان غير مشهورة وأعين جمع قلة وغيره جمع كثرة، والمراد بها هنا العين الباصرة، وتطلق على الجاسوس، بث الأمير عيونه في المدينة (أي جواسيسه) وعين الشيء خياره، وتطلق على النقد من ذهب وغيره^(١).

من نظائر هذه الآية ما في سورة الأنعام، وذلك قوله تعالى، لكن على لسان رسولنا ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا تَعِبُوا إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [٥٠].

وفي الآية ٥٢: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾.

وهنا سبق موضوع الطرد وفي الأنعام تأخر.

والقصد إظهار أن موقف الأنبياء موحد وموقف الأقوام واحد كذلك.. وأن الطبقية منذ فجر البشرية إلى آخر مسيرة الأنبياء وختامهم بمحمد عليهم جميعاً الصلوات ما زال المطلب هو هو، ولو طرد المؤمنين، وحاشاهم وحاشاهم، ما اتبعه الكافرون، لكنهم يريدون زحزحته عن المنهج وتسييد قيمهم الجاهلية الطبقية.

ولاحظ أن الآية ٣٠ من سورة هود ختمت بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وختمت آية الأنعام بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

فتأمل المنهجية القرآنية!

قال الشيخ مخلوف رحمه الله: ﴿حَزَّائِنُ اللَّهِ﴾: أي خزائن رزقه وماله، رد لقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَيْنًا مِّن فَضْلٍ﴾ ولا أعلم الغيب: رد لقولهم: ﴿وَمَا نَرَنكَ أَتْبَعَكَ...﴾ الآية. ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ رد لقولهم: ﴿مَا نَرَنكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ ﴿تَزِدِّي أَعْيُنُكُمْ﴾: تستحقرهم وتستصغروهم، من الازدراء وهو الإعابة يقال: ازدراه إذا عباه، وزرى عليه زرباً وزراية إذا حقره، وازرى به: أدخل عليه عيباً^(١). هـ.

قال ابن عاشور: «وإسناد الازدراء إلى الأعين وإنما هو من أفعال النفس مجاز عقلي لأن الأعين سبب الازدراء غالباً، لأن الازدراء ينشأ عن مشاهدة الصفات الحقيرة عند الناظر».

وقال أيضاً: «لمن الظالمين: أكده بثلاث مؤكدات: إن ولام الابتداء وحرف الجزاء، تحقيقاً لظلم الذين رموا المؤمنين بالردالة وسلبوا الفضل عنهم لأنه أراد التعريض بقومه في ذلك».

قال البقاعي: «ولما كان تعريضهم بنفي الملكية عنه من باب الإزراء، أتبعه تأكيد قبوله لمن آمن كائناً من كان وإن ازدروه بقوله: ولا أقول للذين: أي لأجل الذين تزدي: أي تحتقر أعينكم: أي تقصرون به عن الفضل عند نظركم له وتعيونه لن يؤتيهم الله: أي الذي له الكمال كله خيراً: ولما كان كأنه قيل: ما لك لا تقول ذلك؟ أجاب بما تقديره: لأنني لا أعلم ضمايرهم ولا أحكم إلا على الظاهر: الله: أي المحيط بكل شيء أعلم: أي حتى منهم بما في أنفسهم: ومن المعلوم أنه لا يظلم أحداً، فمن كان في نفسه خير جازاه عليه»^(١).

وقال ابن القيم: «وتكون هذه الآية مثل قوله ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهلهم للهدى والحق، وحرمه رؤساء الكفار وأهل العزة منهم والثروة، كأنهم استدلووا بعباء الدنيا على عطاء الآخرة، فأخبر سبحانه أنه أعلم بمن يؤهله لذلك، لسر عنده من معرفة قدر النعمة ورؤيتها من مجرد فضل النعم ومحبته وشكره عليها، وليس كل أحد عنده هذا السر، فلا يؤهل لهذا العطاء كل أحد»^(١).

من دروس الآية ٣١:

- ١- بشرية الرسل مثار اعتراض الكافرين بالنبوات، والرسل يؤكدونها.
- ٢- كون الرسل بشراً هذا كرامة للنوع الإنساني فيا عجباً من قوم يحرمون أنفسهم هذا الشرف ولا يريدونه.
- ٣- الرسل عباد الله يبلغون مراده إلى باقي عباده ولا يحكمون على الناس.
- ٤- تصورات الكفار عن الإنسان وعن الرسول وعن الملائكة عجيبة غريبة.. فهم يخلطون فيها ويخطئون.

الآية ٣٢:

﴿قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصَّادِقِينَ﴾

الربط والمناسبة: تضمنت الآيات الأربع السابقة رد نوح على قومه، وهو رد مفحم واضح قاطع ناصع، وفي هذه الآية يعود السياق لينقل ردود قوم نوح على دعوة نوح، وهنا لا يطرحون شيئاً بل يزعمون أن نوحاً أطال في جدالهم. وهذه الآية (١٣) كلمة و(٥٥) حرفاً وترتيبها (١٥٠٥).

المعنى: قالوا يا نوح: قال القوم جواباً على مرافعة نوح الرائعة، ونادوا عليه بحرف النداء «يا» ثم باسمه «يا نوح» وجاءت نوح متصلة بياء النداء ورفعت الألف من ياء النداء.

قد جادلنا: قد للتحقيق وهي داخلة على الماضي فتفيد أشد المعنى.

وجادلنا فعل فيه معنى المشاركة لكنهم قصدوا أنها من طرف واحد من نوح، والجدل والجدال والمجادلة فيها معنى القتل والتقوية والتبادل.. ومعلوم أنه عرض وجهة النظر وتفنيد أو نقد الوجهة المقابلة.

فاكثر جدالنا: أطلت جدالنا وأثقلت في جدالك وأكثرت علينا.. وتجاوزت المدى.

فأتنا بما تعدنا: فاء تفرعية أي فنفذ وعيدك وتهديدك واثت بالعذاب الذي تتوعدنا به، يقولون هذا استخفافاً وجحداً.

إن كنت من الصادقين: وجواب الشرط محذوف أو مقدم وهو فاتتنا بما تعدنا، أي إن كان تهديدك حقاً وواقعاً وصدقاً.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «(تعد) أصله (توعد) فحذفت الواو لوقوعها بين عدوتيهما وهما الباء والكسرة في مضارع الغائب (يعد) وتحذف من مضارع المتكلم والمخاطب قياساً عليه، والمصدر (وعداً) وماضيه (وعد) وقد تحذف الواو من المصدر ويعوض عنها تاء في الآخر فيصير (عدة)»^(١).

الجدل: المبالغة في الخصومة مشتق من الجدل وهو القتل ويقال للخصم أجدل لشدة في الطير.

قال النيسابوري: «ثم إن قومه وصفوه بكثرة الجدل قائلين يا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا قال أهل المعاني: أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرته كقولك: جاد لي فلان فأكثر. لم ترد أنه أعطى عطيتين أقل فأكثر بل تريد أن الوصف مقارن للموصوف. وفي الآية دلالة على أن الجدل في تقرير دلائل التوحيد من دأب أكابر الأنبياء»^(٢).

من دروس الآية ٣٢:

- ١- الاستخفاف بالعذاب والوعيد يدل على خفة عقل.
- ٢- يعيب القوم على رسولهم شدة جداله لهم وهذا دليل على تعنتهم.
- ٣- الكاذب يسقط ما في نفسه على غيره.
- ٤- الخوف من غلبة الحق يأخذ شكل الاستهانة والتحدي.

(١) الدرة المجلد السادس صفحة ٢٧٨.

(٢) النيسابوري، غرائب القرآن و رغائب الفرقان، ج ٤، ص ١٩.

الآية ٣٣:

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِاللهِ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ﴾ (٣٣)

الربط والمناسبة: استعجل قوم نوح العذاب في الآية السابقة إذ قالوا: ﴿فَأَيْنَا يَمَآئِعُنَا﴾ وهنا في هذه الآية يرد نوح عليهم فيقول إنه ليس هو الذي يأتي بالعذاب ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِاللهِ إِنْ شَاءَ﴾ ويؤكد ما كان يتكلم عنه في الآيات السابقة من أنه لا يملك خزائن الله ولا يعلم الغيب.

وهذه الآية (١٠) كلمات و(٣٨) حرفاً وترتيبها (١٥٠٦).

المعنى: قال إنما يأتيكم به الله إن شاء: قال نوح لقومه بصيغة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾ المكونة من إن المؤكدة وما الكافة، يأتيكم به: يرسل عليكم ويأتيكم بالعذاب أو بما وعدكم به الله سبحانه، لا أنا. وهذا مرتبط بمشيئته وإرادته إن شاء ذلك فعله، وإن لم يشأ لم يفعله، فالأمر إليه.

وما أنتم بمعجزين: ما النافية تعمل عمل ليس كأنه قال ولستم بمعجزين، وأنتم اسمها في محل رفع وزيدت الباء، كما يقال في النحو لتقوية المعنى وتوكيده، ومعجزين تعني قاهرين وغالبين أو قادرين على الفرار من قدر الله وعقابه فتنجون.. لستم كذلك، بل أنتم مقهورون بقدرته، محاط بكم.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «نوح عليه السلام لا يخرج هذا التأكيد والتحدي عن سمت النبي الكريم ولا يقعه عن بيان الحق لهم وإرشادهم إلى الحقيقة التي غفلوا عنها وجعلوها في طلبهم منه أن يأتيهم بما وعدهم».

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «(شاء) مضارعه (يشاء) فلم يرد له أمر، وأصل شاء شيء على فَعَلَ بكسر العين، بدليل قولك: شئت شيئاً، وقد قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها»^(١).

قال ابن عاشور: «القصر في قوله: «إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ» قصر قلب بناء ظاهر طلبهم، حملاً لكلامهم على ظاهره على طريقة مجازاة الخصم في المناظرة، وإلا فإنهم جازمون بتعذر أن يأتيهم بما وعدهم يحسبونه كاذباً وهم جازمون بأن الله لم يتوعدهم، ولعلمهم كانوا لا يؤمنون بوجود الله».

قال أبو السعود: «يعني أن ذلك ليس موكولاً إلي ولا هو مما يدخل تحت قدرتي وإنما يتولاه الله الذي كفرتم به وعصيتموه يأتيكم به عاجلاً أو آجلاً إن تعلق به مشيئته التابعة للحكمة وفيه ما لا يخفى من تهويل الموعود فكأنه قيل الإتيان به أمر خارج عن دائرة القوى البشرية وإنما يفعله الله عز وجل. وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ: بالهرب أو بالمدافعة كما تدافعوني في الكلام»^(٢).

من دروس الآية ٣٣:

- ١- ليست مهمة الرسول أن يوقع العذاب أو يحقق وعيد الله.
- ٢- تنفيذ مواعيد الله بإيقاع العذاب أمر يعود إلى الله لا إلى سواه.
- ٣- ليس أحد ولا قوة في الكون تعجز الله أو يمكن أن تخرج عن قدرته أو تفر من قدره.

٤- المشيئة الطليقة لله متى شاء فعل ما يشاء.

(١) الدرة المجلد السادس صفحة ٢٨٠.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج ٤، ص ٢٠٤ - ص ٢٠٥.

الآية ٣٤:

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ

تَرْجِعُونَ ﴿٣٤﴾﴾

الربط والمناسبة: يواصل نوح في هذه الآية كلامه مع قومه عن عذاب الله أنه متى شاء أوقعه، وأنه لا ينفع قومه نصحه إن كانوا مصرين على عنادهم وكفرهم، وإن كان سبق في أقدار الله أنهم لن يتغيروا بسبب من هذا العناد وأنه سيحل بهم عذاب الله.

وهذه الآية (١٨) كلمة و(٦٦) حرفاً وترتيبها (١٥٠٧).

المعنى: ولا ينفعكم نصحي: لا يؤثر نصحي في تغيير أقدار الله ودفع العذاب عنكم طالما أنتم على هذه الحال.

إن أردت أن أنصح لكم: وهو يريد بطبيعة الحال، أو كأنه قال لا ينفعكم نصحي إن استمر وأردت له أن يدوم إلى ما شاء الله من القرون، كأنه يقول: لا ينفعكم طول نصحي إن أردت أن أستمروا فيه.. والله أعلم.

إن كان الله يريد أن يغويكم: والله لا يريد إغواء أحد، لكن إذا كان هذا الشخص هو يريد غواية نفسه وإضلالها فإن الله لن يرغمه على الهدى رغماً، ويشرح صدره للإيمان قسراً، فقد شاء المولى أن يكون الإيمان بالإرادة والاختيار.

هو ربكم وإليه ترجعون: هو الرب الذي خلقكم والذي يربيكم وينزل الكتب ليهديكم، وهو الأول بكم من كل أحد، ولا أحد يتدخل فيما يفعل بكم من خير أو شر.. وكل ذلك إن وقع بكم فهو بعدل الله واستحقاقكم لما أصابكم.

ومرجعكم إنما هو إلى الله لا إلى أحد سواه، ولا شأن لي بكل هذا.

قال ابن عاشور: «هو ربكم: جملة ابتدائية لتعليمهم أن الله ربهم إن كانوا لا يؤمنون بوجود الله، أو لتذكيرهم بذلك إن كانوا يؤمنون بوجوده ويشركون معه».

قال الزمخشري: «إن كان الله يريد أن يغويكم: معنى هذا إذا علم الله من الكافر الإصرار فخلاه وشأنه ولم يلجئه، سمي ذلك: إغواء وإضلالاً. كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوي، فلطف به سمي ذلك: إرشاداً وهداية ومعناه: أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمتزلة التي لا تنفعكم نصائح الله ومواعظه وسائر الطافه فكيف ينفعكم نصحي».

قال أبو السعود: «وإنما اقتصر في ذلك على مجرد إرادة الإغواء دون نفسه حيث لم يقل إن كان الله يغويكم؛ مبالغة في بيان غلبة جنابه عز وعلا؛ حيث دل ذلك على أن نصحه المكارن للاهتمام به لا يجديهم عند مجرد إرادة الله سبحانه لإغوائهم، فكيف عند تحقيق ذلك وخلقهم فيهم!!»^(١).

من دروس الآية ٣٤:

١- لا ينفع النصح حتى لو كان من النبي إن كان من تنصحه لا يريد نصيحتك.

٢- إرادة الإضلال معاذ الله أن تكون من الله على عباده إلا إذا كانوا هم مصرين على الضلال معاندين مكابرين.

٣- أولى الناس بالخلق من خلقهم سبحانه.

٤- مرجع الخلائق كلها إلى الله فتجزى على ما قدمت.

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج ٤، ص ٢٠٤ - ص ٢٠٥.

الآية ٣٥:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا يَتَّبِعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

الربط والمناسبة: مر مثل هذا النص في هذه السورة في الآية ١٣: ﴿أَمْ يَقُولُونَ

افْتَرَيْنَاهُ﴾ ولكن هناك رد عليهم بتحديثهم أن يأتوا بعشر سور، وهنا جاء الرد مختلفاً أنني أتحمّل وزر افتراضي إن افتريته.. ليؤكد لهم أنه غير مفترى فأنا أعلم خطورة جريمة الافتراء فكيف افترى؟

وهذه الآية (١٢) كلمة و(٥٢) حرفاً وترتيبها (١٥٠٨).

المعنى: أم يقولون افتراه: السؤال قبل التفسير، هل هذا السؤال الوارد ضمن

قصة نوح موجه إلى نوح من قوم نوح، أم هو موجه من قبل قوم النبي ﷺ له، ويكون الكلام متعلقاً بهذا القصص الذي يقصه الكتاب الذي أنزل عليه ﷺ؟ وأرى أن الاحتمالين واردان، هذا وارد وهذا وارد، أو هما معاً فالنبوة من مشكاة واحدة وأعداء الأنبياء أيضاً صنف واحد هم المستفيدون من بقاء الوضع الراكذ الأسن.. والمعبّدون الناس للناس لا لرب الناس. «أم» بمعنى بل، ويمكن أن تضمن معنى الاستفهام.

«أم» هنا للإضراب للانتقال من غرض إلى غرض.

يقولون: أي من ذكرنا قبل قليل قوم النبي محمد ﷺ أو قوم النبي نوح عليه السلام، ويكون مرد الكتاب المزعوم افتراؤه أو القصص المزعوم افتراؤه إما إلى ما يقص نوح على قومه من الحق، أو ما يقص نبينا على قومه من قصة نوح أو سواها.

والافتراء: الاختلاق والوضع.

قل إن افتريته: الأمر بناء على التفسير السابق هو لمن قيل له افتراه، وهو كما افترضنا إما نبينا وإما نوح عليهما السلام، أي قل رداً عليهم: إن كنت اختلقته وافتريته. «وإن» شرطية وفعلها افتريته وجوابها ما أتى بعدها مقترناً بالفاء وهو «فَعَلَيَّْ» إجرامي: جواب الشرط كما سلف، وقدم علي على إجرامي، للأهمية، فالمراد توصيله من المعاني إليهم أن التبعة عائدة علي إن كنت كما زعمتم.

والإجرام فعل الشيء الكبير من الأعمال القبيحة ذات الجرم الضخم، أي من الكبائر والجنائيات أو الأفعال الجسيمة الضرر. والإجرام: اكتساب الجرم وهو الذنب فهو يقتضي المؤاخذه لا محالة.

وأنا بريء مما تجرمون: وجاء بالحديث عن نفسه قبل الحديث عنهم تهويناً لوقع الكلام على أنفسهم فقد بدأ بنفسه، وهذا من أساليب تنفيس غضب القوم وتحسسهم مما تقول.

وليس علي من تبعة جرائمكم شيء على الإطلاق فكل إنسان مرهون بعمله ومحاسب على فعله لا يتحمل أوزار الآخرين.

فأما أني افتريت الكتاب فوزري على نفسي وأجازى به، وإن كان كلامكم افتراء علي فوزركم على أنفسكم ولا أتحمل أنا منه شيئاً.

فالأمر بين احتمالين إما أنكم افتريتم هذا القول عني، أو أني افتريت هذا الكلام على ربي.. وعلى أي الاحتمالين فطرف يتحمل تبعة افترائه إما أنا وإما أنتم. وما أجل الإنصاف وما أجل إعمال العقل.

يقول ابن عاشور: «توجيه بديع، وهو إفادة تبرئة نفسه من أن يفترى القرآن فإن افتراء القرآن دعوى باطلة ادعوا عليها فهي إجرام منهم عليه، فيكون المعنى: وأنا بريء من قولكم الذي تجرمونه عليّ باطلاً».

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «الإجرام: مصدر جرم، وهو اقراراف السيئة، يقال: أجرم وجرَم بمعنى أنه اكتسب الذنب وافتعله.

ومن قرأ أجرامي بفتح الهمزة ذهب إلى أنه جمع جرم»^(١).

قال الشيخ حسين مخلوف: «أم يقولون افتراه: أي بل، يقول قوم نوح: إنه اختلق ما جاء به من عند نفسه، ونسبه إلى الله تعالى، فهو من قصة نوح، فعلي إجرامي: فعلي عقاب إجرامي، أي عقاب اكتساب الذنب، والإجرام: اكتساب الذنب يقال: أجرم وجرم واجترم بمعنى اكتسب الذنب وافتعله. أ. هـ».

قال الثعالبي: «وقوله سبحانه: أم يَقُولُونَ افتراه... الآية: قال الطبري وغيره: هذه الآية اعترضت في قصة نوح، وهي في شأن النبي ﷺ مع قُرَيْشٍ. ولو صحَّ هذا بسندٍ، لوجب الوقوفُ عنده، وإلا فهو يَحْتَمَلُ أن يكون في شأن نوح عليه السلام، وتُسَبِّحُ الآية، ويكونُ الضمير في «افتراه» عائداً على ما توعدُّهم به، أو على جميع ما أخبرهم به، و «أم» بمعنى «بل»^(٢).

من دروس الآية ٣٥:

١ - الإنصاف بين الداعي والمدعوي مدعاة لتخفيف غلواء المدعويين في الصد عن الدعوة.

٢ - الرسل رمز الحكمة في الدعوة والحجة والإقناع.

٣ - بساطة المنطق مع عمقه وصدقه مؤثران في المدعويين وسبب في كسب القضية.

(١) الدرة المجلد السادس صفحة ٢٨٣.

(٢) الثعالبي، الجواهر الحسان، ج ٣، ص ٢٨٢.

٤- تنظيم تفكير المدعويين يساعدنا في تحديد موقفهم بل كسبهم إن أحسنا ذلك.

٥- مهم جداً إيقاظ عقول من ندعوهم ليفهموا عنا ويستجيبوا لنا.

٦- إهمال العقل وتعطيله خسارة للداعي والمدعو والدعوة.

الآية ٣٦:

﴿وَأَوْحِي إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا يَتَّبِعُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦)

الربط والمناسبة: إن قلنا إن قوله تعالى أم يقولون افتراه موجه إلى النبي محمد عليه الصلوات فنقول في آيتنا هذه إنها عود إلى قصة نوح، وإن قلنا إن المخاطب نوح فالحديث مع نوح وعن نوح مستمر.. ولا نقول مستأنف.

وهذه الآية (١٧) كلمة و(٥٩) حرفاً وترتيبها (١٥٠٩).

المعنى: وأوحى إلى نوح: الواو للاستئناف وهو الأقرب أو العطف قصة على قصة وموضوعاً إلى موضوع أو على موضوع.

وأوحى فعل ماض مبني للمجهول، والذي أوحى إما أنه الله عن طريق أمين الوحي جبريل، وإما أوحى إلى نوح بغير هذا من طرائق الوحي التي منها «النفث في الروح» ومنها «الرؤيا» أو الإلهام من الله ولو كان معرفة هذا أمراً مطلوباً لذاته لعرفنا الله إياه.

أنه لن يؤمن من قومك: هذا هو الذي أوحى إلى نوح، وهذا هو المضمون والموضوع الذي بلغه.

«ولن» للمستقبل وللتأيد كما يقول علماء اللغة والبيان والمقصود بالتأيد أي ما داموا على ظهر هذه الأرض وعلى قيد الحياة، أما من لحظة الموت فما بعدها وما فوقها فكل الناس سيؤمنون، ففي نهاية المطاف كل الناس سيؤمنون فالمقصود من الإيمان على هذا، الإيمان الذي يقبل من قبل الله، والإيمان الذي ينفع صاحبه.

إلا من قد آمن: باستثناء من آمن أولاً وقبل هذا الإخبار وهذه المعرفة. فإنه لن يدخل في الدين معك أحد من قومك. وتأکید الفعل بـ«قد» للتنصيص على أن المراد من حصل منهم الإيمان يقيناً دون الذين ترددوا.

فلا تبتس بما كانوا يفعلون: الفاء تفرعية.

«ولا» الناهية، «وتبتس» مضارع مجزوم بلا الناهية، ومعنى تبتس: تحزن، بما كانوا يفعلون: بالذي يفعلونه من الكفر والسخرية والاستهزاء والصد والأذى والتعذيب والتكذيب، لا تدع هذا يحزنك ويؤثر فيك. والابتئاس: افتعال من البؤس وهو الهم والحزن، أي لا تحزن.

«وما» في «بما» موصولة بمعنى الذي أو مصدرية ينسبك منها وما بعدها مصدر تقديره بعملهم أو بفعلهم.

وعبر يفعلون دون يعملون، لأن التركيز هنا على الفعل المادي فالكفر والشرك إن كان داخل النفس فالأصل ألا يطلق عليه يفعلون، وإنما هذا الفعل يفعلون كما أسلفنا يعني الأفعال المحسوسة من بث إشاعة عن الرسول من مثل الكذب، وحاشا لأنبياء الله جميعاً، أو السحر أو طلب الدنيا فهذا فعل والصد عن سبيل الله وتعذيب من آمن كل هذا من الأفعال.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «فلا تبتئس بما كانوا يفعلون: أي فلا تغتم بسوء صنيعهم، فإنهم هالكون والبؤس هو الحزن، يقال: ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه والابتئاس حزن في استكانة.

تبتئس: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل مستتر تقديره أنت»^(١).

قال الشيخ مخلوف: «فلا تبتئس: فلا تحزن بما كانوا يفعلون في هذه المدة الطويلة، من التكذيب والاستهزاء والإيذاء، فقد حان وقت عقابهم، يقال: ابتأس فلان بالأمر، إذا بلغه ما يكرهه، والمبتئس: الكاره الحزين، وأصله من البؤس وهو الحزن. أ. هـ».

قال الزمخشري: «المعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ومعاداتك فقد حان وقت الانتقام لك منهم».

قال ابن عاشور: «دل حرف «لن» المفيد تأييد النفي في المستقبل وذلك شديد عليه. ولذلك عقب بتسلية بجملة «فلا تبتئس» فالفاء لتفريع التسلية على الخبر المحزن».

قال حقي: «وهو إقناط له عليه السلام من إيمانهم، وإعلام لكونه كالحال الذي لا يصح توقعه إلّا مَنْ قَدْ آمَنَ: إلّا مَنْ قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، وقد للتوقع وقد أصابت محزها... وقال القطب العلامة إلّا مَنْ قَدْ آمَنَ: قد استعد للايمان وتوقع منه ولا يراد الايمان بالفعل والا لكان التقدير الا مَنْ قد آمن فإنه يؤمن، فَلَا تُبْتِئَسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ: هو تفتعل من البؤس ومعناه الحزن في استكانة وهي الخضوع، أي لا تحزن حزن بائس مستكين ولا تغتم بما كانوا يتعاطون من

التكذيب والإيذاء في هذه المدة الطويلة، فقد انتهى أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم^(١).

من دروس الآية ٣٦:

- ١- علم الغيب أمره إلى الله وإن شاء أطلع عليه رسله.
- ٢- عدم كشف الغيب لنا لصالحنا، فربما يفت في عزمنا انكشافه لنا.
- ٣- طرق الوحي كثيرة وفي هذه الآية لم تحدد الطريقة فنترك تحديدها لأنه لا مصدر للمعلومات لدينا نأخذ عنه.
- ٤- عدم إيمان قوم النبي يحز في نفسه ويؤلمه ويحزنه لأنه يعلم يقيناً ما مصير من لم يؤمن.
- ٥- العمل يشمل الجوانح والجوارح والفعل مقتصر على الجوارح.

الآية ٣٧:

﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

الربط والمناسبة: نهى نوح عن الحزن على ما يفعل الكافرون وأمر في هذه الآية أن يقوم بعمل الفلك برعاية الله وعنايته وختمت الآية بالنهي كما بدت الآية السابقة بالنهي فقال هنا ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا...﴾ من نهى عن الحزن عليهم أمر ألا يخاطبه فيهم.

والآية (١١) كلمة و(٥٤) حرفاً وترتيبها (١٥١٠).

(١) حقي، روح البيان، ج ٤، ص ١٢٢.

المعنى: واصنع: الجذر صنع ومشتقاته يفيد العمل المتقن، لا مطلق العمل،
واقرا قوله تعالى: ﴿وَتَتَذَكَّرُونَ مَصَافِحَ لَكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩]، واقرا ﴿وَدَمَّرْنَا
مَا كَانَتْ يَصْغُرُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، وَمَا كَانُوا يَعْزِيشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ﴿وَلْيَصْنَعْ عَلَى
عَيْتِي﴾ [طه: ٣٩]، ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]، ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾
[النمل: ٨٨] ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠] ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا
صَعَّرُوا إِنَّمَا صَعَّرُوا كَيْدُ سَحَرٍ﴾ [طه: ٦٩] إلى آخر الآيات.

أما الفعل اصنع فلم يرد إلا هنا وفي سورة المؤمنون ٢٧.

الفلك: جمع أم مفرد؟ أرى أنها لهما، وهنا أراد بها المفرد، أي السفينة^(١).

بأعيننا ووحينا: بأعيننا أي بتعهدنا لك ورعايتنا إياك وبصرنا بك وبعملك.

ووحينا أي بهذا الأمر بصناعتها أو بتوجيهه كيف يصنعها. والباء في «بأعيننا»

للملابسة وهي في موضع الحال من ضمير (اصنع).

ولاحظ نون الجمع المفيدة التعظيم في كل من أعيننا ووحينا.. ثم لاحظ الإفراد

في قوله تعالى ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي...﴾ فهو التفات وهو الأنسب أي المفرد في العبادة

والدعاء والمخاطبة.

ولا تخاطبني: الواو عطف أو استئناف، ولا الناهية وتخطبني فعل مضارع

مجزوم، أي ولا تكلمني ولا تراجعني.

في الذين ظلموا: أي في شأن الذين ظلموا.

(١) وردت الفلك في القرآن ٢٣ مرة في ١٩ سورة أكثرها المؤمنون ٣ مرات ومرتين في كل من يونس وهود ومرة

في ١٦ سورة أولها البقرة وآخرها الجاثية.

إنهم مغرقون: قضى الأمر فيهم، إنهم معذبون مهلكون بالغرق ولا راد لقضاء الله.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «عبر عن الرؤية بالأعين، لأن الرؤية تكون بها، كما عبر عن القدرة باليد في قوله تعالى ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ لأنها آلة القدرة، وهذا ونحوه من الألفاظ التي يجب تأويلها بما يتناسب معها من التشابهات التي توهم خلاف ما ينبغي بحقه تعالى من حدوث وغيره، وجمع الأعين للتعظيم لا للتكثير، الفُلك: بضم الفاء وسكون اللام هي السفينة التي استقلها نوح عليه السلام بمن آمن معه. والفلك يطلق على المفرد والجمع وعلى المؤنث والمذكر، والفلك: بفتححتين مدار النجوم وتجمع على أفلاك»^(١).

قال الزمخشري: «بأعيننا في موضع الحال بمعنى: اصنعها محفوظاً وحقيقته كأن الله معه أعيناً تكلؤه أن يزيع في صنعه عن الصواب، وأن يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه».

قال ابن عاشور: «ولا مخاطبي.. دل النهي على أن كفار قومه سينزل بهم عقاب عظيم، لأن المراد بالمخاطبة المنهي عنها المخاطبة التي ترفع عقابهم فتكون لنفعهم كالشفاعة وطلب تخفيف العقاب لا مطلق المخاطبة».

قال مخلوف: «الفلك: السفينة، بأعيننا: بمراى منا، ومحفوظاً بكلاءتنا، أي اصنعها بعلمنا والفلك يكون واحداً فيذكر، وجمعاً فيؤنث. أ. هـ».

قال ابن عجيبة: «ثم أمره بصنع السفينة، فقال: **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا**: بحفظنا ورعايتنا، أو بمراى منا ومسمع غير محتاج إلى آلة حفظ وحرس. **وَوَحَيْنَا**: إليك، كيف تصنعها»^(١).

من دروس الآية ٣٧:

- ١- الله قادر على نصر نوح من دون صنع السفينة بأن يأمره بالهجرة إلى مكان خارج مكان الطوفان كما قال للوط ﴿فَأَنْتَرِ بِأَهْلِكَ﴾ ولكنه أراد أن يصنع نوح السفينة لتكون بداية عصر تسخير البحار.
- ٢- قضاء الله لا يناقش من أحد ولا يراجع ولا يغير.
- ٣- أول من غرق في هذه الدنيا فيما نعلم قوم نوح.
- ٤- متى انتهى القضاء امتنع الدعاء.

الآية ٣٨:

﴿وَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْءًا عَلَيْهِمَا مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُونَ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾^(٣٨)

الربط والمناسبة: الأمر وتنفيذه، عنوان العلاقة بين الآيتين السابقتين وهذه فهناك صدر لنوح الأمر بصنع الفلك وهنا بدء التنفيذ وتصوير هذا البدء ﴿وَصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ وموقف قومه من هذا الصنع.

وهذه الآية (١٩) كلمة و(٧٣) حرفاً وترتيبها (١٥١١).

(١) ابن عجيبة، البحر المديد، ج ٢، ص ٥٢٧.

المعنى: ويصنع الفلك: التعبير بالمضارع مع أن الفعل قديم جداً وموغل في الماضي، لتصوير الحدث. وهذا دأب في القرآن وبخاصة في القصص، وقلنا أن الجذر صنع يدل على مهارة وإتقان وإحسان وهذا كله نسبي بالطبع.. والمعنى أن تحسن صنعتك في ظل ظروفك وخبرتك وإمكاناتك والمتاح لك، فهل صناعة السفن الآن وقد بلغت قدراً هائلاً من التطور والإمكانات هي صناعة الفلك في الأعصر الخوالي؟ بالطبع لا أو أن يراد تصوير الفعل، ولا أطيق أن أقول، مجرداً بقطع النظر عن الإتقان أو لا لأنه نبي فلا بد أن يتقن، في حدود الممكن، كما سلف، وثانياً نعود إلى الجذر صنع وما استشهدنا به من آيات.. والله أعلم.

وكلما مر عليه ملاً من قومه سخروا منه: وكلما تفيد التجدد، أي حدوث الشيء آتاً بعد آن، ومرة بعد مرة، بشكل متكرر لا يكاد ينقطع، وهل كان يصنع في وسط بلده وبين ظهراني قومه، وفي مجتمعهم؟ اعتقد أن لا، وإنما لا بد أنه تنحى مكاناً قصياً نسبياً وهناك كان يصنع الفلك، وكلما صادف مرور جماعة من قومه وعبر القرآن بكلمة ملاً أي المتماثلين على شيء، القاصدين إما مراقبة عمله ومعرفة أين وصل، وإما لمحاولة إضعاف معنوياته بالسخرية والاستهزاء.

والسخرية سلاح قديم قدم الإنسان في النيل من الطرف الآخر وتحطيمه نفسياً ومعنوياً، وإفقاده الثقة بذاته وإمكاناته، وهو في الحرب النفسية سلاح معروف. وعبر النص الكريم بقوله: سخروا منه... فهل المقصود سخروا من صنعته؟ وحتى لو كان هذا فإن السخرية من المصنوع سخرية ممن صنع.

والأوضح والأشمل أنها مزدوجة أي من الصانع السفينة وسفينته، وحاشا لمقام الأنبياء الكرام أن يكونوا محطاً للسخرية، لكن هذه سفاهة السفهاء الذين يجنون على أنفسهم من أجل أن يضحكوا قليلاً.. إذا ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلَيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢] وكما قال الله في سورة المؤمنون عن موقف الكافرين

من المؤمنين: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَحِكُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠].

قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون: قال نوح في الرد على سخرية قومه: إن كنتم تسخرون منا لإيماننا أولاً ثم لصنع سفينة النجاة ثانياً فإننا سوف نسخر منكم عندما تقع الواقعة ونتجو وتهلكون وعندما نلتقي في مجمع الآخرة، فأَي الفريقين سحريته أشد؟ أنتم تسخرون منا بكلام يطيره الهواء، ونحن نسخر منكم وأنتم تفرقون في لجج الماء، وغداً عندما تكون أفئدتكم من الرعب هواء.

والمعاملة بالمثل قانون إلهي وأحكام ربانية.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إنهم يسخرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر، ولا يعلمون ما وراءه من وحي وأمر، شأنهم دائماً في إدراك الظواهر والعجز عن إدراك ما وراءها من حكمة وتقدير».

قال ابن عاشور: «جمع الضمير في قوله «منا» يشير إلى أنهم يسخرون منه في عمل السفينة ومن الذين آمنوا به إذ كانوا حوله واثقين بأنه يعمل عملاً عظيماً، فالكفار سخروا من نوح عليه السلام لعمل يجهلون غايته، ونوح عليه السلام واتباعه سخروا من الكفار لعلمهم بأنهم جاهلون في غرور».

قال المظهري: «إذا عاينتم عذاب الله في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالحرق - قيل هذا على سبيل المشاكلة - والمعنى إن تستجهلونني فإنني أستجهلكم إذا نزل العذاب - وقيل معناه: إن تسخروا منا فسترون عاقبة سحريتكم كما تُسَخَّرُونَ يعني سخرية مثل سحريتكم منا عند رؤية الفلك»^(١).

(١) تفسير المظهري، ج ٥، ص ٨٤.

من دروس الآية ٣٨:

- ١- السخرية سلاح نفسي قديم مستخدم في تحطيم الخصوم.
- ٢- الكافرون يسخرون من المؤمنين في الدنيا التي هي كلمح بصر، والمؤمنون يسخرون من الكافرين في الدنيا رداً عليهم، وفي الآخرة التي لا تفتى فيها الحياة.. فأَي الفريقين «أسخر»؟
- ٣- المعاملة بالمثل، كما سلف، قانون إلهي.
- ٤- إن الإنسان ما لم يكن متين البنيان النفسي تحطمه السخرية.

الآية ٣٩:

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ﴾ (٣٩)

الربط والمناسبة: تمام الاتصال والارتباط بين الآيتين السابقتين وهذه، فهنا تكملة كلام نوح وتهديده ووعيده بأمر ربه لهم، فسوف ترون غداً من هو المستهزئ حقيقة ومن هو المستهزأ به، عندما يأتيكم العذاب الذي يجللکم بالخزي.. وهذه الآية (١٠) كلمات و(٤٢) حرفاً وترتيبها (١٥١٢).

المعنى: سوف تعلمون: الفاء تفريعية، وسوف للتسويق، والتنفيس، أي أن فيها بعض فسحة بعكس السين.

ولا ندري المهلة بين هذا التهديد ووقوعه بالفعل، ولا نعتد إلا على هذا الكتاب، أما السنة فلم يرد فيها تفصيلات ما أبهم في القرآن إلا في أقل القليل.. فتبقى الإسرائيليات وهي لا تغني في كثير ولا قليل.. بل هي من القال والقليل.

«وتعلمون» علم معاينة وعلم مشاهدة، أما الآن فإني أعلمكم علم إنباء وإخبار وإطلاع.

من يأتيه عذاب يخزيه: من موصولية أي الذي، وما بعده صلته، والإتيان فيه معنى البعد كذلك، والبعد نسبي، فحتى لو فرضنا أنه سنين أو عشرات سنين، فما هذا في عمر الخلود واللانهاية؟

إنه صفر ولا شيء ولا يذكر ولا يقاس.

ونكر ﴿عَذَابٌ﴾ ليفيد التهويل والتعظيم أي عذاب مهول.

يخزيه: صفة للعذاب ولم يستخدم الاسم مخز ليفيد التصوير وليفيد التجدد المفيد بدوره الاستمرارية.

والخزي شعور يغشى الإنسان نتيجة فعل سيء يخزي صاحبه إن علم أو ظهر كرشوة وسرقة وزنا وجرائم قتل وخيانة وغدر وغش وما إليه من الجرائم.

ويحل عليه عذاب مقيم: يبدو أن الكلام السابق كلام عن عذابهم في العاجل أي في هذه الدنيا، وأما هذا الجزء الأخير من الآية فهو كلام عن عذابهم الدائم الآجل وهو الكائن في الآخرة ولا يقال مقيم^(١) إلا حيث الخلود وطول الإقامة بلا نهاية.

(١) وردت مقيم في القرآن ٨ مرات أولها في المائدة: ﴿وَمَا هُمْ بِخَازِنِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقيمٌ﴾ [٣٧] ثم التوبة ﴿وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا عِيسَى مُّقيماً﴾ [٢١]، والتوبة أيضاً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقيمٌ﴾ وما في هود وهو هذه الآية، وإبراهيم خارج موضوعنا ﴿مُّقيماً الصَّلَاةَ﴾ [٤٠] والحجر كذلك ﴿وَأَنَّمَا لَيْسَ لِي مُّقيمٌ﴾ وفي الزمر نص مشترك مع آيتنا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٨) من يأتيه عَذَابٌ يُخزيه وَيَحُلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقيمٌ ﴿[٤٠] وأخرها في الشورى ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقيمٍ﴾ [٤٥].

قال مخلوف: «بخزيه: يذله ويهينه، ويحل عليه: أي يجب عليه عذاب دائم، يقال: حل عليه أمر الله يحل حلولاً: وجب. أ. هـ».

قال ابن عاشور: «وفي إسناد «العلم» إلى ضمير المخاطبين دون ضمير المشاركون يقال: فسوف نعلم، إيماء إلى أن المخاطبين هم الأحق بعلم ذلك، وهذا يفيد أدباً شريفاً بأن الواثق بأنه على الحق لا يززعزعه ثقته بمقابلة السفهاء أعماله النافعة بالسخرية».

«فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ، أى فسوف تعلمون الذي يأتيه عَذَابٌ يُخْزِيهِ يهينه وَيَحِلُّ عَلَيْهِ أى ينزل عليه أو يحل حلول الدين الذي لا انفكاك عنه عَذَابٌ مُقِيمٌ دائم، فحل بهم عذاب الغرق حتى ماتوا وصاروا معذبين فى البرزخ إلى يوم القيامة، ثم مردهم الى عذاب النار وبئس المصير»^(١).

من دروس الآية ٣٩:

- ١ - قصر النظر مصيبة في متهى الخطر.
- ٢ - خزي الدنيا مصيبة فكيف خزي الآخرة وفضيحتها على رؤوس الأشهاد، نسأل الله السلامة منهما.
- ٣ - صفقة الكفار أخسر الصفقات يبيعون الباقي المقيم ويشترون الفاني السقيم.
- ٤ - العلم النافع أن تعرف الشيء وتعلمه بعقلك قبل وقوعه، فتتخذ له أهبتة قبل أن يقع.
- ٥ - اقترن العلم بالإيمان، فإذا لم يؤد إلى الإيمان فهو عين الجهل.

الآية ٤٠:

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

الربط والمناسبة: السياق متصل والأحداث مترابطة والنسق متنسق أتم اتساق.
ففي السابقة كان التهديد وهنا حل أوانه، وجاء زمانه، فهل يقال ما مكان هذا النص من ذاك؟

وناسبت الآية نهاية ربيع إذ تتحدث عن نهاية قوم نوح أو بدء هذه النهاية.
وهذه الآية (٢٦) كلمة و(٩٦) حرفاً وترتيبها (١٥١٣).

المعنى: حتى إذا جاء أمرنا: حتى نهاية وبداية، هي نهاية ما قبلها وبداية ما بعدها.. وهي لحظة فارقة في الزمن بين شيئين ما قبله مختلف كلياً وجذرياً ونهاياً عما بعده، فهي فاصل زمني، لكنها أخطر من ذلك هي فاصل كوني عملي.
إذا: أصلها أداة شرط تفيد تحقق الوقوع.

جاء أمرنا: وقع وحل أوان أمرنا أي بنهاية مهلة الكافرين وبدء لحظة أخرى بعد انتهاء تلك اللحظة، وهي لحظة بدء عذابهم، وأضاف أمر إلى نون العظمة لتفخيمه أي الأمر وتعظيمه فكل ما أضيف إلى العظيم عظيم فكيف إذا عبر عن ذاته العلية بنون العظمة؟

وفار التنور: قيل في معنى هذا الجزء من الآية أو هاتين الكلمتين الجامعتين، قيل كلام كثير، الأقرب والمتبادر، هو أن يفور التنور أي الطابون والفرن الذي فيه يخبز الخبز، هذا المتبادر.

فلم الانصراف عنه وليس بمتعذر معناه؟

والنار والماء نقيضان، فإذا حدث أن اقترنا فهي علامة فارقة على بدء الطوفان، وتأمل هذه العلامة والإشارة كيف جاءت من خلال المفارقة.

وقيل فار التنور: ثار بركان بالمنطقة يقذف الحمم، وأرى أنه غريب عن السياق، فالسياق يتحدث عن فوران ماء وطوفان نازل من السماء ونابع من الأرض، فلا ذكر للحمم، وعلى الأقل هو ليس بمتبادر.

ولعل من أغرب ما قيل وأعجبه ما قال الشيخ أبو زهرة رحمه الله في زهرة التفاسير، أن التنور هو موقد السفينة، وأنها كانت سفينة بحارية، يوقدون في فرنها حتى تحمى وتنفث دخانها ثم تسير السفينة^(١).

والأرجح الأول، ليس لأن الأقوال التقت عليه، ولكن لأنه بالفعل المتبادر والأقرب إلى الذهن لكن التفكير محمود على كل حال ومحاولات الفهم مشكورة. قلنا احمل فيها: قلنا بنون العظمة أيضاً ولا ريب أن الحادث جلل ضخم عظيم فناسب نون العظمة.

وعبر هنا بقوله احمل، ولم ترد إلا هنا وعبر في المؤمنون بقوله ﴿فَاسْأَلْ﴾ فقال هناك: ﴿فَاسْأَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَاطِنٍ﴾ ولم ترد في قصة نوح إلا هذه، فمرة هذه ومرة هذه.

واستنتج البعض أن اسلك تفيد معنى أن السفينة كانت طبقات وأنها كانت كالغواصة، فالحمل مطلق والسلك يفيد الإدخال في الشيء، أي السفينة، ولا بأس، لكن النص القرآني دل على أنها سفينة بسيطة ﴿ذَاتِ آلَوجٍ وَدُثْرٍ﴾ والله أعلم بحقيقة الحال.

(١) ارجع إلى زهرة التفاسير من تفسير الشيخ محمد أبي زهرة رحمه الله.

أما قول الإسرائيليات أنها ثلاث طبقات، وأن طبقة للحيوانات وطبقة للطعام وطبقة للإناسي، وأن طولها كيت وارتفاعها كيت وأن عرضها كيت فهذا مما لا يعتمد ولا يستند إليه ولا ينقل ولا يروى ولا يقر ولا يحكى، وإنما ذكرناه من باب الرد والرفض لا من باب القبول وصحة الفرض، معاذ الله.

من كل زوجين اثنين: يفهم كثير من المفسرين من هذا الجزء من الآية أن ﴿كَلِّ﴾ مطلق وهذا محال في العقل والواقع، فسفينة بدائية ليست ناقلة طائرات، وحتى لو كانت هذه فإنها لا تستوعب مخلوقات الأرض، وأصحاب هذا القول والفرس ينطلقون من افتراض أن الطوفان عم جميع الأرض، وأنى لهم هذا أن يثبتوه؟ فكم وردت الأرض مطلقة وأريد بها الخصوص. وارجع مثلاً إلى سورة يوسف أو سورة الإسراء تجد مصداق ما نقول وإفراً تماماً، فقال بمجرد أن دخل يوسف قصر العزيز: ﴿مَكَّنَّا يُوْسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ ولما استلم مقاليد مصر قال: ﴿مَكَّنَّا يُوْسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ فهل هما واحد؟ وهل الأرض هنا مطلقة.

وأعتقد أن المعنى المراد: أحمل من كل ما هو أهلي وبيتي من الأنعام والماشية والدواجن، مما هو في بيئكم لتستأنفوا الحياة من بعد فتكاثرت المواشي والأنعام، كما سيتكاثر البشر ليعوضوا النقص الهائل الحاصل فيهم بهلاك الكافرين أما أن يحمل فيلة وأسوداً وزرافات وما إليه فهذا غير متصور، ومجرد قبوله في الذهن والعقل يدل على احتياج لإصلاح مناهج التعليم، هكذا أرى.

وأهلك: بمعنى من يخلصونك من الزوج والولد، وليست هنا فعلاً من الهلاك بل ذريتك وأزواجك.

إلا من سبق عليه القول: واستثن من هذا الأمر أي من حلهم في السفينة وهم من رفضوا الإيمان أولاً وأصلاً، ورفضوا ركوب السفينة بل هم لا يستحقونه بالأساس.

وسبق القول حسم الأمر في أقدار الله فلا ينقض أمره ولا يستأنف.

ومن آمن: احمل أيضاً من آمن فهي أي السفينة لنجاة المؤمنين وإنقاذهم من الهلاك والعذاب المبين.

وما آمن معه إلا قليل^(١): الواو إما عاطفة وإما استثنائية، وتصلح أن تكون حالية، أي والحال أنه ما آمن معه إلا قليل، ولا نخوض مع الخائضين في أن القليل عشرة أو أقل أو أكثر أو أنهم كانوا أربعين.. طالما أنه لم يردنا في الكتاب المبين ولا في صحيح سنة سيد النبيين ما يقطع الشك باليقين.

فلم الخوض مع الخائضين.

يقول الشيخ محمد طه الدرة في إعراب (حتى): حرف ابتداء ويعتبرها الأخفش جارة لإذنا، وقد رده ابن هشام في المغني، وعلى قول الأخفش أن تكون متعلقة بالفعل يصنع وهو ظاهر قول الزخشي، وأن تكون متعلقة بمحذوف دل عليه السياق، التقدير دام ذلك إلى مجيء أمرنا أو وقت مجيئه بالعذاب والإهلاك^(٢).

قال الشيخ مخلوف: «جاء أمرنا: نزل عذابنا، وفار التنور: نبع الماء منه وارتفع بشدة، وكان ذلك علامة لنوح على بدء الطوفان، والتنور: الكانون يخبز فيه، وقيل: هو وجه الأرض، والعرب تسمي وجه الأرض تنوراً، أو أعلى الأرض وأشرفها، وهو لفظ معرب، وقيل عربي، والمشهور أنه مما اتفقت فيه اللغتان. أ. هـ.

(١) لم يرد هذا الجزء من الآية إلا هنا في القرآن كله ويكفي بالطبع، فتأمل أن الجهود الطويل لم يأت إلا بنتاج قليل!

(٢) الدرة المجلد السادس صفحة ٢٩٢.

ونقول: لا يقدم على قول الله: ﴿لِسَانِ عَزِيزٍ مُّبِينٍ﴾ قول: فالقرآن عربي بكل ما فيه.

قال الزمخشري: «ومن آمن: يعني: واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم، واستثنى من أهله من سبق عليه القول أنه من أهل النار، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر لا لتقديره عليه وإرادته به تعالى الله عن ذلك».

قال الشوكاني: «والتنور اختلف في تفسيرها على أقوال: أنها وجه الأرض، والعرب تسمى وجه الأرض ثنوراً... أو أنه ثنور الحبز الذي يجزون فيه... أو أنه موضع اجتماع الماء في السفينة... أو أنه طلوع الفجر، من قولهم ثنور الفجر... أو أنه أعالي الأرض والمواضع المرتفعة... فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة... وقد ذكر أهل اللغة أن الفوز: الغليان، والثنور: اسم عجمي عربته العرب وقيل معنى فار الثنور: التمثيل بحضور العذاب، كقولهم: حمي الوطيس إذا اشتد الحرب»^(١).

من دروس الآية ٤٠:

١- الأرض لم تغرق في زمن نوح وإنما أصاب الطوفان موقع الكافرين، هذا ما نرجحه.

٢- بناء على هذا الفهم يتحدد معنى ﴿أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ وأنه من الحيوانات الداجنة.

٣- أقدار الله لا تدفع ولا تغير.

٤- الإيمان منجاة.

٥- سفينة نوح ما أشبهها بسفينة الإيمان بل هي هي، لكن هذه حقيقة وتلك مجازية.

٦- جهد كبير بذله نوح ولكنه لم يذهب هباء فقليل كثير عند الله والكرام دوماً قليل.

٧- ما أغلى الإنسان على الله فألف سنة إلا خمسين عاماً لينقذ الله نفعاً قليلاً من بني الإنسان.

٨- ما أعظم صبر الأنبياء.

الآية ٤١:

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحِّدُوا وَمُرْسِيَهَا إِنْ رَزَقْنَاهُمْ رَحِمًا﴾ (٤١)

الربط والمناسبة: ما زالت القصة تتوالى مشاهدتها في تلاحق عجيب يبهر الأنفاس وكانت التعليمات في الآية السابقة أنه إذا فار التنور فاحمل.. وجاء الوعد وفار التنور وطواه السياق معتمداً على ذكره في الإخبار السابق، والآن نوح يخاطب المؤمنين الذين وعد الله بنجاتهم قائلاً: اركبوا فيها.

وهذه الآية (١١) كلمة و(٤٨) حرفاً وترتيبها (١٥١٤).

المعنى: وقال اركبوا فيها: لم يقل عليها فهل نفهم من هذا أنها كانت أشبه بغواصة مغلقة؟ أقول ليس بالضرورة، وإنما ﴿فِيهَا﴾ فيها قدر من المجاز فهم عليها لكنهم لممكنهم منها كأنهم فيها. كما جاء في تهديد فرعون ﴿وَأَصْلَبْكَ فِي جُذُوعِ الْأَخْلَى﴾.

وكما قال عن الأرض: ﴿فَأَنْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ وقال: ﴿وَأَسْتَعْمِرْكُمْ فِيهَا﴾.

بسم الله مجراها ومرساها: أي اركبوا السفينة بسم الله، وبسم الله تجري بكم، وبسم الله ترسو بكم. وخالفت قراءتنا لكلمة مجريها كلمة مرساها فهذه بياء وهذه بالفاء، لأن المجرى غير المرسى، وإن كانت جميعاً بسم الله أما مجريها فلم ترد إلا هنا ووردت مرساها هنا وغير هنا^(١).

إن ربي لغفور رحيم: إن ربي الذي يتعهدني ويتعهدكم لغفور للذنوب رحيم بالعباد. وغفور تفيد شدة المغفرة وقوتها ورحيم تفيد سعته وشمولها، فكان واحدة عبرت عن البعد الرأسي العمودي وواحدة عبرت عن البعد الأفقي السطحي.. والله أعلم.

مجرها ومرساها: يقرآن بفتح الميم على أنهما أسماء زمان أو مكان أو هما مصدران، وقرآن بالفتح الخالص وبالإمالة، كما يقرآن بضم الميم والكسر الخالص على أنهما اسما فاعل، منقول عن الدرة.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «اركبوا فيها: أي ادخلوها وجعل ذلك ركوباً، لأنها في الماء كالركوب في الأرض. والركوب العلو على ظهر الشيء، ويقال ركبه الذين على طريق الاستعارة التصريحية»^(٢).

يقول صاحب الظلال رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ آرْكَبُوا فِيهَا﴾ «هذا تعبير عن تسليمها للمشينة في جريانها ورسوها فهي في رعاية الله وحامه.

وماذا يملك البشر من أمر الفلك في اللجة الطاغية بله الطوفان!!»

(١) ينقل صاحب النسق القرآني عن نظم الدرر للبقاعي قوله: ونقل الأصفهانى عن صاحب المفتاح فيها كلاماً أغلى من الجوهر.. وقد اكتفينا بالحديث عن جزء من مقطع حادثة الطوفان وذكر أهم الملاحظات عن النسق القرآني في مجال بيان انسجام الصوت مع المضمون وبقيت ملاحظات أخرى تتعلق بهذا الانسجام من مثل إمالة «مجرها» كيف يصور انخفاض الإمالة حفر السفينة لمجرها في البحر.. إلخ. النسق القرآني ص ١٢٥-١٢٦.

(٢) الدرة المجلد السادس صفحة ٢٩٣.

قال صاحب صفوة البيان: «مجرأها ومرساها: بفتح الميم الأولى مع الإمالة، وبضم الميم الثانية، مصدران من جرى وأرسي أي باسم الله جريها وإرساؤها أ. هـ».

قال الزمخشري: «إن ربي لغفور رحيم لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إياكم لما نجاكم».

قال ابن عاشور: «في التعليل بالمغفرة والرحمة رمز إلى أن الله وعده بنجاتهم، وذلك من غفرانه ورحمته، وأكد بـ«إن» ولام الابتداء تحقيقاً لأتباعه بأن الله رحمهم بالإنجاء من الغرق».

قال الجاوي: «وَقَالَ أَي نوح عليه الصلاة والسلام لمن معه من المؤمنين اركبوا فيها بِسْمِ اللَّهِ أَي اركبوا في السفينة ذاكرين اسم الله مَجْرَأَهَا وَمُرْسَاهَا أَي وقت جريها وإرسائها... إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ، أَي لولا مغفرته تعالى ورحمته إياكم لما نجاكم لأنكم لا تفكون عن أنواع الزلات»^(١).

من دروس الآية ٤١:

- ١- المؤمن يفتح كل عمل بيسم الله، طلباً للبركة وطلباً لتيسير الأمر.
- ٢- مجرد حركة في الكلمة قد تفيد معاني كثيرة من هنا افرقت مجريها عن مرساها.
- ٣- استحضار صفات الله وأسمائه وبخاصة مغفرته لعباده وعفوه عنهم ورحمته بهم مهمة جداً.
- ٤- الله غفور رحيم لكن عقابه لمن يتحداه عقاب أليم.

(١) الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، ج ١، ص ٥٠٧ - ص ٥٠٨.

الآية ٤٢:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقْصِرٍ يُبْنَىٰ
أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٢)

الربط والمناسبة: في الآية السابقة حديث عن تحميل نوح للمؤمنين في السفينة وفي هذه الآية وصف لها في وسط الموج وضخامة ما يدور في المكان.. للدلالة على فضل الله بوجود السفينة وركوبها.

وهذه الآية (١٩) كلمة و(٧١) حرفاً وترتيبها (١٥١٥).

المعنى: وهي تجري بهم: والسفينة تجري وتسير بمن حلوا فيها ومن ركبوا فيها. وهل الجري كان بدفعها الذاتي أم بتجديف من فيها أم بتصريف الموج لها؟ اعتقد أنه الاحتمال الأخير، فهم لا يريدون التوجه إلى مكان معين.. هم فقط يعومون على الماء حتى يجف.. فينزلوا من السفينة.

في موج كالجبال: الموج هو الذي يدفعها ويحركها ويجريها.. ولضخامته شبهه الله تعالى بالجبال ارتفاعاً وكتلة.

ونادى نوح ابنه: في هذا الهول ووسط هذا الموج يلمح نوح ابنه فيناديه، أو ونادى نوح ابنه لا على الترتيب الذي يوهمه ظاهر النص أن السفينة تجري في الموج كالجبال وهو ينادي ابنه، وأتصور أن الواو تفيد هنا مطلق العطف فقد يكون ناداه قبل هذا الهول وفي أول التحولات.. ثم بانهمار المطر وتفجر الينابيع من الأرض صار الموج في سويعات كأنه جبال.. وكان نوح قد نادى ابنه.. هذا كله تصور للمعنى والله أعلم بحقيقة ما كان.. إنما نحن نحاول أن نفهم قدر الإمكان.

وكان في معزل: الواو للحال أقوى احتمال أي والحال أنه كان في معزل، كان في مكان - حتى تلك اللحظة من المناداة- كان في مكان معزول عن الماء لارتفاعه مثلاً أو غير ذلك.

يا بني اركب معنا: لاحظ أولاً أن يا بني جاءت بدون ألف بعد الياء، ورسمت بألف صغيرة بين الياء ياء النداء والباء من كلمة بني.

وبني تصغير للتلفظ والتحبب والتودد والتقرب.. لو كان يجدي ولاحظ الإدغام في الباء والميم من اركب معنا.. أي اتصل بنا واركب في سفينة النجاة مع الناجين من المؤمنين.

ولا تكن مع الكافرين: وانظر التلطف في مع بدل من، فكأنه بهذه الملاحظة يحرك شعوره ليستجيب، وما أجمل أن تكون أجهزة الاستقبال عند الإنسان شفافة وحساسة وشغالة ومستجاشة حتى يستجيب لمثل هذه الإشارات ويتأثر بمثل تلك اللطائف.

ولا تكن: الواو عاطفة نهياً على أمر: اركب معنا ولا تكن، ولا ناهية وتكن مضارع مجزوم بحرف النهي.

مع الكافرين: أي كأنه يقول له برفق شديد أعيذك أن تكون من الكافرين فلست منهم بإذن الله، ولكنك هذه اللحظة تقف معهم فلا تكن معهم بل كن من الناجين ومعهم.

ومحاولة تخريج هذه المسألة بأن نوحاً لم يكن يعلم أن ابنه كافر لأنه كان منافقاً يظهر الإيمان ويبطن الكفر، أراه تحريماً متهافتاً لا يستحق التسجيل - والنفاق يكون في غلبة الإيمان والإيمان في قصة نوح، وأهل الإيمان كانوا في استضعاف هذا أمر، ثم أمر ثان لا دليل على هذا من كتاب أو صحيح سنة، وإنما هي نقول بعض عن بعض.. قول يقوله واحد فينقله مئة يظنونه شيئاً وما هو بشيء.

وأمر ثالث، من قال إن البشرية في ذلك التاريخ السحيق كانت تعرف النفاق؟
وأمر آخر لم نستبعد أن نوحاً أخذته عاطفة الأبوة، فنبهه الله فتنبه وانتهى الأمر.
قال مخلوف: في موج: الموج ما ارتفع من ماء البحر عند اضطرابه وأصله من ماج
يموج إذا اضطرب . أ.هـ.

يا بني تصغير ابن، وأصله الأصيل بنو، فلما صغر صار بُنيو فلما اجتمعت
الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء، ثم
ألحقت به ياء المتكلم فاجتمع ثلاث ياءات فحذفت الثانية التي هي ياء الكلمة ولم
تحذف ياء المتكلم لأنها كلمة ويقرأ بني بفتح الياء وكسرها^(١).

قال ابن عاشور: «الموج: ما يرتفع من الماء على سطحه عند اضطرابه وتشبيهه
بالجبال في ضخامته، وذلك إما لكثرة الرياح التي تعلو الماء وإما لدفع دفعات الماء
الواردة من السيول والتقاء الأودية الماء السابق لها، فإن حادث الطوفان ما كان إلا
عن مثل زلازل تفجرت بها مياه الأرض التي أراد الله إغراق أهلها».

قال الزمخشري: «وكان في معزل وكان في مكان عزل نفسه عن أبيه وعن
مركب المؤمنين، وقيل كان في معزل عن دين أبيه. أ. هـ». ونرى القول الأخير بعيداً
قال القاسمي: «في موج كالجبال، وذلك أنه لما تفتحت أبواب السماء بالماء،
وتفجرت ينابيع الأرض تعاظمت المياه، وعلت أكناف الأرض، وارتفعت فوق
الجبال الشاخعة... وكان ما يرتفع من الماء عند اضطرابه من أمواجه كالجبال. وتنادى
نوحُ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ أَي فِي مَتْنَحَى عَنْ أَبِيهِ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا أَي ادْخُلْ فِي

ديننا، واصحبنا في السفينة وَلَا تُكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ أي في الدين والانعزال، والهاالكين^(١).

«يا بني اركب معنا» هكذا بجنان الأب الذي ينادي ابنه بصيغة التصغير مراداً بها التحبب والتحنن، وصيغة اركب معنا مدغمة، وفي إدغام الباء مع الميم دلالة نفسية صادرة عن نوح يختصر بها الزمن ويتصل من خلالها بولده، ويعبر بها عن الحنان الأبوي بغنة الميم بدلاً من انقطاعها عند إظهار الباء مع الميم، بينما يأتي جواب الابن خالياً من أي تفاعل مع هذه المشاعر حتى أنه لم يتكلف أن يقول يا أبت.. سأوي^(٢).

من دروس الآية ٤٢:

- ١- فهم اللغة شرط مهم في فهم القرآن، فواو العطف إن فهمنا أنها لا تفيد الترتيب بل مطلق الجمع والعطف، فقد يختلف تصورنا لفهم الآية.
- ٢- بين لحظة وأخرى يغير الله من حال إلى حال، فبينما كان الابن في مأمن تغير الحال في لحظات.
- ٣- قدرة الله العظيم تتجلى في مثل هذه الآية القرآنية المتحدثة عن آية كونية.
- ٤- الأنبياء بشر قد تتأثر مواقفهم بعواطف البشر.
- ٥- اللغة تعبر عن مخزون الأفكار والمشاعر تجلى ذلك في حرف مع بدل من في الآية.
- ٦- فن التعبير والتأثير واستغلال مخزون اللغة.
- ٧- الإيمان سفينة نجاة في الدنيا قبل الآخرة.
- ٨- الهول في الطبيعة وفي النفس التقيا معاً.

(١) القاسمي، محاسن التأويل، ج ٦، ص ٩٦.

(٢) ارجع إلى النسق القرآني للدكتور ديب جاجي ص ١٢٦ - ١٢٧.

الآية ٤٣:

﴿قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَّعِصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (٤٣)

الربط والمناسبة: السياق متصل ففي الآية السابقة دعوة نوح لابنه أن يركب في السفينة مع المؤمنين، وفي هذه الآية جواب ابنه على دعوته وردده على محاولة إنجائه، وهو الرفض.

وهذه الآية (٢٣) كلمة و(٨٧) حرفاً وترتيبها (١٥١٦).

المعنى: قال ساوي إلى جبل: قال ابن نوح لأبيه يرد عليه دعوته سألتجئ إلى قمة جبل، وإلى مرتفع ونجوة من الأرض، فأنجو من هذا الماء. يعصمني من الماء: يحميني الجبل وينقذني من هذا الماء.

قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم: قال نوح يرد على ادعاء ابنه أو توهمه لا يحمي اليوم (من أمر الله) ولم يقل من الماء ليدلل أن هذا الماء أمر من أمر الله لا منقذ منه ولا منفذ منه ولا مهرب، وهو أي الولد يظنه مجرد ماء يحتال منه ويحتال عليه، فيرده نوح إلى عقله لو كان يعقل أو يرجع إلى الصواب.

إلا من رحم: واستثنى نوح من غير الناجين إلا من شاء الله أن ينقذه وإلا من دخل في رحمة الله بأن كان مع المؤمنين وركب في السفينة، أما غيرهم فإني أخبرك ناصحاً صادقاً أن كل من كان خارج السفينة من البشر لن يظل على قيد الحياة فصدق واحذر، ولكنه ركب رأسه. ولم يركب السفينة مع الناجين.

وحال بينهما الموج: وفرق بينهما الموج، ومن هذا الوادي ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي ابعدوا عن ما تمنوه وأرادوه وهنا كذلك أبعد الموج الابن عن الأب فلم يعد التواصل ممكناً، ولا الحديث ولا النصيحة ولا الإنقاذ.

فكان من المغرقين: فكان الولد من ضمن الهلكى والغارقين.

سأوي: سألتجئ: أوى إليه إذا التجأ واطمان إليه.

يقول صاحب الظلال رحمه الله في لفظة نفسية رائعة: «إنَّ الهول هنا ليقاس بمداه في النفس الحية بين الوالد والمولود كما يقاس بمداه في الطبيعة والموج يطغى على الذرى بعد الوديان وإنهما لمتكافئان في الطبيعة الصامتة وفي نفس الإنسان».

يقول الشيخ محمد طه الدرة: ﴿عَاصِرٍ﴾: ذلك على تقديرين: أحدهما: أن يكون (عاصم) على بابه فيكون التقدير: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا الله، وقبل: إلا الراحم والراحم هو الله جل ذكره والثاني: على أن يكون عاصم بمعنى معصوم، فيكون التقدير لا معصوم من أمر الله اليوم إلا المرحوم.

وهناك وجه آخر وهو اعتبار ﴿مَنْ﴾ مبتدأ، وخبره محذوف، التقدير: فهو المعصوم أو المرحوم، وعليه فالجملة الاسمية (من رحمه الله فهو المعصوم) في محل نصب على الاستثناء من عموم الأحوال.

قال ابن عاشور: «وأفاد قوله «فكان من المغرقين» أنه غرق وغرق معه من توعده بالغرق، فهو إيجاز بديع».

قال الزمخشري: «ذلك أنه لما جعل الجبل عاصماً من الماء قال له: لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل أو نحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم يعني السفينة».

قال رضا: «سألجاً إلى جبلٍ عالٍ يحفظني من الماء أن يصل إلي فأغرق قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم: أي: لا شيء في هذا اليوم العصيب يعصم أحداً من أمر الله الذي قضاه، فليس الأمر والشأن أمر ماء يرتفع بكثرة المطر كالمعتاد، فيتقي الحازم ضره بما يقدر عليه من الأسباب، وإنما هو أمر انتقام عام من أشرار العباد، الذين أشرؤا بالله وظلموا وطغوا في البلاد، لكن من رحم الله منهم فهو يعصمه ويحفظه. وقد اختص بهذه الرحمة من أمر يحملهم في هذه السفينة وحال بينهما الموج: وكان قد بدأ يرتفع في أثناء هذا الحديث حتى حال بين الولد والديه فكان من المغرقين: الهالكين»^(١).

ونقل عن النسق القرآني والتصوير الفني تعليقهما على هذه الآيات أو هذا المقطع المكون من ثلاث آيات يمثل مشهد الطوفان منذ أن تحركت السفينة بنوح ومن آمن معه إلى أن استوت على الجودي في نهاية المشهد، لتتبع بعض ملامح الانسجام والملاءمة بين الصوت والمضمون فماذا نجد؟ لقد سماها سيد قطب بموسيقى الطوفان وعبر عن انطباعاته وتذوقه لها بقوله: إن التكوين الموسيقي للجملة ليذهب طويلاً وعرضاً في عمق وارتفاع ليشترك في رسم الهول العريض، والمئات المتوالية المتنوعة في التكوين اللفظي للآية تساعد في إكمال الإيقاع وتكوينه واتساقه مع جو المشهد الرهيب العميق^(٢).

ويضيف صاحب النسق القرآني على ما في التصوير فيقول: إن المدود المختلفة في الآيتين وبصورة خاصة مدود الألف ثم الياء تصور المشهد الحي للطوفان كما يلي: موج مرتفع كالجبال والسفينة تمخر عباب الماء وسط الأعاصير، وابن عاق ركب رأسه ورفض اللحاق بأبيه وأهله فهو يصارع هذا الموج الذي هو كالجبال،

(١) رضا، المنار، ج ١٢، ص ٦٦.

(٢) التصوير الفني ص ١٠٦، ص ١١٣ والنسق القرآني ص ١٢١.

ووسط هذا الصخب العالي لا بد من رفع الصوت لتبادل الخطاب ولا بد من مد الأصوات لتبلغ مسمع المخاطب.

فكان النداء وبعده الأمر والنهي اختصاراً للزمن وخشية من فوات الأوان، ثم يأتي جواب الابن يحتوي على المدود للغاية نفسها وهي محاولة إسماع المخاطب الجواب في هذا الجو الصاخب وعلى نفس الوتيرة من الاختصار وكشفاً للعناد والإصرار على الموقف لدى الابن العاصي فكان جواب الوالد الأخير على خطاب الابن حاسماً وبنفس الوتيرة من الصياغة ﴿لَا عَاصِمَ﴾ مقابل ﴿يَقْصِمُنِي﴾ وتبقى المدود ذات أثر ملحوظ في الصوت تهدف إبلاغ الجواب النهائي، وينتهي المشهد، مشهد الغرق، بالتعقيب الرباني على هذا الحوار يرسم الخاتمة ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ حافظ السياق على تموجه ومدوده لأن جو الطوفان لا زال يفرض نفسه على المشهد بهوله وصخبه ومخاطره^(١).

من دروس الآية ٤٣:

- ١- النصيحة الصادقة من الأب أغلى من الذهب.
- ٢- قل من يستمع من أسف لنصيحة الناصحين.
- ٣- أمر الله لا مفر منه ولا مهرب ولا منجاة.
- ٤- القياس الخاطيء يوقع الناس في مفارقات عجيبة غريبة، فابن نوح قاس ماء الطوفان على خبرته وتجربته في الأمطار.
- ٥- حرص الوالدين لا يعدله حرص.

(١) النسق القرآني للدكتور محمد ديب جاجي ص ١٢٢.

الآية ٤٤:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَ أَقْلِي وَغِصَّ الْمَاءُ وَفُصِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى

الْجُودِيِّ وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

الربط والمناسبة: هذا المشهد نهاية الطوفان، بعد غرق ابن نوح فالسياق متصل لا يبحث فيه عن ربط واتساق.

وهذه الآية (١٧) كلمة و(٨١) حرفاً وترتيبها (١٥١٧).

المعنى: وقيل: الواو للاستئناف أو للعطف، وعبر بالمجهول أعني بالفعل المبني للمجهول مع أنه معلوم ليتم التركيز على الأمر لا على من أمر وعلى الفعل لا على من أمر بالفعل، ككثير من الآيات من مثل ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ والشواهد كثير.

يا أرض: أول ما يلفت النظر رسم الكلمتين بألف واحدة بحذف ألف يا النداء وإبقاء ألف أرض.. وذلك للإيحاء بالقرب، ولم يقل يا أيتها الأرض.. للمعنى ذاته أعني القرب والسرعة.

ولم يقل السياق وقيل للأرض يا أرض، وكل ذلك لما قلنا والله أعلم.

ابلعي ماءك: لم يقل اشربي ماءك، وإنما قال ابلعي لإفادة سرعة اختفاء الماء، وأضاف الماء إلى كاف الخطاب العائد إلى الأرض لإفادة الاقتدار عليه فهو ماؤك، أو الذي سأقدرك عليه لأنه ماؤك.

ويا سماء: ونلفت النظر إلى رسم كلمة يا سماء كلمة واحدة كما قلنا في يا أرض، والملحظ هو الملحظ.. هنا كما هناك.

أقلمي: كفي عن الإمطار، وتوقفي عن القطر، ويستخدم أقلع في الأضداد، فيقال أقلع طار أو سافر والإقلاع بدء الارتحال، وأقلع عن التدخين كف عنه.

واعتقد أن المعنى قريب فالانتهاء من شيء ابتداء في شيء، والابتداء ضمناً يعني انتهاء المرحلة السابقة، ولذا كانت من الأضداد.

وغيض الماء: بني الفعل للمجهول كذلك للتركيز على الفعل لا على من أمر بغيض^(١) الماء.

وقضي الأمر: وحسم الأمر وانتهى.

«وغيض الماء وقضي الأمر»: يتم التحول الكوني بالفعل المبني للمجهول إذ يكفي لفت النظر إلى ما يجري من ابتلاع الماء وكف السماء عن المطر واستقرار السفينة على اليابس (الشاطئ في النص الأصلي) حتى يعرف من فاعل ذلك، كله لا يخطئه الفكر والشعور، هو الله.. وصيغة (غيض) بإيجائها الصوتي أقوى أثراً في الدلالة من غاض فالألف بدالاتها الصوتية الظاهرية ورسمها في الفم عند نطقها تختلف عن صوت الياء وشكل الفم حين نطقها، وهي ذات دلالة عميقة تشبه تسرب الماء بين ثنايا الأرض هابطاً للأسفل بحيث لا يؤديها كذلك لفظ الألف في غاض. والتوازن ظاهر أيضاً بين الجملتين المتواليتين «وغيض الماء، وقضي الأمر» يشير إلى أن التنفيذ تم موافقاً للأمر دون شطط أو تقصير وبنفس الوتيرة من الإيقاع تقريباً، وفي صيغة «وقضي الأمر» جمالية في الدلالة حار فيها الدارسون بين وصفها بالتمثيل كفن من فنون البديع حيث عبر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ

(١) لم يرد الفعل أو الجذر غيض بهذه الصيغة إلا هنا وورد مرة «تَغْيِضُ الْأَرْكَامُ» في سورة الرعد هذا كل ما

في القرآن والسورتان من ذوات الراء والميم.

بعيد عن الموضوع، وبين اعتبارها من فنون الإرداف من حيث أن الحقيقة المعنية فيها أنه هلك من قضى الله هلاكه ونجا من قضى نجاته..

وإنما عدل عن هذه الحقيقة إلى لفظ الإرداف من الإيجاز والتنبيه على أن هلاك الهالك ونجاة الناجي كان بأمر أمر مطاع وقضاء من لا يرد قضاؤه.. وقضاؤه يدل على قدرة الأمر به، وطاعة المأمور تدل على قدرة الأمر وقهره، والخوف من عقابه ورجاء ثوابه يحضان على طاعة الأمر، ولا يحصل ذلك كله من اللفظ الخاص، إذ الإرداف أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له ولا بلفظ الإشارة الدال على المعاني الكثيرة بل بلفظ هو ردف المعنى الخاص وتابعه قريب من لفظ المعنى قرب الرديف من الردف كما هو في قوله تعالى: وقضى الأمر^(١).

واستوت على الجودي: واستقرت السفينة على جبل الجودي.

ولم يرد في القرآن ولا صحيح السنة أنه جبل، لكن الروايات تضافرت على هذا وليس بعيداً، باعتبار أن جفافه يكون قبل المنخفضات والله أعلم.

وقيل بعداً للقوم الظالمين: بدأت الآية بالفعل المبني للمجهول ﴿وَقِيلَ﴾ وها هي تحتّم بذات الفعل ﴿وَقِيلَ﴾ وهو الفعل الرابع المبني للمجهول في هذه الآية.. ولا نكرر أن البناء للمجهول المقصود منه التركيز على الفعل لا على الفاعل.

بعداً^(٢): أي أبعدهم الله دعاء عليهم ببعدهم عن الرحمة، أو بعداً بمعنى قد أبعدوا عن الدنيا وعن الوجود بكفرهم.

(١) النسق القرآني ص ١٢٤ وارجع إلى جواهر البلاغة لأحمد الهاشمي ص ٤١٥، ومعتزك الأقران للسيوطي ج ١ ص ٣١٨، وإعراب القرآن لمحبي الدين الدرويش ج ٤ ص ٣٦٢.

(٢) وردت بعداً في القرآن ٦ مرات هذه أولها، ووردت بعداً للقوم الظالمين مرتين هذه أولهما والآخره في

المؤمنون ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [٤١].

للقوم الظالمين: للقوم الظالمين أنفسهم أو الظالمين مطلقاً أي لأنفسهم ولغيرهم وللحق، والله أعلم.

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعليقاً على قوله تعالى ﴿وَقِيلَ بَعْدَ لَقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: «بعداً لهم من الحياة فقد ذهبوا، وبعداً لهم من رحمة الله فقد لعنوا، وبعداً لهم من الذاكرة فقد انتهوا وما عادوا يستحقون ذكراً ولا ذكرى».

قال الشيخ حسن بن مخلوف في صفوة البيان: «القول في هذه الآية مجاز عن تعلق القدرة بزوال الماء وبهلاكهم، وكما قيل في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿وَيَسْأَلُهُ أَتَى﴾: أمسكي عن إرسال المطر، يقال: أقلع عن عمله إقلاعاً: كف عنه، وأقلعت عنه الحمى: إذا تركته.

وغيض الماء: نقص، يقال: غاض الماء يغيض، قلّ ونضب، الجودي: جبل بالموصل (وأقول: تحديد الأماكن مجازفة ولا دليل عليه لا من كتاب ولا صحيح سنة.. فكيف نعلمه ونجزم به؟) بعداً للقوم الظالمين: هلاكاً لهم، يقال: بعد بعداً: بمعنى هلك، قال تعالى: ﴿أَلَا بَعْدَ لَمَدَيْنِ كَمَا بَدَتِ ثَمُودُ﴾ أي ألا هلاكاً لمدين كما هلكت ثمود، وبعض العرب يقول في المكان: بعد، بالضم، وفي الهلاك بعد بالكسر، ويذهب إلى أن استعمال المضموم في الهلاك مجاز، ومثله يقال في قوله تعالى: ﴿أَلَا بَعْدَ لَعَادٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَلَا بَعْدَ الثَّمُودِ﴾ أ. هـ.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «قال البيضاوي رحمه الله: نوديا بما ينادى به أولو العلم، وأمرًا بما يؤمرون تمثيلاً لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالأمر المطاع الذي يأمر المتقاد لحكمه، المبادر إلى امتثال أمره مهابة من عظمتة وخشية من أليم عقابه.

وقال بعض المفسرين: هذه الآية أبلغ آية في القرآن وقد احتوت من أنواع البديع على أحد وعشرين نوعاً فيها تسع عشرة كلمة، وخوطبت الأرض أولاً بالبلع لأن الماء نبع منها أولاً قبل أن تمطر السماء^(١).

فائدة: أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة أنبياء: الجودي بنوح، وطور سيناء بموسى، وحراء بسيدنا محمد عليه وعلى الأنبياء الصلاة والسلام. منقول عن الدرّة.

قال الزمخشري: «يقال: بعدُ بعداً وبعداً إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك، ولذلك اختص بدعاء السوء ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر، وأن فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله فلا يذهب الواهم إلى أن يقول غيره «يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي» ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره».

قال رضا: «فَتَحْثِلْ أَتَكَ نَاطِرٌ إِلَيْهَا كَمَا صَوَّرَهَا لَكَ التَّنْزِيلُ، تَتَفَكَّرُ فِيمَا يَثُولُ إِلَيْهِ أَمْرٌ هَذَا الْخُطْبِ الْجَلِيلِ، وَاسْتَمِعْ لِمَا بَيَّنَّهُ بِهِ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، أَوْجَزُ عِبَارَةٍ وَأَبْلَغُهَا تَأْثِيرًا، جَعَلْتَ أَعْظَمَ مَا فِي الْعَالَمِ كَانَ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا. وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ: أي: وَصَدَرَ مِنْ عَالِمِ الْغَيْبِ الْأَعْلَى نِدَاءٌ خَاطَبَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ، بِأَمْرِ التَّكْوِينِ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ الْعُقَلَاءُ وَغَيْرُ الْعُقَلَاءِ: يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ: كُلُّهُ الَّذِي عَلَيْكَ، أَوِ الَّذِي تَفْجَرُ مِنْ بَاطِنِكَ، إِنْ صَحَّ أَنَّ مَاءَ السَّمَاءِ صَارَ بَحْرًا، وَابْلَغُ: ازْدِرَادُ الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ بِسُرْعَةٍ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي: أي: كُنْفِي عَنِ الْإِمْطَارِ فَاثْبِثِي الْأَمْرَ فِي الْحَالِ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ قِيلَ: كُنْ فَكَانَ وَغِيضَ الْمَاءِ: أي: غَارَ فِي الْأَرْضِ وَنَضَبَ بِابْتِلَاعِهَا لَهُ نَضُوبًا وَقَضِيَ الْأَمْرُ: أي: وَفَقَدَ ذَلِكَ الْأَمْرُ يَاهْلَكَ الظَّالِمِينَ، وَنَجَاءَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ: أي: وَاسْتَقَرَّتِ السَّيْفِينَةُ رَاسِيَةً عَلَى

الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ بِالْجُدِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ: أَيِ هَلَاكًا وَسَحَقًا لَهُمْ، وَبُعْدًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - بِمَا كَانَ مِنْ رُسُوخِهِمْ فِي الظُّلْمِ وَاسْتِمْرَارِهِمْ عَلَيْهِ، وَقَفْدِهِمْ الْإِسْتِعْذَادَ لِلتَّوْبَةِ وَالرُّجُوعَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ... وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْجَبَلَ قَدْ غَمَرَهُ الْمَاءُ وَلَمْ يَرْتَفِعْ فَوْقَهُ إِلَّا قَلِيلًا، فَلَمَّا بَلَغَتْهُ السَّيْفِينَةُ كَانَ الْمَاءُ فَوْقَهُ رَفْرَاقًا وَبَدَأَ يَتَقَلَّصُ وَيَغِيضُ فَاسْتَوَتْ عَلَيْهِ^(١).

قال في كتاب النسق القرآني: ونتابع حركة المشهد في الآية الأخيرة من المقطع حيث تنتهي محنة الطوفان بعد غرق الابن فيتحول المشهد إلى نداء وأمر ثم تأتي الأفعال ترسم تتابع الأحداث بعد هذا النداء والأمر، بصيغ من الانسجام بين الصوت والمعنى ما دعاه العلماء الدارسون بحسن النسق، فقد ترادفت الجمل منسوقة بعضها على بعض بواو النسق، كما تدارسوها من زوايا مختلفة كشفت عن ألوان من التعبير البلاغي ما ليس متوفرًا في كلام أحد من البشر، وقد نقل السيوطي عن ابن أبي الإصبع ما قاله في هذه الآية: ولم أر في الكلام مثل هذه الآية (كل آية عجب وإعجاز) فإن فيها عشرين ضرباً، وذلك للمناسبة التامة في: ابلعي وأقلعي، والاستعارة فيهما، والطباق بين الأرض والسماء، والإشارة في وغيض الماء، فإنه عبر به عن معاني كثيرة لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء، وتبلع الأرض ما يخرج منها من عيون الماء فينقص الحاصل على وجه الأرض من الماء. والإرداف في ﴿وَأَسْتَوَتْ﴾، والتمثيل في ﴿وَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾، والتعليل فإن غيض الماء علة الاستواء، وصحة التقسيم: فإنه استوعب فيه أقسام الماء حالة نقصه إذ ليس إلا احتباس ماء السماء والماء التابع من الأرض وغيض الماء الذي على ظهرها، والاحتباس في الدعاء لثلا يومهم أن الغرق لعمومه شمل من لا يستحق الهلاك، فإن عدله تعالى يمنع أن يدعو على غير مستحق، وحسن النسق. واثتلاف اللفظ مع

المعنى. والإيجاز فإنه تعالى قص القصة مستوعبة بأخصر عبارة، والتسليم: لأن أول الآية يدل على آخرها، والتعذيب لأن مفرداتها موصوفة بصفات الحسن، كل لفظة سهلة مخارج الحروف، عليها رونق الفصاحة، مع الخلو من عقادة التركيب، وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام، ولا يشكل عليه شيء منه، والتمكين: لأن الفاصلة مستقرة في محلها مطمئنة في مكانها غير قلقلة ولا مستدعاة^(١).

وواصل صاحب كتاب النسق القرآني فقال: تمثل هذه الآية الكريمة مشهداً فذاً من مشاهد الكون يعتبر تكملة للمشهد السابق الوارد في الآيتين السابقتين مشهد طوفان، وسفينة تعبر هذا الخضم الموج فيه كالجبال، ومجموعة من البشر هم عنوان الحياة الجديدة وفجأة يصدر الأمر الإلهي إلى الأرض والسماء فتتغير مظاهر الكون المخيفة فيختفي الماء وتقلع السماء وترسو السفينة، وقد ارتاحت البشرية بعد هذا الهول العظيم وتطهرت الأرض من الظالمين^(٢).

ثم تكلم عن النسق الصوتي في هذه الآية مع الموضوع فقال: «جاء النداء من أجل التنفيذ، فقد جاء بأفضل صيغة مختصرة والأرض تؤمر فتستجيب فليست بحاجة إلى أكثر من هذه الصيغة، وحددت صيغة التنفيذ بدقة ﴿أَتْلَى﴾ على وجه السرعة وليس (امتصي) وهو ﴿مَاءَكِ﴾ فليس في الأمر ما هو فوق الطاقة، ﴿وَنَسَمَاءُ أَقْلَى﴾ بأن تكف عن المطر يصدر الأمر ويحدث التنفيذ فيتنغير المشهد.

(١) النسق القرآني ص ١٢٢-١٢٣، وأرجع إلى معترك الأقران للسيوطي ج ١ ص ٣١٨-٣١٩.

(٢) النسق القرآني ص ١٢٣، وقد قال عن الطوفان أنه عم وطم وأوحى بكلامه أنه استغرق سطح الأرض وليس كذلك بطبيعة الحال، وإنما العذاب على قدر الغرض وهو إهلاك الظالمين وإنهاء المؤمنين لا إغراق الأرض وقتل حيوانها ونباتها.

من دروس الآية ٤٤:

- ١- الكون يسير ويدار بأمر الله.
- ٢- فيض الماء وغيض الماء يتم بكلمة.
- ٣- الله صبور حلیم رشید لكن انتقامه شديد.
- ٤- كم يظلم الكفار أنفسهم بكفرهم فيهلكونها في الدنيا والآخرة.

الآية ٤٥:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَخْلَمُ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾

الربط والمناسبة: القصة ما تزال تعرض فصولها ومشاهدها وهذا فيما أرى مؤخر في السرد، مقدم في الحدث، فما معنى أن يدعو نوح ربه لابنه أن يتخذ بعد أن هلك؟

ولما أراد القرآن بقصه العجيب المتفرد أن ينهي القصة في سرعة خاطفة ثم يعود إلى هذا المشهد الذي حدث قبلاً.

وأنصور ترتيب الحدث أن يكون هذا المشهد بعد مشهد نداء نوح لابنه أن يركب في السفينة فلما عاند وأصر واستكبر توجه إلى الله أن يطوعه وأن يلينه وأن يوجه قلبه إلى الهدى فينقذ من الغرق في الدنيا ومن النار يوم القيامة والله أعلم.

وهذه الآية (١٥) كلمة و(٥٥) حرفاً وترتيبها (١٥١٨).

المعنى: ونادى نوح ربه: الواو إما عاطفة مشهداً على مشهد وحدثاً على حدث وإما استئنافية ولعل هذا أقرب.

ونادى: نداء دعاء ومناجاة ورجاء والتجاء، أي أن نوحاً لجأ إلى ربه يستعينه على ولده ويستغيثه لنجاة ولده.

ربه: أي الذي يتعهد ويتولاه ويدبر أمره.

فقال: تفصيل لهذا النداء بهذا القول.

رب: تكرر لفظ الرب للمرة الثانية بفواصل كلمة واحدة هي كلمة فقال التي هي لتفصيل النداء كما سلف، وتكثيف الكلمة لإشاعة جو المؤانسة والتسرية أن الرب الذي يتولاك هو من سيقطع في أمر هذا الولد إن كان من أهلك أوليس منهم فيهلك.

إن ابني من أهلي: ولا يعلم الله أحد، ولكنه من باب الرجاء والاستجداء من الله... ودعاء من قلب مكسور على الولد.

إن ابني من أهلي، كأنه يستحضر في هذا المقام وعد الله بنجاة أهله، ويغض الطرف عن ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ...﴾.

وإن وعدك الحق: أي أنك وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك حق واقع لا يخلف.

وأنت أحكم الحاكمين: وأنت الحكم العدل وأنت أحكم الحاكمين في أحكامك وإني راضٍ بكل ما تحكم وتأمر وتقدر، وخاضع لقدرك وإرادتك وقضائك، لكني أدعوك وأرجوك وأتوسل إليك.

مع رضاي بقضائك أيأ يكن، فأنا عبد مستسلم خاضع خاشع منيب.

قال الزمخشري في كشافه: «ندأؤه ربه: دعاؤه له، وهو قوله: ﴿رَبِّ﴾ مع ما

بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله، فإن قلت: فإذا كان النداء هو قوله: ﴿رَبِّ﴾

فكيف عطف قال رب على نادى بالفاء؟ قلت: أريد بالنداء إرادة النداء، ولو أريد

النداء نفسه فجاء^(١) كما جاء قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَّاءَ حَفِيًّا﴾ ﴿٢﴾ قَالَ رَبِّ بِغَيْرِ فاء إن ابني من أهلي، وإن وعدك الحق: فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به وقد وعدتني أن تنجي أهلي فما بال ولدي؟ وأنت أحكم الحاكمين: أي أعلم الحكام وأعد لهم، لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل، ورب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في زمانك قد لقب أقضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر^(٢).^(٣)

قال مكي: «ونداء الرب قد كثر حذف (يا) النداء منه في القرآن وعلة ذلك أن في حذفها من نداء الرب فيه معنى التعظيم له والتتزيه، وذلك أن النداء فيه ضرب من معنى الأمر فحذف (يا) من نداء الرب ليزول معنى الأمر وينقض، لأن (يا) تؤكد وتظهر معناه، فكان في حذف (يا) التعظيم والإجلال للرب سبحانه وتعالى، فكثر حذفها في القرآن»^(٤).

قال ابن عاشور: «المعنى: أن نوحاً عليه السلام لا يجهل أن ابنه كافر، ولذلك فسؤال المغفرة له عن علم بأنه كافر، ولكنه يطمع لعل الله أن يعفو عنه لأجل قرابته به، وذلك أخذ بأقصى دواعي الشفقة والرحمة بابنه».

قال المراغي: «الآيات الثلاث... تبين أن حكم الله في خلقه العدل بلا محاباة لولى ولا نبي، وأن الأنبياء قد يجوز عليهم الخطأ في الاجتهاد ويعد ذلك ذنباً بالنظر

(١) أعتقد أن الأصوب لجاء.

(٢) الكشف ج ٢ ص ٢٧٢ ط الحلبي.

(٣) وردت أحكم الحاكمين مرتين في القرآن هذه أولاهما والثانية والأخيرة ختام سورة التين: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ

لِلنَّكِمِينَ﴾ وورد خير الحاكمين ٣ مرات، أما أحكم الحاكمين لما بت في شأنه من القضايا والقضاء وتلك لما لم يبت فيه بعد، والله أعلم.

(٤) الدرر المجلد السادس صفحة ٣٠٢.

إلى مقامهم الرفيع ومعرفتهم بربهم، وذلك ما عرض له نوح عليه السلام من الاجتهاد فى أمر ابنه الذي تخلف عن السفينة فكان من المغرقين، كما أن فى الآية الأخيرة استدلالاً على نبوة محمد ﷺ، وطلب صبره على أذى قومه^(١).

من دروس الآية ٤٥:

- ١- الأنبياء بشر ويظنون بشراً تعتمل في قلوبهم مشاعر البشر.
- ٢- الأبوة والأمومة بالطبع، منبع شعور لا يدانيه إلا ما هو فوقه مما يتصل بالدين.
- ٣- جيشان الشعور قد ينسي بدهيات الأمور.
- ٤- الحكمة والعدل من أعظم ما يرتقي بالأفراد والمجتمعات.

آية ٤٦:

﴿قَالَ يَنْحُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِينَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ
أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

الربط والمناسبة: فى الآية السابقة دعاء نوح لربه وفى هذه الآية رد الرب الجليل على دعاء نوح، وهناك قال نوح إن ابني من أهلي، وهنا يقول المولى العظيم والرب الجليل الكريم: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ فالمقدمة لا تستدعي النتيجة، لأن المقدمة مغلوطة، فالنتيجة غير مرتبة عليها.

وهذه الآية (٢٣) كلمة و(٧٣) حرفاً وترتيبها (١٥١٩).

المعنى: قال يا نوح: قال: أي الرب الجليل سبحانه، قال رداً على سؤال نوح لربه ورجائه إياه ودعائه لولده بالنجاة.

يا نوح^(١): جاءت في الرسم القرآني كلمة واحدة بمحذف الألف واتصال الياء بالنون.. لإفادة القرب فيما نعتقد.

إنه ليس من أهلك: ينفي الله تعالى أن ولد نوح ابنه، ولن نخوض في ترهات أنه ابنه بالتبني، أو أنه ليس من صلبه، مما يتضمن أنه ابن غير شرعي، ومعاذ الله، فيبوت الأنبياء، من هذه الناحية، مصونة، حصينة، أما الكفر فشان آخر.

ثم فسر القرآن لماذا هو ليس من أهله فلم السفسة والغرق في الإسرائيليات؟ إنه عمل غير صالح: هذا تعليل وتبرير لاعتبار أنه ليس من ولده أن الإيمان هو النسب الحقيقي، أما غير المؤمن فليس من أهلك الذين يشملهم الوعد فقد قلت لك قبل: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ ولفته في اعتبار أن الإنسان هو عمله، فلم يبق إلا صورة اللحم والدم، وغير صالح يقتضي أنه فاسد طالح.

قال في النسق القرآني: «القول هنا حوار بصيغة الفعل المسند إلى فاعل ظاهر أو مضمّر معروف ويبدو أن الذي اقتضى هذه الصيغة هو موقف الحوار بين نوح وربه عز وجل من جهة ولأن الجواب الرباني يمثل حقيقة أساسية تقتضي تقريرها في حياة البشرية وقد جاءت مناسبتها .. إنه ليس من أهلك..» فالنسب نسب الإيمان والعقيدة وليس نسب الدم والقرابة فاقتضى بيان هذه الحقيقة وتقريرها أن يعترف مقررهما، «قال يا نوح إنه ليس من أهلك» وعلل السبب: «إنه عمل غير صالح»

(١) نلفت النظر إلى اللفظة التي طالما نبه إليها الشعراوي العبقري رحمه الله وهي أن كل الأنبياء ناداهم الله بأسمائهم يا آدم يا نوح يا إبراهيم يا زكريا يا موسى يا عيسى عدا محمداً ﷺ فلم يناده إلا بوصف النبوة والرسالة تقديراً لكانه ورفعة لشأنه، بمعنى كلام الشعراوي.

وسمى الابن عمل على قراءة حفص وغيره، وقرأ الكسائي ويعقوب بالفعل عَمِلَ، فالحكم على أن الابن ليس ابناً لنوح يمدده العمل، وقد صار كله في اعتبار القراءة الأولى بمثابة عمل غير صالح، فغلب الاسم على الفعل الذي هو بعض أفعال المكلف، وجاء بلفظ عمل وليس بلفظ فعل لما في العمل من معنى الوعي والإدراك وإن كان بعيداً عن هدى الله والعلم بما أمر، وقد استأنسنا من سياق المقطع صفة العقوق والقسوة من هذا الابن تجاه أبيه، والحنان والإشفاق والحرص على الهداية من جهة الأب النبي...»^(١).

فلا تسألن: الفاء تفرعية ولا الناهية والمضارع بعدها مجزوم بها فحذفت الياء من آخره.

ما ليس لك به علم: ولسنا نخوض هنا أيضاً في خرافة أن ابنه كان من المنافقين، فهي لا تستحق التسجيل ولا المناقشة، إنما المراد توصيله لنوح أن أحكام الله حكمة وعلم، كما سبق من قول الزمخشري، وأنت في هذه المسألة انطلقت من شعورك وعاطفتك وحكمت لا بعقلك وعدلك وحكمتك ولكن بمشاعرك وحنان أبوتك.. فباعدت عن علمك، تماماً - فيما أرى - كما حكم داود في مسألة ذي النعجة وذئب التسعة والتسعين إذ قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ فقال الله له مصوباً معاتباً: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

والهوى الذي ذكر في نص الآية هو اتباع العاطفة وليس شهوة الظلم والانحياز والتعصب والتحيز لسبب أو نسب معاذ الله.

إني أعظك أن تكون من الجاهلين: يقول الله لنوح، إني أنا الله ربك أعظك وأنهاك وأزجرك أن تكون من الجاهلين، والجاهل هنا ضد العلم لا ضد الحلم.. بدلالة السياق قبله وذلك قوله ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

ولم ترد أعظك في القرآن إلا هنا.. أما كلمة الجاهلين فقد وردت ٦ مرات^(١).

قال الزمخشري العبري: «إنه عمل: تعليل لانتفاء كونه من أهله^(٢) وفيه إيذان أن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب وأن نسيبك في دينك ومعتقدك من الأبعد في المنصب وإن كان حبشياً وكنت قرشياً لصبيقتك وخصيصك، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحماً فهو بعد بعيد منك، وجعلت ذاته عملاً غير صالح مبالغة في ذمه كقولها: فإنما هي إقبال وإدبار، وقيل الضمير (يقصد في إنه): لنداء نوح: أي أن نداءك هذا عمل غير صالح، وليس بذلك، (ضعفه الزمخشري بهذا القول) فإن قلت: فهلا قيل إنه عمل فاسد؟ قلت: لما نفاه عن أهله نفى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقي معها لفظ المنفي، وأذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم لا لأنهم أهلك وأقاربك، وإن هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوتك.

فلا تسألن: فلا تلتمس مني ملتماً أو التماساً لا تعلم أصواباً هو أم غير صواب حتى تقف على كنهه، وذكر المسألة دليل على أن النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه^(٣).

(١) أولها في سورة البقرة في قصة البقرة: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [٦٧]. وثانيها في الأنعام ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [٣٥] فالأعراف ﴿وَأَقْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فأيتنا هذه فيوسف حين استعان بالله وطلب صرف كيد النسوة وآخرها في القصص ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَتَّبِعِ الْجَاهِلِينَ﴾ [٥٥]..

(٢) قلت: ومع هذا ذكر حكاية الربيب.

(٣) وقد كتبت ما كتبت ولم أكن أتوقع أن أجد هذا عند الزمخشري فالحمد لله، فقد تعزز في نفسي، وهو معزز أصلاً، لكن ما زاد الأمر موافقة القول للقول..

فإن قلت: لم سمي نداؤه سؤالاً ولا سؤال فيه؟ قلت: قد تضمن دعاؤه معنى السؤال وإن لم يصرح به.

وعلق الزمخشري على ختام الآية بقوله: «وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلاً.. ووعظه ألا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين»^(١).

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» وذلك لقطع الولاية بين المؤمن والكافر، وهذا يدل على أن حكم الاتفاق في الدين أقوى من النسب، «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» فهذا تعليل نفى كونه من أهله، وأصله إنه عمل فاسد فجعل ذاته ذات العمل.

«وقرأ الكسائي ويعقوب «إِنَّهُ عَمَلٌ» أي ابنك عَمَلٌ غير صالح».

﴿تَتَنَبَّأ﴾ قرئت بفتح اللام وتشديد النون مفتوحة ومكسورة بياء المتكلم وبدونها، وقراءة حفص بسكون اللام وكسر النون وبدون ياء المتكلم^(٢).

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعليقاً على قوله تعالى: «إِنِّي أَعْظُمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» «إني أعظك أن تكون من الجاهلين بحقيقة الوشائج والروابط، أو حقيقة وعد الله وتأويله فوعد الله قد أول وتحقق ونجا أهلك الذين هم أهلك على التحقيق».

قال ابن عاشور: «ومعنى العمل غير الصالح: الكفر، وأطلق على الكفر (عمل) لأنه عمل القلب، ولأنه يظهر أثره في عمل صاحبه كامتناع ابن نوح من الركوب الدال على تكذيبه بوعيد الطوفان».

(١) الكشف ج ٢ ص ٢٧٣ ط مصطفى البابي الحلبي القاهرة.

(٢) الدرة المجلد السادس صفحة ٣٠٣.

وفي الآية قال المراغي: «إيماء إلى أنه لا يجوز الدعاء بطلب ما هو مخالف لسنن الله في خلقه بإرادة قلب نظام الكون لأجل الداعي، ولا بطلب ما هو محرم شرعاً، وإنما يجوز الدعاء بتسخير الأسباب والتوفيق فيها والهداية إلى العلم بالمجهول من السنن والنظام، لنكثر من عمل الخير، ونزيد من عمل البر والإحسان. إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تُكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ: أي إني أنهك أن تكون من زمرة من يجهلون، فيسألونه تعالى أن يطل حكمته وتقديره في خلقه، إجابة لشهواتهم وأهوائهم في أنفسهم أو أهليهم أو محبيهم»^(١).

من دروس الآية ٤٦:

- ١- صدق من قال جنسية المسلم عقيدته.
- ٢- أقرب النسب علاقة الإيمان.
- ٣- كل القربابات إن تباعدت عن الدين تباعدت عن الشعور.
- ٤- الإنسان هو عمله.. وصورة اللحم والدم أهون شيء.
- ٥- الجهل أخطر الأعداء.
- ٦- الانطلاق من قيم الدين ومعايير الدين صمام أمان الحياة.
- ٧- حسن التصرف مرهون بحسن المنطلق وصواب القيم.

الآية ٤٧:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا أَتَقَفِرُ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ

مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾

الربط والمناسبة: نهى رب العالمين سبحانه نوحاً عليه السلام أن يسأل ربه ما ليس له به علم.. بل يسأل ضمن ما أذن الله له به وما عنده علم من الله به.. وفي هذه الآية يعتذر نوح عن سؤاله، ويعاود سؤال الله لكن أن يصرف عنه أن يسأل ما ليس له به علم.. فالسياق متصل كل الاتصال.

وهذه الآية (١٩) كلمة و(٦٢) حرفاً وترتيبها (١٥٢٠).

المعنى: قال رب: قال نوح مستغفراً مستعيناً بالله، قال رب، بحذف يا النداء لمزيد تقرب، يا من تتعهدني وتربيته وتعلمني وتقومني وتهديني.
إني أعوذ بك: إني أتحصن بك وأحتمي بك وأعوذ بك والوذ من أن أقع في هذه المخالفات مرة أخرى.

أن أسألك ما ليس لي به علم: هذا هو ما يتعوذ منه نوح.. أن يسأل الله ما ليس له به علم، أي لم يؤذن له به، ولم ينزل به كتاب ولا إذن إلهي.

ولا تغفر لي وترحمي أكن من الخاسرين: وإن لم تغفر ذنبي وتتولني برحمتك يكن مصيري الخسران في الدنيا والآخرة.. وأعوذ بك أن يكون أمري كذلك.

والخاسر من انتقص رأس ماله، والخاسر هنا من فقد محبة الله ومثوبة الله.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «لقد استدلل بهذه الآية من لا يرى عصمة الأنبياء من الذنوب، وملخص الجواب: أن نوحاً عليه السلام كان قد وعد ربه بأن ينجيه وأهله فأخذ بظاهر اللفظ، ولم يعلم ما غاب عنه ولم يشك في وعد الله سبحانه وتعالى؛ فأقدم على سؤاله ربه أن ينجي ابنه لهذا السبب ولأنه من أهله، فعاتبه ربه

على سؤاله ما ليس له به علم، وبين له السبب الذي من أجله أهلك ابنه مع الهالكين، فخاف نوح عليه السلام من عاقبة السؤال فلجأ إلى الله وسأله المغفرة والرحمة، والله أعلم بمراحه وأسرار كتابه»^(١).

أقول: وموضوع العصمة موضوع يطول ولن أناقشه الآن.

قال ابن عاشور: «طلب المغفرة ابتداء لأن التخلية مقدمة على التحلية، ثم أعقبها بطلب الرحمة لأنه إذا كان يحمل الرضى من الله كان أهلاً للرحمة».

من دروس الآية ٤٧:

- ١- المؤمن سريع الفياء والرجوع إلى الله فكيف الرسل؟
- ٢- العلم منطلق السلوك.. هذا ما ينبغي أن يكون.
- ٣- إما أن ينضبط الناس بالشرع وما عقله العقل عن الشرع أو أنهم يتصرفون وفق الأهواء وإملاءات النفوس.
- ٤- منهج الله ضمان من الخسران.

الآية ٤٨:

﴿قِيلَ يٰنُوحُ اٰقِطْ بِسَلْمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ اٰمُرٍ مِّنْ مَّعَلِكْ ۚ وَاٰمُرٌ سَنَتَعْمَهُمْ ثُمَّ

يَمْسُهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ اَلِيمٌ ۝٤٨﴾

الربط والمناسبة: هذه الآية ختام قصة نوح عليه السلام، وقد تجاوز السياق عن دعوة نوح، لأنها قد أحييت، فعدم تكرار التعقيب عليها مشير إلى استجابة دعاء نوح وهنا يقال له ولن معه: اهبطوا بسلام.. لقد انتهى الأمر.

وهذه الآية (١٨) كلمة و(٦٩) حرفاً وترتيبها (١٥٢١).

المعنى: قيل يا نوح: وبني الفعل للمجهول دون حرف عطف لينتقل السياق إلى ختام القصة... والآيات الثلاث الأخيرة والآية التالية كلها جاءت بلا واو عطف أو استئناف، فلما انتقل إلى قصة عاد مع هود عليه السلام استحضر الواو عاطفة أو استئنافية.

اهبط بسلام منا وبركات: كأن السفينة طائرة فاستخدم كلمة اهبط فهي لارتفاع الموج كانت كأنها حلقة فليل اهبط، وإما لأن السفينة بذاتها عالية قيل اهبط، وإما الثالثة أنها مستخدمة بمعنى النزول مطلقاً.. فعندما طلب بنو إسرائيل البصل والعدس قال الله تعالى لهم: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١] ^(١).

بسلام منا: الباء تفيد الملازمة أي ملازماً سلاماً منا وأمناً في نزولك وهبوطك، وبركات تصحبك وتصحب أصحابك، والبركة الوفرة وكثرة الخير والملازمة والاستقرار والزيادة في الأرزاق وكل خير.

عليك وعلى أمم ممن معك: هذا السلام والبركات عليك يا نوح وعلى أمم ممن معك أولهم بطبيعة الحال من آمن معه ثم باقي المخلوقات المرافقة ^(٢).

وأمم ستمتعهم: أي أن من ذراري من نجا معك سينشأ أجيال على غير الإيمان فهؤلاء سنوفيههم نصيبهم من الدنيا فتمتعهم فيها.

(١) وردت اهبطوا في القرآن غير المرة المذكورة أعلاه ثلاث مرات أخرى كلها في قصة آدم: ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦، والأعراف: ٢٤] ﴿أَهْبِطُوا مِنْهَا جَعِمًا﴾ [البقرة: ٣٨].

(٢) لاحظ كثرة تردد حرف الميم في هذه الآية ولعلها أكثر آية في القرآن يتردد فيها حرف الميم بالنسبة إلى عدد كلماتها.. فقد ورد فيها حرف الميم ١٦ مرة، وهو من حيث الجرس والموسيقى يرسم جواً معيناً.. مهيباً جليلاً رقيقاً ثم شديداً.

ثم يحسم منا عذاب اليم: وبعد ذلك يحسم منا أي يصيبهم وعبر بالمس إما للسرعة، وإما أنه عذاب بين يدي عذاب الاستئصال.. فكانه الطلقة التحذيرية بين يدي قصف المدفعية أو أن المراد بالأمم مطلق من سيئون بقطع النظر عن ربطهم بمن معك وأين اتجهنا في الفهم فهم مرتبطون بمن معك فالخلق كما قال الله من بعد هذا المشهد هم من أبناء من في هذا المشهد.

فقد عبر القرآن عن البشرية مرة: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣]، وعبر مرة بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، وفي سورة مريم قال الله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ﴾ [مريم: ٥٨]، فهل يعني هذا أن الطوفان شمل جميع الأرض؟

والجواب فيما أرى، ليس كذلك.. بل إن البشرية كلها كانت في ذلك الوقت ممثلة في قوم نوح، ولا ندرى كم بين آدم ونوح من السنين، فلم ينتشر البشر بعد في سائر أرجاء الأرض، ولا ندرى المكان بطبيعة الحال، وربما كان منطقنا باعتبارها قلب العالم ووسطه وسرته.. وهي من حيث المناخ البلاد المعتدلة المناخ في حرها وبردها ومطرها.. وهي التي تضم الأرض المقدسة والمباركة، فلعل الإشارة إلى البركات تلمح إلى هذه الأرض.. ولا نعلم.. والله أعلم.. إنما هي محاولات فهم.

البركة ثبوت الخير وزيادته، وقيل: المراد بالبركة هنا أن الله جعل ذريته هم الباقيين إلى يوم القيامة فكل العالم من ذرية أبنائه، وقيل: دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة^(١).

قال مخلوف: «وبركات عليك: خيرات ونعم ثابتة عليك.. جمع بركة، وهي ثبوت الخير ونماؤه وزيادته، واشتقاقها من البرك، وهو صدر البعير، يقال: برك البعير، إذالقى بركه على الأرض وثبت ومنه البركة لثبوت الماء فيها. أ. هـ».

قال الزمخشري: «المعنى: أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك، ومن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار».

قال ابن عاشور: «المقصود تحذير قوم نوح من اتباع سبيل الذين أغرقوا. والمقصود من حكاية ذلك في القرآن التعريض بالمشركون من العرب فإنهم من ذرية نوح ولم يتبعوا سبيل جدهم، فأشعروا بأنهم من الأمم التي أنبا الله نوحاً بأنه سيمتعه ثم يحسم عذاب أليم».

قال السعدي: «قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ: من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه، فبارك الله في الجميع، حتى ملأوا أقطار الأرض ونواحيها. وَأُمَمٌ سَنُمَتُّعُهُمْ: في الدنيا ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ: أي: هذا الإنهاء، ليس بمنع لنا من أن من كفر بعد ذلك، أحللنا به العقاب، وإن متعوا قليلا فسيؤخذون بعد ذلك»^(١).

وقال الخطيب: «فتجد هذا النغم الموسيقى الهادر، في وقار وسكينة وجلال، أشبه بأنفاس الموج، وقد أخذت تهدأ بعد انحسار العاصفة! ففي الآية الكريمة سبعة عشر ميمًا، موزعة بين حروفها، هذا التوزيع الذي يقيم منها ذلك النغم الرائع، الذي يصحب السفينة في عودتها إلى موطن السلامة والأمن، وكأنه أهازيج النصر، ينشدها العائدون من أرض المعركة، بعد قتال ضار مرير»^(٢).

(١) تفسير السعدي، ص ٣٨٢.

(٢) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج ٦، ص ١١٥٠.

﴿قَدْ يَنْوُحُ أَقِطِ سَلَمٍ...﴾.

قال في النسق القرآني متحدناً عن الإيقاعات الجمالية ذات الدلالة على المضمون في نهاية المقطع.

ويقول عنها: «فالإيقاعية الغنائية النغمية (يقصد أنها تدل على الفرح بزوال الكفر وأهله من الأرض) كثرت فيها حروف الميم والتنوين والنون بشكل لافت يشير إلى حالة الأمن والدعة والسعادة والتلويح بمس العذاب لمن سينحرف عن منهج الله إثارة للنفوس لتستمسك بالذي هي عليه لحظة الهبوط إلى الأرض بسلام وبركات، وجاء هذا التلويح بصورة رقيقة خفيفة لقوم عانوا في سبيل الله ما عانوا من قسوة المشركين وأهوال الطوفان وفرقة الأهل، فجاء التلويح بالعذاب بطريقة المس ومع ذلك فهو عذاب الميم.

أما توالي الميمات على مستوى الآية كلها وعلى مستوى عبارة (وعلى أمم ممن معك وأمم ستمعهم) فلن نعثر في أي نص أدبي على مثل هذا التوالي يبقى النسق فيه محافظاً على روعته وسهولته ونغميته وسموه»^(١).

من دروس الآية ٤٨:

- ١- هذه الحلقة من حلقات تاريخ البشرية هي اللبنة الثانية بعد قصة آدم في معمار تاريخ الإنسانية، وهي حلقات تتكرر، ولا أحد يتذكر، إلا من رحم ربي.
- ٢- هؤلاء أي قوم نوح أول المهلكين بعذاب الاستئصال ثم كرت السلسلة بعد ذلك: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾.

(١) النسق القرآني للدكتور محمد ديب الجاجي ص ١٢٧.

٣- الأمن والسلام والبركات ثمرة الإيمان وهي ملازمة له ملاصقة ملابسة مقترنة لا تنفك، وخارج دائرته لا يوجد كل هذا.

٤- القرآن لا بد أن يدرس دراسة لغوية صوتية لمعرفة ظلال تكرار حروف معينة في آية معينة وما الجو الذي ترسمه؟

الآية ٤٩:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١١)

الربط والمناسبة: هذه الآية تعقيب على قصة نوح فكانها الخلاصة منها والثمرة، والثمرة جزء من الشجرة، صحيح أننا نقطفها منها لكنها مرتبطة بها.. وهي منها...

وهذه الآية (١٩) كلمة و(٧٤) حرفاً وترتيبها (١٥٢٢).

المعنى: تلك: اسم إشارة إلى ما سبق من قصة نوح.

واللام للبعد وهي كذلك أي أنها مطابقة فهي أي القصة موعلة في البعد الزمني والعمق التاريخي، وهي بعيدة عن ثقافة العرب كذلك ومعلوماتهم كما قال الله: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ وما في التوراة مخلوط أو خليط فيه قليل من الحق وكثير من الخرافات والأساطير، فليست قصة نوح على الحقيقة أو كما هي في الواقع، والتي أوجزها القرآن الكريم أكمل إيجاز بل أكمل عرض مع الاختصار وهنا العظمة.

واستخدم اسم الإشارة أحياناً بصيغة المذكر: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ...﴾ وهذا النص من السورة التالية لهذه السورة أعني من سورة يوسف الآية ١٠٢ سورة ١٢. والتذكير باعتبار الخبر لأنها تضمنت قصة نبي واحد.

وصحيح أن التعقيب في سورة هود جاء على قصة أو عقب قصة نوح، لكنه يمتد إلى ما بعد هذه الآية من قصص هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب ثم موسى وفرعون.. فهي قصص.

من أنباء الغيب: من: تبعيضية، أي بعض أنباء الغيب، والغيب: ما غاب عن السامع للقصة أو تأليها.. للبعد التاريخي. فقصة نوح غيب ماضوي.. وهناك غيب مستقبلي.. وغيب حالي لا نطلع عليه كالملائكة والملا الأعلى، وعوالم كثيرة لا نعلم عنها شيئاً أعني علم مشاهدة لكننا نؤمن بها.. وهناك غيب موجود لم نطلع عليه، وقد يطلع عليه بعض دون بعض ككثير من العلوم الفلكية والعلوم الأرضية.. وهذا باب واسع بلا حدود.

والنبا: الخبر العظيم ذو الشأن، والأنباء جمع نبا، والنبا قد يكون في داخله أنباء كقصة نوح فيها العديد من الأنباء وكل نبا منها مهم.. كدعوته قومه هذه المدة المتطاولة، هذا نبا، وإصرار الملا على الكفر والاستكبار طيلة هذه المدة وهذا نبا، وبناء السفينة نبا، والطوفان نبا وهلاك القوم نبا وقصة ابنه ودعاء ربه نبا، ونجاة المؤمنين نبا، وهكذا.

والغيب: كل ما غاب عنا.

نوحيا إليك: نقصها عليك، نوحى بها إليك، ونرسلها عبر الوحي جبريل بهذا القرآن الجليل.. فهي من ضمن وحيها إليك، والإيحاء الإعلام بطريقة مخصوصة والوحي أنواع ليس هذا محل تفصيلها.. وهي معلومة.

ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا: هذه الأنباء وهذه القصة وسائر قصص هذا الكتاب كانت غائبة عنك يا رسول الله وغائبة عن قومك، وحتى أمم الرسالات السابقة فهي بهذا الوجه الحق الصافي غير المشوب بشوائب الوضع والدس والزيادة والنقص، هي غائبة عنهم كذلك، وإن كانت معلومة اسماً، وتفصيل قسم كبير منها غير صحيح ولا دقيق ولا مطابق.

من قبل هذا: أي من قبل هذا القصص أو من قبل هذا القرآن، أو من قبل هذا النبأ الذي وصلك عن قصة نوح أو كل ذلك.

فاصبر إن العاقبة للمتقين: فالدرس الأول المستفاد من قصة نوح درس الصبر. فكيف احتمل نبي أعباء الدعوة ألف سنة إلا خمسين.. ثم أعباء صنع السفينة. ثم رؤية هذا الهول، وماذا كانت النتيجة؟ إن الله أورثه الأرض ونجاه ومن آمن وأهلك من كفر وعاند.

إن العاقبة للمتقين: إن الجولة الأخيرة، والنتيجة النهائية لصالح الإيمان وأهله من المتقين.. والمتقين كلمة شاملة، تشمل اتقاء الله، واتقاء عذابه، واتقاء كل شر قد يوصل إلى عذابه.. والمعنى واسع مفتوح.. أو هم المتقون الذين هذه صفتهم، وهذه سمتهم وشخصيتهم وميزتهم. واللام في «للمتقين» للاختصاص والملك، فيقتضي ملك المتقين لجنس العاقبة الحسنة، فهي ثابتة لهم لانفتوحهم.

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعقياً على قصة سيدنا نوح عليه السلام:

أولاً: حقيقة الوحي التي ينكرها المشركون فهذا القصص غيب ما كان يعلمه النبي ﷺ ولا قومه: ﴿يَلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ...﴾.

ثانياً: حقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح عليه السلام.

ثالثاً: حقيقة تكرار الاعتراضات والاتهامات من المكذبين على الرغم من الآيات والعبر والبيانات التي لا تمنع جيلاً أن يردّها وقد بدت باطلة في جيل.

رابعاً: حقيقة تحقق البشرى بالوعيد كما يبشر النبي وهذا شاهد من التاريخ.

خامساً: حقيقة السنن الجارية التي لا تتخلف ولا تحابي ولا تحيد.

سادساً: حقيقة الرابطة التي تربط بين فرد وفرد وجيل وجيل، إنها العقيدة الواحدة التي تربط المؤمنين كلهم بإله واحد ورب واحد يلتقون في الدينونة له بلا منازع ولا شريك.

ويقول أيضاً: «إن نوحاً عليه السلام عندما نادى ربه: ﴿أَنِّي مَقْلُوبٌ فَأَنصِرْ﴾ عندئذ

أطلق الله القوى الكونية الهائلة لتكون في خدمة عبده المغلوب.. ﴿فَفَنَحْنَا نُوحًا وَأَبْنَاهُ الْمَقْلُوبَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ عَيْشًا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ رَقًا مَرْصُومًا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا السَّيْلَ الْكَبِيرَ سَبِيلًا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا الْوُجُوهَ أَلْوَانًا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ زُجْجًا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ زُجْجًا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ زُجْجًا﴾.

وبينما كانت تلك القوى الهائلة تزاوّل عملها على هذا المستوى الكوني الرائع المرهوب.. كان الله سبحانه بذاته العلية مع عبده المغلوب ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُشِّرْ﴾ ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفْرًا﴾.

وهذه هي الصورة الهائلة التي يجب أن تقف أمامها طلائع البعث الإسلامي في كل مكان وزمان حين تغلب من الجاهلية.

وأنه ليس على هذه الطلائع إلا أن تثبت في طريقها وأن تعرف مصدر قوتها وتلجأ إليه، وتصبر حتى يأتي الله بأمره.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «الآية الكريمة تذكر النبي ﷺ بما أنعم الله عليه من نعم، ومثلها كثير في القرآن الكريم، وفيه من على الرسول العظيم، وهذا المن من الله عز وجل على نبيه مقبول لأن الله يمن بما يملك حقيقة، فهو المتفضل والمنعم

بخلاف مَنْ العبد على العبد بما يسديه إليه من معروف فهو مذموم ومحبط للأعمال وقد بينت ذلك سورة البقرة^(١).

قال الزمخشري: «فاصبر اصبر على تبليغ الرسالة وأذى قومك كما صبر نوح عليه السلام وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما قبض لنوح ولقومه، والعاقبة النصر والفوز للمتقين».

قال ابن عاشور: «في هذه الآية ... امتنان على النبي ﷺ في قوله تعالى: «ما كنت تعلمها أنت ولا قومك» وموعظة في قوله: «فاصبر» وتسلية في قوله تعالى: «إن العاقبة للمتقين»».

قال عبد الكريم الخطيب: «الخطاب هنا للنبي صلوات الله وسلامه عليه، وأنباء الغيب المشار إليها، هي ما ذكره القرآن الكريم من قصة نوح، وهي من الأنباء التي غاب عن النبي وعن قومه العلم بها، وإن كان عند أهل الكتاب علم بها.. فهو غيب نسبي.. وليس غيباً مطلقاً.. ثم إن ما عند أهل الكتاب هو حق مختلط بباطل.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى في وصفه لقصاص القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]».

وفي قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة ملفتة للنبي إلى مضمون هذه القصة ومحتواها، وهي أنه كما كانت العاقبة لنوح ومن آمن معه، فكذلك ستكون العاقبة للنبي ومن آمن معه، ويكون البلاء والوبال على المكذبين الكافرين، كما كان ذلك جزاء قوم نوح^(٢).

(١) الدرة المجلد السادس صفحة ٣٠٨.

(٢) المرجع ذاته، ج ٦، ص ١١٥١.

من دروس الآية ٤٩:

- ١- الدرس الأول المستفاد من القصص درس الصبر.
- ٢- الدرس العظيم المهم الثاني أن العاقبة للمتقين.
- ٣- معرفة النتيجة سلفاً تطمئن السائرين على طريق الإيمان.
- ٤- هذا القصص حكيم مليء بالدروس والعظات، وحرام أن تضعي الحكم وسط بحر التفصيلات المنقولة عن الإسرائيليات.
- ٥- هذه المعلومات الموجودة في القصص ليست من معلومات البيئة ولا حتى الكتب السابقة فهي إذاً وحي يوحى.

الآية ٥٠:

﴿وَالِى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَرُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنَ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَنشُرُوا

مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

الربط والمناسبة: بعد أن فرغ السياق من قصة نوح عليه السلام ابتداءً بعرض قصة هود عليه السلام، وغالباً ما كان القرآن الكريم يعقب قصة هود عقب قصة نوح، فالأعراف مثلاً.. وغيرها..

على أن قصة نوح عرضت بتفصيل وقصة هود بإجمال.

وهذه الآية (١٧) كلمة و(٦٢) حرفاً وترتيبها (١٥٢٣).

المعنى: وإلى عاد أخاهم هوداً: الواو عطف قصة على قصة أو استئناف..

وقدم المرسل إليهم على الرسول.. ﴿وَالِى عَادٍ﴾ عطف على ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾

لأسبقية الوجود، وليبيان أن كل أمة بعث فيها نذير: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فهو بيان لناموس إلهي وسنة ربانية كونية تاريخية اجتماعية.

وهل عاد في الزمان بعد نوح فلا فاصل بين الأقوام، أم أن هذا العرض لا يقتضي هذا المعنى؟ وهذا ما أرجحه، فالعرض القرآني لا يلتزم بالضرورة بهذا المعنى بمعنى أن الترتيب لا يقتضي أن لا أحد بينهما.

وعاد أحد أصول العرب، وهو اسم جدهم كما تقول الكتب.. وسميت القبيلة أو القوم باسم الجد، وتضاف أحياناً كلمة عاد إلى إرم كما في قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادِي ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْأَعْمَادِ﴾ فيقال: «عاد إرم» وهل إرم شخص آخر أو هو عاد أو مكان ينسب إليه، كل ذلك قيل، ولا يعنينا التفاصيل.

أخاهم هوداً: أخاهم لأنه منهم فهو أخوهم أخوة قوم وقبيلة لا أخوة دين ومعتقد.

قال يا قوم: قال هود لقومه يا قوم ورسمت كأخواتها بلا ألف بعد الياء فلا نعيد ما قيل، وهو نداء مقصود منه بيان القربى والرابطة والتودد، استجلاباً لسماعهم وانتباههم واستجابتهم.

اعبدوا الله ما لكم من إله غيره: هذه الكلمات هي ملخص الدين كله منذ آدم إلى خاتم المرسلين، فلا يعدو الدين هذه الكلمات، أما العبادة فهي كلمة جامعة شاملة تشمل العبادات بمعنى الشعائر وكل نشاط الحياة من بعد ولا تقتصر على هاته الشعائر، وقصرها من تقصير الفهم، فالشعائر مهمة قطعاً وهي أركان لكن الدين أشمل منها والعبادة أشمل بطبيعة الحال.. والاقتصار من تقصير الفهم والأفكار والأنظار كما أسلفنا القول.

وكل إنسان عابد بالضرورة وبالفطرة، فهو لا ينفك عن عبادة وعن طاعة معبود فإن استكبر عن عبادة الله فقد وقع تلقائياً في عبادة سواء ممن لا يستحق العبادة، كالشيطان، أو المعبودات التي عبدت في الأرض من شجر وحجر وبشر وشمس وقمر وطواطم ومخلوقات ورموز أو عادات وتقاليد أو قوى متنفذة، فقد تعددت المعبودات، وجاء الدين ليرد الناس إلى العبادة الحقّة وجاء الرسل ليردوا الناس إلى الله المعبود الحق والمعبود بحق سبحانه، فلا يستحق العبادة إلا هو.

ولذا لم يقتصر قول النبي عليه السلام على قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وإنما أردفه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فلا يعبد معه أحد ولا يعبد من دونه أحد.. كائناً ما كان هذا.

وقد قال المصطفى عليه السلام: «تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم» وعدد أصنافاً وسمى كل ذلك معبودات، وتوسعت الآن دائرة المعبودات فالقوى الكبرى والتقاليد والأزياء والأبطال المزعمون من نجوم سينما وسياسة ونجوم كرة ونجوم أزياء كل هؤلاء يتبعون ويعظمون ويطاعون.. أي يُعبدون من دون الله، ومهمتنا تحرير الإنسانية من كل صور العبادة الزائفة إلى العبادة الحقّة فمهمتنا أن نخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد.

إن أنتم إلا مفترون: أي بعبادتكم غيره سبحانه، ما أنتم في هذا إلا كاذبون على الحق مفترون مدعون زوراً وبهتاناً أن هناك، من يُعبد سوى الله.

واستخدم صيغة الحصر والقصر لأنّ النافية بمعنى ما وأداة الاستثناء إلا وهو قصر حقيقي إذ لا معبود إلا الله.

وإذا أردنا أنهم لا شيء إلا هذا الوصف مطلقاً فهو قصر إضافي.. فهذا يعتمد على زاوية النظر ومحور الحديث.

قال الزمخشري: «إن أنتم إلا مفترون» تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء، ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول، لأن شأنهم النصيحة والنصيحة لا يحصها ولا يحضها إلا حسم المطامع.

قال ابن عاشور: «إن أنتم إلا مفترون» توبيخ وإنكار، فهي بيان لجملة «ما لكم من إله غيره» أي ما أنتم إلا كاذبون في ادعاء إلهية غير الله تعالى.

قال درويش: «فطرني: فطر الله الخلق وهو فاطر السماوات مبتدعها وافتطر الأمر ابتدعه وكل مولود يولد على الفطرة أي على الجبلة وقد فطر هذه البشر، وفطر الله الشجر بالورق فانفطر به وتفطر، وتفطرت الأرض بالنبات، وتفطرت اليد والثوب تشققت، وفطر ناب البعير: طلع، وفطرت المرأة العجين، وهذا كلام يفطر الصوم أي يفسده. أ. هـ^(١).

من دروس الآية ٥٠:

- ١- كل أمة خلا فيها نذير.
- ٢- كل قوم رسولهم منهم لأنهم يعرفونه ولأنه يتكلم لغتهم.
- ٣- الدين كله ملخص في أفراد الله بالعبادة.
- ٤- العبادة مفهوم شامل مطلق يشمل كل نشاط الحياة.
- ٥- ادعاء معبودات سوى الله هذا محض افتراء.
- ٦- المعركة بين الحق والباطل هذا مفصلها.
- ٧- مهمة المسلمين إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.
- ٨- ما من مخلوق لا يعبد.

(١) درويش: إعراب القرآن وبيانه ج٤ ص ٣٧٧-٣٧٨..

- ٩- العبادة فطرة في صميم التكوين الإنساني.
- ١٠- من لم يعرف المعبود الحق عبد المعبودات الباطلة.
- ١١- الدين علم ومعرفة ومهمتنا تعريف الناس بربهم.
- ١٢- الانحراف خطوة واحدة عن نهج التوحيد المطلق تتبعها مع الزمن خطوات.

الآية ٥١:

﴿يَنْقُورُوا لَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِمْ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

الربط والمناسبة: هذه الآية استكمال لدعوة هود لقومه، ففي السابقة عرفهم بعبادة الله، وفي هذه بين لهم أنه لا يريد على تعريفهم وتعليمهم ودعوتهم أجراً، فالأنبياء حملة رسالة لإنقاذ الناس وإعطائهم لا ليأخذوا منهم.

وهذه الآية (١٣) كلمة و(٥١) حرفاً وترتيبها (١٥٢٤).

المعنى: يا قوم لا أسألكم عليه أجراً: يا قوم للمرة الثانية^(١) لمزيد تقرب وتحجب، مع قرب العهد كما يقال.

لا أسألكم: لا أطلب منكم وعبر بالسؤال لصريح الدلالة.

عليه: على هذا الدين أو على هذا التعليم أو على هذا الوعظ والتذكير والبلاغ.

أجراً: أعم من أن يقول مالا، فالأجر قد يكون مادياً وقد يكون معنوياً وقد يكون منفعة أو ما شابه، وهو لا يريد شيئاً مطلقاً من جميع هذا..

(١) كرر نوح يا قوم ٣ مرات وكذا صنع هود وكذا صالح عليهم السلام.

إن أجري إلا على الذي فطرني: بصيغة الحصر والقصر عبر النبي الكريم هود، فما أجري إلا على الذي خلقتني على فطرة الدين والتوحيد وعبادته سبحانه، فهو من يتولى هذا، أما أنتم فأنا بفضل الله غني عن سؤالكم بمولاي الغني، ومستغن عن أن أطلب من أحد شيئاً ولا منفعة.

قال مخلوف: «فطرني: خلقتني وأبدعني، يقال: فطر الأمر: ابتدأه وأنشأه، وفطر الله الخلق خلقهم، وأصل الفطر: الشق ثم استعمل في الخلق والإبداع مجازاً. أ. هـ».

أفلا تعقلون: الهمزة للاستفهام والفاء للعطف والمعطوف عليه محذوف، كأن نقول مثلاً أتغفلون أو أتجهلون فلا تعقلون. ولا نافية.. وتعقلون أي تدركون ما يقال لكم وتعون فحوى الكلام ومقاصد الدعوة التي أدعوكم.. أو أفلا تعقلون مطلقاً.. ومقصود الاستفهام النفي والإنكار كأنه ينكر أنهم يعقلون بهذا الاستفهام. قال البيضاوي: «خاطب كل رسول قومه به، إزاحة للتهمة وتمحيصاً للنصيحة، فإنها لا تنجح ما دامت مشوبة بالمطامع»^(١).

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استفهام توبيخي أي أفلا تستعملون عقولكم وتميزون بها الحق من المبطل، والحسن من القبيح، أو أفلا تتدبرون ما جرى على قوم نوح لما كذبوه وأنتم من نسلهم وسلالتهم؟!»^(٢).

قال ابن عاشور: «التعبير بالموصول «الذي فطرني» دون الاسم العلم لزيادة تحقيق أنه لا يسألهم على الإرشاد أجراً، بأنه يعلم أن الذي خلقه يسوق إليه الرزق، لأن إظهار المتكلم علمه بالأسباب يكسب كلامه على المسببات قوة وتحقيقاً».

(١) الدرة المجلد السادس صفحة ٣١٠.

(٢) الدرة المجلد السادس صفحة ٣١٠.

من دروس الآية ٥١:

- ١- التعفف عن ما في أيدي الناس مهم في كسب احترامهم.
- ٢- الأنبياء عليهم السلام لا يسألون أجراً على الدعوة من أحد إلا من الله.
- ٣- تنبيه الناس لغفلتهم مهم جداً في إيقاظهم وهذا ليس من التعنيف أو التفتير.. فكيف تسعى في شفاك وعلاج مرضك إن لم تعلم بعلتك أيها الإنسان..؟ وهذا المراد من الاستفهام أفلا تعقلون.
- ٤- الله سبحانه هو الرزاق المطلق الذي يقوت كل الناس الطائع والعاصي.

الآية ٥٢:

﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا
وَيَرْزُقْكُمْ قُوَّةً إِلَى قَوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا الْبَحْرِمِينَ﴾

الربط والمناسبة: هذا هو النداء الثالث في الثلاث آيات المتتالية يتقرب فيها هود من قومه ويتحجب إليهم ليشعرهم بمودته ونصحته، ففي النداء الأول طلب منهم العبادة لله، وفي الثاني بين لهم أنه لا يطلب لنفسه شيئاً وفي الثالث طلب منهم الاستغفار من ذنوبهم، لیسقوا الغيث والأمطار، فالآيات نسق.

وهذه الآية (١٧) كلمة و(٨١) حرفاً وترتيبها (١٥٢٥).

المعنى: يا قوم استغفروا ربكم: جاء يا قوم هنا مسبوقه بالواو وليست كسابقته بلا واو، فكان الآية الوسطى استمرار توضيحي تكميلي للسابقة فجاءت بلا واو، وأما هذه فتتضمن جزءاً مهماً من دعوة هود وليست مذكرة توضيحية، فجاءت بواو عطف أو استئناف والأول أولى والثاني صحيح.

والاستغفار مقدم على التوبة أم العكس؟ ولم عطف بينهما بشم؟ إذا كان الاستغفار بمعنى الإقلاع عن الشرك فهو مقدم، وتكون التوبة بمعنى رد المظالم التي انبتت على هذا الشرط وعلى الاستكبار الذي كانوا يمارسونه أما العطف بشم فهو للتراخي الزمني أو الرتبي كلاهما يصح، أما الزمني فمعلوم أن الإنسان لا ينخلع من جاهليته دفعة واحدة بجرة قلم كما يقال، أو بكلمة تقال، بل يحتاج في تنظيف النفس وتطهيرها من أضرار الشرك وأوزاره وأقذاره، يحتاج إلى وقت، هذا كله في التخلية، أما التحلية والتجلية والتزكية والترقية فنتحتاج إلى وقت إضافي آخر، ومن هنا كان العطف بشم، والله أعلم.

ثم توبوا إليه: أي بعد استغفاركم توبوا إليه، وقد بينا في السابقة معنى «ثم» على التراخي الزمني ونردف هنا بتوجيهها على التراخي الرتبي، وهو واضح من البيان السابق، فالإقلاع عن الشرك، مقدمة ضرورية للبناء النهجي للشخصية الإيمانية المزكاة الربانية.. فهي معارج ومدارج يترقى فيها العبد مرحلة مرحلة.. وأبدع ابن القيم في تسميتها مدارج السالكين.

والتوبة الرجوع ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أي رجع، رجع عن الذنب ورجع إلى الرب، فالذنب مقص عن الرب مقس للقلب.

واستخدم حرف الجر «إلى» وبعده الضمير العائد إلى الرب الذي يربيكم ويزكيكم ويرقيكم سبحانه.

﴿إِلَى﴾ تشعر برحلة الإياب بعد الغياب عن رب الأرباب سبحانه.

يرسل السماء عليكم مدراراً: سكت النص عن قبول توبتهم وغسيل حوبتهم وانتقل إلى الجائزة الإضافية، فكانك ضمنت لهم الأولى وانتقلت إلى ما بعدها وما فوقها.. فذلك أساس الخير.

«يرسل» تستخدم لما كان ممسكاً.. أي يرسلها بعد انحباس.. والإرسال يفيد الوفرة والكثرة والغزارة.

وعبر بالسماء والمقصود السحاب فهو سماء بمعنى كل ما علاك سماء، فهو هنا حقيقة أو نعه مجازاً إن قصدنا أنه عبر بالكل وأراد بعض ما يكون فيها. عليكم مداراً: يرسل الغيث عليكم غزيراً^(١).

ويزدكم قوة إلى قوتكم: لا يزيد الدين الناس ومجتمعاتهم إلا قوة ومنعة وتحصيناً، ومسكين من يظن الدين بعكس ذلك، أي تحديراً وضعفاً، ولا أدري من أين تسلل مثل هذا الوهم وهن التفكير إلى العقول، وقد وصف ربنا تعالى عاداً بأنها ﴿لَمْ يَخْلُقْ يَتْلُهَا فِي آلِ لَيْدٍ﴾ وقد نقل القرآن قولهم معتدين: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِتَافُوةً﴾ فلو آمنوا وأسلموا لامتنع عدوانهم عن الخلق وشرهم وزادوا قوة ومنعة، ويبدو أنهم لا يتصورون القوة إلا عدواناً كعدونا اليوم.

أما القوة التي يزيدها الدين فقوة الروح وقوة الفكر وقوة المبدأ وقوة التجمع وغيرها.

ولا تتولوا مجرمين: لا تنصرفوا عن دعوتي وتستمروا في إجرامكم وعتوكم، والمجرم من يرتكب الفعل الجرمي، أي الذي فيه جناية كبيرة من الكبائر.. أي فعلة لها جرم.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «قد تتوفر القوة لمن لا يحكمون شريعة الله في قلوبهم ولا في مجتمعاتهم ولكنها قوة إلى حين حتى تنتهي الأمور إلى نهايتها

(١) وردت مثل هذه الآية من إرسال السماء بالغيث الممدار تبعاً للاستغفار في سورة نوح آية ١٠-١١: ﴿فَقُلْتُ

اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُزِيلُ السَّيِّئَاتِ عَنْكُمْ وَيَذَرُكَ ﴿١١﴾ وَهنا جاء النص بعد قصة نوح في سورة هود ورقمها ١١.

ولم ترد في القرآن إلا مرة أخرى أعني مداراً في الأنعام: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ [الأنعام: ٦].

الطبيعية وفق سنة الله، لأن فساد الحياة الشعورية والاجتماعية يقضي عليها بعد حين».

يقول محمد طه الدرة: «وإنما رغبهم بكثرة الأمطار وزيادة القوة لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات، وقيل: حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين فوعدهم هود عليه السلام إن هم آمنوا وتابوا أن يرسل عليهم المطر ويعيد أرحام النساء إلى ما كانت عليه، فيزدادوا قوة بالأموال والأولاد»^(١).

وأقول: هذه زيادة على ما في النص وقيل وقال ليست مصدراً للعلم، وإنما ذكرنا هذا لتنبيه.

قال ابن عاشور: «مدراراً حال من السماء صيغة مبالغة من الدورور وهو الصب، أي غزيراً، جعل جزاءهم على الاستغفار والتوبة إمدادهم بالمطر، لأن ذلك من أعظم النعم عليهم في الدنيا، إذ كانوا أهل زرع وكروم فكانوا بحاجة إلى الماء وكانوا يجعلون السدود لخصن الماء».

قال مخلوف: «﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾: ينزل المطر عليكم كثير الدورور والتتابع من غير إضرار. أ. ه».

قال الزخشري: «ولا تتولوا: ولا تعرضوا عني واما أدعوكم إليه وأرغبكم فيه مصرين على إجرامكم وآثامكم».

«(مِذْرَارًا): المِذْرَار: الكثير الدورور كالمغزار»^(٢).

(١) الدرة المجلد السادس صفحة ٣١١. وذكرت ما قال لأنه على أنه زيادة بلا دليل فلا يعتد بها.

(٢) درويش، إعراب القرآن وبيانه، ج ٤، ص ٣٧٧ - ص ٣٧٨.

من دروس الآية ٥٢:

- ١- الاستغفار وسعة الرزق ووفرة الغيث مقترنان، هذا قانون إلهي.
- ٢- الاستغفار بمعنى الإقلاع عن الشرك ثم التوبة لإصلاح ما فسد متراتبان.
- ٣- الدين لا يزيد الناس إلا قوة ومنعة وتحصيناً.
- ٤- عجيب كيف يظن بعض الناس الدين مبعث ضعف.
- ٥- المنصرف عن دعوة الدين يقع في الإجرام لا محالة. ومجتمعات القرون الخوالي شواهد فما الحروب العالمية وما أسلحة الدمار الشامل؟
- ٦- نظافة القلب والعمل الصالح في الأرض يزيدان التائبين العاملين قوة.
- ٧- إرسال المطر مدراراً يجري وفق سنن طبيعية ثابتة في النظام الكوني وجريان السنن لا يمنع أن يكون المطر محيياً في مكان ومدمراً في مكان وزمان آخرين.

الآية ٥٣:

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ

بِعَمُوٍّينَ﴾

الربط والمناسبة: كانت الآيات الثلاث السابقة لهذه الآية تتضمن دعوة هود عليه السلام لقومه وقد جاء فيها إفراد الله بالعبادة وأن هوداً لا يطلب من قومه أجراً، ثم طلب منهم الاستغفار والتوبة لتزداد الأرزاق ويزدادوا قوة، وفي هذه الآية رد قوم هود بالعناد والإصرار.

وهذه الآية (١٥) كلمة و(٦١) حرفاً وترتيبها (١٥٢٦).

المعنى^(١): قالوا يا هود: قال القوم وفي سور كان يتكلم السياق عن رد الملا، ولكنه هنا نسب القول إلى القوم كلهم، وهذا كله عين الحق، فالملا هم من يقودون معارضة دعوة الرسل، والقوم يرددون، ثم نادوا هوداً ليوجهوا نظره إلى ردهم.

ما جئتنا ببينة: لم تأتنا ببرهان ولا بدليل واضح على ما تقول من دعوة، للعبادة والتوبة.. وما أبعدنا كلمتهم عن الحق والواقع، فالرسل هم من يقدم البينة وواقعهم هو الخالي من البينة والمتخلي عن الدليل والعاري عن البرهان فيالله كيف تنقلب الصور، وتتكس المفاهيم والقضايا.

وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك: تضمنت هذه الآية ٣ مرات ما النافية، وهذه ثانيها والثالثة هي الثالثة، وتكرارها يدل على شدة تحمدهم عند باطلهم ولا أقول تمسكهم به، فالتمسك محمود والتجمد غير محمود، ولسنا نترك عبادة آلهتنا وتعظيمها لمجرد قولك.

وإذا كنتم تردون قوله لأنه مجرد قول فما حجة آهتكم وما الكتاب المنير الذي أرشدكم إليها؟

(١) قال الشعراوي: «إذن: فالبيّنة التي جاء بها هود عليه السلام أنه وقف أمامهم ودعاهم إلى ترك الكفر؛ وهو تحدي القادرين عليه؛ لأنهم أهل طغيان؛ وأهل بطش؛ ومع ذلك لم يقدرُوا عليه؛ مثلما لم يقدر كفار قريش على رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... [وأضاف قائلاً]: هم إذن قد خدعوا أنفسهم بتسميتهم لتلك الأصنام «آلهة»؛ لأن الإله مَنْ يُنْزَلُ منهجاً يُحَدِّدُ من خلاله كيف يُعْبَدُ؛ ولم تُقَلِّ الأصنام لهم شيئاً؛ ولم يُبلِّغهم منهجاً. إذن: فالقياس المنطقي يُلْغِي تصوّر تلك الأصنام كآلهة؛ فلماذا عبدها؟ لقد عبدها؛ لأن الفطرة تنادي كل إنسان بأن تكون له قوة مالوه لها؛ والقوة المالوه لها إن كان لها أوامر تحدّ من شهوات النفس، فهذه الأوامر قد تكون صعبة على النفس، أما إن كانت تلك الآلهة بلا أوامر أو نواهي فهذه آلهة مريجة لمن يندفع نفسه بها، ويبعدها مظنة أنها تنفع أو تضر.

وهذه هي حُجَّة كل ادّعاء نبوة أو ادّعاء مهديّة في هذا العصر، فيُدّعي النبيُّ الكاذب النبوة، ويدعو للاختلاط مع النساء، وشرب الخمر، وارتكاب الموبقات، ويسمّي ذلك ديناً. وتجد مثل هذه الدّعَاوي في البهائية والقاديانية؛ وغيرها من المعتقدات الزائفة.

وَعَنْ ﴿ هُنَا فِيمَا أَرَى بِمَعْنَى لِقَوْلِكَ.

وما نحن لك بمؤمنين: واقرنت أخبار ما في الثلاثة مواضع بالباء التي تزداد - نحوياً - في خبر ليس وما التي هي بمعناها للتأكيد، وذلك لمزيد تشدد في موقفهم. وهذا خلاصة القول كما يقال: إنهم لن يؤمنوا له ولن يصدقوه.

قال الزمخشري: «عن قولك» حال من الضمير في تاركي آهتنا كأنه قيل: وما ترك آهتنا صادرين عن قولك. «وما نحن لك بمؤمنين» وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوههم إليه إقناطاً له من الإجابة».

قال ابن عاشور: «ما جئتنا ببينة» إنما أرادوا أن البينات التي جاءهم بها هود عليه السلام لم تكن طبقاً لمقترحاتهم، وجعلوا ذلك علة لتصميمهم على عبادة آهتهم فقالوا: «وما نحن بتاركي آهتنا عن قولك» و«عن» في «عن قولك» للمجاوزة، أي لا نتركها تركاً صادراً عن قولك».

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «الريح ليست بمعجزة لأنها أهلكتهم، وقد ذكرت في سورة الأعراف أن القرآن الكريم لم يذكر هود معجزة كما ذكر لصالح وموسى وعيسى ومحمد ﷺ جميعاً»^(١).

أقول تعليقاً على قول الدرة: لكن لنعلم أن لكل نبي معجزة ولا نعلم ما كانت معجزة هود.

من دروس الآية ٥٣:

- ١ - كيف تنقلب الحقائق في العقول الفاسدة فالقوم الخالون من بينة يتهمون دعوة هود بخلوها من البينة.

٢- الإلف يقتل الفكر، والجمود والتقليد يمنع التغيير والتفكير.

٣- الكفر عناد، هذه حقيقة صادقة ساطعة واقعة.

٤- التوحيد لا يحتاج إلى بينة تنشئه إنشاء لأنه مركوز في الفطرة إنما يحتاج إلى التذكير والتوجيه.

الآية ٥٤:

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرٰتٰكَ بَعْضُ ٱلْهٰتِنَا بِسُوٓءٍ ۖ قَالَ إِنِّي ٱشْهَدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا

تَشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾

الربط والمناسبة: هذه تكملة ردهم الذي تضمنته الآية السابقة وهناك بينوا بلاء إتهام الثلاث موقفهم.. أو أحرف ما النافية بمعنى ليس المتكررة ثلاث مرات وختموها بحسمهم أمر عدم إيمانهم، وهنا ينتقلون إلى الهجوم على هود وشخصه بأنه قد مُس من بعض آلهتهم، ويتضمن ختام الآية رد هود، وكأن الآية قسمت قسمين تضمنا الشبهة والرد.

وهذه الآية (١٦) كلمة و(٦٦) حرفاً وترتيبها (١٥٢٧).

المعنى: إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء: أسلوب الحصر كثيراً ما يدل، إن صدر عن الكفار على ضيق فكر وقصر نظر، فكان صاحبه يدعي الإحاطة والمعرفة التي تجعله يجزم ويحسم وما هو لذلك بأهل.

ولاحظ أولاً صيغة الحصر والقصر، ولاحظ ثانياً تعبيرهم ﴿بَعْضُ ٱلْهٰتِنَا﴾ دون تحديد لتعمية الأمر وعدم ضبطه، ولاحظ أنهم آلهة كثر.. فكيف صدر عن هؤلاء المتعديدين نظام كوني واحد؟

ولاحظ تعمية وتعميم السوء في قولهم ﴿يُسُوْءُ﴾ وهكذا الإشاعات تعمى وتعمم، ويترك للذهن أن يتصورها كما يشاء.. وهل السوء في العقل أم في البدن أم في النفس أم في ماذا؟

قال الزخشري في كشافه: «فإن قلت: هلا قيل: إني أشهد الله وأشهدكم، قلت: لأن شهادة الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به على لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة، والله أعلم بمراده»^(١).

بسوء: ما يسوء الإنسان من مرض وفقر ونحوهما، هذا والسوء ما يعم أعمال الشر والفساد.

قال الشيخ مخلوف: «اعتراك بعض آلهتنا بسوء: أصابك بعض أصنامنا بجنون وخبل لسبك إياها، يقال: عراه الأمر واعتراه بمعنى أصابه، وأصله من قولهم: عراه يعرفه، أي غشيه طالباً معروفاً، كاعتراه. أ. هـ».

قال إني أشهد الله وأشهدوا: قال هود في الرد على قومه، قال: إني أشهد الله أولاً ثم أشهدوا أنتم من بعد.

إني بريء مما تشركون: أني بريء مما تقولون وإني في عافية لم يمسيني شيء مما تقولون.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن الإنسان ليدھش لرجل فرد يواجه قوماً غلاظاً شداداً حتى يبلغ بهم الجهل أن يعتقد أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلاً فيھذي ويروا في الدعوة إلى الله الواحد ھذياناً من أثر المس».

قال ابن عاشور: «لما جاءوا في كلامهم برفض ما دعاهم إليه وبمجدد آياته وبتصميمهم على ملازمة عبادة أصنامهم وبالتنويه بتصرف آلهتهم أجاوبهم هود عليه السلام بأنه يشهد الله عليهم أنه أبغهم وأنهم كابروا ووجدوا آياته».

قال سيد طنطاوي: «فأنت تراه في هذه الآية الكريمة يعلن احتقاره لآلهتهم، وبرأته من شركهم، واستخفافه بأصنامهم التي زعموا أن بعضها قد أصابه بسوء، ويوثق هذه البراءة بإشهاد الله - تعالى - وإشهادهم^(١)...

من دروس الآية ٥٤:

١- إطلاق الإشاعة فن وله صياغته المعماة المقصودة.

٢- الشرك هو آفة البشرية عبر تاريخها.

٣- الله شهيد وشهادته فوق كل شهادة والنبي يُشهد الله على براءته.

٤- لو كان النبي مصاباً فاین أثر هذه الإصابة؟

٥- التفكير إذا تعطل قبل كل باطل.

الآية ٥٥:

﴿مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَعَلْتُمْ لَأَنْظُرُونَ ۝٥٥﴾

الربط والمناسبة: هذه الآية من أقصر آيات سورة هود وهي مرتبطة كل

الارتباط بسابقتها فيمكن أن نقرأها كالتالي: ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ ۝٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ ﴿

وَيُمْكِنُ أَنْ تَقْرَأَ ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي﴾.

فالآية أشد ارتباطاً من أن نبحت لها عن رابط.

(١) سيد طنطاوي، الوسيط، ج ٧، ص ٢٢٥.

وهذه الآية (٧) كلمات و(٢٨) حرفاً وترتيبها (١٥٢٨).

المعنى: من دونه: من دون الله، من سواه، وكما أسلفنا فإن من مرتبطة إما بما قبلها، أي أن هوداً بريء مما يشرك قومه من دون الله أو أنها مرتبطة بما بعدها: فكيدوني أنتم وأهتكم من دون الله.

فكيدوني: الفاء فصيحة.

كيدوني: امكروا بي، ورتبوا للإيقاع بي ما شئتم من ترتيب، فإني لا أخشاكم.

جميعاً: أي كلكم جميعاً، بمعنى اجتمعوا كما قال ﴿فَاجْمَعُوا أَرْكَكُمْ...﴾.

ثم لا تنظرون: ثم لا تمهلوني ولا تؤخروني ولا تؤخروا الإيقاع بي أو ضرري وإضراري.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن الإيمان بالله والثقة بوعده والاطمئنان إلى نصره إذا خالط القلب فإذا هو حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة لأنها ملء يديه وقلبه وليست وعداً للمستقبل في ضمير الغيب».

قال ابن عاشور: «ثم: للتراخي الرتي، تحداهم بأن يكيدوه ثم ارتقى في رتبة التعجيز والاحتقار فنهاهم عن التأخير بكيدهم إياه وذلك نهاية الاستخفاف بأصنامهم وبهم وكناية عن كونهم لا يصلون إلى ذلك».

قال الزمخشري: «كيف تضرنني أهتكم وما هي إلا جاد لا تضر ولا تنفع، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها وصددت عن عبادتها بأن تحبيني وتذهب بعقلي!!».

يقول مخلوف: «فكيدوني: فاحتالوا في كيدي وضري، ثم لا تنظرون لا تمهلوني بكيدكم بل عاجلونني بالعقوبة، من الإنظار بمعنى الإمهال، قال ذلك لعظم وثوقه بالله وحفظه له، وصونه من كيد أعدائه. أ. ه».

«ثم ينتقل من براءته من شركهم، إلى تحديهم بثقة واطمئنان فيقول: فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظروُن. أي: لقد أعلنت أمامكم بكل قوة ووضوح أنني بريء من شرككم، وها أنذا في مواجهتكم، فانضموا إلى آلهتكم، وحاربوني بما شئتم من ألوان المحاربة والأذى بدون تريث أو إهمال، فإني لن أكف عن الجهر بدعوتي، ولن أراجع عن احتقار الباطل الذي أنتم عليه...»^(١).

من دروس الآية ٥٥:

- ١- يقين المؤمن أحد أهم أسباب قوته.
- ٢- المؤمن لا يخشى إلا الله، وكل تهديد بغيره وهم.
- ٣- التخويف ردع يحقق خطة من يمارسه والرد عدم الخوف.
- ٤- الكيد والمكر والتدبير الخفي أحد أهم أسلحة خصوم الدين والدعوة.

الآية ٥٦:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَحْمَةً وَرِزْقًا مِّمَّنْ دَاخِلِ الْأَرْضِ آخِذِينَ بِنَاصِيهَا إِنِّي عَلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

الربط والمناسبة: كان هود يتحداهم في الآية السابقة فعلام يعتمد؛ في هذه الآية يبين مصدر قوة هود، وهو توكله على الله، فالرباط أوثق من وثيق.

وهذه الآية (١٨) كلمة و(٦٥) حرفاً وترتيبها (١٥٢٩).

المعنى: إني توكلت على الله: إني اعتمدت في شأني كله على الله، والتوكل من أعظم ثمرات الإيمان ومطالب الإيمان في ذات الوقت.

ربي وربكم: جمع بين الاسمين الجليلين الله والرب، الله الذي له الأمر والطاعة والعبادة والرب الذي يتعهد خلقه بإيجاداً وإمداداً ورزقاً وتربية.

ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها: ليس من دابة، والدابة هنا كل ما يدب على الأرض بما فيها البشر.. إلا هو أي الله عز وجل آخذ بناصيتها أي مقتدر عليها مسيطر على كل أمورها وراجعة إليه يوم القيامة.

إن ربي على صراط مستقيم: إن ربي: أعاد النص كلمة ربي للمرة الثانية اعتزازاً، و﴿عَلَى﴾ للتمكن، «صراط مستقيم»: أي حكم عدل يحكم بين عباده بالقسط والعدل.

قال الشيخ حسين مخلوف: «آخذ بناصيتها: مالکها وقاهر لها، والآخذ: التناول بالقهر، والناصية: منبت الشعر في مقدم الرأس، ويطلق على الشعر النابت نفسه. والكلام كناية أو مجاز عن القهر والغلبة، وإن لم يكن هناك أخذ بالناصية، والعرب إذا وصفوا إنساناً بالذلة والخضوع لغيره قالوا: ما ناصية فلان إلا بيد فلان، أي أنه في قبضته يصرفه كيف يشاء. أ. هـ».

قال الدرة: «وإنما خص الناصية بالذكر لأن العرب تستعمل ذلك كثيراً في كلامهم، فإذا وصفوا إنساناً بالذلة مع غيره يقولون: ناصية فلان بيد فلان، وكانوا إذا أسروا أسيراً وأرادوا إطلاقه جزوا ناصيته ليمنوا عليه، ويعتدوا بذلك فخراً عليه، فخطابهم الله بما يعرفون من كلامهم»^(١).

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعليقاً على قوله تعالى: ﴿مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾: «هي صورة محسوسة للقهر والقدرة تصور القدرة آخذة بناصية كل دابة

على هذه الأرض بما فيها الدواب من الناس، والناصية أعلى الجبهة فهو القهر والغلبة والهيمنة في صورة حسية تناسب الموقف وتناسب غلظة القوم وشدتهم وتناسب غلظ حسّهم ومشاعرهم».

قال الزمخشري: «إن ربي على صراط مستقيم» يريد أنه طريق الحق والعدل في ملكه لا يفوته ظالم ولا يضيع عنده معتمد به».

قال ابن عاشور: «إني توكلت على الله» تعليل لمضمون «فكيدوني» وهو التعجيز والاحتقار، وأجري على اسم الجلالة صفة الربوبية استدلالاً على صحة التوكل عليه في دفع ضرهم عنه، لأنه مالكلهم جميعاً يدفع ظلم بعضهم بعضاً».

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾: وفي هذا التعبير الحكيم صورة حسية بديعة تناسب المقام، كما تناسب غلظة قوم هود وشدتهم. وصلابة أجسامهم وبنيتهم، وجفاف حسهم ومشاعرهم.. فكأنه عليه السلام يقول لهم: إنكم مهما بلغت من القوة والبطش، فما أنتم الا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربي بناصيتها. ويقهرها بقوته قهراً يهلكها- إذا شاء ذلك- فكيف أخشى دواباً مثلكم مع توكلي على الله ربي وربكم؟! ثم يتبع هذا الوصف الدال على شمول قدرة الله تعالى بوصف آخر يدل على عدالته وتنزهه عن الظلم فيقول: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. أي: إن ربي قد اقتضت سنته أن يسلك في أحكامه طريق الحق والعدل وما دام الأمر كذلك فلن يسلطكم علي؛ لأنه حاشاه أن يسلط من كان متمسكاً بالباطل، على من كان متمسكاً بالحق. واكتفى هنا بإضافة الرب إلى نفسه، للإشارة إلى أن لطفه سبحانه يشمل هوداً وحده ولا يشملهم، لأنهم أشركوا معه في العبادة آلهة أخرى^(١).

من دروس الآية ٥٦:

- ١- التوكل لازم مهم وملازم للمؤمن لا يغيب عنه لحظة.
- ٢- كل إنسان متوكل ولكن الفرق في قضية على من يتوكل.
- ٣- كل مؤمن متوكل ولكن الفرق في مقدار هذا التوكل وقوته واليقين فيه.
- ٤- كل ما في الكون في قبضة الله وناصيته بيد الله.
- ٥- الله تعالى حكم عدل، والكون يدبره الله بالعدل ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.
- ٦- هؤلاء الغلاظ الشداد ما هم إلا دواب من تلك الدواب التي يأخذ الله بناصيتها ويقهرها بقوته قهراً.

الآية ٥٧:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَنُخْلِفَ بِرَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا
إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٥٧﴾﴾

الربط والمناسبة: رد هود دعاوى قومه وبين توكله على الله وبين عدل الإله العظيم وقدرته وهيمته على كونه وخلقه، وفي هذه الآية يبين لقومه موقفه إن رفضوا دعوته وأصروا على عنادهم واستكبارهم. وختمت الآية السابقة بقوله ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ وهذه كذلك.

وهذه الآية (٢١) كلمة و(٨١) حرفاً وترتيبها (١٥٣٠).

المعنى: فإن تولوا: الفاء تفريع على ما سبق، وإن شرطية تولوا هي تتولوا المضارع حذفت تاؤه الأولى تخفيفاً وهو فعل الشرط.

والتولي: الإعراض والترك والرد والرفض.

فقد أبلغتكم: الفاء واقعة في جواب الشرط وما بعدها جواب الشرط.

قد: للتحقيق والماضي أبلغتكم بمعنى أوصلت لكم البلاغ الذي أراد الله أن يصلكم وقد فعلت بكل أمانة.

ما أرسلت به إليكم: أوصلت لكم ما حملته، وما أمرت أن أبلغه لكم.

ويستخلف ربي قوماً غيركم: يأتي الله بقوم سواكم يخلفونكم إن أصررت على الكفر، وهذا إما قياساً على قوم نوح الذين أهلكهم الله واستبدل قوم هود بد لهم، وإما بلاغاً من الله لا قياساً.

ولا تضرونه شيئاً: إنكم بكفركم لا تضرون الله شيئاً أي شيء مطلقاً لأنكم والخلق كلهم لا تبلغون ضره سبحانه.. فتضروه - تعالى الله -.

إن ربي على كل شيء حفيظ: في الآية السابقة تكرر لفظ ربي مرتين، وهنا كذلك - وأضاف ذاته عليه السلام إلى لفظ الرب اعتزازاً وتشرفاً، وربى الذي يحفظني ويكلؤني ويحييني ويرزقني ويربيني جملة وتفصيلاً، في الجليل والقليل، فكل شيء بفضلته ومنه.

على: حرف جر يفيد في أصل اللغة العلو، وهنا يفيد التمكن.

كل شيء: مطلق أي شيء لا يخرج عنه أو منه شيء.

حفيظ: هذه الصيغة في اللغة صيغة فاعيل وضعت أصلاً للمبالغة في الشيء أو صفته، وفي أسماء الله تعالى لا مبالغة، فهو الحفيظ المطلق الذي لا يغيب عنه شيء،

ويحفظ كل شيء، ويحفظ الإنسان: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّنْ أَمْرِ

اللَّهِ﴾ أي بأمر الله ﴿إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَّا عَلَيْنَا حَافِظٌ﴾ ويحفظ أعمال العباد ﴿أَخَصَّهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾

ويحفظ السماوات ﴿وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ ويحفظ الكتاب الذي أنزله وهو القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

قال ابن عاشور: «ولا تضرونه شيئاً» المراد لا تضرون الله بتوليكم شيئاً و«شيئاً» مصدر مؤكد لفعل «تضرونه» المنفي، وتنكيره للتقليل كما هو شأن تنكير لفظ الشيء غالباً، أي فالله يلحق بكم الاستئصال وهو أعظم الضر ولا تضرونه أقل الضر».

قال الزمخشري: «على كل شيء حفيظ» أي رقيب عليه مهيمن فما تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم».

قال الجزائري: «فإن تدبروا عن الحق وتعرضوا عنه فغير ضائري ذلك إذ أبلغتكم ما أرسلني به ربي إليكم وسيهلككم ويستخلف قوماً غيركم، ولا تضروه شيئاً من الضرر لا قليلاً ولا كثيراً، «إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ» أي رقيب، وسيجزى كلا بما كسب بعدله ورحمته. وله الحمد والمنة»^(١).

من دروس الآية ٥٧:

١- إن تؤلّى قوم أي نبي عن دعوته فقد أدى النبي وكل الأنبياء رسالتهم وأبلغوا أمانتهم.

٢- الله القدير سبحانه قادر أن يستبدل بالكافرين قوماً مؤمنين ولا يعجزه ذلك وهم لا يعجزونه.. لكنه حلیم صبور.

٣- لا يستطيع الخلق أن يضروا الخالق وكفرهم يضرهم هم.

٤- الله حفيظ لكل شيء وعلى كل شيء.

(١) الجزائري، أيسر التفسير لكلام العلي الكبير، ج ٢، ص ٥٥٤.

الآية ٥٨:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ

غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾

الربط والمناسبة: في الآيات السابقة تحدث سياق السورة عن دعوة هود لقومه من الآية ٥٠ إلى الآية ٥٧ وفي هذه الآية نهاية القوم وحلول موعد تعذيبهم بعد أن طال أمد تكذيبهم وطال إهمالهم وإنظارهم وبعد أن استخفوا بوعيدهم.. أتاهم العذاب لما جاء أمر الله.

وهذه الآية (١٤) كلمة و(٦١) حرفاً وترتيبها (١٥٣١).

المعنى: ولما جاء أمرنا: الواو للاستئناف أو للعطف.

لما: ظرف زمان يتضمن معنى الشرط والفعل بعده فعل الشرط ونجينا جوابه.
جاء: المجيء يستخدم للقرب أو للقریب، أي للقدوم من مسافة قريبة.. فكأنه كان يقترب كل لحظة جاء الأمر من أقرب نقطة.

أمرنا: وغدنا وقَدَرنا أو أمرنا الكوني للوجود أن يعصف بهم.. أو للريح أن تهلكهم.. وأضاف الأمر إلى نون العظمة لتعظيم الأمر.. بعظمة من أضيف إليه سبحانه.

لنجينا: وعبر هنا بنون العظمة أيضاً: نجينا، ليكسب النجاة تقديراً وعظمة بما أضيفت إليه.. سبحانه.

والمنن الجلييلة تضاف إلى نون العظمة.

هوداً والذين آمنوا معه: هذه النجاة كانت وقدرت لهود والذين آمنوا معه، ولم يكتف بالمعية وحدها والذين معه، وإنما قال والذين آمنوا معه، فالمعية بلا إيمان لا تنفع أحداً.. أعني من النجاة إن وقع الوعد وحل الموعد موعد العذاب.

برحمة منا: بآء السببية أي بسبب رحمة كائنة منا، وعبر بنون العظمة مرة أخرى لعظمة أمر النجاة وعظمة الرحمة الإلهية التي بها نجا من نجا.

ونجيناهم من عذاب غليظ: أعاد ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ﴾ مرة ثانية بنون العظمة مع شدة قرب العهد، إما لأن النجاة الأولى عامة، والثانية خاصة، وإما أنهما واردتان على مورد واحد وأعادته للتقوية ولوصف العذاب الذي نجا منه المؤمنون بأنه غليظ. وقد وصف العذاب في القرآن بأنه أليم، كما في الآية ٤٨ من هذه السورة ووصف بأنه غليظ كما في هذه الآية^(١).

ووصف العذاب بأنه مهين^(٢)، وعظيم^(٣)، وشديد^(٤)، ومقيم^(٥)، وبأنه كبير^(٦)، وبأنه عذاب يوم محبط^(٧).

ووصف غليظ مجاز في الشديد القوي.. كأنه الحبل الغليظ الذي لا ينقطع.

-
- (١) ورد عذاب غليظ: (٤) مرات ووردت كلمة غليظ مرة خامسة في غليظ القلب، أما غليظاً فقد وردت ٣ مرات مقترنة بوصف الميثاق في سورة النساء مرتين والأحزاب مرة.
- (٢) عذاب مهين وردت ١٠ مرات وعذاباً مهيناً ٣ مرات وعذاب المهون ٣ مرات.
- (٣) ورد عذاب عظيم في القرآن ١٢ مرة وعذاب يوم عظيم ٥ مرات، وورد عذاباً عظيماً مرة.
- (٤) ورد عذاب شديد وشديد العذاب والعذاب الشديد ما مجموعه ١٩ مرة.
- (٥) ورد في الآية ٣٩ من هذه السورة ومجموع ما ورد في القرآن ٥ مرات.
- (٦) ورد في سورة هود آية ٣ فحسب عذاب يوم كبير.
- (٧) ورد في الآية ٨٤ من هذه السورة.

قال الشيخ حسين مخلوف: (جاء أمرنا: نزل عذابنا وهو الريح، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْنُ مُسْتَعِيرُونَ﴾ (١٩) تَزِجُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَشْجَارٌ تَحُلُ شُفْعِيرٌ ﴿[القمر: ١٩-٢٠].

عذاب غليظ: شديد مضاعف هو عذاب الآخرة^أ. هـ.

لما: حرف وجود لوجود عند سيويه.

وبعضهم يقول: حرف وجود لوجوب، وهي ظرف بمعنى حين عند ابن سراج والفارسي وابن جني وجماعة، تتطلب جملتين مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشرط بجوابه.

وصوب ابن هشام الأول، والمشهور الثاني^(١).

قال الزمخشري: «ولنجيناهم من عذاب غليظ» أراد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه وأشد، وقوله: «برحمة منا» يريد بسبب الإيمان الذي أنعمنا عليهم بالتوفيق له.

قال ابن عاشور: «والباء في «برحمة منا» للسببية فكانت رحمة الله بهم سبباً في نجاتهم، والمراد بالرحمة فضل الله عليهم لو لم يرحمهم لشملمهم الاستئصال».

قال الحجازي: «ولما جاء وقت أمرنا، ونزول عذابنا، نجينا هوداً ومن معه من المؤمنين برحمة خاصة بهم لا تتعداهم إلى غيرهم، نجيناهم من عذاب غليظ فظيع»^(٢).

(١) إعراب القرآن للدرة المجلد السادس ص ٣١٩.

(٢) الحجازي، التفسير الواضح، ج ٢، ص ١٣٠.

من دروس الآية ٥٨:

- ١- إذا حل الأجل الذي حدده الله فلا راد له ولا دافع ولا مؤخر.
- ٢- المؤمنون ينجيهم الله فلا يمسه ما يصيب قومهم من عذاب.
- ٣- الإيمان دائماً سفينة النجاة والراكب في مركب الإيمان آمن من الغرق والعذاب الذي يصيب أهل الكفران.
- ٤- وصف العذاب في القرآن بحوالي عشرة أوصاف، ولكل وصف ما يناسبه من جرم ومن سياق سورة.
- ٥- وصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير يتناسب مع الجو ومع القوم الغلاظ العتاة.

الآية ٥٩:

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِنَا وَعَصَوْا رُسُلَهُمْ وَتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾

الربط والمناسبة: كانت الآية السابقة تتحدث عن نهاية عاد ونجاة المؤمنين، وهذه تعقيب على تلك النهاية المأساوية لعاد، فيشير إليهم بإشارة البعد بعد أن أبعدوا عن الوجود والشهود.

وهذه الآية (١٢) كلمة و(٥٠) حرفاً وترتيبها (١٥٣٢).

المعنى: وتلك عاد: الواو للاستئناف أو للعطف، وتلك اسم إشارة للبعيد.. لأنهم بالفعل أصبحوا في دائرة البعد يشار إليهم بالإشارة المستخدمة للبعيد.
عاد: ذكر اسم عاد في أول آية من القصة وفي آخر آية عقت على القصة لاستحضارهم في البدء والختام.

وعاد معروفة ومعروف موطنها وأنه جنوب اليمن، وأن عاداً أصل العرب أو من أصولهم، وأن قوله تعالى ﴿عَادَا الْأُولَى﴾ يقتضي وجود ثانية أو أنه مجرد حديث عن سبقهم الزماني.. والله أعلم.

جحدوا: الجحد هو الإنكار وهو بمعنى الكفر كذلك.

وقد وردت جحدوا في القرآن (مرتين) هذا الموضع، وقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ...﴾ [النمل: ٢٧].

بآيات ربهم: الباء متعلقة بجحدوا وجمع الآيات، هل لأن المقصود منها الجمع معنى لأنه من جحد آية فقد جحد كل الآيات، أم المقصود الآيات الحسية المادية التي بعث بها الرسل والآيات بمعنى الكتاب؟

وأضاف الآيات إلى الرب لتعظيمها وأضاف الرب إلى ضميرهم لبيان المفارقة في سلوكهم فهم يكفرون به وهو يرببهم! وعجباً لهذا الإنسان، وعجباً لهذه الأمم والأقوام!

وعصوا رسله: وخالفوا أمر رسله، وأضاف الرسل إلى الضمير العائد إلى ربهم لتعظيم شأن الرسل، وتعظيم مخالفة الكافرين للرسل العظام.

واتبعوا أمر كل جبار عنيد: إن قوم الرسول أي رسول عصوه مع عظمتهم وعظمة أمر ما أرسل به، وأطاعوا واتبعوا أمر كل جبار متجبر متكبر قاس غليظ عنيد مكابر معاند للحق قاسي العقل والقلب فاقد الإحساس والشعور والإنسانية.

ومع هذا اتبعتهم الأقوام وتركوا الرسل الذين هم رموز الرحمة والرفقة والإنسانية والحلم وكرم الأخلاق، فهل هذا لأن الإنسان يرهب القوة وينقاد للرهبة أكثر مما يتفاد للحلم والرحمة والإنسانية؟

وكما نقول دوماً، عجيب أمر هذا الإنسان، ولو كانوا أسوياء ما اتبعوا إلا منهج الله وإلا رسل الله.

قال الشيخ حسين مخلوف: «واتبعوا أمر كل جبار عنيد: أي اتبع سفلتهم رؤساءهم، والجبار: المتعظم المتكبر على العباد، المترفع عن قبول الحق، والعنيد: المعاند الذي لا يقبل الحق، ولا يتبعه، يقال: عند عن الحق عنوداً إذا خالفه ورده عارفاً به، فهو عنيد وعاند».

قال ابن عاشور: «وجمع الرسل في قوله تعالى: «وعصوا رسله» وإنما عصوا رسولاً واحداً وهو هود عليه السلام، لأن المراد ذكر إجرامهم فناسب أن يناط الجرم بعصيان جنس الرسل، لأن تكذيبهم هوداً لم يكن خاصاً بشخصه فكل رسول جاء بأمر ترك عبادة الأصنام فهم مكذبون به».

قال الزحيلي: «إنه تعالى جمع أوصاف عاد في ثلاثة: جحود دلائل المعجزات على الصدق، ودلالة المحدثات على وجود الصانع الحكيم، وعصيان رسولهم، ومن عصى رسولاً واحداً، فقد عصى جميع الرسل، لقوله تعالى: ﴿لَا تَفَرَّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وتقليد القوم رؤساءهم»^(١).

من دروس الآية ٥٩:

- ١- تستحضر آية التعقيب في حديثها عن عاد أخطر جرائمهم وهي جحد آيات ربهم وعصيان رسله.
- ٢- من كذب رسولاً فقد كذب كل المرسلين.
- ٣- من جحد آية فقد جحد كل الآيات.

(١) الزحيلي، التفسير، ج ١٢، ص ٩٣.

٤- من عصى الرسل أطاع من حيث يدري أو لا يدري أعداء الرسل وهم الأعداء العنيدون الغلاظ الجفأة.

٥- الإسلام هو طاعة أمر الرسل لأنه أمر الله.

٦- لا يمكن لجماعة من البشر أن تدعي الكرامة وتدعي الإنسانية وهي تدين لغير الله.

الآية ٦٠:

﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَ اللَّهُ الْفَيْسَمَةَ ۖ وَلَا يَنْعَادُ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بَعْدَ لَعَادِ قَوْمِ

هُودٍ﴾

الربط والمناسبة: هذه هي الآية الثانية والأخيرة من التعقيب على قصة عاد، وهي الآية الأخيرة في الربع فناسبت تماماً لبيتدئ الربع الرابع بقصة جديدة هي قصة ثمود وهي في القرآن دائماً مقترنة بقصة عاد لا تفترق إلا نادراً.

أضف إليه أن السابقة ختمت بقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا﴾ وافتتحت هذه بقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا﴾ فتأمل.

وهذه الآية (١٧) كلمة و(٦٧) حرفاً وترتيبها (١٥٣٣).

المعنى: واتبعوا: الواو للعطف أو للاستئناف كلاهما صحيح قوي، واتبعوا أي الحقوا وأردفوا، وأعقبهم..

في هذه الدنيا: في هذه الحياة الدنيا.. وحذف الحياة واكتفى بوصفها فهما لكثرة اقترانهما لا تكادان تنفكان، فبمجرد أن تذكر الحياة يستحضر الذهن قرينتها الدنيا، وإذا ذكرت الدنيا حضر في الذهن والوعي والعقل قرينتها الحياة.. ويجمعهما

القرآن أحياناً كما هنا، ويفصل بينهما أحياناً كما في مواضع كثيرة اكتفاء مرة بذكر الحياة ومرة بذكر الدنيا كما هنا.

والدنيا إما من الدنو لقربها من البشر لأنهم يعيشونها أو يعيشون فيها أو لدناءتها وقِلَّتْها بالنسبة إلى الآخرة.

لعنة: أي دعاء باللعن أي الطرد من رحمة الله والإبعاد، أو ألحقوا باللعنة الطرد نفسه من قبل الله سبحانه لهؤلاء الكافرين به وبكتبه ورسله.

ويوم القيامة: أي تلاحقهم اللعنة كذلك يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين، ويقومون للحساب والجزاء والثواب والعقاب.

ألا إن عاداً كفروا ربهم: ألا: أداة استفتاح شهيرة في استعمال العرب.. فمهمتها تنبيه ذهن السامع.

إن: أداة تأكيد وعاداً اسمها وما بعده خبرها.

كفروا ربهم: عبر بالجدد في السابقة لكنّ للآيات بمعنى إنكارها وهنا عبر بالكفر في حق ربهم إما بمعنى كفر نعمه ويطرها أو كفره إنكاره أو عصيانه والتمرد على أمره.. كما فعل إمامهم إبليس.

ألا بعداً لعاد قوم هود: افتتحت هذه الجملة أيضاً بأداة الاستفتاح «ألا» مرة أخرى للتنبيه لأهمية الموضوع وأهمية أن تكون العقول حاضرة بكامل لياقتها وطاقاتها على الاستيعاب في ختام القصة، فهذا الذي سيشكل الانطباع الأخير منها وعنها.. فلتنبه العقول! وبُعداً معناها طرداً من الرحمة وهلاكاً لازماً وملزماً لهذا الطرد.

بعداً: أي أبعدهم الله عن رحمته وهو تأكيد لمعنى الطرد من رحمة الله المتضمن في (لعنة).

لعاد: اللام متعلقة ببعداً، وقوله بعداً إما دعاء عليهم من المؤمنين أو كل من يسمع القصة، أو تقرير من الله بأنه قد حصل لهم الإبعاد من الحضور والذكر والوجود وإبعاد آخر أخطر هو إبعاد من رحمة الله فلا تقريبهم ولا تغشاهم ولا يذوقونها.

قوم هود: حصل تحديدهم بذكر عاد وزاد تأكيدهم بذكر رسولهم إذ قال: قوم هود.. لمزيد تحديد.. ومزيد تعيين.. ولاستحضار اسم الرسول الذي عاندوه في آخر كلمة من قصتهم.. ليظل اسم رسولهم بعد آخر ما يعلق بالذهن ويتعلق بالأفئدة أو تتعلق به الذاكرة.

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعليقاً على قصة هود عليه السلام مع قومه.. «إن حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية في الحياة البشرية، وحقيقة اتصال طبيعة الكون ونواميسه الكلية بالحق الذي يحتويه هذا الدين، وهي حقيقة في حاجة إلى جلاء وتثبيت وبخاصة في نفوس الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، فكله حق واحد موصول ينشأ عنه جريان قدر الله بما يشاء، وتسليط القوى الكونية بالخير والشر على من يشرك وفق ما يكون من الناس من خير وشر، ومن هنا كان الربط بين الاستغفار والتوبة، وبين المتاع الحسن وإرسال السماء مدراراً.

قال الزمخشري: «فإن قلت: ما الفائدة في هذا البيان والبيان حاصل بدونه؟ قلت: الفائدة فيه أن يوسموا بهذه الدعوة وسمّاً وتجعل فيهم أمراً محققاً لا شبهة فيه بوجه من الوجوه، ولأن عاداً عادان الأولى القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم والأخرى إرم».

قال ابن عاشور: «وبني فعل «أتبعوا» للمجهول إذ لا غرض في بيان الفاعل ولم يسند الفعل إلى اللعنة مع استيفائه ذلك على وجه المجاز على أن اتباعها لهم كان بأحد فاعل للإشعار بأنها تبعتهم عقاباً من الله لا مجرد مصادقة».

«ثم ذكر تعالى عاقبة أحوالهم في الدنيا والآخرة وهي مصاحبة اللعن لهم في الدنيا والآخرة، ومعنى اللعنة: الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير، ثم بين تعالى السبب الأصلي في استحقاق تلك الأحوال فقال: أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَي جحدوه، أو كفروا بربهم على حذف الباء، أو نعمة ربهم، على حذف المضاف. وفائدة قوله: أَلَا بُعْدًا لِإِعَادٍ بعد قوله: وَأُثْبِتُوا... الدلالة على غاية التأكيد»^(١).

من دروس الآية ٦٠:

- ١- الكافرون متبعون في هذه الدنيا باللعنات.
- ٢- واللعنات تطاردهم في ساحة الآخرة.. فويل لهم مما كسبت أيديهم.
- ٣- الكفر هو الذنب الأكبر والأخطر والذي لا يغفر.
- ٤- الكفر سبب لإبعاد الأقوام من الوجود وإبعادهم من رحمة المعبود سبحانه.
- ٥- هكذا يهلك الله الظالمين مشيعين باللعنة في الدنيا وفي الآخرة ويدعى عليهم بالطرد والبعد.
- ٦- إن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا تصبح حياة لائقة بالإنسان إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية في كل جانب من جوانبها.

(١) الزحيلي، المنير، ج ١٢، ص ٩٣ - ص ٩٤.

الآية ٦١ :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ صِلُوا أَرْوَاحَهُمْ إِلَىٰ آبَائِهِمْ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ فِي قُرْبَىٰ آبَائِهِمْ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ ۚ﴾
 ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ صِلُوا أَرْوَاحَهُمْ إِلَىٰ آبَائِهِمْ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ فِي قُرْبَىٰ آبَائِهِمْ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ ۚ﴾

الربط والمناسبة: عرض السياق الكريم قبل هذه القصة قصة نوح ثم عطف عليها قصة هود والآن يبتدئ السياق والربيع الجديد معاً قصة ثمود مع نبيها صالح عليه السلام، وكما تطوى صفحة الأمم في التاريخ ويستخلف الله من بعدها من يشاء من الأمم كانت تطوى صفحة الأمة من الأمم في القصص القرآني لتفتح صفحة أمة جديدة، وقد تكرر هذا الترتيب، نوح فهو فصالح.. فما هو بغريب ولا جديد علينا. فالسياق نسق مثلما هو الواقع كذلك قصة بعد قصة وأمة بعد أمة، فسبحان من دبر الكون وأعقب الأمم وداول الأيام، ورتب القرآن وقص علينا قصص هاته الأقوام، فقد ختمت السابقة ﴿الْأَبْعَدَ الْعَادِ قَوْمَ هُودٍ﴾ و﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ صِلُوا أَرْوَاحَهُمْ إِلَىٰ آبَائِهِمْ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ ۚ﴾ عقبها مباشرة.

وهذه الآية (٢٧) كلمة و(١٠٩) حرفاً وترتيبها (١٥٣٤).

المعنى: وإلى ثمود: الراو عاطفة قصة على قصة.. مع إعادة العامل كما يقول النحو، فقد جاء في بدء السلسلة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾.

فلا حاجة لإعادة الإرسال وذكره في النص فيكفي العطف مع تقدير الفعل المحذوف فكأنه قال: ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً.

ويصح أن تكون الواو استثنائية.. وإن كانت الأولى أولى والاستئناف اتصال لا قطع^(١).

وقد ذكر القوم على ذكر الرسول الذي أرسل إليهم، وهو الواقع، فالقوم يوجدون ثم يجيدون عن منهج التوحيد، فيقتضي الأمر إرسال رسول منهم إليهم.. فهو مطابق للواقع أيضاً، والحديث مركز على الأمم وانصرافها عن منهج الله، وانحرافها عن التوحيد.

وأما ثمود فقوم من العرب، ويرى بعض أنهم بقية عاد ممن آمن مع هود، فنجوا وارتحلوا إلى شمال الجزيرة، مما يلي جنوب الأردن، ومنطقة ثمود على خط مع البتراء التي نحتت في الصخر على طريقة ثمود التي هي أسبق لكن البتراء أُنقن، ربما لحداثة العهد، ولتطور الصنعة بطبيعة الحال.. والمدائن مدائن ثمود قوم صالح عليه السلام كانت على مقربة من خط المواصلات بين الحجاز والأردن.

(١) الاستئناف: لعلماء اللغة والبلاغة مصطلح «شبه كمال الاتصال»: «وقوع الجملة الثانية بمنزلة الجواب عن سؤال اقتضته الجملة الأولى. فتفصل الثانية عن الأولى كما يفصل الجواب عن السؤال لما بينهما من اتصال، قال الخطيب: «وإما كونها بمنزلة المتصلة بها فلكونها جواباً عن سؤال اقتضته الأولى، فتتزل منزلة تفصل الثانية عنها، كما يفصل الجواب عن السؤال» الخطيب: الإيضاح ١١٩/٣.

ويسمى الاستئناف البياني ومعنى الاستئناف فيه أنه استئناف جواب، وليس ابتداء كلام منقطع عن سابقه كما يشعر بذلك لفظ الاستئناف» أبو موسى: دلالات التراكيب ص ٣١٢، طارق عزت: بلاغة الترتيب بين الجمل المتعاطفة بالواو في الذكر الحكيم رسالة دكتوراة مخطوطة ص ٤٠.

وقال الدكتور محمد محمد أبو موسى: «وهذا هو الاستئناف الذي يقولون عنه: أنه أشد اتصالاً من الوصل، ويقع كثيراً في فواصل الآيات القرآنية».

وقد قالوا: إن هذا الفصل وصل خفي، من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص ٥٠ ط ٢ القاهرة مكتبة وهبة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦.

وقيل في تعليل اسم ثمود أنه من الثمد يعني قلة الماء ولا أراه منطقياً لأن الله تعالى يقول في سورة الشعراء: ﴿أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هُمْ بِأَشْيَاءَ إِمِينٍ ﴿١٧٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيْبُونَ ﴿١٧٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَحْلٍ ظَلَمُوا هَٰؤُلَاءِ ﴿١٧٨﴾ وَتَنَحَّيُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَ تَقْرَهُنَّ﴾.

وعلى العموم لا حضارة تقوم على غير الماء، فالتمد قلة الماء، لا أراه وجيهاً، وإن كان في اللغة موجوداً، فليبحث عن تعليل آخر.

أخاهم صالحاً: أخوهم منهم وقد يقال لمن عاش بينهم.. وإن لم يكن منهم، ولكنه منهم، وواضح أن صالحاً من أنبياء العرب.. وتمد قبيلة منهم، والعهد مبكر جداً، موغل آلاف السنين إلى الوراء في عمق التاريخ.

ومعلوم أن كل رسول يرسل في قومه بلغتهم.

قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره: هذه بداية كل نبي أن ينادي قومه بالتجيب إليهم والانتماء لهم في النسب، ثم يدعوهم إلى فاتحة كل خير وجوهر الدين كله: أفراد الله بالعبادة، فأما العبادة ذاتها فحاصلة لأن الإنسان كائن عابد.. كما أنه كائن متكلم وآكل.. فهو بالفطرة وأصل الخلقة عابد فإن لم يعرف الإله الحق ويعبده عبد من دونه آلهة باطلة لا وجه لعبادتها وملخص مهمة الأنبياء عليهم السلام أن يردوا الناس إلى العبادة الحقّة وإفراد الله تعالى بالألوهية وإفراده بالعبادة.

وزيدت ﴿مِنْ﴾ غويّاً في قوله ﴿مِنْ إله﴾ للنفي المطلق وتأكيد.. وليس من زيادة في الملحظ البلاغي، فهو لتأكيد المعنى وجعله مطلقاً. وكلمة إله مجرورة لفظاً مرفوعة محلاً وغيره صفة لها.

هو أنشأكم من الأرض: يعرف النبي قومه بما غرس في فطرتهم، وبما ينبغي أن يكون معلوماً بالضرورة لأن كل دين ذكر بهذه الحقيقة حتى صارت من المستقرات في الأذهان والمعلومات المتناقلة والمتداولة، ومفردة من مفردات الثقافة ومكوناتها.

وللإنشاء من الأرض دلالات، فأولاً قدرته تعالى، وملكه من خلق، ثم تواضع الأصل ليقودك إلى ألا تستكبر، فأنت كرمك الله، نعم، لكن أنشاك مما تعلم لثلاث تمرّد وتطفى وتنسى أصلك الترابي والطيني.. المتواضع.. فتواضع لجلال من خلقك، ولا تستكبر على أمثالك من البشر فكل الذي فوق التراب تراب. ففيم الاستكبار والذهاب بعيداً فيه، ومن التراب بدأت، وإلى التراب تعود وتؤول، ومنه تقوم لتحاسب.

واستعمركم فيها: أي وطلب منكم عمارتها وأن تصلحوا فيها ولا تفسدوا وأول الإصلاح أن تلزم حد العبودية، ثم لا تعيث فساداً في الأرض، وأول ذلك أن تحافظ على مسكنك الأرض صالحة كما خلقها الله، هذا هو الدين، وعي مطلق، ومنه وعي على البيئة والأرض أمناً الأولى وحاضنتنا فكم يسيء الإنسان إلى نفسه إذ يسيء إليها ويفسد فيها، وما عانى الناس من جراء إفساد الأرض والبيئة كما عانوا هذه الأيام، فقد وصل فسادهم إلى عنان السماء أعني أنهم خربوا السقف الحامي لهم من كثير من الأضرار.

أعني خرقهم طبقة الأوزون، والعجيب أن من يتحدثون كثيراً عن هذا هم من دمروه، ألا فليصمتوا أو فليكفوا عن إفسادهم، إن حضارتهم والإفساد من منبت واحد ومعدن واحد، وإن ثقافة الاستهلاك وتضخيم رؤوس الأموال هي التي تكمن وراء استنزاف ثروات الأرض وفي هذا الاستنزاف زيادة الكربون في الجو، مما يتسبب بزيادة الاحترار وارتفاع درجات الحرارة على الأرض مما يتسبب بكثير من الكوارث.. وهم لا يقلعون، ليصدق فيهم قول الله تعالى في سورة الروم، وهم الروم الجدد: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [٤١].

فاستغفروهم ثم توبوا إليهم: ولاحظ التناسق في التعبير بين استعمركم وبين فاستغفروهم، وهي نسق في المعنى كذلك، فهو استعمركم فأفسدتم وخالقتم فاستغفروهم، لتصلحوا ما أفسدتم بينكم وبينه وبينكم وبين الكون الذي جعله بيتكم وبيئتكم ومتنفسكم، ومزودكم باحتياجاتكم، فإذا اختلت توازنات الكون التي أبدعها الله، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (٧) ﴿الَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ والميزان هنا مطلق، ومنه توازن الكون فلا تفسدوه بسرفكم وسفهمكم واستهلاككم وحضارتكم المادية.

ما أحوج البشرية اليوم إلى حضارة راشدة، وما أحوج المسلمين اليوم أن يقدموا أنفسهم كحضارة بديلة وحل بديل وبديل حضاري، متى يفكر المسلمون بهذه الطريقة؟ ومن أسف أنه لم يطرح مثل هذا الطرح إلا من أسلم من الأجانب أمثال مراد هوفمان وروجيه غارودي وعلي عزت بيجوفتش ومحمداسد (ليوبولد فايس).

والاستغفار ثم التوبة هي كلمة هود من قبل صالح إذ قال لقومه في الآية ٥٢ ﴿وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾.

ولا نعيد ما قيل في ترتيب الكلمات الاستغفار ثم التوبة فما هو منكم ببعيد بل هو قريب جد قريب.

إن ربي قريب مجيب: وابتدأ الختام بإن المؤكدة، ثم كلمة الرب المفيدة التربية خاصة وأن الآية كلها في الخلق والتعهد فناسب أن يختمها بذكر الرب وأضاف الرب إلى ياء المتكلم ليشعر بقرب المولى سبحانه من عباده، وابتدأ الحديث بنفسه، لتنتقل المشاعر إليهم.

قريب: أقرب مما يتصور كل مخلوق، فهو يركب في النفس الذي يتردد في صدرك، وهو الذي يرعى التوازن الدقيق في جسمك فلو زاد اليود أو نقص في هذا البدن لاختل وجودك.. فمن يرعى هذه الدقائق؟ والكبد والكلية والريتان والقلب ودورة الدم والدماغ المسيطر على كل هذه تعمل بأمر من؟ ليس بأمره كلها تجري وتقوم بوظائفها أقرب أقرب من هذا القرب؟ وهو معك في متقلبك وخطراتك وحركاتك وسكناتك ونواياك وعزماتك وإرادتك ونقض الإرادة.. هو معك في كل لحظة عين وهمسة فم وكل نامة تسمعها.

حبيب: لا يرد سائلاً ولا يخيب آملاً، يحيب دعاء من دعاه: ﴿أَمَّنْ حُبِّبَ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ وفي الشدائد من يخطر بباله أن يدعو سوى الله، وكم حدثتنا آيات القرآن في عديد من السور أن البشر في ضوائقهم وأزماتهم لا يعرفون إلا الله، فإذا انصرفت أزماتهم انصرفوا عن ربهم، ولكنهم عرفوه في شدتهم، وهذا موضع القصد، فما دمت بفطرتك أدركت أنه الحبيب وأنه القريب، وفعلت بمقتضى ما علمت إذ دعوته وحده مخلصاً له الدين، ورفعت إليه كل حوائجك جليلها وقليلها، فلم لا تستمر على نهج العبادة والإخلاص والدعاء له؟ لم تنساه في الرخاء ولا تعرف إلا إياه في الشدائد؟

يقول الشيخ محمد طه الدرة: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ هو أنشاكم من الأرض: أي ابتداء خلقكم من الأرض، وذلك أن آدم عليه السلام خلق من الأرض، وهذا خلق غير مباشر للمخاطبين، ويكون مباشراً لهم إذا رجعنا إلى تحليل النطفة التي يتكون منها الإنسان، فإنها من الدم ومصدر الدم في الإنسان الطعام والشراب على اختلاف أنواعهما فإنهما من الأرض بلا ريب^(١).

قال الشيخ حسين مخلوف: «واستعمركم فيها: جعلكم عمارها وسكانها، يقال: أعمار المكان واستعمره: جعله يعمره، وأصله من العمارة ضد الخراب. أ. هـ».

قال ابن عاشور: «والاستعمار: الإعمار، أي جعلكم عامرينها، فالسين والتاء للمبالغة، ومعنى الإعمار أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع لأن ذلك يعدّ تعميراً للأرض حتى سمي الحرث عمارة لأن المقصود منه عمر الأرض». قال مكّي: «وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً، فقال لهم: اعبدوا الله ليس لكم إله إلا هو، «هو أنشاكم»: أي: خلقكم من الأرض، يعني: أصلهم الذي هو آدم. خلق من طين من الأرض، «واستعمركم»: أنتم (فيها): أي: أسكنكم فيها. «فاستغفروه»: مما عبدتم من دونه. «ثُمَّ تَوَبَّوْا لِلَّهِ»: من عبادة الأوثان. «إِنْ رَأَيْتُمْ قَرِيبَ مُّجِيبٍ» يسمع دعاءكم، وتوبتكم، واستغفاركم. «مُّجِيبٌ» لمن دعاه، وأخلص في التوبة»^(١).

من دروس الآية ٦١:

- ١- كل نبي في قومه بلسانهم ويعرفون نسبه وحياته.
- ٢- كل نبي دعوته تتلخص في كلمة إفراد الله بالعبادة.
- ٣- كل إنسان مفطور على العبادة، ولكن السؤال: ما يعبد ومن الذي يعبد؟
- ٤- إنك إما أن تعبد ما يليق بك أن تعبده ويرقيك أن تعبده وهو خالقك أو أن تعبد ما لا يليق بك عبادته وتنحط بك عبادته وهو المخلوق.

(١) مكّي، الهداية، ج ٥، ص ٣٤١٥.

- ٥- مهمة المسلمين في الدعوة إلى الله أن يخرجوا العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد.
- ٦- عمارة الأرض مهمة حضارة الإسلام ولا أحد مؤهل لهذه المهمة إلا هذه الأمة وحضارة هذه الأمة.
- ٧- الحضارة الرأسمالية الاستهلاكية أخطر حضارة على البيئة العالمية.. وما مر على الأرض من دمر التوازن كهذه الحضارة.
- ٨- مهمتنا المحافظة على الميزان الذي أودعه الله في الكون.
- ٩- الاستغفار إلى الله من إفساد الأرض يكون بإصلاح ما أفسد الإنسان.
- ١٠- الله قريب مجيب هذه فطرة، ولكن مطلوب شمولها وديمومتها.

الآية ٦٢:

﴿قَالُوا يَصْلِحْ فَكَذَّبْتَ فِيمَا مَرَجُوا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَدُونَ أَنْ تُعْبَدَ مَا يُعْبَدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَنَافِي

شَيْءٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾

الربط والمناسبة: في الآية السابقة إجمال وتلخيص لدعوة صالح لقومه وفي هذه الآية رد من القوم على دعوته، وهو الرد المتوقع، رفض دعوة نبيهم لهم إفراد الله وحده بالعبادة، ودعواهم في رد دعوة النبي هي دعوى الأقوام: الآبائية، أي أن دعوة النبي تخالف تقاليد الآباء.. وهي في نظرهم مقدسة.

وهذه الآية (٢١) كلمة و(٨٢) حرفاً وترتيبها (١٥٣٥).

المعنى: قالوا يا صالح: قال قومه ينادونه باسمه لا للتقرب ولا للتودد وإنما للتعود أي ما زالوا يعاملونه كما لو كان قبل نبوته.

قد كنت فينا مرجواً (مرجوأ أصله مرجووا فأدغمت الواو في الواو وشددت) قبل هذا: قد: للتحقق وكنت على اعتبار ما كان أو لرسوخ الصفة، وأظن الأول أرجح باعتبار موقفهم من رسولهم، فينا: أي بيننا وفي نظرتنا إليك واعتبارنا.

مرجوأ: كنا نؤمل منك خيراً، ونرجو أن يكون لك دور في المجتمع، قبل هذا: قبل هذا الذي قلت وقبل دعوتك وما تقول إنه نبوتك.

أنتهانا أن نعبد ما يعبد آبائنا من قبل: هل تنهانا عن عبادة ما كان يعبد آبائنا منذ قديم الزمان ومنذ أجيال وأجيال؟

وإننا لنفي شك عما تدعوننا إليه مريب: وإننا: الواو للعطف أو للاستئناف أو للحال تصلح لكل ذلك ولكل وجاهته.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «العبادة: غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى، ولذا يحرم السجود لغير الله تعالى، وقيل: العبودية أربعة: الوفاء بالعهود، والرضا بالموجود، والحفظ للحدود، والصبر على المفقود»^(١).

قال مخلوف: «مريب: موقع في الريبة، أي القلق والاضطراب، اسم فاعل من أراب، يقال: أربته فأنا أربيته، إذا فعلت به فعلاً يوجب لديه الريبة، أي مريب بمعنى ذي ريبة، من أراب اللازم، أي صار ذا ريبة. أ. هـ».

لنفي شك: اللام في خبر إن هي المرحلقة ووظيفتها التوكيد وهي تنبئ عما يعتمل في صدورهم من شك وارتياب.

﴿وفي﴾ تفيد الاستغراق ونكروا كلمة شك، لتفيد التكثير، مما تدعوننا إليه: من الذي تدعوننا أي من دعوتك إيانا لعبادة الله وحده ولعمارة الأرض والاستغفار.

مريب: والريب الشك، وموقع مريب هنا كأنهم يقولون شك يستدعي شكاً آخر أو على قول العرب: ليل الليل. وحقيقة الريبة قلق النفس واضطرابها.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «هكذا يتبين مرة ثانية وثالثة أن عقيدة التوحيد هي في صميمها دعوة للتحرر الشامل الكامل الصحيح، ودعوة إلى إطلاق العقل البشري من عقال التقليد ومن أوهاق الوهم والخرافة التي لا تستند إلى دليل».

قال الزمخشري: «مرجوا» كانت تلوح منك وفيك مخايل الخير وأمارات الرشد فكنا نرجوك لنتنتفع بك وتكون مشاوراً في الأمور ومسترشداً في التدبير، فلما نطق بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك وعلمنا أن لا خير فيك».

قال ابن عاشور: «وعبروا عن أصنامهم بالموصول لما في الصلة الدالة على استحقاق تلك الأصنام أن يعبدوها في زعمهم اقتداءً بأبائهم لأنهم أسوة لهم، وذلك مما يزيد الإنكار اتجاهاً في اعتقادهم».

قال ابن عبد اللطيف: «نرجو خيرك وعطفك وبرك؛ فما بالك تنهاننا عما نعبد ويعبد آبائنا؟ أو المراد «مرجوا» ذا عقل راجح، وذهن ثاقب»^(١).

من دروس الآية ٦٢:

- ١- النبي قبل النبوة شخصية اجتماعية معتبرة.
- ٢- النبوة لا تزيد من اختاره الله إلا عظمة ولكن أقوام الأنبياء ينفرون مع إقرارهم بأن الأنبياء كانوا محل احترام وتقدير وتوقير.
- ٣- الآبائية والتقليد آفة خطيرة وحتى عند كثيرين ممن يتكلمون عن التقليد وينعون على فاعليه وهم غارقون فيه حتى الأذقان.

(١) محمد عبد اللطيف، أوضح التفاسير، ص ٢٧١.

٤- يبلغ التحجر بالناس أن يعجبوا من الحق المبين وأن يعللوا العقائد بفعل الأباء.

٥- البشر طبيعة واحدة ورواية واحدة تتكرر على مدى العصور والدهور.

الآية ٦٢:

﴿قَالَ يَنْفُورُ آدَمُ يَمْشِي إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْفَرٍ مِنْ رَبِّي وَآتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ قَاتِلُيْهِ وَنِيَّ غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾ (٦٢)

الربط والمناسبة: هذه الآية رد على قوم صالح على دعوته، فهي مرتبطة بها أوثق ارتباط وأتمه، وكلتاها مفتحتان بالقول ثم النداء.

وهذه الآية (٢٢) كلمة و(٨٥) حرفاً وترتيبها (١٥٣٦).

المعنى: قال يا قوم: قال: أي صالح، يا قوم: هذا هو النداء الثاني من صالح لقومه وبقي نداء من نداءاته الثلاث كأخويه السابقين نوح وهود، فكل منهم نادى قومه ثلاث نداءات. وابتدأ الجواب بالنداء لقصد التنبيه إلى ما سيقوله اهتماماً بشأنه.

أرايتم: وهذه الجملة بتمامها قالها نوح لقومه: ﴿آدَمُ يَمْشِي إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْفَرٍ مِنْ رَبِّي﴾ ثم قال نوح: ﴿وَأَتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ وهنا: ﴿وَأَتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ فنوح قدم الرحمة وصالح قدم منه على الرحمة وزاد نوح ﴿عِنْدَ﴾ على ما قال صالح.. فكان تقديم منه في كلام صالح عوض تقديم رحمة الذي وقع في كلام نوح.

والهمزة الأولى في رأيتم للاستفهام ومعنى الرؤية هنا يصح أن تكون بصيرية أو بصرية، وإن كانت الأولى - في نظري - أرجح، فالبيئة أقرب أن يكون إدراكها بالعقل.

إن كنت على بينة من ربي: إن تفيد هنا معنى لو، وعلى تفيد التمكن.
والبيئة: الحجة الواضحة والدليل المقنع القاطع.

من ربي: أي كاتئة من عنده سبحانه، واختار لفظ ربي المفيد للتربية والتعهد للمناسبة أي لأنه الأنسب، وأضاف الرب إلى ضمير المتكلم للتشرف.

وآتاني منه رحمة: وأعطاني ربي منه سبحانه رحمة هي النبوة.

فمن ينصرني من الله إن عصيته: فمن يحميني من غضبه ويقيني من عقابه إن عصيته بعدم تبليغ دعوته.

فما تزيدوني غير تحسير: أي إن عصيت الله، وأطعتمكم، فإنكم لا تزيدوني غير خسران بهذه الطاعة لكم.

قال مخلوف: «غير تحسير: غير أن تجعلوني خاسراً هالكاً بإبطال أعمالي، والتعرض لعذاب الله وسخطه. يقال: خسره تحسيراً: أهلكه. أ. ه.»

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «رأيتم: يتعدى إلى مفعولين وأن الثاني أكثر ما يكون جملة استفهامية ينعقد منها مع ما قبلها مبتدأ وخبر، كقول العرب: رأيت زيداً ما صنع؟ والمعنى أخبرني عن زيد ما صنع، إذا تقرر هذا فالمفعول الأول هنا محذوف ولا يصح أن تقع جملة الشرط موقعه، والجملة الاستفهامية من ينصرني من الله هي المفعول الثاني محذوف وجواب الشرط يدل عليه، ويقدر مؤخراً عن الشرط وجوابه ليكون الشرط وجوابه كلاماً معترضاً بين

المفعولين المقدرين كما يلي: قال: يا قوم أخبروني من ينصرني من الله إن عصيته»^(١).

قال ابن عاشور: «إن كنت على بينة» المعنى إلزام وجدل، أي إن كنتم تنكرون نبوتي وتوبخوني على دعوتكم فأنا مؤمن بأني على بينة من ربي، أفترون أنني أعدل عن يقيني إلى شككم، وكيف تتوقعون مني ذلك وأنتم تعلمون أن يقيني بذلك يجعلني خائفاً من عذاب الله إن عصيته ولا أحد ينصرني».

قال الزرخشري: «إن كنت على بينة من ربي» وكان على يقين أنه على بينة لأن خطابه للجاحدين فكأنه قال: قدروا أنني على بينة من ربي وأني نبي على الحقيقة وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره فمن يمنعني من عذاب الله؟!».

قال أبو زهرة: «التخسير مصدر كلمة (خسر) أي تضعيف الخسارة، وذلك أنهم بردهم لدعوته ومحاولة أن يكون معهم ويتبع ما كان عليه آبائهم، يجعلون الخسارة مضاعفة له بردهم دعوته وعصيانه لله تعالى إن لم يبلغ دعوته... أي فإنكم بهذا لا تزيدوني غير خسارة مضاعفة بكفركم وعدم استجابتكم، وبامتناعي عن التبليغ ثم باتباعي أهواءكم، وتلك خسارة مضاعفة»^(٢).

من دروس الآية ٦٣:

١ - النبوة رحمة.

٢ - النبوة تقوم على الحجة والبينة التي يزود الله بها أنبياءه لإقناع أقوامهم.

(١) الدرر المجلد السادس ص ٣٢٥.

(٢) أوضح التفاسير، ص ٦٧١.

٣- عدم تبليغ دعوة الله تقصير يحاسب فاعله.

٤- لا ناصر إلا الله ولا ينصر أحد أحداً من الله.

الآية ٦٤:

﴿وَيَقَوْمٍ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾

الربط والمناسبة: هذه الآية فيها رد صالح على قومه وهي آخر مرافعته قبل أن يحل بهم العذاب، بينما السابقة تكلمت عن رد قومه على دعوته، فبينهما كمال الاتصال وتمام الاتساق.

وهذه الآية (١٧) كلمة و(٧٠) حرفاً وترتيبها (١٥٣٧).

المعنى: **ويا قوم:** هذا هو النداء الثالث والأخير ينادي به صالح قومه متودداً منذراً محذراً.

هذه ناقة الله: هذه: اسم إشارة للقريب لتلفت الأنظار إليها وأضاف الناقة^(١) إلى الله لتعظيم شأنها ولتحذيرهم ضمناً من التعدي عليها.

لكم آية: قدم لكم على آية للتحذير أيضاً، فهذا المقصد من الكلام والمقصد من الآية. والآية: العلامة الدالة على شيء، وهنا معناها: العلامة الدالة على أنها من عند الله وعلى أنني رسول الله، وأن ما أدعوكم إليه حق.

فذرّوها تأكل في أرض الله: فالناقة ناقة الله، والأرض أرض الله، فذرّوها ناقة الله تأكل في أرض الله.

(١) وردت الناقة في القرآن ٧ مرات وكلها في قصة صالح وكلها في سور مكية ووردت مضافة إلى الله ٣ مرات.. أولها في الأعراف ٧٣ وآخرها في الشمس ١٣.

ولا تمسوها بسوء: الواو عاطفة ولا ناهية وعبر بالمس لإفادة التحذير، فمجرد المس بسوء محذور فكيف ما بعده وما فوقه؟

فياخذكم عذاب قريب: الفاء هي السببية وما بعدها منصوب بأن مقدرة، ففعلكم متسبب في وقوع العذاب بكم، وهو عذاب قريب وشيك. وعبر عن وقوع العذاب بالأخذ بقوله تعالى فياخذكم^(١) ليفيد القوة والهيمنة وقلة شأنهم أمام هول العذاب فهو يأخذهم كما تأخذ حزمة قش صغيرة بيدك، ويفيد الإحاطة، كل هذا وغيره ظلال لفظة واحدة، هي فياخذكم، فيا لبلاغة القرآن ويا لإيماءاته وغزارة دلالاته.

ووصف العذاب^(٢) بالقريب لعله التحذير الأقوى ولم يعبر بالشديد، لأن من آمن أن العذاب قريب وشيك أغناه عن ذكر شدته، ويكفي ما أوحى به يأخذكم من قوة وبأس وإحاطة وشدة.

قال مخلوف: «ناقة الله لكم آية: معجزة دالة على صدقي في الرسالة»^(٣).

قال الزغشري: «فإن قلت: فبم يتعلق «لكم»؟ قلت: بآية حالاً منها متقدمة، لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها، فلما تقدمت انتصبت على الحال».

قال ابن عاشور: «وأوصاهم بتجنب الاعتداء عليها لتوقعه أنهم يتصدون لها من تصلبهم وعنادهم».

(١) عبر القرآن بالأخذ في حق عذاب الأقوام في مواطن كثيرة. فقد ورد فأخذهم الله وورد فأخذهم العذاب ٩ مرات، وورد يأخذهم مرتين في النحل، وورد فياخذكم مرتين والثانية في الشعراء.

(٢) عذاب اسم مصدر لا مصدر لأن المصدر تعذيب، لأنه من عذب يعذب بتشديد الذال فيها، وقيل: هو مصدر على حذف الزوائد، مثل عطاء، ونبات، لأعطى وأنبت، منقول عن الدرر المجلد السادس ص ٣٢٦.

(٣) صفوة البيان ص ٢٩٤.

«بعد هذا ذكر لهم المعجزة، وقد كانوا في الصحراء وسفيتتهم فيها الناقة تقطع الفيافي والقفار في صبر ووداعة وأناة فكانت المعجزة من جنسها، ناقة لها خواص ليست لكل صواحبتها تجعلها غير مشابهة لهم، وهي آية لهم ونذير، إن اعتدوا عليها، وجعل لها شرب أي ماء، غير شرب سائر النوق...»

نسب صالح الناقة إلى الله مع أن كل شيء من المخلوقات منسوب إلى الله، ولكن الله تعالى اختارها لتكون معجزة صالح عليه السلام، كان ذلك له فضل اختصاص في النسبة إلى الله تعالى»^(١).

من دروس الآية ٦٤:

- ١- ما أشد حماقة من يتحدى قدرة الله.
- ٢- أسوأ الشخصيات الشخصية المستهترة.
- ٣- قد يجني فرد على أمة.. كما حصل في قصة أشقى ثمود.
- ٤- السلبية في ردع المتجاوزين قد تكون العلة في القضاء على أمة.
- ٥- ما أجرأ الناس على ربهم سبحانه وهو العظيم.
- ٦- الجهل بالله وعظمته وقدره أساس كل علة وبلاء.
- ٧- ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ يشير إلى أنها كانت ذات صفة خاصة مميزة.. ولا نقبل ما جاء في الإسرائيليات والروايات التي لا سند لها بأنها خرجت من صخرة، فهذا لا يستحق التوقف عنده.

(١) أبو زهرة، زهرة التفسير، ج٧، ص٣٧٢.

الآية ٦٥:

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعَذَابُ غَيْرِ

مَكْدُوبٍ ۝١٦﴾

الربط والمناسبة: كمال الاتصال أوضح من أن يبحث معه عن وجه الصلة، ففي السابقة نهاهم عن مجرد مس الناقة وكان التحذير كان تحريضاً على العكس.. فعقروها فجاءهم ما يوعدون، فالآية نسق مع ما سبق.

وهذه الآية (١١) كلمة و(٤٦) حرفاً وترتيبها (١٥٣٨).

المعنى: فعقروها: للتعقيب جاءت الفاء لإفادة مسارعتهن في عصيان الأمر ومخالفة النهي، فهم نهوا عن المس، مجرد المس فاتوا بما هو أشد وأسوأ بما لا ينقاس، عاملوها بالعقر.

والعقر يستخدم في حق الناقة، ومن لم ير كيف تدبج الإبل لم يتصور المعنى، فالناقة تعقر لأنه لا يستطيع أن يقترب منها أحد لقوة الإبل فتقيد اليدان أولاً ثم تطعن لتتلف وتنفق الكثير من قوتها ثم تنحر فهذا عقر الناقة.. ومعناه قتلها باختصار.. سواء استخدمت للأكل أم لا.

فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام: صار يُضرب المثل بمهلة ثمود، وقد قالها أي هذه الكلمة المثل أبو نواس للرشيدي: أمهلني مهلة ثمود^(١).

تمتعوا: كلوا واشربوا وامرحوا وامضوا في حياتكم على مرتاض شأنكم ومعتاد أمركم، فإن الذي ينتظركم مهول رهيب مهيب محذور خطير.. فتمتعوا بين يدي

(١) لذلك قصة يسيرة مفادها أن الرشيد غضب على أبي نواس لقالة بلغته عنه صدقاً أو كذباً فتهدده وتوعده، فقال هذه الكلمة.

عذاب سيطول عليكم فوق ما توقعون.. فاغتموا قبل أن تغتموا غمًا مقيماً لا يريم.

في داركم: في موطنكم أو في مساكنكم وعبر بالمفرد ﴿دَارِكُمْ﴾ لإفادة أن كل فرد يستمتع في داره، أو كما قلنا في أول الكلام أي في مكان إقامتكم في ديار ثمود فهي موطنكم أو داركم.. المؤقتة إلى حلول العذاب، فلن تسكن من بعدكم لأنه لن تكون لكم ذرية يسكنون دوركم من بعدكم ويجددونها كلما تقادمت أو تضعضعت.

ثلاثة أيام: مهلة يسيرة ولك أن تتصور أنهم عاشوها في الترقب وإن كان بعضهم مستهتراً مستخفاً لكنهم في أعماقهم يُقرُّون أن الأمر قد يؤول إلى ما يقول صالح، فتكون الطامة، والثلاثة أيام مهلة في عمر الزمن أقل من لمح البصر.

ذلك وعد غير مكذوب: ذلك: استخدم اسم الإشارة ذلك بلام البعد إما لتحويله فهو بعيد الشأن في هوله، وإما لاستبعادهم وقوعه ونزول ذلك الذي تستبعدونه، وأما الثالثة أن نعتبر بمقاييسهم الثلاثة أيام مهلة طويلة ومعلومة نسبية الزمن، فالثلاثة أيام لا تقاس بمقياس واحد، ففي عمر الزمن هي صفر وعلى المنتظر دهر، فمن أين شئت نظرت!

وعد: موعد مضروب وتوقيت محدد، ونكر كلمة وعد لإفادة تعظيمه وتهويله وصدقه وعلو شأنه. وهذه الكلمة الخامسة في القرآن أعني كلمة وعد يعقبها ٢٩ مرة وأكثر السور رددت هذه الكلمة سورة الإسراء ٤ مرات ثم جارتها الكهف ٣ مرات، وقبلها يونس ٣ مرات.

غير مكذوب: غير مخلف ولا منقوض ولا يقبل التأخير ولا التحويل ولا التبديل.. فهو وعد صادق حق مطابق لما سيكون، مطابق للوعد والوعيد والموعود المضروب. والمكذوب: الذي يخبر به الكاذب، يقال كَذَبَ الخبر، إذا اختلقه.

هذا علماً بأن كلمة مكذوب لم ترد في القرآن كله إلا في هذا الموطن.

قال الزمخشري: «غير مكذوب: غير مكذوب فيه، فاتسع في الظرف الحرف وإجرائه مجرى المفعول به كقولك: يوم مشهود من قوله: يوم شهدناه»^(١).

قال الشيخ مخلوف في صفوة البيان: «فَعَقَرُوهَا: فنحروها، وأصل العقر: قطع عروق البعير، ثم استعمل في النحر، لأن ناجر البعير يعقره ثم ينحره.. أ. هـ».

قال القرطبي: «فَعَقَرُوهَا» إِنَّمَا عَقَرَهَا بَعْضُهُمْ، وَأُضِيفَ إِلَى الْكُلِّ لِأَنَّهُ كَانَ بِرِضَا الْبَاقِينَ... «فَقَالَ تَمَتَّعُوا» أَيِ قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ تَمَتَّعُوا، أَيِ يَنْعَمِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ الْعَذَابِ. «فِي دَارِكُمْ» أَيِ فِي بَلَدِكُمْ، وَلَوْ أَرَادَ الْمَنْزِلَ لَقَالَ فِي دُورِكُمْ. وَقِيلَ: أَيِ يَتَمَتَّعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ فِي دَارِهِ وَمَسْكَنِهِ، كَقَوْلِهِ: «يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً» أَيِ كُلُّ وَاحِدٍ طِفْلاً. وَعَبَّرَ عَنِ التَّمَتُّعِ بِالْحَيَاةِ لِأَنَّ الْمَيِّتَ لَا يَتَلَذَّذُ وَلَا يَتَمَتَّعُ بِشَيْءٍ»^(٢).

من دروس الآية ٦٥:

- ١- أحق الحمقى من يفعل الفعل ولا يتفكر في العواقب.
- ٢- الزمن أعظم فرصة بل أعظم ثروة مهدورة.
- ٣- ربما يأتي على الناس زمان يتمنون فيه لو أعطوا فسحة ساعة من الزمان.. وقد كان معهم عمر فبددوه.

(١) الكشف ج ٢ ص ٢٧٩ ط الحلي.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٩، ص ٦٠.

٤ - وعد الله حق واقع وصدق ثابت لا يخلف ولا يكذب.

٥ - فساد القلب يؤدي إلى الاستهتار.

الآية ٦٦:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ
يَوْمِئِذٍ إِنَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ (٦٦)

الربط والمناسبة: أمهل النبي صالح بإعلام من ربه تعالى أمهل قومه ثلاثة أيام، بانتظار أن تنقضي ليجيء الوعد ويحل عليهم العذاب الذي أوعده.. وها قد جاء في هذه الآية موعد العذاب وأجله الذي أجله الله.

وهذه الآية (١٨) كلمة و(٧٣) حرفاً وترتيبها (١٥٣٩).

المعنى: فلما جاء أمرنا: الفاء للتعقيب ولما تفيد أول حدوث الشيء فأفادت السرعة من وجهين، أمرنا: أي وعدنا بحلول العذاب وأمر العذاب بأن ينزل بهم، وأضاف الأمر إلى ضميره تعالى بنون العظمة لتعظيمه.

نجينا صالحاً: عبر بنجينا دون أنجينا ليفيد تلمي المشهد بينما أنجينا تتكلم بصورة إجمالية نهائية، ونجينا تفيد أناة في عرض المشهد وتفصيلاً للنجاة. وبلغه العصر بالتصوير البطيء.

والذين آمنوا معه: أي أن النجاة شملت صالحاً والذين آمنوا معه، نجيناهم معه أيضاً.

برحمة منا: الباء سببية، أي بسبب هذه الرحمة الكائنة منا.

ومن خزّي يومئذ: أي ونحبناهم أي صالحاً ومن معه من المؤمنين، نحبناهم من خزّي ذلك اليوم، فقلوه: «ومن»: عطف مع تقدير العامل أي ونحبناهم من خزّي يومئذ.

والتنوين في يومئذ: تنوين عوض، أي يوم نزول العذاب.

إن ربك هو القوي العزيز: ختام عظيم لآية عظيمة وتعقيب في محله، ابتداءً بإن التوكيدية والضمير هو للتقوية، والقوي: أي صاحب القوة المطلقة، والعزيز الذي لا يرد أمره.. ولا يغالب في كونه سبحانه.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «إن ربك هو القوي العزيز: هو: فيه ثلاثة أوجه: الأول: أن يكون توكيداً لاسم إنَّ على المحل. والثاني: أن يكون ضميراً متصلاً لا محل له من الإعراب وعلى هذين الوجهين فالقوي خبر إن.

والثالث: أن يكون مبتدأ والقوي خبره، والجملة الاسمية في محل رفع خبر إن، والجملة الاسمية مستأنفة أو تعليل للكلام السابق لا محل لها على الاعتبارين»^(١).

وتنوين (إذاً) عوض عن جملة محذوفة تضاف إذ إليها في الأصل فإن الأصل (يوم إذا نزل بهم العذاب الأليم والعقاب الشديد) كما كسرت (صه) و(مه) عند تنوينهما، وقل مثل ذلك في حيثنّ وساعتنّ ونحوهما».

قال الزمخشري: «ومن خزّي يومئذ» أي من ذلّه ومهانتة وفضيحتة ولا خزّي أعظم من خزّي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه، ويجوز أن يريد بيومئذ: يوم القيامة. كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة».

قال الماتريدي: «أي: جاء ما أمر به كما يقال: جاء وعد ربنا، أي: جاء موعود ربنا؛ لأن وعده وأمره لا يجيء، ولكن جاء ما أمر به ووعد به وهو العذاب، أو

نقول: جاء أي أتى وقت وقوع ما أمر به ووعد، وهو العذاب الذي وعد وأمر به، والله أعلم. «نَجِيتَنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا»: بنعمة منا أو بفضل منا... «وَمِنْ خِزْيٍ يُؤْمِتُهُ» قيل: الخزي هو العذاب الذي يفضحهم، وقيل: كل عذاب فهو خزي، أي: نجاهم من خزي ذلك اليوم... «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ» قيل: القوي: هو الذي لا يعجزه شيء، والعزیز هو الذي يذل من دونه، وقيل: القوي هو المنتقم المنتصر لأوليائه من أعدائه، والعزیز: هو المنيع في ملكه وسلطانه الذي لا يعجزه شيء^(١).

من دروس الآية ٦٦:

- ١- أولياء الله لا خوف عليهم.
- ٢- إذا حل العذاب يقوم أنقذ الله المؤمنين من هذا العذاب.
- ٣- الكافرون بالله يتظروهم العذاب في الدنيا والخزي كذلك.
- ٤- الله هو القوي العزيز فلا يغالب ولا ينازع في ملكه.
- ٥- رحمة الله تسع كل الخلائق لكن من خرج عنها حرم منها.
- ٦- الله سبحانه يأخذ العتاة أخذاً ولا يعزّ عليه أمر ولا يهون من يتولاه ويرعاه.
- ٧- عذاب الآخرة هو العذاب وعذاب الدنيا على شدته مقدمة يسيرة.

(١) الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ج ٦، ص ١٥٢.

الآية ٦٧:

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَنِينًا ۖ﴾ (٦٧)

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن نجاة المؤمنين. وفي هذه الآية تكلمة الصورة بالحديث عن هلاك المكذبين الكافرين.

وهذه الآية (٨) كلمات و(٣٩) حرفاً وترتيبها (١٥٤٠).

المعنى: وأخذ الذين ظلموا الصيحة: وأخذ: الواو للعطف، وعبر بالماضي المذكور دون أخذت لتقوية الأخذ، وعبر بالأخذ لإفادة الشدة والقوة والبأس. وعبر بالاسم الموصول الذين لاستحضار صلته وهي ظلموا ليسجل عليهم ظلمهم.

الصيحة: هل هلكوا بالصيحة؟ أم أن الصيحة كانت مرافقة لإهلاكهم؟ فقد قال القرآن الكريم في حق ثمود في سورة الأعراف: ﴿وَقَالُوا لَنْصَلِّحَ أَخْتَنَا بِمَا عَدَّائِنَ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿٧٧-٧٨﴾.

وفي النمل قال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا... ﴿٥﴾ وفي الحاقة قال: ﴿فَأَنَّا نُودُوا فَاغْلُظْوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [٥] وفي سورة الشمس قال: ﴿قَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾، وفي العنكبوت قال بعد أن عدد أقواماً قوم نوح وقوم إبراهيم وقوم لوط، فقال بعدهم: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ ﴿وَقُرُونًا وَفَرْعُونَ وَهَنَاقَ﴾ بعد هذا قال: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَنَسْفَاكَ بِهِمُ الْأَرْضَ وَنُهْمُ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَنُهْمُ مَنْ أَخَذَتِ الصَّيْحَةُ وَنُهْمُ مَنْ خَسَفْنَا بِهِمُ الْأَرْضَ وَنُهْمُ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فأصبحوا في ديارهم جاثمين: الفاء تعقيب وأصبحوا إما من الإصباح وإما لمطلق الأوقات، كما قال: ﴿وَأَصْبَحَ قُودُ إِرْمُوتَ قَرِيحًا﴾ لا يقصد وقتاً بعينه، وإنما صار كذلك.

في ديارهم: في بيوتهم ومساكنهم في بلدتهم، وقدمها على جاثمين، للاهتمام بها وإظهار أنها لا تحميهم.

والجثوم الانكباب على الوجه.

وهو كناية عن هلاكهم على هذه الحالة^(١).

قال مخلوف في تفسير «فأخذتهم الرجفة في الأعراف قال هناك: أهلكتهم الزلزلة الشديدة، يقال: رجفت الأرض ترجف رجفاً إذا اضطربت وزلزلت ومنه الرجفان للاضطراب الشديد، وجاء في آية ٦٧ من سورة هود إهلاكهم بالصيحة من السماء التي زلزلت بها الأرض فكان إهلاكهم بها، وذكر في كل موضع واحدة منهما.

جاثمين: باركين على الركب أو مقيمين والمراد أنهم هامدون صرعى لا حراك بهم من الجثوم، وهو للناس والطير بمنزلة البروك للإبل، يقال جثم الطائر يجثم جثوماً. أ. هـ.

قال ابن عاشور: «عبر عن ثمود بالذين ظلموا للإيماء بالموصل إلى علة ترتب الحكم، أي لظلمهم وهو ظلم الشرك، وفيه تعريض بمشركي أهل مكة بالتحذير من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك لأنهم ظالمون أيضاً».

(١) وردت جاثمين في القرآن ٥ مرات في ٣ سور: مرتين في كل من الأعراف وهود ومرة في العنكبوت هذا كل ما هنالك، فهو جاثم وجثوم، إذا وقع على صدره. أو لزم مكانه فلم يبرح ص ٢١٢ وص ٢٩٤. صفوة البيان لمخلوف.

قال سيد قطب: «ثم يعرض السياق مشهدهم، معجّباً منهم، ومن سرعة زوالهم: «كَانَ لَمْ يَغْتَوُوا فِيهَا».. كَانَ لَمْ يَقِيمُوا وَيَتَمَتَّعُوا.. وَإِنَّ لِمَشْهَدٍ مُّؤَثِّرٍ، وَإِنَّهَا لَلْمَسَّةُ مَثِيرَةٌ، وَالْمَشْهَدُ مَعْرُوضٌ، وَمَا بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ - بَعْدَ أَنْ يَكُونَ - إِلَّا لَحْظَةٌ كَوْمِضَةٌ الْعَيْنِ، وَإِذَا الْحَيَاةُ كُلُّهَا شَرِيطٌ سَرِيعٌ. كَانَ لَمْ يَغْتَوُوا فِيهَا.. ثُمَّ الْخَاتِمَةُ الْمَعْهُودَةُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ: تَسْجِيلُ الذَّنْبِ، وَتَشْيِيعُ اللَّعْنَةِ، وَانْطَوَاءُ الصَّفْحَةِ مِنَ الْوَاقِعِ وَمِنَ الذِّكْرِ»^(١).

من دروس الآية ٦٧:

- ١ - الهلاك بانتظار من يكذب بآيات الله.
- ٢ - قد لا يكون الهلاك الآن بالاستتصال الشامل كما حصل مع الأمم أيام كانت آلافاً وإنما الأمم الآن مئات الملايين فأمريكا أكثر من (٤٠٠) مليون، والله أرحم من أن يهلك هذه الأعداد في لحظة، والصين (١٤٠٠) مليون أكثر من ألف مليون منهم ملحد.
- وإنما الهلاك بالأوبئة والحروب وما أشبه من إدمان ونحوه.
- ٣ - لا يحمي من قدر الله شيء إذا وقع.
- ٤ - الإيمان منجاة.
- ٥ - القرآن تتكامل آياته فما أجمل في موضع يفصل ويكمل في موضع فالأعراف وهود تكاملتا في بيان عذاب ثمود قوم صالح.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ١٩٠٩.

الآية ٦٨ :

﴿كَانَ لَمْ يَفْتَوِهَا إِلَّا أَنْ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ الْأَبَدُ لَتَمُودَ﴾ (٦٨)

الربط والمناسبة: هذه الآية هي الآية الأخيرة في التعقيب على قصة صالح مع قومه.. فهي نتيجة لما سبق من الآيات المتحدثة عن قصة ثمود فقد انتهت ثمود إلى العدم كأن لم يكن لها وجود.

وهذه الآية (١٢) كلمة و(٤٥) حرفاً وترتيبها (١٥٤١).

المعنى: **كَانَ لَمْ يَفْتَوِهَا** فيها: كأن لم يكن لهم وجود فيها وكأنهم ما كانوا، وقد قال الشاعر بعد انفضاض الناس من مكة، ومع الفارق بالطبع:

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

فقوم صالح محاهم الله من الوجود كأنهم لم يوجدوا كسطر كتابة في لوح محوته عن هذه الصفحة فذهب أدراج الرياح.

والغناء (بفتح) من الغنى أي كأن لم يوجدوا ولم يعمروا ولم يكونوا ثروة ولم يستصلحوا أرضاً ولم يزرعوا ولم يبنوا ولم ينحتوا الصخر لمساكنهم ولم يشقوا الدروب لسيرهم، ولم يعمروا النوادي لاجتماعهم، ولم يبنوا المستودعات لغلالهم.. كأنهم ما كانوا.

ويا لهذا الإنسان كيف يخاطر بوجوده!

أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ: ألا: استفتاح تكرر مثله في هذه السورة وهو من أساليب العرب في جلب الانتباه.

«إن» للتوكيد وهي أيضاً لجلب الاهتمام لأن الخبر بعدها ذو شأن، وقد رسمت ثمود بآلف زائدة صامتة لا تنطق لا عن سهو كتبت ورسمت معاذ الله، وإنما لإثبات مزيد قوة لثمود.

كفروا ربهم: جحدوا الرب المنعم الذي تفضل عليهم وأوجدهم وأمدهم وأغناهم وأعطاهم، وظنوا أن ما هم فيه إنما هو من صنع أيديهم، وكفروا ربهم بأن اتخذوا معه آلهة أخرى لم تخلق ولم ترزق ولم تمد ولم تمنحهم شيئاً فلم عبدوها؟ ولم استخفوا بعبادة الله حتى أوصلوا أنفسهم إلى هذا المصير؟

الا بعداً لثمود: الاستفتاح مرة أخرى بالألمزيد الاهتمام.

بعداً^(١): هو دعاء بالإبعاد أصلاً، ولكنه حاصل بالفعل، فهو تقرير لحالهم ووصف لمآلهم وما صاروا إليه، أو الجمع بينهما بأن يقال إنهم أبعادوا من الحياة والأحياء في الدنيا ودعاء عليهم بالإبعاد بالطرد من الرحمة في الآخرة.

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعبيراً على قصة قوم صالح عليه السلام: «إن القلب البشري حين ينحرف شعرة واحدة عن العقيدة الصحيحة لا يقف عند حد في ضلاله وشروده، حتى إن الحق البسيط الفطري المنطقي ليدو عنده عجيبة من العجائب التي يعجز عن تصورها بينما هو يستسيغ الانحراف الذي لا يستند إلى منطق فطري أو منطق عقلي على الإطلاق».

وقال الزجاج: «وقوله: «كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا...» معناه كان لم ينزلوا فيها. قال الأصمعي: الْمُغْنَايِ الْمَنَازِلُ التي نزلوا بها. يقال: غَنَيْتَ بِمَكَانٍ كَذَا وَكَذَا إِذَا نَزَلُوا بِهِ»^(٢).

(١) وردت بعداً في القرآن ٦ مرات أولها ٤ مرات في سورة هود ثم مرتين في سورة المؤمنين، هذا كل ما هنالك.

يغنا: غني بالمكان إذا أقام فيه وعمره، والمغناي المنازل التي يسكنها الإنسان.

قال خُلف: كان لم يغنوا فيها: كان لم يلبثوا فيها أصلاً، بعداً: هلاكاً وقال في تفسير آية الأعراف: لم يغنوا: كان لم يقيموا في ديارهم ناعمي البال رخيي العيش، يقال غني بالمكان: أقام به وعاش في نعمة ورغد. أ. هـ. ص ٢١٤، ص ٢٩٥.

(٢) الزجاج، معاني القرآن، ج ٣، ص ٦٠.

من دروس الآية ٦٨:

- ١- لقد حي قوم صالح من الوجود بكلمة من الله.
- ٢- لظالما استخفت ثمود بتحذيرات نبيهم صالح عليه السلام، وكم يستهتر الناس الآن بمصائرهم ويتعاملون مع الدين باستخفاف.
- ٣- لئن لم يبق استئصال كما كان في الأمم السابقة فإن أنواع العقاب لم تنته، والأعاصير والزلازل والبراكين والفيضانات والأوبئة ما زالت تقصف وتعصف وتحصد وما طوفان الماء على نيواورليانز في لوزيانا بأمريكا عنا ببعيد، وتسونامي جنوب شرق آسيا واليابان وغيرها. ونزيد عليها بعد ستين من كتابة النص إعصار إرما الذي ضرب فلوريدا وهارفي الذي ضرب تكساس سنة ٢٠١٧.
- ٤- ما بين الحياة والموت لحظة كومضة الضوء في العين.
- ٥- الإيمان لا يحتاج إلى خوارق إنه دعوة بسيطة تدبرها القلوب والعقول.

الآية ٦٩:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ

حَنِيزٍ ﴿٦٩﴾

الربط والمناسبة: انتقل السياق الكريم من قصة صالح إلى قصة إبراهيم على دأب القصص القرآني في الانتقال في السياق الواحد من قصة إلى قصة. وهذه الآية (١٥) كلمة و(٦٠) حرفاً وترتيبها (١٥٤٢).

المعنى: ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى: الواو عطف قصة على قصة أو استئناف، واللام الموطئة للقسم وقد للتحقيق وخاصة إذا دخلت على الماضي وهي

كذلك هنا، والجميء القدوم من قريب والإتيان القدوم من بعيد، والملائكة أو الرسل التي جاءت إبراهيم جاءت من بعيد فلم عبر بالفعل المفيد القرب وهو جاءت، لأن البعيد في مقياسنا قريب في مقياس الله، وهل كانت الرسل ملكاً واحداً أم مجموعة من الملائكة؟

ومن هذا قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ [آل عمران:

٤٢] ولا ريب أنه قد يعبر عن الواحد بالجمع، وقد يحتمل أنهم جمع من الملائكة. وأضاف الرسل فرداً كانوا أو جماعة إلى ضمير العظمة لتعظيم شأنهم بعظمة شأن من أضيفوا إليه ونسبوا إليه سبحانه.

إبراهيم هذا الرسول العظيم خليل الله، وثاني أعظم رسل الله بعد خاتم النبيين وهو أبو الأنبياء، فهو عظيم المنزلة عند الله وعند الأمم كلها.

بالبشرى: الباء متعلقة بمجاءت، والبشرى الخبر السار الذي يكون في المستقبل.. قريباً أم بعيداً. والباء: للمصاحبة لأنهم جاءوا لأجل البشرى فهي مصاحبة لهم كمصاحبة الرسالة للمرسل بها.

قالوا سلاماً^(١): قال الملائكة لإبراهيم نسلم عليك سلاماً.

قال سلام^(٢): قال إبراهيم للملائكة وعليكم سلام.

وجوابه أعظم من سلامهم فقد حياهم بأحسن من تحيتهم فهم عبروا بالجملة الفعلية (المقدرة نسلم..). وهو عبر بالجملة الاسمية (مبتدأ وخبر) وهي تفيد الاستمرار.

(١) سلاماً: مفعول مطلق لفعل محذوف، التقدير: سلمنا أو نسلم سلاماً وهو اسم مصدر لا مصدر كما نرى، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول.

(٢) سلام: مبتدأ وخبره محذوف، التقدير: سلام عليكم، وساغ الابتداء بالكرة لأن فيها معنى الدعاء. منقول عن

الدرة المجلد السادس ص ٣٣٢.

فما لبث أن جاء بعجل حنيذ: لم يمكث طويلاً حتى جاءهم بعجل مشوي، وقد عبر عن العجل في سورة الذاريات بقوله: ﴿فَرَأَوْا لَكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فهو سمين وهو حنيذ.

قال مخلوف: «بعجل حنيذ: مشوي على الحجارة المحماة في حفرة من الأرض، وهو من صنع أهل البادية، يقال: حنذ الشاة يحنذها حنذاً، شواها بهذه الطريقة، فهي حنيذ. أ. هـ».

قال ابن عاشور: «(سلام) مصدر مرفوع على الخبر لمبتدأ محذوف تقديره: أمري سلام، ورفع المصدر أبلغ من نصبه، لأن الرفع فيه تناسي معنى الفعل فهو أدل على الدوام والثبات. ولذلك خالف بينهما للدلالة على أن إبراهيم عليه السلام رد السلام بعبارة أحسن من عبارة الرسل زيادة في الإكرام».

قال ابن قتيبة: «بِعِجْلٍ حَنِيزٍ أي مشوي. يقال: حنذت الجمل: إذا شويته في خدّ من الأرض بالرّصف، وهي الحجارة المحماة..»^(١).

من دروس الآية ٦٩:

- ١- إبراهيم أعظم رسل الله بعد خاتم رسل الله.
- ٢- تكررت قصة إبراهيم مرات في القرآن للأهمية.
- ٣- لكرامة إبراهيم جاءته الرسل بأمر الله تبشره ببشرين.
- ٤- إبراهيم تسميه الكتب «أبو الضيفان» لشهرته بالكرم.
- ٥- من مظاهر كرم إبراهيم أنه كان يسرع في قرى الضيف.
- ٦- من كرم إبراهيم أن يأتي بالطعام الكثير للعدد القليل.

(١) ابن قتيبة، غريب القرآن، ج ١، ص ١٧٨.

٧- هذا الكرم ليس من الإسراف فالطعام الزائد يؤكل من أهل البيت أو من قبل الفقراء.

٨- إبراهيم عليه السلام عربي لأنه أبو أصل العرب إسماعيل وإكرام الضيف من شيم العرب.

الآية ٧٠:

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا

إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾

الربط والمناسبة: الارتباط ظاهر ووثيق بين الآية السابقة التي فيها أحضر إبراهيم الطعام لضيوفه وبين هذه التي فيها لم يمد الضيوف أيديهم إلى الطعام فتوجس منهم إبراهيم.

وهذه الآية (١٨) كلمة و(٦٨) حرفاً وترتيبها (١٥٤٣).

المعنى: فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم: فلما: فاء التعقيب متصلة بلما المفيدة أول حدوث الشيء تفيدان المسارعة في حدوث أمر ما، وهنا لما رأى أيدي الضيوف وهو لا يعلم أنهم ملائكة، رآها لا تمتد إلى الطعام، وعبر بـ«لا تصل إليه» عوضاً عن لا تمتد، فهي لن تصل إذا لم تمتد.. ولعلي الملح أن تعبير لا تصل يفيد تقرب الطعام الدال على الإكرام، بحيث لا يحتاج الضيف إلى مديده، وإنما هي من المفروض أنها واصله إلى الطعام لقربه.. أو شدة قربه.. أعني قرب القرى.

ومعنى نكرهم إما استنكر فعلهم، أو شعر بوحشة من فعلهم، أو شعر بغرابة سلوكهم، فالضيف الذي لا يتناول طعام المضيف أمره غير مريح بل خيف.. ولذا قال بعده:

وأوجس منهم خيفة: أوجس أي شعر منهم أو نحوهم بشيء من الخوف والتحسب والظن، والتوجس.. والخيفة الخوف.

قالوا لا تخف: قالوا لا ردأ على كلام صدر، هذا ظاهر من عدم تعليق إبراهيم، ولكن حاله أدل من مقاله.. فطمأنوه بقولهم لا تخف فنحن لا نريد بك شيئاً، ولا شراً وإنما نحن ﴿أُزِيلْنَ إِلَىٰ قَوْرُلُوْطٍ﴾.

إننا: توكيد من شأنه أن يذهب الروح عن إبراهيم ويزيل التوجس والخوف من توقع نية السوء من قبل هؤلاء نحوه.

أرسلنا: أصل الإرسال الإطلاق، وهو دون البعث في القوة، فيما أرى، وإلى للغاية، أي هم وجهتنا وغايتنا، أعني قوم لوط.

قال مخلوف: «نكرهم: أنكرهم ونفر منهم، تقول: نكرته وأنكرته نكراً ونكوراً وأنكرته واستنكرته إذا وجدته على غير ما تعهدت فنفرت منه، وأوجس منهم خيفة: أضمر من جهتهم خوفاً وفزعاً، وأصل الوجس: الصوت الخفي، والإيجاس: وجوده في النفس، أريد به الفزع الذي يقع في القلب من صوت أو غيره أ. هـ».

قال الزخشري: «الظاهر أنه أحسن بأنهم ملائكة ونكرهم، لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه أو لتعذيب قومه. ألا ترى إلى قولهم «لا تخف إننا أرسلنا إلى قوم لوط» وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا».

قال ابن عاشور: «وجملة «قالوا لا تخف» مفصولة عما قبلها لأنها أشبهت الجواب، لأنه لما أوجس منهم خيفة ظهر أثرها على ملاحظه، فكان ظهور أثرها

بمنزلة قوله إني خفت منكم، لذلك أجابوا ما في نفسه بقولهم «لا تخف» أو هو جواب مقدر دل عليه «وأوجس منهم خيفة» أي وقال لهم إني خفت منكم كما في سورة الحجر ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾.

قال ابن قتيبة: «نَكِرَهُمْ أَنْكَرَهُمْ. يقال: نكرتك، وأنكرتك، واستنكرتك، وأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً، أي أضمر في نفسه خوفاً»^(١).

وقال القطان: «استغرب إبراهيم حال ضيوفه حين رأى أيديهم لا تمتد الى الطعام، وأدرك أنهم ليسوا من البشر، وأضمر ذلك في نفسه وخاف أن يكون مَجْبِيهِمْ لأمرٍ خطيرٍ لا يعلمه. فالتى لا يأكل الطعام من الضيوف يكون امره مريباً، ويُشعر بأنه ينوي خيانةً أو غدرًا حسب تقاليد العرب. وعند ذلك شفوا له عن حقيقتهم، قالوا: لا تخف، لقد أرسلنا إلى قوم لوطٍ لإهلاكهم. وكانت ديارهم قريبةً من ديار إبراهيم»^(٢).

من دروس الآية ٧٠:

- ١- دقة القرآن في التعبير في قوله تعالى لا تصل بدل لا تمتد.
- ٢- كل كلمة لها معنى وإيماء وظلال وإيماءات.. هذا هو القرآن.
- ٣- الرسل بشر يعترهم ما يعترى البشر من خوف وحزن وألم.
- ٤- حسب تقاليد البدو فإن الذي لا يأكل الطعام عند مضيفه أمره مريب أو أنه يريد شراً أو أنه لا يثق بنية مضيفه.

(١) غريب القرآن، ج ١، ص ١٧٨.

(٢) القطان، تفسير التفسير، ج ٢، ص ٢٢٨.

الآية ٧١:

﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلْيَسَّرْنَا لَهَا يَأْسَ حَقٍّ وَمِنْ زُرَّاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (٧١)

الربط والمناسبة: ما زلنا في مشهد ضيوف إبراهيم من الملائكة.. وفي الآية السابقة قدم الطعام للضيوف، وفي هذه الآية يتحدث عن امرأة النبي الكريم وهي قائمة لخدمة الضيوف مع زوجها الرسول عليه السلام.. فالصلة عروة وثقى.
وهذه الآية (٩) كلمات و(٤٥) حرفاً وترتيبها (١٥٤٤).

المعنى: وامرأته قائمة: الواو عاطفة أو استئنافية، والجملة مبتدأ وخبره.
وامرأته: أي امرأة النبي الكريم إبراهيم عليه الصلوات والتسليم، وعبر بالمرأة دون لفظ الزوج لأن المقام لا يقتضي إلا بيان موقف معين لخدمة الضيوف وهذا أنسب له التعبير الذي ذكره النص الكريم.
قائمة: واقفة على خدمة زوجها وضيوفه.

فضحكت: الفاء تفرعية وضحكت تبسمت تبسم الضحك^(١).
وإنما ضحكت للخبر العظيم الذي يفرح قلب كل مؤمن بهلاك الظالمين والمجرمين.

فبشرناها: هي ضحكت لبشرى فأردفتها الملائكة ببشرى أخرى وهي الولد وسماه السياق الكريم وليس فقط بشر به ﴿يَأْسَ حَقٍّ وَمِنْ زُرَّاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾.

(١) لا محل أصلاً لما قالت بعض التفسير من أن المعنى حاضيت ولا وجه له ولا ذوق فيه ولا سند من اللغة ولا من المتبادر فلماذا تتبع الغرائب والعجائب؟.

فالملائكة إذا بشرت امرأة إبراهيم بولد وذكرت اسمه أنه مسمى بهذا الاسم من عند الله: إسحاق، وبشرتها بشرى ثالثة ضمن البشرى الثانية وهي أن هذا المبشر به سيولد له ولد مبشر به أيضاً هو يعقوب^(١).

ووراء بمعنى عقب وهو يعقوب الذي جاء عقب إسحاق والذي سيعقب الأسباط الذين سيكونون شعب إسرائيل فهو يعقوب بكل معاني الكلمة.

قال الخازن: «أصل الضحك انبساط الوجه من سرور يحصل للنفس ولظهور الأسنان عنده سميت مقدمات الأسنان ضواحك، ويستعمل في السرور المجرد وفي التعجب المجرد».

قال ابن عباس ووهب: «ضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها، فعلى هذا القول يكون في الآية تقديم وتأخير، تقديره: فبشرناها بإسحاق فضحكت يعني تعجباً من ذلك»^(٢).

قال مخلوف: «فضحكت سروراً بزوال الخيفة عن إبراهيم وعنها، إثر قول الملائكة: لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط».

قال ابن عاشور: «وقد اختصرت القصة هنا اختصاراً بديعاً لوقوعها في خلال الحوار بين الرسل وإبراهيم عليهم السلام، وحكاية ذلك الحوار اقتضت إتمامه بحكاية قولهم: «لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط» وأما البشرى فقد حصلت قبل أن يخبروه بأنهم أرسلوا إلى قوم لوط كما في سورة الذاريات ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾».

(١) يعقوب هو الذي سينتسب إليه هذا الشعب الإسرائيلي، بحق أو بغير حق لا يهم، فيعقوب هو إسرائيل وهم بنو إسرائيل حتى لو جاءوا من الخزر بآسيا الوسطى وليس فيهم قطرة دم من يعقوب.

(٢) الدرّة المجلد السادس ص ٣٣٥.

قال العاني: «قالوا: وضحكت سارة تعجباً لأنها وزوجها يخدمونهم بأنفسهما وهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام الذي هو من أحسن الأطعمة إذ ذاك، وقد يكون الآن أيضاً من أحسنها عند كثير من الناس، وقيل إنها ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم، والصحيح الأول، لأنها لا تعرف سبب مجيئهم أولاً حتى تضحك تعجباً من ذلك، ومن قال إنها ضحكت بالبشارة من أن يكون لها ولد وحفيد على كبر سنها، فهو سابق لأوانه، لأن الملائكة لم تذكر هذه البشارة أولاً»^(١).

من دروس الآية ٧١:

- ١- هذه الآية تحسم أن الذبيح هو أبونا إسماعيل وليس أخاه عمنا إسحاق عليهم السلام.
- ٢- جواز قيام المرأة - بشروط بالطبع - على خدمة الزوج وأضيافه.
- ٣- يفرح المرء بالبشرى مرتين: مرة حين سماعها ومرة عظمى حين حصولها.
- ٤- يعقوب اسم على مسمى فهو جاء عقب إسحاق ومن عقبه وهو الذي أعقب أي أنجب الأسباط الذين هم أساس الشعب الإسرائيلي، ولا نقول شعب إسرائيل لأنه لا كيان بهذا الاسم ولا الشعب الذي يتسبب لهذا الكيان نعتبه شعبه وإنما هم جماعة عادية معتدية عابرة سوف لن تكون في هذه الأرض المقدسة.
- ٥- البشرى بهلاك الظالمين بشرى عظيمة و«بشرة خير» كما يقولون.

الآية ٧٢:

﴿قَالَتْ يَوْنٰلَيْقَ ۤأَلَدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

الربط والمناسبة: بُشرت امرأة إبراهيم عليه السلام بالولد في الآية السابقة وتسجل هذه الآية رد فعلها على تلك البشرى وأنه كان الاندهاش الذي أطلق صيحتها ﴿يَوْنٰلَيْقَ ۤأَلَدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾.

وهذه الآية (١٢) كلمة و(٤٧) حرفاً وترتيبها (١٥٤٥).

المعنى: قالت يا ويلتى: قالت امرأة إبراهيم معبرة عن استغرابها ودهشتها ومفاجأتها: يا ويلتى: يا للنداء والمنادى الويل مضافاً إلى ياء المتكلم وزيدت التاء للتعوية وتحولت الياء إلى ألف مقصورة. يا ويلتى، فكأنها تنادي الويل للحضور، وهو تعبير غير مقصود معناه حرفياً، وإنما هو تعبير عن متهى التعجب والاستغراب.

ألد وأنا عجوز: الهمزة الأولى للاستفهام التعجبي أو الإنكاري ثم الفعل ألد، فمقتضى البشرى بالولد أن تحمل وأن تلد وهذا في مألوف البشر غير مألوف ولا معهود ولا متوقع، من هنا جاءت الدهشة. وجمع همزتين متتاليتين وصعوبة نطقهما لتدلل بجرسها على معناها من صعوبة تصور الموقف.

وأنا عجوز: الواو للحال والمبتدأ والخبر بعدها في محل نصب حال.

وعجوز تستعمل للمذكر والمؤنث.

ومن يدخل تحت هذا الوصف كبير السن لكن بلا تحديد سن معين فهل هو من سن الستين مثلاً أو قبلها وما بعدها، هذا يحدده العرف أكثر مما تحدده اللغة، لكن اللغة وضعتة للكبير والكبيرة كالشيخ.

قال الزجاج: «يا ويلتا: أصلها يا ويلتي، فأبدل من الياء ألف لأنها أخف من الياء والكسرة».

قال القرطبي: «ولم تُرد الدعاء على نفسها بالويل ولكنها كلمة تخفّ على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه، وعجبت من ولادتها وكون بعلمها شيخاً لخروجه عن العادة وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر»^(١).

وهذا بعلي شيخاً: الواو للحال أو للعطف، وهذا اسم إشارة للقريب لتعيينه، واستخدمت لفظ بعلي دون زوجي، لأنه فيما أرى يستخدم حيث العلاقة دون جدوى، أو دون ثمرة.. أو هو مطلق عن هذا كله. وهذا أرجح والله أعلم^(٢).

شيخاً^(٣): حال، أو الجملة كلها في موضع الحال، والشيخ الكبير السن دون تعيين وللعرف الاجتماعي واللغوي دوره في تعيين وتحديد السن.

إن هذا شيء عجيب: إن هذا: إن للتوكيد للإشارة إلى غرابة الأمر ووقوعه عليها.

هذا: للمرة الثانية بعد ﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾ لتعيين الشيء المتحدث عنه واستحضاره بتمامه وفيه قبل أن نصل إلى كلمة عجيب، فيه رائحة التعجب.

(١) الدرّة المجلد السادس ص ٣٣٨.

(٢) لم ترد كلمة بعلي إلا هنا وورد بعولتهن ٤ مرات مرة في البقرة ٣ في النور ووردت بعلمها مرة في سورة النساء.

(٣) الشيخ: هو الذي استبان في السن وظهر عليه الشيب، وفي اللغة هو من تجاوز الأربعين من عمره وهو السن الذي يكمل فيه العقل ويغلب فيه صلاح الرجل على فساد، ويطلق الشيخ على الأستاذ والعالم، وكبير القوم، ورئيس الصناعة وعلى من كان كبيراً في أعين الناس علماً أو فضلاً أو مقاماً، الدرّة، المجلد السادس ص ٣٣٩.

لشيء: اللام لمزيد التأكيد فتأمل كيف شحن النص بالمؤكدات على قصره لتوكيد غرابة الأمر وعجيب الشأن، وكلمة شيء مطلقة عامة تطلق على كل شيء... حتى الأشياء المعنوية مثل هذا الأمر.

عجيب: متعجب منه مستغرب وبعيد في التصور وموغل في العجائبية.

قال مخلوف: «يا ويلتا: كلمة أرادت بها التعجب لا الدعاء على نفسها بالويل والهلاك، وهي كثيرة في أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يتعجبن منه. أ. هـ».

قال الزمخشري: ««شيخاً» نصب بما دل عليه اسم الإشارة».

قال الجصاص: «فَإِنَّهَا مَعَ عِلْمِهَا بِأَنَّ ذَلِكَ فِي مَقْدُورِ اللَّهِ تَعَجَّبَتْ بِطَنَعِ الْبَشَرِيَّةِ قَبْلَ الْفِكْرِ وَالرُّؤْيَةِ كَمَا وَلَّى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَدْبِراً حِينَ صَارَتْ الْعَصَا حَيَّةً حَتَّى قِيلَ لَهُ: أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ»^(١).

من دروس الآية ٧٢:

١ - العجيب كيف ينقل النص القرآني على محدودية عدد كلماته انفعالات الشخصوص وكيف يغوص في أعماقهم ليرصد أدق خلجاتهم، وهذا هو الإعجاز القرآني، أو الإعجاز النفسي في القرآن إن شئت تحديداً أو رمت تعييناً.

٢ - السنن الكونية جعلها الله ليضبط الناس شؤونهم ولا يبنوها على الخوارق، أما هو سبحانه فإنه متى شاء خرق هذه السنن لمن شاء، ليعلم الناس أن للكون إلهاً وليست قوانين تسيرو وحدها.

٣ - خرق السنن يؤيد إيمان المؤمنين ولا يجعلهم يعتمدونه منهج حياة لهم.

٤- أسباب عدم الإنجاب في حالة إبراهيم وزوجه كاملة وليست من طرف واحد ولكن الله لا يعجزه شيء.

٥- بين الفينة والأخرى يري الله الناس آياته ويكسر رتابة الحياة والإيقاع المألوف للأشياء ليخرجوا من قوقعة الإلف الذي يقتل الدهشة، فكم جميل أن تعود لنا مشاعر الدهشة بالأشياء والانفعال بها.

الآية ٧٣:

﴿قَالُوا أَنْتَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَمَتْهُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ

مَجِيدٌ﴾

الربط والمناسبة: تمام الاتصال وكمال الاتساق بين هذه الآية وسابقتها، فهناك تعجبت امرأة إبراهيم عليه السلام وعليها، من أن تنجب فيما يبدو أنه محال، أو أقرب إلى الخيال، وهنا يرد الملائكة على السؤال ألد وعلى قولها: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ فيقولون: ﴿أَنْتَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ فلا محل للعجب.

وهذه الآية (١٤) كلمة و(٥٩) حرفاً وترتيبها (١٥٤٦).

المعنى: قالوا أنتعجين: قالوا: أي الملائكة والضمير للجمع كما هو للواحد ويبدو أنهم جمع لكننا لا نعلم كم هذا الجمع، أثلاثة أم فوق هذا العدد وليس من شأن القرآن أن يدخل فيما لا جدوى من تفصيله، وإنما قلت هذا لأؤكد المؤكد.

أنتعجين: ردوا على همزة الاستفهام ألد بهمزة استفهام: أنتعجين؟ هل تعجبن يا زوج النبي الكريم وهل تستغربين وأنت في بيت يتلقى صاحبه الوحي من الله، ويأتيه الأمر من الله، وهو موصول كل لحظة من لحظاته بالله؟

من أمر الله: هذا المستعجب منه والمتعجب من شأنه أمر من أمر الله ولا عجب على الله^(١)، ولا غريب على قدرته. وحرف الجر «من» متعلق بالفعل قبله.

أمر الله: شأنه سبحانه، وكل أمر هو من أمر الله أي بأمره وإذنه أو أمره ما يأمر به سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

فالأمر لفظ عام ككلمة شيء ومطلق يطلق على ما لا يحصى من الأمور^(٢)، وأضاف الأمر إلى الله لتعظيم شأنه فالشيء يعظم بالانتساب للتعظيم كتاب الله رسول الله، بيت الله..

رحمت الله: الأمر الأول مجيء لفظة رحمة بتاء مفتوحة ﴿رَحِمْتَ﴾ وهذا الرسم مقصود وهو فيما أرى وأردد ولا أمل أنه توقيفي بل إنه معجز، فجاءت الكلمة هنا بهذه الصورة وجاء بالتاء المربوطة، فلو كانت أمر نساخ لاتحدت، وأما ما جاء بالتاء المفتوحة فاللفتة فيه أنها الرحمة^(٣) الواسعة كالتاء المفتوحة.

(١) قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿أَرَحِمْنَ أَنْ أَصْحَبَ الْكَهْفَ وَالرَّقِيمَ كَاثِرًا مِنْ عَابِدِينَ عَجَبًا﴾ له بعدان: بعد يتصل بالله فلا عجب في هذه الآية على الله، ولكنه في البعد الثاني الذي يتصل بالبشر ومالوفهم ومشاهداتهم هو أمر عجب، وليس على الله بعجب!

(٢) ورد الأمر في القرآن ٧٢ مرة وأمرنا ١٧ مرة وأمرنا ١٦ مرة وأمره ٢٢ مرة ومن هذا الأخير: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْلُغُ أَمْرِهِ﴾ ومنه ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ ومنه ﴿أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أما أمرنا فمعه ﴿أَتَيْنَاهُ أَمْرًا﴾ و﴿وَلَتَأْتِيَ أَمْرًا﴾.

أما أمرًا فافتقرت كثيراً بالفعل قضى ومشققاته ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرًا﴾ ورد مرات ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا﴾ في الأنفال مرتين، أما الأمر فمعه ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ و﴿ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ ومر بنا في هود مرات وسيمر مرات فهي أكثر سورة فيها هذا الأمر فقد ورد ٩ مرات وأكثر سورة بعدها ٦ مرات.

(٣) وردت رحمة في القرآن ٧٩ مرة جلها بالتاء المربوطة.

ووردت بالتاء المفتوحة مرات. في الزخرف مرتين والأعراف مرة وفي هود مرة وفي الروم مرة.

وهل تعلم أن سورة هود التي تفوقت في كلمة أمر بشكل ملحوظ تفوقت كذلك على كل سور القرآن في كلمة رحمة فقد جاءت فيها ٨ مرات.

وأكثر سورة بعدها فيها ٦ مرات.. ككلمة أمر فسبحان من هذا كلامه!

فليس الأمر أمر نساخ كما قد يتعجل الأمر بعض القائلين، والقرآن ليس متروكاً للناس والنساخ يكتبون كما يشاؤون!

إنما هو أمر من أمر الله.. فتأمل!

وأضيفت رحمة إلى لفظ الجلالة لتعظيم شأنها، وفي هذه الآية ٣ كلمات مضافة إلى لفظ الجلالة أو الضمير العائد إليه، وأما الأولى والثانية فقد تفوقت فيهما سورة هود وأما الثالثة فانفردت بها، فتأمل!

وبركاته: أضيفت البركات إلى لفظ الجلالة كذلك ولم ترد كما مر في القرآن إلا هنا أعني مضافة ووردت بركات في هذه السورة قبل آيات.

والبركة الخير الكثير وهي مفهوم كبير قد لا يفهمه المادي والملحد والحسابي أعني من يحسب الأشياء بالأرقام، ويتعامل في حدود الفيزياء، فأنى يفهم معنى البركات، وما درى أن الله يصرف عنكم من البلاء والمرض وتلف الأشياء والحوادث ما يبارك به دخلك.. وكم من أناس دخلهم ألوف ولا يكفهم وأناس يعيشون سعداء ومستورين بالقليل.

وكيف تعيش بلدان فقيرة بالأمطار كالأردن وفلسطين وبلاد الشام بل إن ثمراتها أطيب الثمرات.. لأنها أرض مباركة.

على كل حال هذا مفهوم إيماني فمن كان لا يؤمن فلا يتمحل ولا يحرم المؤمن من إيمانه واعتقاده وراحة باله، فليظل هو في أرقامه وحساباته وآلاته التي تساعده على الحساب ﴿وَلَا يَرَاوْنَ تَخْلِفِينَ﴾ هذا شأن البشر وشأن الدنيا ومن عليها، فلا نتحكك في الكلام ولا نتزيد في الخصام.. وليمض كل في سبيل!

أهل البيت: هنا وقفة مع مفهوم أهل البيت، فواضح أن الملائكة عنت به امرأة إبراهيم، وقوله تعالى في قصة موسى: ﴿قَالَ لِأَهْلِي﴾ تأكيد لهذا المفهوم، وآل عمران

لم نعرف منهم إلا امرأة عمران ومريم ابنتهما، فأهل البيت في المصطلح القرآني فيما أرى هم نساء البيت، وقوله تعالى في سورة الأحزاب بعد نداء نساء النبي ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ﴾ ثم جاء قوله عقبها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ فهل عني بها إلا نساء النبي^(١).

واعتقد أن الجواب واضح قاطع الوضوح.

إنه حميد مجيد: إنه المستحق الحمد سبحانه والمستحق التمجيد والتعظيم فله المجد وله العزة وله الكبرياء وله المحامد كلها مولانا العظيم.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «العَجَبُ بفتح العين والجيم انفعال نفساني يعتري الإنسان عند استعظامه أو استطرافه، أو إنكاره ما يرد عنه».

وقال الراغب: «العجب حيرة تعرض للإنسان بسبب الشيء وليس هو شيئاً له في ذاته حقيقة، بل هو بحسب الإضافات إلى من يعرف السبب ومن لا يعرفه.

هذا والعُجَب بضم العين وسكون الجيم، رؤية النفس وحقيقة أن يرى الإنسان نفسه فوق غيره علماً أو ورعاً أو أدباً وغير ذلك أن له منزلة لا يدانيه فيها سواه، وهذا هو الكبير الذي يُدخل صاحبه جهنم وبئس المصير»^(٢).

قال الشيخ حسنين مخلوف: «حميد: محمود في أفعاله، مجيد: كثير الخير والإحسان أو ذو الشرف والكرم، والمجد: السعة في الكرم والجلال، يقال مَجَدَ كَنَصَرَ وَكُرُمَ:

(١) يقول بعض أئمة الشيعة وشيوخهم إن هذه الآية غيّر النبي موقعها من مكانه ولا يحدّدون أين موقعها، وحاشا لكلام الله أن يبدل منه شيء أو أن يفعل الرسول من هذا أي شيء، الا قاتل الله من قالها! ثم يصرون على أن أهل البيت هم من حدّوهم: علي وفاطمة والحسن والحسين والقرآن كما رأيت أوضح من الشمس في هذه المسألة.. ومن هنا فإنّي أتوقف لمناقشة ما يروى أن أم سلمة سألت النبي عليه الصلوات هل هي منهم فأجابها بالنفي والعجيب أن الحديث مرويّ مقتزناً بنزول الآية أي أنها سألته إذ نزلت الآية فتأمل! وكان أم سلمة لا تعرف اللغة العربية.

جداً ومجادة، أي كرم وشرف، وأجده ومجّده: عظمه وأثنى عليه، وأصله من مَجَّدت الإبل وأمجّدت: إذا وقعت في مرعى كثير واسع. أ. هـ.

﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالإنعام به أهل البيت بيت النبوة فليست بمكان عجب، وأمر الله قدرته وحكمته.

قال ابن عاشور: «جملة «إنه حميد مجيد» تعليل لتوجه رحمته وبركاته إليهم بأن الله يحمد من يطيعه، وبأنه مجيد: أي عظيم الشأن لا حد لنعمه فلا يعظم عليه أن يعطيها ولدأ، وفي اختيار وصف الحميد من بين الأسماء الحسنی كناية عن رضى الله تعالى على إبراهيم عليه السلام وأهله».

قال الرازي: «وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ تَعَجَّبُوا مِنْ تَعْجِبِهَا، ثُمَّ قَالُوا: رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ ذِكْرُ مَا يُزِيلُ ذَلِكَ التَّعَجُّبَ وَتَقْدِيرُهُ: إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ مُتَكَاثِرَةٌ وَبَرَكَاتِهِ لَدَيْكُمْ مُتَوَالِيَةٌ مُتَعَابِقَةٌ، وَهِيَ التُّبُوءُ وَالْمُعْجَزَاتُ الْقَاهِرَةُ وَالتَّوْفِيقُ لِلْخَيْرَاتِ الْعَظِيمَةِ فَإِذَا رَأَيْتَ أَنَّ اللَّهَ خَرَقَ الْعَادَاتِ فِي تَخْصِصِكُمْ بِهِذِهِ الْكَرَامَاتِ الْعَالِيَةِ الرَّفِيعَةِ وَفِي إِظْهَارِ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ وَإِحْدَاثِ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِهِ التَّعَجُّبُ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: أَهْلَ الْبَيْتِ فَإِنَّهُ مَدْحٌ لَهُمْ فَهُوَ نَصَبٌ عَلَى النَّدَاءِ أَوْ عَلَى الْإِخْتِصَاصِ، ثُمَّ أَكْدُوا ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ وَالْحَمِيدُ هُوَ الْمَحْمُودُ وَهُوَ الَّذِي تُحْمَدُ أَفْعَالُهُ، وَالْمَجِيدُ الْمَاجِدُ، وَهُوَ ذُو الشَّرَفِ وَالْكَرَمِ، وَمِنْ مَحَامِدِ الْأَفْعَالِ إِصْصَالُ الْعَبْدِ الْمُطِيعِ إِلَى مُرَادِهِ وَمَطْلُوبِهِ، وَمِنْ أَنْوَاعِ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ أَنْ لَا يُمْنَعَ الطَّالِبُ عَنْ مَطْلُوبِهِ، فَإِذَا كَانَ مِنْ

الْمَعْلُومُ أَنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى الْكُلِّ وَأَنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ، فَكَيْفَ يَبْقَى هَذَا التَّعَجُّبُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ^(١).

من دروس الآية ٧٣:

- ١- المصطلح القرآني أهل البيت يعني نساء الرجل أو النبي.. أو المعنى.
- ٢- لا يجوز أن نجعل شيئاً أو مصطلحاً فوق مصطلح القرآن وفوق قول القرآن.
- ٣- لا عجب على قدرة الله، هذه بدهيات الإيمان.
- ٤- قياس الإنسان قد يخطئ.

الآية ٧٤:

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾

الربط والمناسبة: في السياق السابق تكلمت الآيات عن الرسل الملائكة الذين جاؤوا إلى الرسول إبراهيم، وبشروه بأنهم آتون لإهلاك قوم لوط ويشروا امرأته بالولد والحفيد من بعد الولد فاطمأنت نفس إبراهيم وزايله الخوف، فطفق يجادل الملائكة في قوم لوط.. فالآيات هذه والسابقات نسق وفي تمام الاتساق.

وهذه الآية (١١) كلمة و(٤٦) حرفاً وترتيبها (١٥٤٧).

المعنى: فلما: وقت أن.

ذهب: زايله وراح عنه، عن إبراهيم: عن نفسه وقلبه.

الروح: الخوف^(١)

وجاءته البشرى: بعد الروح وذهابه جاءت البشرى لإبراهيم وأهل بيته، واستخدم النص المجيء الذي هو للقرب، وأطلق البشرى عن تحديد فحواها لأنه قد ذكر قريباً فأغنى عن إعادته.

يجادلنا: الجدل والمجادلة من الجدل وهو النقاش والحوار لكن على وجه أشد، أي يحاول مدافعة العذاب عن قوم لوط وتأخيرهم عنهم، من أجل إعطائهم مهلة وفسحة وفرصة للتوبة والرجوع إلى الصواب، وهذا يدل على حلمه، لا على تهاون في الأحكام معاذ الله. وقد أثنى عليه الله، دلالة على أن منطلقه كان الحرص على الدين والحرص على إيمان الناس بالدين قبل إهلاكهم.

في قوم لوط: أي في شأن قوم لوط وفي أمرهم وقضية عذابهم وإهلاكهم.

قال قتادة: «بشروه بإهلاك قوم لوط ﴿يَجْدِلُكَ فِي قَوْلِهِ لُوطٌ﴾ أي يجادل رسلنا، وأضاف سبحانه المجادلة إلى نفسه لأنهم نزلوا بأمره»^(٢).

(١) الفرق بين الروح الخوف: قال الزخشري في الأساس: في الجذر روح، قال: رعته وروعته وارتعت منه وأصابته روعة الفراق وروعات البين. ومن المجاز: شهد الروح أي الحرب.. إلخ. ص ٣٨١-٣٨٢. وقال في الجذر خوف: خفته على مالي خوفاً وخيفة، وتخوفته عليه، وما أخوفني عليك، وهذا أمر مخوف.. إلخ. وقال الراغب في المفردات في معنى الجذر خوف:

الخوف توقع مكروه عن أمانة مظنونة أو معلومة، وبضاد الخوف الأمن، واستشهد بعدد من الآيات منها:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ﴾

﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾.. إلخ.

قال في معنى الجذر روح: الروح (بضم الراء): الخلد (بفتح اللام). وذكر الحديث «إن روح القدس نفث في روعي» والروح (بفتح الراء): إصابة الروح (بضم الراء) واستعمل فيما التي فيه (أي في الروح) من الفزع وذكر

الأصفهاني الآية: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾.. إلخ - ص ٢٠٨.

(٢) الدرر المجلد السادس ص ٣٤٢.

قال مخلوف: «الروح بفتح الراء: الخوف والفرع، يقال: راعه أي أفرعه، كروعه. أ. هـ». وفي المصباح المنير: راعني الشيء روعاً أفرعني وروعني مثله، والروح بالضم الخاطر والقلب»^(١).

قال الزمخشري: «يجادلنا» كلام مستأنف دال على الجواب وتقديره اجترأ على خطابنا أو فطن إلى مجادلتنا». قلت: وقوله: اجترأ لا أراه مناسباً.

قال ابن عاشور: «المجادلة هنا: دعاء ومناجاة سأل بها إبراهيم عليه السلام ربه العفو عن قوم لوط خشية إهلاك المؤمنين منهم». وقول ابن عاشور غريب كذلك.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: فلما ذهب عن إبراهيم الخوف الذي أوجسه في نفسه من رسلنا، حين رأى أيديهم لا تصل إلى طعامه، وأمن أن يكون قُصِدَ في نفسه وأهله بسوء (وجاءته البشري)، بإسحاق، ظلّ (يجادلنا في قوم لوط) وينحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل... وزعم بعض أهل العربية من أهل البصرة أن معنى قوله: (يجادلنا) يكلمنا. وقال: لأن إبراهيم لا يجادل الله، وإنما يسأله ويطلب إليه. وهذا من الكلام جهلٌ، لأن الله تعالى ذكره أخبرنا في كتابه أنه يجادل في قوم لوط، فقول القائل: إبراهيم لا يجادل، موهماً بذلك أن قول من قال في تأويل قوله: (يجادلنا)، يخاصمنا، أن إبراهيم كان يخاصم ربّه، جهلٌ من الكلام، وإنما كان جداله الرسلَ على وجه الحاجة لهم. ومعنى ذلك: وجاءته البشري يجادل رسلنا، ولكنه لما عرف المراد من الكلام حذف (الرسل)...»^(٢).

من دروس الآية ٧٤:

١ - الأنبياء خيرة الله من الخلق وهم أرحم الخلق بالخلق.

(١) المصباح المنير ص ٣٣٥.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج ١٥، ص ٤٠٠ ص ٤٠٦.

- ٢- الأنبياء يصيهم الروح والاندھاش كباقي الناس.
- ٣- الجدال مأذون طالما كان صاحبه يتحرى الحق.
- ٤- مجادلة إبراهيم دلالة على حلمه.
- ٥- لا يتصور أن إبراهيم يجادل لو جزم أن الأمر قد حسم وأصبح حتماً.

الآية ٧٥:

﴿إِن إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن جدال إبراهيم عليه السلام الملائكة في شأن قوم لوط وعذابهم، وهذه الآية تثني عليه، حتى لا يظن أنه متعاطف مع الكافرين، وإنما هو يجادل من حلمه في دعوته وطول اضطباره واحتماله.

وهذه الآية (٥) كلمات و(٢٠) حرفاً وترتيبها (١٥٤٨).

المعنى: إن إبراهيم لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ: هذه الآية من أقصر آيات سورة هود بل هي أقصرها فهي ٥ كلمات و ٢٠ حرفاً بالرسم القرآني.

وابتدأ النص بإن للتوكيد وزيدت (نحوياً) اللام في الخبر للتوكيد كذلك وعبر بالاسم إبراهيم عليه التسليم مع قرب العهد دون التعبير بالضمير لتكريمه بذكر اسمه، ولتفخيم شأنه، وللثناء عليه، وللاستحضاره في ذهن القارئ باسمه الكريم.

لَحَلِيمٌ: لشديد الحلم وعظيمه، والحلم السعة في الخلق والسماحة في كل الأمر والعفو والصفح والاحتمال ومقابلة السوء بالإحسان، والحلم سيد الأخلاق كما يقال، والحلم خصلة حببية إلى الله، كما ورد الحديث بهذا المعنى إذ قال

الرسول ﷺ للأحنف بن قيس: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة» أو كما قال ﷺ.

أواه: كثير التأوه، وفعال صيغة تفيد وقوع الشيء منه مرة بعد مرة ففيه معنى التردد والتكرار والكثرة والاستمرار.

وفي التأوه إشارة إلى الشفقة والرقمة والرافة، وقد تكرر هذا الثناء على إبراهيم في سورة التوبة في قصة استغفاره لأبيه وقال هناك: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

منيب: مبالغة أيضاً أي كثير الإنابة إلى الله من كل أمر قد يظن فيه أنه قصر.. فهو كثير الرجوع إلى الله في أمره كله.

قال مخلوف: «حليم: متأن غير عجول، أواه: خاشع متضرع في الدعاء أو كثير التأوه من خوف الله، قال أبو عبيدة: الأواه: المتأوه فرقاً، المتضرع يقيناً ولزوماً للطاعة وأصل التأوه: قول الرجل: أوه أو أوه: أي أتوجع، حليم: صبور على الأذى صفوح على الجناية يقابلها بالإحسان والعطف، منيب: راجع إلى الله. أ. هـ^(١)».

قال الزمخشري: «منيب» تائب راجع إلى الله بما يحب ويرضى، وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرافة والرحمة».

قال ابن عاشور: «حليم» الموصوف بالحلم وهو صفة تقتضي الصفح واحتمال الأذى».

«إن إبراهيم لبطيء الغضب، متذلل لربه خاشع له، منقاد لأمره (منيب)، رجّاع إلى طاعته»^(٢).

(١) صفوة البيان ٢٦٧-٢٩٧.

(٢) الطبري، ج ١٥، ص ٤٠٦.

من دروس الآية ٧٥:

- ١- الحلم من أعظم الأخلاق وسيد الأخلاق.
- ٢- الرحمة والشفقة على العباد من أعظم مزايا الأنبياء.
- ٣- الرجوع إلى الله سمة المؤمن عموماً فكيف الرسل؟
- ٤- الحلم خصلة يجها الله في عباده.
- ٥- الحلم يكون ثمرة رياضة نفسية عالية وكظم للمشاعر وضبط عال للسلوك.
- ٦- إبراهيم نموذج للحلم ومثال أعلى.

الآية ٧٦:

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ عَنِ مَرَدُّورِ﴾

الربط والمناسبة: هذه ثالث آية تباعاً يذكر فيها اسم إبراهيم، ففي السابقة أثنت على إبراهيم وفي سابقتها بينت مجادلته في قوم لوط، وفي هذه أمر من الله لإبراهيم بالإعراض عن المجادلة في قوم لوط، فالتسق أوضح من أن يحتاج إلى بيان وجه الاتساق.

وهذه الآية (١٤) كلمة و(٥٣) حرفاً وترتيبها (١٥٤٩).

المعنى: يا إبراهيم: اختصرت ألف من يا النداء فكتبت بألف واحدة ووضعت همزة عوضاً عن الألف المحذوفة تحت الهمزة الموجودة، والرسم فيما أرى توقيفي، ولكل وجهة.

والنداء قد يكون من الملائكة له عليه الصلوات، وقد يكون من الله بلغه الملائكة ليلغوه لإبراهيم، والنداء هنا مقصوده التنبيه.

أعرض عن هذا: دع عنك هذا واتركه وابتعد عنه ولا تقل في هذا الموضوع شيئاً.. وهذا اسم إشارة للقريب فالموضوع حاضر، وهو يشير إلى توسطه لقوم لوط.

إنه قد جاء أمر ربك: إن للتوكيد والضمير اسمها وهل يعود إلى مذكور قبلها أم بعدها أم إلى غير مذكور يستوحى من الكلام؟

ولعلي أرجح الأخير فيكون كضمير الشأن تبتدئ به: هي الدنيا.. ونحوها.

وقد: للتحقيق وقد دخلت على الماضي، جاء بمعنى حل وحصل ووصل.

أمر ربك: حكمه وقضاؤه بهلاك هؤلاء المجرمين، أو الأمر قد صدر بإهلاكهم وهذا وقت التنفيذ، وأضيف الأمر إلى لفظ الرب مضافاً بدوره إلى كاف الخطاب.. أما الإضافة إلى كاف الخطاب فتلطف بالمخاطب، وأما إضافة الأمر إلى لفظ الرب فلتفخيمه وتعظيمه.

وإنهم آتيهم عذاب غير مردود: الواو للعطف وإن للتوكيد واسمها الضمير المتصل بها وهو عائد إلى المذكورين في السياق وهم قوم لوط.

آتيهم: نازل بهم وواقع عليهم.

عذاب: نكر لفظ عذاب للتفخيم والتكبير والتكثير والتهويل.

غير مردود: غير مدفوع ولا مرفوع ولا يرد راد ولا يصده صاد، ولا يمنع مانع ولا يرجعه أحد، لأن أمر الله لا يدافع.

قال الزمخشري: «قالت له الملائكة: «أعرض عن هذا» الجدال وإن كانت الرحمة

ديدك فلا فائدة فيه».

قال ابن عاشور: «يا إبراهيم أعرض عن هذا» مقول محذوف دل عليه المقام وهو من بديع الإيجاز، وهو وخي من الله إلى إبراهيم عليه السلام، أو جواب الملائكة».

قال الثعلبي: «دع عنك الجدل، وأعرض عن هذا المقال إئنه قد جاء أمر ربك عذاب ربك وإنيهم آتيهم نازل بهم، يعني قوم لوط عذاب غير مردود غير مدفوع ولا ممنوع»^(١).

من دروس الآية ٧٦:

- ١- لطف الرب الجليل برسله الكرام.
- ٢- أمر الله إذا حل لا يرده أحد.
- ٣- وعذاب الله لا يدفعه عن القوم المجرمين دافع.
- ٤- الله تعالى يحلم ويرخي العنان للناس عليهم يثوبون لرشدهم فإذا تمادوا أخذهم أخذ عزيز مقتدر.
- ٥- الله سبحانه لا يجابي أحداً فخطابه لرسله يدل على التربية الربانية والتأديب الإلهي ﴿سَنُوحِ..إِنِّي أَعْطُكَ﴾ ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ..﴾.

الآية ٧٧:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝﴾

الربط والمناسبة: افتتحت الآية ٧٤ بقوله تعالى ﴿ثَلَاثًا﴾ وافتتحت هذه بقوله ولما، وفي الآية ٧٥ مدح إبراهيم، وفي الآية ٧٦ صدور الأمر له بالإعراض عن التدخل في أمر قوم لوط لأنه ﴿جَاءَهُ أَثَرُ الذِّكْرِ﴾ وهنا انتقل السياق إلى قصة لوط وانتقل الملائكة من مكان إبراهيم إلى مكان لوط ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾.

وهذه الآية (١٣) كلمة و(٤٨) حرفاً وترتيبها (١٥٥٠).

المعنى: ولما جاءت رسلنا لوطاً: لم يعبر بقوله فلما كالأية ٧٤ إنما قال ولما، ويبدو أن في الأمر شيئاً من السعة والبجوحة في الوقت فلم يعبر بفاء التعقيب وإنما بواو العطف.. فثم فاصل زماني لا نعلم بالطبع قدره لأن الله لم يرد أن يعلمناه لأنه علم أن لا لزوم له بالنسبة لنا ولا ضرورة ولا فائدة.

جاءت: المجيء إثبات من قريب كما نكرر دائماً، وعبر بقاء التأنيث لأن كلمة الملائكة بتائها المربوطة مؤنث لفظي، وأهم من هذا أن جموع التكسير يمكن أن تؤنث فقد قال القرآن مرات ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ وقال بالعكس: ﴿وَقَالَ يَسُوؤُ﴾ وقال عن نساء النبي ﴿وَنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ﴾ ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

رسلنا: أضاف الرسل إلى نون العظمة لتعظيم شأنهم.

لوطاً: مكانه وبيته.

سيء^(١) بهم وضاق بهم ذرعاً: إن المرء لا يضيق بأضيافه، لكن إن كان الجور مشحوناً بقلق وتوتر وانعدام قيم وأخطار فإن الضيوف عبء ثقیل لا خوفاً من قراهم وطعامهم ومبيتهم... معاذ الله.

فهذا ليس من شيم المؤمنين فكيف بالنيين؟ وإنما قوم لوط هم المشكلة لا طعام الضيوف، من هنا جاء الاستياء ﴿يَسْأَلُكُمْ﴾ ولذا جاء التعبير دقيقاً: ﴿يَسْأَلُكُمْ﴾ وليس منهم، أي بسببهم، أي هو استياء لهم، أي بسبب المشغلة عليهم والخوف من عدوان أو أذى قد يلحق بهم، وقد لا يستطيع النبي نصرهم، هنا مرتبط الألم والأسى والقلق والحزن والخوف كل ذلك معاً.

وضاق بهم ذرعاً^(٢): هذا تعبير كنائي، أي لا يقصد لحرفيته، فهو تعبير كالمصطلحات.. ولا يؤخذ مفككاً إنما هو بجملة يعنى الضيق وانعدام الاستطاعة على فعل شيء، وضعف القدرة على النصرة، والذرع من الذراع.

وقال هذا يوم عصيب: وقال لوط في نفسه لا لسمع ضيوفه ولا ليشير قلقهم وحزنهم وأسفهم، وإنما هذا من الكلام النفسي، الذي ينقله القرآن كثيراً كما في قوله تعالى في قصة يوسف: ﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ وكقوله في قصة إبراهيم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾ فيستحيل أن يقولها وإلا يكون أقام الدليل على نفسه بارتكاب الجرم في نظرهم.

(١) سيء: من أساء يسوء يكون لازماً ويكون متعدياً، كما في قولك: ساءني فلان. وكما هنا، وهذا غير (ساء) المستعمل في الذم. الدرر المجلد السادس ص ٣٤٤.

(٢) ذرعاً: وردت مرة أخرى في سورة العنكبوت وفي قصة لوط بالذات: ﴿وَلَمَّا آتَتْ زُلُفًا لَّوُطًا يَسْأَلُكُمْ﴾ وصَافَ بِهِمْ ذَرْعًا قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَلَا تَحْزَنْ [٣٣] والملاحظ زيادة ﴿أَنْ﴾ بعد «ولما» أي بينها وبين «جاءت» للتقوية.

ووصف اليوم بالعصيب أي الشديد للمبالغة، فهي ساعة العسرة التي دخلوا فيها لا اليوم كله لكنه عبر باليوم للمبالغة.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «ضاق بهم ذرعاً: أي ضاق صدره بمجبنهم، وقيل: ضاق وسعه وطاقته، وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة مكروهه.

وأصله أن يذرع البعير بيديه في سيره ذرعاً على قدر سعة خطوه فإذا حمل على أكثر من طوقه ضاق عن ذلك وضعف ومد عنقه فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع.

والذراع موضع قوة الإنسان وشهرته».

قال مخلوف: «سيء بهم: أي ساء وأحزنه حضورهم، لاعتقاده أنهم أناس فخاف أن يقصدهم قومه بالسوء وهو عاجز عن مدافعتهم، وضاق بهم ذرعاً: نفد طاقة ووسعاً بسببهم فلم يجد من ذلك المكروه مخلصاً، جعل ضيق الذرع كناية عن نفاد الوسع والطاقة، فيقال: ضاق به ذرعاً، إذا لم يطقه ولم يقدر عليه، ذرعاً: تمييز محول عن الفاعل، أي ضاق بأمرهم ذرعه، يوم عصيب: شديد شره عظيم بلاؤه، من العصب وهو الشد كأنه لشدة شره قد عصب به الشر والبلاء، أي شد به. أ. هـ».

قال الزمخشري: «كانت مساء لوط وضيق ذرعه، لأنه حسب أنهم إنس فخاف عليهم خبت قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم».

قال ابن عاشور: «العصيب: الشديد في ما لا يرضي، يقال: يوم عصيب إذا حدث فيه أمر عظيم من أحوال الناس أو أحوال الجو كشدّة البرد أو شدة الحر».

قال القشيري: «أي أنه حزن بسبب خوفه عليهم أن يجرى عليهم من قومه ما لا يجوز في دين الله فذلك الحزن كان لحق الله لا لتصيب له أو حظ لنفسه، ولذلك حمد عليه لأن مقاساة الحزن لحق الله محمودة»^(١).

وقال السمعاني: «وقوله: «سيء بهم» معناه: ساءت مجيئهم. وقوله: «وضاق بهم ذرعاً» يقال: ضاق ذرعاً فلان بكذا إذا وقع في مكروه لا يطيق الخلاص عنه»^(٢).

من دروس الآية ٧٧:

١- كل حرف في القرآن له وظيفته ومعناه وإجاءه العميق فتعبيره بـ ﴿وَلَئَا﴾ دون «فلما» مقصود وله مراميه.. وهو إفادة فسحة الوقت.

٢- المؤمن لا يضيق ذرعاً بالضيوف ولكنها الظروف تجعل المرء يضيق بالضيوف، فبعض البلدان المضطربة والتي تخضع لرقابة مشددة، يكون الضيف فيها عبئاً أمنياً ونفسياً.. وبعض البلدان المضطربة والتي فيها حروب أهلية أو سواها قد يتزعج المرء لقدم ضيوف لوجود أخطار كيروت في حروبها العديدة.

٣- سيء لوط عليه السلام بأضيافه وهو يعلم ما ينتظرهم من قومه ويدرك الفضيحة التي ستناله في أضيافه.

(١) القشيري، لطاف الإشارات، ج ٢، ص ١٤٨.

(٢) تفسير السمعاني، ج ٢، ص ٤٤٦.

الآية ٧٨:

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَعُكُمْ هَؤُلَاءُ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَتَّخِزُوا فِي صَيفِي النَّاسِ مِنْكُمْ رَجُلٌ زَشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾

الربط والمناسبة: في الآية السابقة تحدث عن مجيء الرسل ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا

لَوْكَا﴾ ومجيء الرسل تسبب في مجيء قوم لوط وهم لا يعلمون إلا أنهم بشر ولا يعلمون أنهم رسل من هنا قال هنا في هذه الآية: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ﴾.

وهذه الآية (٢٦) كلمة و(١٠٨) حرفاً وترتيبها (١٥٥١).

المعنى: وجاءه قومه يهرعون إليه: لما رأى قوم لوط الرسل أولما علم قومه بمجيء الرسل جاءوا إلى بيت لوط مسرعين والفعل هرع يهرع لا يأتي إلا مبنياً للمجهول، كما هو معلوم في اللغة والنحو، وكان شيئاً دفعهم للمجيء، وكان حافزاً ودافعاً هو الذي حفزهم للحضور والقدوم والمجيء.

وقوله قومه: أي القوم الذين يعيش فيهم وبينهم وإن لم يكن منهم.

ومن قبل كانوا يعملون السيئات: ومن قبل هذا اليوم وهذه الساعة كان قومه يعملون السيئات، هكذا بصيغة مطلقة، وإنما المقصود مع العموم الإشارة إلى فعلتهم الشنعاء القبيحة الشاذة.. وهذه بالتحديد هي التي أتت بهم.

قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم: قال لوط لهؤلاء المجرمين يحاول ردعهم ما سجلته الآية: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي...﴾ وقد تكلف بعض المفسرين ليخرج من المازق الذي تصوّره في هذا العرض، وهو مأزق على كل حال، لكنه في واقع لوط وفي نفس بعض من يقرأ النص دون معرفة ما يعتمل في نفس لوط من حرج شديد، جعلهم هذا وغيره يقولون ما لا يقبل وهو: هؤلاء بناتي زوجاتكم فهن كأنهن

بناتي فاذهبوا إليهن واتركوا ما أنتم بصدده، ويرده رد قوم لوط عليه في الآية التالية: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ فكيف ليس لهم حق في زوجاتهم، وهنا لا بد من تكلف آخر، هو تأويل أولي معنى حق إلى معنى رغبة أو ميل، وهو أبعد من بعيد.

فما المعنى إذا؟ أرى أن المعنى المتبادر دون توعر وتقعر وإبعاد النجعة فما هو المتبادر؟ إن كان لا بد من جريمة فالزنا أهون من الشذوذ إذ الشذوذ أسوأ من الزنا والعن.

أو هو يريد أن يقطعهم عما هم فيه بهذا العرض المخجل، بمعنى أن يضحى الرجل بأعز ما يملك لينقذ أضيافه، وهذه شيمة أهل الكرم والكرامة، أعني أنه قد يفتدي ضيفه بنفسه، أو نزله أو المستجير به. ولذلك يقول بعضهم للمستجير به: لأجبرنك ولو على رقبتي ورقبة أولادي فهذا سلوك شهيم وتضحية جسيمة، وليست دعوة إلى الزنا ولا عرض بناته للفاحشة، وإنما هي خطوة يستثير بها نخوتهم وبقية شرف إن كانت فيهم، هكذا أفهم الموقف بلا تكلف.

وقوله ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: قال بعضهم أي تزوجوهن، فإذا كان القادمون عشرين وبناته ثلاثاً مثلاً فكيف نحل الإشكال؟ كل هذا التكلف لا يجدي ولا يغني ولا يصمد للنقاش.

أما معنى أظهر فالمرأة هي التي خلقت للمعاشرة ولكن بالطهر والحلال وما شرع الله، فإن كان صاحب السيئة يريد الحرام فالزنا دون الشذوذ، هذه محاولة فهم على كل حال والله أعلم.

فاتقوا الله: اخشوا ربكم واتقوا عذابه وسخطه، وعبر بلفظ الجلالة لترية المهابة.

ولا تخزون في ضيفي: هنا معقد المعنى الذي جعل لوطاً يتصرف بما تصرف ويقول الذي قال، فهو لا يريد أن يخزى في ضيفه، ولذا عرض ما عرض، وهذا من الشهامة ويستثير فيهم شعور الكرامة.. إن كان عندهم بقية.

والخزي شعور من المهانة والمذلة يصيب الإنسان إذا فعل القبيح أو نال من يلوذ به شيء من هذا الفعل القبيح فيكون الخزي قد وصل إليه بالتسبب، ومعنى ﴿فِي﴾ أي بسبب ما يصيب ضيفي.

ليس منكم رجل رشيد: الهمة للاستفهام التحضيضي أو الإنكاري ينكر عليهم فعلهم والهمة داخلية على ليس النافية. منكم: أي بينكم، رجل: نكرة أي أي رجل أو أي واحد منكم فهي للتأكيد أي مطلق رجل بينكم يذكركم أو يعيدكم عن غيكم.. ورشيد صاحب رشد وعقل ومروءة ودين.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «الضيف يقع للاثنتين والجمع بلفظ واحد، كما في الآية الكريمة، لأنه في الأصل مصدر، وقد يثنى: فيقال: ضيفان، وقد يجمع على أضياف وضيوف وضيغان وضياف، والأول أكثر استعمالاً.

وأصل الضيف المليل، يقال: ضيفت إلى كذا إذا ملت إليه والضيف من مال إليك نزولاً بك.

قال مخلوف: «يهرعون: يسوق بعضهم بعضاً إليه من شدة فرحهم، يقال: هرع الرجل وأهرع إذا أعجل، هؤلاء بناتي: يرشدهم إلى نساتهم، وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبي أبو أمته من حيث الشفقة والتربية.

ولا تخزون في ضيفي: ولا تفضحوني وتذلوني في أضيافي، من الخزي، وهو البلاء والفضيحة مصدر خزي يخزى خزياً وخزى، وقع في بلية فذل بذلك، وهو خزيان، وهن خزايا، وأخزاه الله فضحه، وقولهم: ما لنا في بناتك من حق قد

علمت أن لا أرب لنا في النساء، وما لنا فيهن كبير حاجة. أ. هـ» ص ٢٢، ص ٢٩٦، وقد بينا رأينا في مثل هذا القول.

قال الزمخشري: «يجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم وإظهاراً لشدة امتعاضه مما أوردوا عليه طمعاً في أن يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك فيتركوا له ضيوفه».

قال ابن عاشور: «والاستفهام في «أليس منكم رجل رشيد» إنكار وتوبيخ لأن إهانة الضيف مسبة لا يفعلها إلا أهل السفاهة وقوله «منكم» بمعنى بعضكم، أنكر عليهم تمالؤهم على الباطل وانعدام رجل رشيد من بيتهم».

قال البغوي: «قوله: بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ، أراد به نِسَاءَهُمْ، وَأَضَافَ إِلَى نَفْسِهِ لِأَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أَبُو أُمَّتِهِ... فَأَتَقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَيُّ: خَافُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَيُّ: لَا تَسُوؤُونِي وَلَا تَفْضَحُونِي فِي أَضْيَافِي. أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ، صَالِحٌ سَدِيدٌ»^(١).

من دروس الآية ٧٨:

- ١- من تعود الشر هان عليه فعله وصعب عليه الانسلاخ منه.
- ٢- من قواعد الأحكام ارتكاب أخف الضررين.
- ٣- لا يتصور أن نبياً يستسهل الزنا وإنما هي دعوة للتعقل، ذاك قول لوط هؤلاء بناتي.
- ٤- قد يحمي الإنسان ذو المروءة ضيفه ولو لحق أبناءه القتل.
- ٥- ﴿يَهْرَعُونَ إِلَى﴾ يسرعون في حالة تشبه الحمى.

- ٦- ﴿أَطَهَّرْ لَكُمْ﴾ الطهر بكل المعاني الحسية والفطرية والمعنوية.
- ٧- القضية قضية رشد وسفه إلى جوار قضية فطرة ودين ومروءة.
- ٨- الشذوذ الجنسي يصادم الفطرة والحياة لأنه يذهب ببذور الحياة في تربة خبيثة لم تُعد لاستقبالها.

الآية ٧٩:

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ (٧٩)

الربط والمناسبة: حاول لوط في الآية السابقة أن يرد مجرمي قومه عن ضيفه بعرض بناته أو تعريضهن للأذى الشديد حتى لا يعتدى على ضيفه وهي محاولة منه لإيقاظ إنسانيتهم إن كانت حية وهنا يردون على عرضه بتعريض عرضه للخطر ولا أن يمس ضيفه فيقولون ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾.

وهذه الآية (١٣) كلمة و(٤٣) حرفاً وترتيبها (١٥٥٢).

المعنى: قالوا: أي قوم لوط في جواب عرضه.

لقد علمت ما لنا في بناتك من حق: اللام للقسم وقد للتحقيق وبعدها الماضي لمزيد تأكيد، يريدون أن يقولوا أنت تجادلنا في ما تعلم أنا لا نريده، وليس لنا فيه حق.

ولو قصد لوط من كلمة ﴿بَنَاتِي﴾ زوجاتكم فكيف يردون هذا الرد؟

كيف يقولون: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾؟ ثم أليس ملتبساً قوله ﴿بَنَاتِي﴾ وهو

يقصد غير المتبادر؟

وقالوا: ﴿مِنْ حَقِّ﴾ بزيادة ﴿مِنْ﴾ نحوياً كما يقولون لإفادة أي حق مطلقاً، وكأنهم يعلمون ما الحق وما غير الحق!

وإنك لتعلم ما نريد: قالوا في الجملة الأولى ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ بالماضي لأن الماضي نفي شيء قديم وهو الحق، فليس لهم منذ القدم أي حق، وأما الآن فيقولون ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ﴾ بالمضارع لأنهم يتكلمون عن قضية حاضرة. وعبروا بأن التوكيدية واللام لزيادة التوكيد.

ما نريد: ما نطلب والذي نبحت عنه ونقصده ونبتغيه.

قال الزمخشري: «لما اتخذوا إتيان الذكران مذهباً وديناً كان عندهم أنه هو الحق وأن نكاح الإناث من الباطل، فلذلك قالوا: مالنا في بناتك من حق قط، لأن نكاح الإناث أمر خارج من مذهبنا الذي نحن عليه».

يقول الشيخ محمد طه الدرة في إعراب كلمة ﴿حَقِّ﴾: «مبتدأ مؤخر مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائدة، هذا وجوز اعتباره فاعلاً بالجار والمجرور «لنا» لاعتماده على نفي هذا ويحوج إلى تقدير فعل ليكون فاعلاً بالفعل أي ما ثبت، أو ما يثبت لنا حق في بناتك، والجملة سواء أكانت اسمية أم فعلية فهي في محل نصب سدت مسد مفعولي الفعل علم، والجملة الفعلية جواب قسم مقدر، والقسم وجوابه في محل نصب»^(١).

قال ابن عاشور: «لقد علمت» تأكيد لكونه يعلم، فأكد بتنزيله منزلة من ينكر أنه يعلم لأن حاله في عرضه بناته عليهم كحال من لا يعلم خلقهم، وكذلك

التوكيد في «وإنك لتعلم ما نريد» وكلا الخبرين مستعمل في لازم فائدة الخبر، أي أنك تعلم مالنا رغبة في بناتك وإنك تعلم مرادنا».

قال ابن عطية: «فوجه الكلام: إنا ليس لنا إلى بناتك تعلق، ولا هن قصدنا ولا لنا عادة نطلبها في ذلك وقولهم: وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ، إشارة إلى الأضياف»^(١).

من دروس الآية ٧٩:

١- دائماً نقول إن كل كلمة بل كل حرف في القرآن منبئ عن شيء داخل نفس المتكلم يفصح النص عنه ويكشفه وهنا البلاغة بل الإعجاز.

٢- من أشقى الشقاء أن ترى حسناً ما ليس بالحسن.

٣- حاجة الإنسان إلى شرع الله ليحدد له الحسن والقيح وأما العقل فعلى عظمة مهمته فقاصر عن تحديد الحلال والحرام والحسن والقيح.

٤- ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إشارة خبيثة إلى العمل الخبيث لأن أصحاب الفاحشة يستخدمون التلميح بدل التصريح.

٥- أصحاب الباطل دائماً يتشدقون بكلمات تكشف دواخلهم ويدعون معرفة الحق من وجهة نظرهم.

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج ٣، ص ١٩٥.

الآية ٨٠:

﴿قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَيْ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (٨٠)

الربط والمناسبة: قالوا ما قالوا في الآية السابقة من نفي وجود حق لهم في بناته مما يعني ضمناً أن لهم حقاً في أضيافه وهذا العمى بذاته.. وفي هذه الآية قال لوط ما قال وهو تمنى القوة ليردعهم ويلقنهم دروساً.

وهذه الآية (١١) كلمة و(٣١) حرفاً وترتيبها (١٥٥٣).

المعنى: قال لو أن لي بكم قوة: قال لوط في الرد عليهم وعلى توفحهم وعدوانهم وفجورهم: وددت لو أن لي عليكم قوة وسيطرة وإمكانات لأردعكم عن غيكم وأمنعكم من فجوركهم وضلالكم وانحرافكم، ولكني لا أملك هذه القوة. أو آوي إلى ركن شديد: لاحظ أن الآية قسمان السابق وهو ٦ كلمات و١٥ حرفاً والذي نتكلم عنه الآن وهو ٥ كلمات و١٦ حرفاً فهما متوازنان، «أو» للتخيير، أي إما هذا البديل وإما هذا، أما الذي هنا فهو أن أستند أو أستنصر ﴿رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ يعني إما قوة ذاتية وإما إسناد خارجي، وهو لا يعني بحال أنه نسي قدرة الله ومدد الله أو غاب عنه، وإنما الكلام عن الأسباب، وهو نبي يعلم أن وراء الأسباب مسبباً للأسباب متى شاء كسر قانون الأسباب ونصر بلا أسباب، هذا نبي فمن يعلم إذا لم يكن هو يعلم؟

والركن الشديد: القوة المتينة.

قال الزمخشري: «يعني: لو أن لي بكم قوة لفعلت بكم وصنعت والمعنى: لو قويت عليكم بنفسي أو آويت إلى قوي أستند إليه وأتمنع به فيحميني منكم، فشبه القوي العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعته».

يقول الشيخ محمد طه الدرة ﴿أَوْ أَوِيَّ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾: «إنما قال لوط عليه السلام هذه المقالة لأنه لم يكن من قومه نسباً بل كان غريباً فيهم».

وأما قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿إِذْ قَالَ لَّمْ تُؤْمَمُ لُوطُ﴾ «إنما أراد بذلك أخوة البلد والإقامة لا في الدين ولا في النسب، لأنه أقام بينهم مدة مديدة وسنين عديدة»^(١).

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «وأسقط في يد لوط عليه السلام وأحس ضعفه وهو غريب بين قومه نازح إليهم من بعيد لا عشيرة له تحميه وليس له من قوة في هذا اليوم العصيب».

قال مخلوف: «أو أوي إلى ركن شديد: أي لو أني ألجأ وأنضوي إلى عشيرة قوية تمنعني منكم تقول: أويت إليك فأنا أوي إليك أويًا، بمعنى انضممت إليك، وجواب لو محذوف أي لمنعتكم بالقوة. أ. ه».

لو.. للتمني، وهي لا تحتاج إلى جواب على هذا الاعتبار، ويكون التقدير: أتمنى وجود قوة تمنعني منكم، أو إيواء إلى ركن شديد يحفظني من طغيانكم وفسادكم، وهو تقدير لا غبار عليه والكلام في محل نصب مقول القول»^(٢).

قال ابن عاشور: «المعنى: ليت لي قوة أدفعكم بها، ويريد بذلك قوة أنصار لأنه كان غريباً بينهم، ومعنى «أو أوي إلى ركن شديد» أو اعتصم بما فيه متعة أي بمكان أو ذي سلطان يمنعني منكم».

(١) الدرة المجلد السادس ص ٣٥٠.

(٢) الدرة المجلد السادس ص ٣٥١.

«فلما رأى استمرارهم في غيهم وغلبتهم وضعفه عنهم قال - على جهة التفجع والاستكانة - لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ...»^(١).

جاء في صحيح البخاري: قال النبي ﷺ: «وَيَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»^(٢). قال ابن حجر ناقلاً بعض معاني هذا الحديث: «التَّجَأُ إِلَى اللَّهِ فِي بَاطِنِهِ وَأَظْهَرَ هَذَا الْقَوْلَ لِلْأَضْيَافِ اعْتِدَارًا»^(٣). قلت: والأنسب أن يكون معنى أو في «أو آوي»: بل آوي، لأنه لو كان له عشيرة ومنعة لقهر قومه وغلبهم ونهاهم، فأضرب عنهم، ولجأ إلى ربه جلّت عظمته، فكفاه.

من دروس الآية ٨٠:

- ١ - لوط في هذه الآية يتكلم عن الأسباب المادية التي يحسبها الناس ويعدونها.
- ٢ - ليس لوط يجهل وحاشاه قدرة الله وإسناده للحق.
- ٣ - القوة إما أن تكون ذاتية أو معونة خارجية.

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج ٣، ص ١٩٥.

(٢) صحيح البخاري، ج ٤، ص ١٧٤، حديث رقم: ٣٣٧٢.

(٣) ابن حجر، فتح الباري، ج ٦، ص ٤١٦.

الآية ٨١:

﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رَمَلْنَاكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْنَا بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْمِزُكَ
مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَّكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ
بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾

الربط والمناسبة: كان لوط في الآيات السابقة يجادل قومه والموقف يتصاعد حدة وشدة والملائكة صامتون.. حتى بلغ الموقف ذروة التأزم والتعقيد والرسول يعرض ما يعرض وهم يفحشون في الرد، وهو يتمنى القوة لينصر الحق.. هنا في لحظة التأزم يتدخل الملائكة الكرام بكشف الحقيقة التي لم يكن يعلمها لوط وهي أنهم رسل الله.

وهذه الآية (٢٩) كلمة و(١١٦) حرفاً وترتيبها (١٥٥٤).

المعنى: قالوا يا لوط إنا رسل ربك: قالت الملائكة تنادي رسول الله وتنبه: يا لوط إنا رسل مرسلون من الله ربك لنصرك على هؤلاء.

لن يصلوا إليك: لن يتمكن هؤلاء المجرمون من الوصول إليك أي إلى بيتك أو اقتحامه ولم يذكروا أنفسهم كأن يقولوا لن يصلوا إلينا لأنهم خارج الحديث فقوم لوط أو من جاء منهم أحقر من أن يقال عنهم لن يصلوا إلى الملائكة.

فأسر بأهلك بقطع من الليل: الإسراء السير ليلاً، فأسر يا أيها الرسول أنت وأهلك وسر بهم بجزء من الليل أو بالجزء الأخير من الليل، ولا ينظر أحد منكم إلى الوراء إما لأنه شيء مهول ما سيكون لا يحتمل فلا تلتفتوا، وهذا الظاهر من الكلام، والأولى،

وإما أن يحمل على المجاز أي لا يلتفت أحد أي لا يأسف على ما سيحدث ولا يأسى لما سيفقد من بيت وسكن فإننا سنسوي بالبلدة الأرض، أو هما معاً والله أعلم.

إلا امرأتك: ليست ممن سيخرج معك أو معكم، أما الروايات الإسرائيلية أنها التفتت فمسخت فأهون من أن تذكر أو تنقل أو يشار إليها، حتى إشارة.

إنه مصيها ما أصابهم: إنها ستكون مع الهالكين، وقول من قال إنها كانت تدل على ضيوف لوط وتعاون قومها في فحشهم فنقل لا يستحق النقل ولا أن ينظر فيه عقل.. إنما أرداها كفرها لا الفواحش وفعلها. فالمعذبون فريقان: كفار مشركون ردوا الرسالة والدين، وفريق من المجرمين المتفحشين وأصحاب الفعل المشين.. وامراته من الأولين.

إن موعدهم الصبح: إن موعد هلاك المجرمين هو الصبح، ويبدو أنه الوقت المفضل للهلاك، وحتى للغزو، أما رأيت في سورة العاديات قوله تعالى: ﴿قَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾^(١). والموعد: وقت الوعيد، والوعد أعم من الوعيد فيطلق على تعيين الشر في المستقبل، والمراد هنا موعد العذاب.

وقالت سورة القمر عن قوم لوط: ﴿وَلَقَدْ صَبَحَهمْ بِكَرَّةٍ عَذَابٌ مُّسْتَوَرٌّ﴾ [٣٨].

أليس الصبح بقریب: أليس: الهمزة للاستفهام داخله على النفي فيكون جوابها مثبتاً ﴿بَلَى﴾ فهو استفهام تقريری.

(١) وغارات عدونا علينا غالباً، ما تكون في الصباح.. ومنها حرب ٦٧، أو مهزلة ٦٧ وأهم من هذا أنه كثر في القرآن ذكر الصباح وغالباً مقترناً بمثل هذا صبحهم، فأصبح، فأصبحت كالصريم، فأصبحوا خاسرين، فأصبحوا في دارهم جاثمين، فأصبحوا نادمين فساء صباح المنظرين، إن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين.

وزيدت الباء لزيادة التأكيد في قوله تعالى في خبر ليس ﴿بَقَرِيبٍ﴾ وقريب معناها قريب لا يحتاج إلى تقريب أي وشيك غير بعيد، فما هي إلا سويعات، وتكون نهايتهم.

قال مخلف: «فأمر بأهلك: بقطع الهمزة ووصلها، من أسرى وسرى ومعناهما: السير ليلاً، وقيل: أسرى: سار أول الليل، وسرى: سار آخره، والقطع: الطائفة من الليل، أو ظلمة آخره. أ. هـ».

«أحد: أصله وحد لأنه من الوحدة، فأبدلت الواو همزة، وهو مرادف للواحد في موضعين: أحدهما وصف الباري جل علاه فيقال: هو الواحد وهو الأحد، والثاني أسماء العدد فيقال: أحد وعشرون وواحد وعشرون، ويستعمل في الجمع والمذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ وايضاً: ﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ﴾^(١).

قال ابن عاشور: «ما أصابهم» استعمال فعل الماضي في معنى الحال، ومقتضى الظاهر أن يقال: ما يصيبهم، فاستعمال فعل الماضي لتقريب زمن الماضي من الحال نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أو في الاستقبال تنبيهاً على تحقق وقوعه نحو ﴿أَفَأَمَرَ اللَّهُ﴾.

قال ابن جزي: «نہوا عن الالتفات لثلاث تنفطر أكبادهم على قريتهم، وقيل: يلتفت معناه يلتوي. إِلَّا أَمْرُكَ قَرِيبٌ بالنصب والرفع، فالنصب استثناء من قوله «فأمر بأهلك»، فيقتضي هذا أنه لم يخرجها مع أهله، والرفع بدل من «ولا يلتفت

منكم أحد»، وروي على هذا أنه أخرجهما معه^(١). قلت: وعجب لا أعجب منه أن نترك النص ونتمسك بروي وقيل ونقلوا. فمتى ينتهي هذا؟

من دروس الآية ٨١:

- ١- الرسول لا يفارق ميدان الدعوة إلا في اللحظة الأخيرة.
- ٢- لا يترك المولى حجة لأحد من هنا جعل الرسل يغادرون قومهم بمقدار الوقت الكافي لنجاة الرسل ومن آمن معهم ليحل العذاب على من بقي.
- ٣- الصبح غالباً ما يقترن عذاب الكافرين به حتى أصبح عرفاً لغوياً واستعمالاً قرآنياً أن يقرن العذاب بالصبح.
- ٤- نوح فقد في العذاب الذي حل بقومه ابنه وزوجه ولوط كانت زوجته من المعذنين لنعلم أنه لا يغني أحد عن أحد شيئاً ولا المرسلون.
- ٥- النجاة تكون من المؤمنين قاب قوسين ووط يتمنى القوة لينهي طغيان قومه ولم يكن يعلم أن الهلاك منهم ونجاة المؤمنين بين عشية وضحاها.

الآية ٨٢:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَنِهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ

مَنْشُورٍ﴾

الربط والمناسبة: افتتحت عدد من الآيات في قصة لوط بهذه الصيغة ﴿جَاءَ﴾ وتصريفاتها، ففي الآية ٧٧ ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ والآية ٧٨ ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ﴾ والآن هذه ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ هذا أمر لفظي.

(١) ابن جزى، التسهيل لعلوم التنزيل، ج ١، ص ٣٧٦.

أما الربط المعنوي والأهم فهو أن لوطاً أبلغ بخطه إهلاك قومه وتوقيت التنفيذ وأمر بمغادرة المكان لأنه سيدك، وظل التنفيذ، والآن نتحدث الآية عن مجيء هذا الوقت فوق الوعد ووقع عليهم المحذور.

وهذه الآية (١٢) كلمة و(٥٦) حرفاً وترتيبها (١٥٥٥).

المعنى: فلما جاء أمرنا: عبر بقاء التعقيب دون ولما للإشارة إلى سرعة الأمر، وعبر بلما وهي تفيد السرعة كذلك، وعبر بجاء وهي تفيد القرب المفيد بدوره السرعة، وأضاف الأمر إليه سبحانه بنون العظمة ليفيد القدرة وهي تؤكد سرعة التنفيذ فكان النص التقى كل حرف فيه وكل كلمة لإفادة المعنى المطلق أو السرعة المطلقة وتعزيزه وتقويته.

جعلنا عاليها سافلها: قلبنا وضعها عقاباً على قلبهم فطرة الله من الزواج بين الرجال والنساء إلى الفحش والشذوذ فقلب الله وجودهم ومساكنهم، فأصبح الأعلى أسفل والعكس^(١).

وأطرنا عليها حجارة من سجيل منضود: ورجنا هذه القرية بحجارة تساقطت عليهم كالطر، لكنها من طين متحجر مسجلة عليه أسماؤهم ومرتب ترتيباً^(٢).

وقد قال الله تعالى عن هذه الحجارة في سورة الذاريات: ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ

طِينٍ ۖ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [٣٣-٣٤].

(١) قول الزمخشري في الكشاف بالفاظي أن جبريل وضع جناحه تحتها فقلعها فرفعها حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب ثم قلبها عليهم فهذه تفاصيل لا صحة لها ولا حاجة، راجع الكشاف ج ٢ ص ٢٨٤
(٢) قال الزمخشري في الكشاف: سجيل معربة (بل عربية صحيحة)، منضود: نضد في السماء نضداً معداً للعذاب.

قال الشيخ مخلوف: «جعلنا عاليها سافلها: أي قلبنا قراهم، وكانت عند حمص ببلاد الشام^(١) وأكبرها سدوم^(٢)، وهي المؤتفكات المذكورة في سورة التوبة (أي القرى التي تفتري الإفك.. وترتكب الفحش) وأمطرنا عليها: وأمطرنا على هذه القرى بعد قلبها ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ وهو حجر وطين مختلط، وهو لفظ عربي يطلق على كل شديد صلب، وقيل معرب. منضود: متتابع في النزول، من التضد، وهو وضع الشيء بعضه على بعض يقال: تضد متاعه ينضده، جعل بعضه فوق بعض، كنضده فهو منضود ونضيد ومنضد. أ. هـ.

قال ابن عاشور: «المعنى: أن القرية انقلبت عليهم انقلاب خسف حتى صار عالي البيوت سافلاً، أي وسافلها عالياً، وذلك من انقلاب الأرض بهم، وإنما اقتصر على ذكر جعل العالي سافلاً لأنه أدخل في الإهانة».

قال أبو السعود: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا» أي وقتُ عذابنا وموعده وهو الصبح «جَعَلْنَا عَالِيَهَا» أي عاليَ قُرى قومِ لوطٍ وهي التي عُبِّرَ عنها بالمؤتفكات... «سَافِلَهَا» أي قلبناها على تلك الهيئة وجعل عاليها مفعولاً أولً للجعل وسافلها مفعولاً ثانياً له وإن تحقق القلبُ بالعكس أيضاً لتحويل الأمر وتفتيح الخطب لأن جعلَ عاليها الذي هو مقارُهم ومساكنهم سافلها أشدُّ عليهم وأشقُّ من جعل سافلها عاليها وإن كان مستلزماً له...

وإسنادُ الجعلِ والإمطارِ إلى ضميره سبحانه باعتبار أنه المسبَّبُ لتفخيم الأمرِ وتحويلِ الخطب. «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا» على أهل المدائنِ أو شُدَّاهم. «حِجَارَةً مِّن

(١) التحديد لا مكان له في هذا المقام، لا حمص ولا البحر الميت، فتحديد المكان بدقة غير متاح الآن، وليت الأمجاد الأثرية تساعد في هذا بدل رمي الأقوال على عوامها.

(٢) سدوم وعمورة حكايات إسرائيلية لا نثق بها ولا نرونها ولا نعتمد.

سَجِيلٍ» من طينٍ متحجرٍ كقوله: حِجَارَةٌ مِّنْ طِينٍ... وقيل: هو من أسجله إذا أرسله أو أدرّ عطيته والمعنى من مثل الشيء المرسل أو مثل العطية في الإدرار، أو من السَّجَلِ أي مما كتب الله تعالى أن يعذبهم به، وقيل: أصله من سَجَنَ أي من جهنم فأبدلت نونه لاماً. «مُنْفُودٌ» نُضِدَ في السماء نُضْدًا معدًّا للعذاب، وقيل: يُرْسَلُ بعضُهُ إثرَ بعضٍ كقِطَارِ الأمطارِ^(١).

من دروس الآية ٨٢:

- ١- لما قلب قوم لوط فطرة الله وتحولوا إلى الشذوذ جعل الله عقابهم قلب بلدتهم عاليها سافلها والجزاء من جنس العمل.
- ٢- أصل المطر رحمة لكن الله جعل المطر على قوم لوط حجارة وهو جزء من قلب نظام الكون في مقابل قلب الفطرة.
- ٣- شدة العذاب على قدر شدة الكفر وتحدي قوانين الله وفطرته.
- ٤- كل شيء عند الله في كونه بمقدار فإذا جاء الأجل لا يتأخر.
- ٥- كم يجعل الحلم الناس يتسافهون ويتطاولون ويتحدون الله، ويتجاوزون على رسله.
- ٦- هل يقابل حلم الله إلا بالشكر والويل لمن قابله بالتحدي والكفر.
- ٧- كل كلمة في القرآن عربية.
- ٨- تأخرنا وتخلفنا في الأبحاث والكشوف الأثرية ولو اجتهدنا فيها لكانت أحسن معين في تفسير الكتاب المبين والشهادة له.

الآية ٨٣:

﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٣)

الربط والمناسبة: هذه الآية تنمة الحديث الذي في الآية السابقة عن الحجارة التي أرسلها الله على قوم لوط، إذ قال عنها هناك أنها ﴿مِنْ سِجِّيلٍ مَّنْصُورٍ﴾ وهنا أكمل وصفها ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ فالنسق واضح كالشمس في رابعة النهار.

وهذه الآية (٨) كلمات و(٣٠) حرفاً وترتيبها (١٥٥٦).

المعنى: مسومة عند ربك: معدة عند الله، معلمة أي محددة كل حجر يرسل على من، وأضاف لفظ الرب إلى ضمير خطابه عليه الصلوات تكريماً وتشريفاً.

وما هي من الظالمين ببعيد: وما هذه الحجارة من كل ظالم ببعيد سواء عني به كفار مكة أو مطلق الظالمين في مطلق الزمان والمكان والإنسان والأقوام، فلا داعي لحصرها بأهل مكة.

مع أن الحجارة لم تتكرر فيما نعلم^(١)، لكن القصد أن مثل هذا العذاب أو ما هو على شاكلته معد وقريب من كل ظالم، سواء ظلم العباد أو ظلم نفسه أو ظلم الحقيقة بادعاء آلهة مع الله فالشرك أساس الظلم وأساس البلاء.

قال مخلوف: «مسومة: معلمة في حكم الله بما تتميز بها عن حجارة الأرض، وقد عذب بها أصحاب الفيل. أ. هـ».

من دروس الآية ٨٣:

١ - كل ظالم نهايته مخوفة مهولة.

(١) إلا في قصة الفيل وهذه ليست قصة قوم مع رسولهم ولكنها قصة غزو معتد يريد أن يتناول على بيت الله فكانت النتيجة أن الله جعل كيدهم في تضليل ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ ﴿جَمَلَهُمْ كَمَثَلِ غَزَاةٍ﴾.

٢- الظلم أنواع ودرجات لكنه كله خطير مهلك.

٣- خراب الديار أغلبه مرتبط بالظلم ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾.

٤- عقاب قوم لوط لن تنجو منه الحضارة الغربية التي تتحدى الله اليوم وتتحدى قيم الدين والأخلاق وتتحدى الفطرة.

وليس بالضرورة أن تمطر بالحجارة فقد يرسل الله عليهم العواصف المدمرة والزلازل والأمراض كالإيدز المتسبب بالدرجة الأولى عن الشذوذ.. والسبل الذي تطور الآن فصار عصياً على الأدوية. والمفاجآت لا تنتهي.

الآية ٨٤:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَعُكُمْ رَبُّكُمْ أَنَّ تَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَانَكُمْ يُخَوِّرُ إِلَهِِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾

الربط والمناسبة: كلما فرغ السياق الكريم من قصة افتتح قصة جديدة فبعد نوح وقومه جاءت قصة هود وقومه ثم صالح وقومه ثم جاءت قصة إبراهيم وبعدها أو من ضمنها قصة لوط مع قومه وكانت قصة إبراهيم متميزة من حيث إن الملائكة جاءت بالبشرى بهلاك قوم لوط ثم بشرى الولد، ولم تذكر موقف القوم الذين دعاهم إبراهيم، والآن قصة شعيب مع قومه مدين أو في مدين وافتتحها بالعطف على النسق السابق فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا﴾ دون أن يقول: «ولقد أرسلنا..» لأن القصص كله نسق واحد، فاكتمى بعطف قصة على القصص السابق.

وهذه الآية (٢٦) كلمة و(١٠٩) حرفاً وترتيبها (١٥٥٧).

المعنى: وإلى مدين أخاهم شعيياً: الواو للعطف، عطف قصة على قصة، أو للاستئناف، كأن سائلاً سأل وماذا بعد هلاك قوم لوط؟ فجاءه الجواب.. وقدم ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ﴾ على ﴿أَخَاهُ شُعَيْبًا﴾ ليس للأهم وإنما للترتيب الوجودي، وقدم علة الإرسال على الإرسال، وعلته وجود قوم فشا فيهم الشرك والمعاصي فاقضى لإرسال رسول أخاهم شعيياً: أخوهم الذي هو منهم ويعيش بينهم وفيهم عمره كله، فهو منهم وأوسطهم ووسطهم، ليس مجهولاً ولا منكوراً.. شعيياً: وهو من أنبياء البيئة العربية، ومدين جنوب الأردن شمال الجزيرة والله أعلم.

قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره: هذا هو جوهر الدين وملخصه ومحوره أن يفرد الناس ربهم بالعبادة، فلا يعبدوا معه أحداً.

والعبادة كما نكرر دائماً مفهوم مطلق شامل يشمل نشاط الحياة كلها أو كله.

﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

ما: نافية بمعنى ليس وقدم لكم للاهتمام وزاد من كما يقال في النحو وإلا فما من زيادة في القرآن ولا نقصان، وإنما وفاء باللفظ والمعنى.

ومن هذه تفيد الإطلاق، وكأنها مرت على كل من ادعى إلهاً سوى الله فنفته واستبعدته.

وهي كثيرة في القرآن في النفي والإثبات، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾.

واقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَدْرُسُهَا﴾.

وكذلك: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

﴿وَمَنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا تَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

ولا نحصى كثرة ما ترددت، فنكتفي بنماذج ذكرناها آنفاً.

ونكر لفظ ﴿إِلَهِ﴾ في سياق النفي ليفيد النفي المطلق ومطلق النفي.

غيره: ورفعت غيره على أنها اسم ليس أو ما التي بمعناها وعملها، والضمير المضاف إليه أي إلى لفظ غير يعود على الله.

ولا تنقصوا المكيال والميزان: كل نبي من الأنبياء عليهم السلام، كان بعد الدعوة إلى تنقية العقيدة والعبادة وتخليصها لله عز وجل، يتحدث عن مشكلة اجتماعية رئيسة متفشية في قومه، وقوم شعيب وهم مدين، فشا فيهم تطفيف الكيل والميزان، فهي المشكلة الأبرز بعد العقيدة والعبادة، فيقول لهم كما يبين هذا القسم من الآية بصيغة النهي: ولا تنقصوا، أي تحسروا ولا تبخسوا الناس في كيلكم لهم ما يكال كالقمح والشعير والحبوب حيث كانت تكال بالصاع أو نحوه... ولا تنقصوا ولا تطففوا وزن الأشياء التي توزن كالثمار وباقي الموزونات من حاجيات الناس.

إني أراكم بخير: يقول شعيب لقومه مؤكداً: إني أراكم بخير أي في سعة ومجوحة ينبغي أن يحافظ عليها، بالتزام منهج الله، ولا تغضبوه سبحانه فيسلبكم ما أنتم فيه من رخاء، ثم إن ما أنتم فيه من خير يغنيكم عن الأساليب الدنيئة من نقص الناس وتطفيف الموازين وبخس الحقوق. والباء في «بخير» للملابسة.

وإني أخاف عليكم عذاب يوم مippet: أكد مرة أخرى مع قصر الفاصل أعني

قوله ﴿وَرَبِّ﴾ لإظهار مزيد اعتناء واهتمام علمهم يتأثرون وينزجرون.

أخاف عليكم: إني حريص عليكم وأخشى أن يوقعكم ما أنتم فيه من شرك وما أنتم فيه من تطفيف فيما يخشى ويحذر ويخاف، من عقاب الله.

عذاب يوم محيط: هذا الذي يخشاه على قومه، وقد أضاف العذاب إلى اليوم ووصف اليوم بوصف محيط أي محيط بكم أو ممتد هذا العذاب طيلة هذا اليوم.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «تبدو علاقة عقيدة التوحيد والدينونة لله وحده بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء ومكافحة السرقة سواء قام بها الأفراد أم قامت بها الدول، فهي بذلك طمانة إنسانية أفضل، وضمانة للعدل والسلام في الأرض بين الناس وهي الضمانة الوحيدة التي تستند إلى الخوف من الله وطلب رضاه فتستند إلى أصل ثابت».

قال ابن عاشور: «أمرهم بثلاثة أمور: أحدها: إصلاح الاعتقاد، وهو من إصلاح العقول والفكر.

وثالثها: صلاح الأعمال والتصرفات في العالم بأن لا تفسدوا في الأرض.

ووسط بينهما الثاني: وهو شيء من صلاح العمل خص بالنهاي لأن إقدامهم عليه كان فاشياً فيهم حتى نسوا ما هم فيه من قبح وفساد، وهذا هو الكف عن نقص المكيال والميزان، وابتدأ بالتوحيد لأنه أصل الصلاح».

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «أمرهم بالتوحيد أولاً لأنه ملاك الأمر ثم نهاهم عما اعتادوه من البخس النافي للعدل المخل بحكمة التعاوض، فقد كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف، فأمرُوا بالإيمان إقلاعاً عن الشرك، وبالوفاء نهياً عن التطفيف»^(١).

قال الشيخ حسنين مخلوف: «ولى مدين: أي وأرسلنا إلى مدين - وهو ابن إبراهيم عليه السلام- (هذا فيما أرى لا دليل عليه ولا سند له إلا النقل عن الإسرائيليات ولا أراها مرجعاً بحال ولا مصدر معلومات ولا ثقة فيها بإطلاق..

ورحم الله الشيخ فما كان أغناه عن هذا وتفسيره قيم لا يحتاج إلى هذه الزيادات، ثم إن القرآن لم يحدثنا إلا عن إسماعيل وإسحق ومن وراء إسحق يعقوب فمن أين جئتم بمدين؟».

قال الشيخ: «سميت به (أي مدين) القبيلة، وكانوا أهل كفر وبخس للمكيال والميزان، فدعاهم إلى التوحيد، ونهاهم عن الخيانة فيهما (أي الكيل والميزان) وعن السدي وعكرمة أن شعيب أرسل إلى أمتين: أهل مدين الذين أهلكوا بالصيحة، وأصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة، وأنه لم يبعث نبي مرتين إلا شعيب عليه السلام، واختار ابن كثير أنهما أمة واحدة أخذتهم الرجفة والصيحة، وعذاب يوم الظلة أي السحابة، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٩١] ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٩٤] ﴿فَأَخَذَهُم عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]»^(١).

قال البيضاوي وغيره في صفة يوم: وصف اليوم بالإحاطة وهي صفة عذاب لاستماله عليه.

قال الزمخشري: «إني أراكم بخير» يريد بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون، أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه، كقول مؤمن آل فرعون: ﴿يَقُولُ لَكُمْ أَلَيْسَ لَكُمْ ظَهْرِي فِي الْأَرْضِ قَمَنَ يَصُدُّنَا مِنْ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩].

ويرى الدرة أنه صفة عذاب، فهو منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بالكسرة التي جلبها حركة الجوار قبله^(٢).

(١) صفوة التفاسير ص ١٩٦، ٢١٣، ٢٩٥.

(٢) الدرة المجلد السادس ص ٣٥٨.

قال البيضاوي: «أمرهم بالتوحيد أولاً، فإنه ملاك الأمر، ثم نهاهم عما اعتادوه من البخس المنافي للعدل المخل بحكمة التعاوض. «إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ» بسعة تغنيكم عن البخس، أو بنعمة حقها أن تتفضلوا على الناس شكراً عليها لا أن تنقصوا حقوقهم، أو بسعة فلا تزيلوها بما أنتم عليه وهو في الجملة علة للنهي.

«وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ» لا يشذ منه أحد منكم. وقيل عذاب مهلك من قوله: «وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ». والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال، ووصف اليوم بالإحاطة وهي صفة العذاب لاشتماله عليه»^(١).

من دروس الآية ٨٤:

- ١- توحيد الله وعبادته وإفراده بهذه العبادة جوهر كل الرسالات.
- ٢- كان كل نبي من الأنبياء عليهم السلام يشير بعد توحيد الله إلى مشكلة اجتماعية فاشية متشرة في قومه ليرهن على لزوم التوحيد لأن هذه المشكلات والمفاسد ناشئة عن الابتعاد عن توحيد الله وعن ترك عبادته.
- ٣- ضرورة شكر النعم ورعايتها وإلا فإن كفرانها مؤذن بزوالها.
- ٤- الله حليم صبور وهذا الحلم يجعل غير العقلاء من الأقوام يتمادون في غيهم حتى يقعوا في دائرة العذاب فيأخذهم الله بذنوبهم.
- ٥- العقيدة في الله وثيقة الصلة بالأمانة في التعامل مع الناس.
- ٦- كان شعيب عليه السلام يسمى خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه.

الآية ٨٥:

﴿وَيَقُولُوا أَأُفِرُّوا بِالْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ^١ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٥)

الربط والمناسبة: نهى شعيب قومه عن نقص المكيال والميزان في الآية السابقة، وفي هذه الآية يأمرهم بالسلوك السوي والبديل المرضي عما هم فيه من نقص، وذلك بالإيفاء في المكايل والموازين، ولم يكتفِ بالنفي، بل أضاف إليه الإيجاب بلزوم الوفاء فقال: ﴿أُفِرُّوا بِالْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ﴾.

وهذه الآية (١٤) كلمة و(٧٣) حرفاً وترتيبها (١٥٥٨).

المعنى: ويا قوم: هذا هو النداء الثاني من ضمن ٦ نداءات كررها شعيب لقومه تحبياً وتلطفاً وتألفاً وتودداً ولا جدوى، وهو بهذه الكلمة يا قوم يستثير في نفوسهم رابطتهم به وربطته بهم، والقراية التي هي إحدى الوشائج التي تربط الناس، ولا ريب أن أعلى هذه الوشائج الأخوة في الله، ولكنها لا تعارض مع الوشائج الأخرى، هذا الأصل، أما إن تعارضت لعارض من العوارض، فلا يتقدم على الرابطة في الله رابطة، وصدق من قال رحمه الله: جنسية المسلم عقيدته^(١).

أوفوا المكيال والميزان بالقسط: نهى عن التطفيف في الآية السابقة والآن يأخذ بنقيضه وهو الوفاء والتمام سواء كلت لنفسك أو لغيرك.

والمكيال ما تكال به الأشياء من حبوب ونحوها، وتكال الأرض كذلك أي تقاس وكذا القماش وكثير من الأشياء كعدادات الوقود وعدادات السيارات.. فلا تتلاعبوا بها.

(١) هو صاحب الظلال والعالم وقد عابوها عليه وهي فيما نرى حتى لا مراة فيه إنما الآفة الهوى أو سوء الفهم!.

والميزان: ما توزن به الأشياء الموزونة، من ميزان الذهب، والمعادن النفيسة إلى الأشياء الخسيسة، أي في كل الموزونات زنها بالقسط أي العدل.

ولا تبخسوا الناس أشياءهم: ولا تنقصوا من قيمة أشياء الناس، وإن كانت كلمة أشياءهم قد تنصرف في الذهن إلى الماديات لكن البخس يكون فيها وفي المعنويات، والبخس النقص من قيمة الشيء، وهذا معلوم في المادة فإن كان مشترياً أنقص الثمن، وإن كان بائعاً أغلى الثمن، وإذا كان الشيء يساوي مئة فلا تقل إنه لا يساوي خمسين أو سبعين مثلاً، ولا مانع من المجادلة في الأسعار، لكن هذا شيء والبخس شيء آخر، خاصة ممن يملكون زمام الأسواق كاحتكارات الشراء من المزارعين أو من أصحاب المصانع الصغيرة والمشاريع المحدودة، فينتقص كما يشاء لأنه يحتكر السوق، ومن هنا فإن هؤلاء يشترون الأشياء بأقل الأثمان ثم يبيعونها بأعلى الأثمان وهذا في الاحتكارات واضح متجلاً ظاهراً.

وقد تبخس بضاعة امرئ بزعم أنها مقلدة أو مصنوعة في بلد ليس هو بلد المنشأ الحقيقي، ومعلوم رداءة تلك الصناعة، وإنما القصد بخس السلعة، وقد تظهر أن السلعة غير مطلوبة أو قليلة الاستعمال في بيئة معينة كل ذلك لتبخس قيمتها، خاصة فيما يعرف بتلقي الركبان، أي ممن هم من غير أبناء المنطقة. وصور البخس لا تحصى، فقد تقول إن البضاعة غير مطابقة للمواصفات أو ألوانها غير مرغوبة أو..

ولا تعثوا في الأرض مفسدين: وهذه أعم من السابق ويشمله.

ولا تعثوا: عاث يعيث عيثاً بمعنى سعى في الأرض فساداً أو نشر الفساد في الأرض، والأرض عامة، لكن يقصد منها الخصوص، بمعنى الأرض التي تسكنونها وتعيشون فيها وتنتقلون فيها في أسفاركم وتجاراتكم. إما بمعنى لا تقطعوا الطريق على الناس، وإما التعرض بالأذى لهم من سرقة أو ابتزازهم مقابل الارتفاق أو

المروء، أو إسماعهم ما يكرهون إذ يمرون، أو نحو ذلك، والصور لا تنتهي. والكلمة قيلت لبني إسرائيل كما في سورة البقرة، وقيلت لمدين في العنكبوت.. وفي الأعراف قال لهم نبيهم: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [٨٥] بمعنى عدم الإخلال بما أودع الله في الأرض من قوانين وتوازنات.

ولاحظ أن ما في الأعراف متناسق مع ما ورد في السياق قبلها فقد جاء في الآية ٥٦ أي قبل حوالي ثلاثين آية في السورة ذاتها أي الأعراف قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فتأمل انساق القرآن.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «بخس الناس أشياءهم فوق الظلم يُشيع في نفوس الناس مشاعر سيئة من الألم أو الحقد أو اليأس من العدل والخير وحسن التقدير، وكلها مشاعر تفسد جو الحياة والتعامل والروابط الاجتماعية، ولا تبقي على شيء صالح في الحياة».

يقول الشيخ محمد الدرة: «وقع التكرار في الآية وسابقتها من ثلاثة أوجه، لأن الأمر بإيفاء الكيل والميزان هو مفهوم النهي عن نقصهما.. وذلك أن القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح وهو ما أفادته الجمل الثلاث احتيج في المنع منه إلى المبالغة في التأكيد. والتكرار يفيد شدة الاهتمام والعناية بالتأكيد، فلهذا كرر ذلك ليقوي الزجر والمنع من ذلك الفعل».

قال البيضاوي رحمه الله: «صرح بالأمر بالإيفاء بعد النهي عن ضده مبالغة وتنبيهاً على أنه لا يكفيهم الكف عن تعمد التطفيف، بل يلزمهم السعي في الإبقاء ولو بزيادة لا يتأتى دونها»^(١).

وأوفوا الكيل: قال مخلوف: «أمر بإقامة العدل في التعامل، وإيفاء الكيل والوزن، بالعدل إتمامهما بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان ولا بخس. ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب الزيادة، والكيل والوزن: مصدران أريد بهما ما يكال وما يوزن به، أو المكيل والموزون.

بالقسط: بالعدل دون زيادة ولا نقصان.

ولا تبخسوا الناس أشياءهم: ولا تنقصوهم مما استحقوه شيئاً وهو تعميم بعد تخصيص، ليشمل غير المكيل والموزون، كالزروع والمعدود، ويشمل الجودة والرداءة، يقال: بخسه حقه: إذا نقصه.

ولا تعثوا في الأرض مفسدين: ولا تسعوا في الأرض مفسدين.

وقال مخلوف في معنى تعثوا في تفسيره آية سورة البقرة: أي لا تتمادوا في الفساد حال إفسادكم في الأرض، والمقصود التَّهْيُّ عما كانوا عليه من التماذي في الفساد، يقال: عثي، كرضي، عَثُوراً إذا أفسد أشد الإفساد. أ. هـ^(١).

قال الزمخشري: «نُها أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان، لأن في التصريح بالقبيح نهياً على المنهي وتعبيراً له ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه وجيء به مقيداً بالقسط، أي ليكن الإيفاء على وجه العدل».

قال ابن عاشور: «سلك في نهيمهم عن الفساد مسلك التدرج فابتدأ بنهيمهم عن نوع من الفساد فاش فيهم وهو التطفيف، ثم ارتقى فنهاهم عن جنس ذلك النوع وهو أكل أموال الناس، ثم ارتقى فنهاهم عن جنس الأعلى الفساد الشامل لجميع

أنواع الفساد وهو الإفساد في الأرض كله وهذا من أساليب الحكمة في تهينة النفوس بقبول الإرشاد والكمال.

قال النسفي: «ويا قوم أوفوا المكيال والميزان» أتمهما «بالقسط» بالعدل نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول لزيادة الترغيب فيه، وجيء به مقيداً بالقسط أي ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان «وَلَا تُبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ» البخس النقص كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء فنهوا عن ذلك «وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ» العنى والعبث أشد الفساد نحو السرقة والغارة وقطع السبيل ويجوز أن يجعل البخس والتطفيف عيثاً منهم في الأرض»^(١).

من دروس الآية ٨٥:

- ١- كل قوم من أقوام الأنبياء عليهم السلام كان يعاني من الشرك من عبادة غير الله، وكان هناك مشكلات اجتماعية.
- ٢- المكيال والميزان والتلاعب بها ظلم وإنما وجدت هذه المعايير لضبط الحقوق، فنقصها تضييع لهذه الحقوق.
- ٣- نقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم والإفساد في الأرض من أصل واحد، وهي من علل المجتمعات.
- ٤- الدين ومنهج الأنبياء وسيلة لإحقاق الحقوق بل لا تحق إلا بهذا المنهج الإلهي.

(١) النسفي، مدارك التنزيل، ج ٢، ص ٧٨. قلت: ولاحظ تكرار العبارات بين المفسرين علامة النقل.

الآية ٨٦:

﴿يَقِئْتَ اللَّهَ خَيْرَ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمَحْفِظٍ﴾ (٨٦)

الربط والمناسبة: هذه تنمة كلام شعيب لقومه فقد ركز في الآيتين السابقتين بعد التوحيد وعبادة الله على عدم نقص المكاييل والموازين بل يجب وفاؤها بالقسط، بعد هذا جاءت هذه الآية تبين أن العاجلة لا ينبغي أن تنسي الناس الآخرة الباقية فهو هنا يذكرهم بما يبقى.

وهذه الآية (١١) كلمة و(٤٢) حرفاً وترتيبها (١٥٥٩).

المعنى: بقية الله: تعبير عجب، ولعله حسب تعبيرات ابن عاشور من مبتكرات القرآن، أي مما سمعه العرب لأول مرة.

والإضافة إلى الله لتعظيم شأن هذه البقية، ومعنى البقية ما يبقى عند الله.. إما هو وإما أجره.

واللافت رسم بقية بقاء مفتوحة للإشارة إلى سعتها وامتدادها وبقائها.. فالرسم منسجم مع المعنى، وهو بهذا فيما نرى توقيف فالقرآن محفوظ بكل صور الحفظ ومن ضمنها رسمه فليس هذا الرسم متروكاً لأذواق الناس.

خير لكم: أفضل لكم وأنقى وأطهر وأكثر بركة وأحسن وأبعد عن التعكير وأبقى وأصفى للضمير، ولا تحبون لأنفسكم إلا هذا، فلم تحبذونه أي ما لا تحبونه لأنفسكم، لم تحبونه لغيركم؟ إنه التطفيف.

قال مخلوف: «بقية: ما أبقى الله لكم من الحلال، بعد إيفاء الحقوق بالعدل، خير لكم مما تأخذونه بالحرام، وبقية اسم مصدر من بقي ضد في. أ. ه».

إن كنتم مؤمنين: أي لا تستشعرون هذا المعنى إلا إذا كنتم مؤمنين، أو كتب لكم أجر هذا الوفاء بالمكايال إن كنتم مؤمنين. فمن وفى بلا إيمان فلا أجر له في

الآخرة، وإنما قد تروج تجارته في الدنيا، فهذا جزاؤه، وهذا الذي قصده، فلا يخس ولا ظلم.

وما^(١) أنا عليكم بحفيظ: ما بمعنى ليس فهي النافية وتعمل عمل ليس، ولذا دخلت الباء على خبرها، وأنا اسمها، يقصد النبي الكريم ذاته إنه ليس حفيظاً عليهم.

عليكم: على للاستعلاء هذا أصل معناها، أي ليس لي عليكم قهر ولا نفوذ ولا سيطرة ولا سلطان، وقدم عليكم على حفيظ للاهتمام.

بحفيظ: الباء هي التي تدل على خبر ليس، ويقول النحويون تزداد على خبر ليس للتوكيد، وفي الحق الأكيد أنه لا مزيد على نص الكتاب المجيد، وعن هذا لا نحيد.

والحفيظ صيغة فعيل أي شديد الحفظ واسعه دقيقه.. أو حفيظ مطلقاً من أدنى الدرجات في الحفظ إلى أعلاها.. فلست مهيمناً عليكم ألزكم ما أعتقد وما أراه حقاً وشرعاً..

قال مخلوف: «بحفيظ: رقيب فأجازيكم بأعمالكم. أ. ه».

قال ابن عاشور: «المعنى: إبقاء الله عليكم ونجاتكم من عذاب الاستئصال خير لكم من هذه الأعراض العاجلة السيئة العاقبة فيكون تعريضاً بوعيد الاستئصال وكل هذه المعاني صالحة هنا».

قال الزمخشري: «فإن قلت: بقية الله خير للكفرة لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس والتطفيف فلم شرط الإيمان؟ قلت: لظهور فائدتها مع الإيمان وحصول

(١) إن اعتبرنا (ما) تميمية فالضمير مبتدأ، وتكون الباء زائدة في خبره، وعلى الاعتبارين فالجملة الاسمية في محل نصب حال من كاف الخطاب والرباط الواو والضمير، وهو أولى من اعتبارها مستأنفة، الدرر المجلد السادس ص ٣٦٠.

الثواب مع النجاة من العقاب، وخفاء فائدتها مع فقدته لانغماس صاحبها في غمرات الكفر وفي ذلك استعظام للإيمان وتنبيه على جلال قدره وشأنه.

﴿يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرَ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يعني ما أبقي الله لكم من الحلال بعد إبقاء الكيل والوزن خير لكم مما تأخذونه من التطفيف».

وقال مجاهد: «طاعة الله خير لكم، وقيل بقية الله ما أبقاء لكم من الثواب في الآخرة خير لكم مما يحصل لكم في الدنيا من المال الحرام»^(١).

وأقول: والمعنى أشمل مما قيل ويشمل كل ما قيل.

«بقية الله» ما يبقى لكم من الحلال بعد التنزه عما هو حرام عليكم»^(٢).

من دروس الآية ٨٦:

١ - يجب الناس الفانية العاجلة ويزدرون الباقية الآجلة، وهذا من فساد المقاييس والموازن.

٢ - لو وزن الناس الآخرة وزنها لاستقامت كل شؤون الحياة.

٣ - الإيمان يفجر ينابيع الحكمة والرشد في النفس الإنسانية فإن لم يفعل فثم خلل في نوعية هذا الإيمان، أو تغلغله في نفس الإنسان والأصل أنه الشجرة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

٤ - الرسل عليهم السلام، ومن بعدهم كل الدعاة ممن هم على خطاهم لا يملكون سلطاناً على من يدعونهم، إلا سلطان الحجة والإقناع، فالإنسان يختار ما يشاء، ويتحمل نتيجة هذا الاختيار.

(١) الدرة المجلد السادس ص ٣٥٩.

(٢) التفسير، مدارك التنزيل، ج ٢، ص ٧٨.

الآية ٨٧:

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَقُ أَنتَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧)

الربط والمناسبة: انتهت بالآية السابقة الجولة الأولى لشعيب في دعوته قومه، وفي هذه الآية يبدأ القوم ردهم، وهو المتوقع منهم ومن أمثالهم فهذه شنشنة معروفة في الأقوام، فقد استخدموا السخرية في قولهم ﴿أَسْلَوْنَاكَ﴾ والإصرار على المألوف والعناد المزدول بقولهم: ﴿أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ والعقوبة الرأسمالية التي تؤمن بالحرية المطلقة لرأس المال حتى يتم لهم الهيمنة على اقتصادات الناس والدول والمجتمعات ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَقُ﴾.

وهذه الآية (٢٠) كلمة و(٨١) حرفاً وترتيبها (١٥٦٠).

المعنى: قالوا: أي قال قوم شعيب في إجابتهم على دعوة شعيب وهي الدعوة التي تمتلئ حقاً وحرصاً وحكمة... ولكن الرد يقطر عنجهية وحقافة وعصية.

يا شعيب: والسياق يبين أن النداء ليس للتحجب ولا للتقرب ولا للتودد والخصوصية، وإنما للاستخفاف، مع أنه قبل النبوة مبجل معروف، كما هو شأن كل الأنبياء، فلا يختار الله إلا كل كامل فاضل عاقل.. لرسالته ولقيادة العباد إليه.

أصلاتك: الهزمة للاستفهام، ولاحظ أنهم تركوا الدعوة كلها وأغضوا عن التوحيد والعبادة واهتموا وركزوا على أشياء بعينها وهي ترك ما عليه الآباء أو حرية رأس المال.

وعبروا عن الدين والمنهج والدعوة بكلمة صلاتك وذلك إما للاستخفاف بها والسياق يظهر هذا أو أنهم منطلقون من إدراك موقع الصلاة، والأول أظهر وأولى

بحسب السياق الواقعي التاريخي، وسياق النص أو الآية وإضافة الصلاة إلى ضمير الخطاب العائد إلى شعيب يظهر ويؤكد أن المقام مقام استخفاف وهزاء وانتقاص، وحاشا لمقام رسل الله.

تأمرك: تطلب منك وتقتضيك هذا.. وجعلوا كأن الصلاة تطلب وتأمر أن نترك ما يعبد آبائنا: تعظيم الآباء واتباعهم دأب قديم عند الأمم. أن نترك: أن نتخلي عن عبادة ما يعبد آبائنا وأجدادنا وأسلافنا. والمقصود بآبائنا أي الأجيال المتعاقبة من السابقين.

أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء: حرية رأس المال وأن يفعل ما يريد مرض قديم جديد، ويستطيع أصحاب رؤوس الأموال أن يفرضوا القوانين التي يريدون، وهنا يقول قوم شعيب له هل من مقتضى صلاتك أن تقيد حريتنا في التصرف بأموالنا كما نشاء؟ وهم يقصدون بالحرية أي التي لها مطلق التصرف حتى لو أضرت بمصالح الآخرين.

إنك لأنك الحليم الرشيد: وهذه صيغة قد يحدد معناها السياق كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ فالمقصود الذليل المهان، فهم يقولون أنت الحليم يقصدون النقيض فمن قيد رأس المال وحرته ليس حليماً ولا رشيداً، أو إنك كنت في نظرنا الحليم الرشيد فلما دعوت إلى ما دعوت تغيرت نظرنا إليك، فقد كنت الحليم الرشيد العاقل المسموعة كلمته، أما الآن فبعد أن دعوت إلى ما دعوت إليه، فقد تحولت نظرنا إليك، واعتبارنا إياك.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن الجاهلية التي نعيش فيها اليوم ليست أفضل ولا أذكى ولا أكثر إدراكاً من الجاهلية الأولى، وإن الشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الذي تزاوله البشرية بمجملتها».

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «روي أنه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة، مواظباً على العبادة، ويقول: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلما أمرهم ونهاهم عيروه بكثرة الصلاة». وأقول: هذه المرويات لا يعتمد عليها، ولكن الأنبياء كذلك بالطبع دون اعتماد روايات. وهل كان نص ﴿وَلَا تَكُونُوا مِثْلَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا عَلَىٰ آيَاتِنَا تَكْفُرُونَ﴾ موجوداً أو كان قد أنزل؟

قال الحسن رحمه الله: «لم يبعث الله نبياً إلا فرض عليه الصلاة والزكاة، أقول: وتختلف الكيفية والكمية من رسول إلى رسول»^(١).

قال الزخشي: «أرادوا بقولهم: «إنك لأنت الحليم الرشيد» نسبته إلى غاية السفه والغى، فعكسوا ليتهمكوا به كما يتهمكم بالشحيح فيقال به: لو أبصرك حاتم لسجد لك، وقيل معناه: إنك للمتواصف بالحلم والرشد في قومك، يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك وما شهرت به».

قال ابن عاشور: «أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء» أو: لتقسيم ما يأمرهم به لأن منهم من لا يتجر فلا يطفف في الكيل والميزان فهو قسم آخر متميز عن بقية الأمة بأنه مأمور بترك التطفيف، فقله: «أن نفعل» عطف على «ما يعبد آباؤنا» أي أن نترك فعل ما نشاء في أموالنا فنكون طوع أمرك نفعل ما تأمرنا بفعله وترك ما تأمرنا بتركه».

قال الشيخ حسنين مخلوف: «أصلاتك: كان شعيب عليه السلام كثير الصلاة (وأقول: ما من دليل على هذا والتفسير لا يبنى على مرويات بني إسرائيل أو الكتب التي تروي بلا سند ولا حجة..) وكانوا يستهزئون به لذلك ويتضحكون

فقالوا له ذلك. أو أن نفعل في أموالنا: أي وأن نترك فعلنا ما نشاء في أموالنا من التطفيف وغيره، فهو عطف على ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا يَعْبُدُ أَبَاؤُنَا﴾ و ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو، إنك لأنت الحليم الرشيد: وصفوه بذلك تهكماً وسخرية. أ. هـ.

قال أبو حيان: «(أَنْ تَشْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) مُقَابِلُ لِقَوْلِهِ: «اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ»، «أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ» مُقَابِلُ لِقَوْلِهِ: «وَلَا تُنْقَسُوا أَمْوَالَكُمْ وَالْمِيزَانُ»، وَكَوْنُ الصَّلَاةِ أَمْرَةً هُوَ عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ، كَمَا كَانَتْ نَاهِيَةً فِي قَوْلِهِ: إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ»^(١).

من دروس الآية ٨٧:

- ١ - تقليد الآباء داء قديم جديد متجدد.
- ٢ - والعرب بالذات آباييون بعيار زائد: «أولئك آباي فجتني بمثلهم».
- ٣ - أسلوب السخرية أسلوب قديم جديد أيضاً.
- ٤ - حرية رأس المال يكفلها القانون وتفرضها قوة رأس المال مستعيناً بقوة الساسة والسياسة.
- ٥ - يدعي المتبجحون أن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده.
- ٦ - الحلم والرشد أن لا نفصل بين العبادة والتعامل بالسوق.
- ٧ - نحن اليوم في جاهلية أشد جهالة وتدعي العلم والمعرفة والحضارة.
- ٨ - لا يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد.

(١) أبو حيان، البحر المحيط، ج٦، ص ١٩٧.

الآية ٨٨ :

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُوا أَرْهَ يَشْرُ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْتَعُونَ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾

الربط والمناسبة: رد قوم شعيب على شعيب في الآية السابقة، وهنا رده على ردهم فالآيتان نسق وفي منتهى الانساق.

وهذه الآية (٣٥) كلمة و(١٣٥) حرفاً وترتيبها (١٥٦١).

المعنى: قال يا قوم: قال شعيب يخاطب قومه: يا قوم، والنداء لجلب اهتمامهم وإثارة انتباههم، ونسبهم إليه لإشعارهم بالقرب والقربة.

أرايتم: رد على استفهامهم باستفهام فهم قالوا: أصلاتك تأمرك؟ وهو يقول أرايتم؟ والهمزة في الحالين للاستفهام، ومعنى هذه الكلمة أخبروني، ومعنى التعبير على أصل وضعه: هل رأيتم بعين العقل أو بعين البصر.

إن كنت على بينة من ربي: إن كنت على أمر جلي ووضوح من عند ربي.

ورزقني منه رزقاً حسناً: هذا رد على جزئية ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ التي وردت في ردهم، فهو يقول إنه يملك مالاً وقد رزقه الله مثلهم رزقاً طيباً لكنني منضبط فيه بشرع الله وأحكام الله.

وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه: وأنا لا أريد أن أخالفكم فيما أمركم فأفعل بخلاف ما أقول لكم لا، وإنما أعمل وفق ما أقول لكم في مالي.

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت: ما أريد إلا أن أكون مصلحاً ما استطعت إلى ذلك الأمر سبيلاً، وما وجدت له طريقاً.

وما توفيقي إلا بالله: غدت هذه الكلمات، هذه وسابقتها كالشعارات أو المحفوظات أو الحكيم السائرة يرددها الناس وبخاصة دعوة الإصلاح في كل المناسبات في كل عصر ومصر وهنا يقول ما أمر توفيقي فيما أقوم به من أعمال وأنتويه من نوايا إلا بيد الله ومن عند الله.

عليه توكلت: غالباً ما يتقدم المتوكل عليه على التوكل، وهنا قدم عليه على توكلت للأهمية، والتوكل الاعتماد على الله، ويتجلى في الأمور التي ليس فيها أسباب، ولكن التوكل عام في ما ذكرنا وفيما سواه، فحتى التي تفعلها وفق الأسباب قد لا تحصل النتائج مع الأخذ بالأسباب.

وإليه أنيب: رجوعي إليه ومآلي إليه وإليه أعود وأرجع وإنابتي وتوبيي له.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «أرايتم: يتعدى الفعل إلى مفعولين، وأن الثاني أكثر ما يكون جملة استفهامية، ينعقد منها مع ما قبلها مبتدأ وخبر، كقول العرب: أرايت زيداً ما صنع والمعنى أخبرني عن زيد ما صنع؟ إذا تقرر هذا فالمفعول الأصل هنا محذوف ولا يصح أن تقع جملة الشرط موقعة»^(١).

قال الشيخ حسنين مخلوف رحمه الله: «أرايتم إن كنت على بينة: أي أخبروني، وجواب الشرط محذوف، تقديره: فهل يسعني مع هذا الإنعام العظيم أن أخونه في وحيه، أو أخالفه في أمره ونهيه! وما أريد أن أخالفكم: أي ما أريد بنهي إياكم عن البخس والتطفيف أن أنهاكم عنه ثم أفعله، وإنما أختار لكم ما أختار لنفسي، يقال: خالفني فلان إلى كذا، إذا قصده، وأنت مولٍ عنه، وخالفني عنه: إذا ولى عنه وأنت تقصده، وإليه أنيب: أرجع في كل أموري إليه لا إلى غيره. أ. هـ».

قال الزمخشري: «إن أريد إلا الإصلاح» ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسدكم، وما كوني موقفاً لإصابة الحق فيما آتي وأذر ووقوعه موافقاً لرضا الله إلا بمعونه وتأييده. والمعنى: أنه استوفى ربه في إمضاء الأمر على سبيله، وطلب منه التأييد والإظهار على عدوه».

قال ابن عاشور: «أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه» في هذا تنبيه لهم على ما في النهي من المصلحة، وعلى أن شأنه ليس شأن الجبابة الذين ينهون عن أعمال وهم يأتونها، لأن مثل ذلك يُنبئ بعدم النصح فيما يأمرهم وينهون، إذ لو كانوا يريدون النصح والخير في ذلك لاختاروه لأنفسهم لقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾.

يقول صاحب الظلال رحمه الله في تعقيبه على قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾: «الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه، وإن خيل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والحق يفوت بعض الكسب ويضيع بعض الفرص، فإنما يفوت الكسب الخبيث ويعوض عنه كسباً طيباً ورزقاً حلالاً، ومجتمعاً متعاوناً لا حقد فيه ولا غدر».

قال ابن جزى: «جواب أرايتم محذوف يدل عليه المعنى وتقديره: أرايتم إن كنت على بينة من ربي أيصلح لي ترك تبليغ رسالته، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه» يقال: خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مولّ عنه، وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده»^(١).

من دروس الآية ٨٨:

- ١- الأنبياء على نور وبينه من الله.
- ٢- والدعاة كذلك ينبغي أن يكونوا.
- ٣- الداعية الناجح والصادق من لا يخالف قوله عمله.
- ٤- كثير من عبارات القرآن غدت كالشعارات.
- ٥- الإصلاح في المجتمع مهم وعظيم.
- ٦- التوفيق في الأمور من عند الله.
- ٧- الأسباب لا تغني عن توكلك على مسبب الأسباب سبحانه.
- ٨- المآل والمرجع إلى الله.

الآية ٨٩:

﴿وَيَنْفَعُ وَلَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ

صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٩)

الربط والمناسبة: هذا هو النداء الرابع يا قوم يتردد على لسان شعيب يتوعد لقومه ويتألفهم، ولكنه يخاطبهم بوضوح وحسم لا يتلجلج. وكان في الآية السابقة يخاطبهم بهذا النداء يا قوم، ولكنه في آيتنا هذه ٨٩ يضمن كلامه رائحة التهديد والتحذير أن يصيبهم مثل الذي أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ويضيف ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ لا زماناً ولا مكاناً فاعتبروا!!

وهذه الآية (٢٢) كلمة و(٧٦) حرفاً وترتيبها (١٥٦٢).

المعنى: يا قوم: الواو للاستئناف أو عطف نداء على نداء وموضوع على موضوع يقول: يا قوم، لا يحملنكم شقاقي ومنازعتي على أن تتركبوا حماقات تستوجب عقابكم، فيصيبكم مثل الذي أصاب من سبقوكم وهنا يذكر الأنبياء الذين ذكرتهم السورة، وأقوامهم: قوم نوح، أو قوم هود، أو قوم صالح، وما قوم لوط منكم ببعيد. والشقاق: مصدر شاقه إذا عاده.

وما قوم لوط منكم ببعيد: إما جغرافياً مكانياً أو غير بعيد منكم زمانياً أو هما معاً. والله أعلم.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «للسقاق ثلاثة معان: أحدها العداوة كما في قوله تعالى في هذه الآية.

والثاني الضلال كما في قوله تعالى: ﴿وَأَرْبَعُ أَفْطِلِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

والثالث الخلاف كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾.

لأن كل واحد من المتشاقين يكون في شق غير شق صاحبه أي في ناحية وجهة^(١).

﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة التي هي حرف لا محل له، وهي في محل جزم بلا الناهية والكاف مفعول به أول.

قال مخلوف: «لا يجرمنكم شقاقي: لا تكسبنكم معاداتي أن يصيبكم مثل ما أصاب أسلافكم المكذبين»، وقال مخلوف في آية المائدة: «ولا يجرمنكم: لا يحملنكم بغضكم للمشركين على اعتدائكم عليهم، أو لا يكسبنكم بغضكم الاعتداء عليهم، من جرم بمعنى كسب، غير أنه يستعمل غالباً في كسب ما لا خير فيه، ومنه الجريمة،

وأصل الجرم: قطع الثمرة من الشجرة، وأطلق على الكسب لأن الكاسب ينقطع لكسبه»^(١).

قال الزمخشري: «وما قوم لوط منكم ببعيد» يعني أنهم أهلكوا في عهد قريب من عهدكم فهم أقرب الهالكين منكم، أو لا يبعدون منكم في الكفر والمساوي وما يستحق به الهلاك».

قال ابن عادل: «قال ابن الخطيب: واعلم أن هذا الترتيب الذي رعاه شعيب في ذكره الوجوه الخمسة ترتيب لطيف. لأنه ذكر أولاً أن ظهور البينة له وكثرة الإنعام عليه في الظاهر والباطن يمنعه من الخيانة في وحي الله، ويصدّه عن التهاون في تبليغه».

ثم بيّن ثانياً أنه مواظب على العمل بهذه الدعوة، ولو كانت باطلة لما اشتغل هو بها مع اعترافهم بكونه حليماً رشيداً.

ثم بيّن صحته بطريق آخر، وهو أنه كان معروفاً بتحصيل موجبات الصلح، والصلح وإخفاء موجبات الفتن، فلو كانت هذه الدعوة باطلة لما اشتغل بها، ثم لما بيّن صحة طريقته أشار إلى نفي المعارض وقال: لا تحملكم عداوتي على مذهبٍ ودين تقعون بسببه في العذاب الشديد من الله، كما وقع فيه أقوام الأنبياء المتقدمين»^(٢).

من دروس الآية ٨٩:

- ١- قد تحمل المشاعر السلبية تجاه شخص أن يعاديه آخرون، فيتسبب هذا في عقابهم.. فالحذر الحذر من هذا.

(١) صفوة البيان ص ١٤٢ و ص ٩٨.

(٢) ابن عادل، اللباب، ج ١٠، ص ٥٥٢.

٢- في التاريخ عبر والقصاص القرآني زبدة التاريخ الإنساني.

٣- في الإشارات القرآنية معان مهمة تعين في التفسير وحسن الفهم فقله: وما قوم لوط منكم يبعد تفيدنا في التصور الجغرافي والبحث الآثاري لو كان عندنا شيء من هذا..

٤- الأصل أن يتحكم العقل والمبادئ في السلوك لا الشعور والانفعال.

الآية ٩٠:

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّكُمْ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾

الربط والمناسبة: يكمل شعيب في هذه الآية ما كان قاله قبل آيتين بعد رد قومه عليه، فهذه مرافعة الثانية وهذه الآية ختامها، وتبقى جولة أخرى قبل أخذهم، فالآيات كلها نسق.

وهذه الآية (٩) كلمات و(٣٧) حرفاً وترتيبها (١٥٦٣).

المعنى: تتراوح نصائح شعيب لقومه بين نهى وأمر، وهنا أمر أو طلب بأن يستغفروا الله ربهم، وأن يتوبوا إليه.. ولم يقل في هذه الآية يا قوم اكتفاء بما مر وبما سيأتي.

واستغفروا ربكم: الواو عاطفة عطفت أمراً على نهى، أو استئنافية..

استغفروا ربكم: اطلبوا المغفرة منه سبحانه، والألف والسين والتاء، للطلب. وعبر بالرب لأنه الأليق بالمقام، مقام الاستغفار والتوبة وقبولهما، فهو الرب سبحانه الذي يقبل التوبة، وهو الذي يربي عباده بالعفو والمغفرة ويعطيهم الفرصة تلو الفرصة.

ثم توبوا إليه: هل ثم للتراخي الزمني أم للتراخي الرتبي؟ هذا هو السؤال الأول. وأرى أنها تصلح لوجهيها المذكورين ولكن الأرجح ربما يكون التراخي الرتبي، فالاستغفار الإقلاع ثم التوبة وتعني العودة إلى الله وإصلاح ما أفسد العبد بينه وبين ربه.

إن ربي رحيم ودود: هذا هو الشق الثاني من الآية وهو أربع كلمات وشقها الأول خمس كلمات، والكلمة الثانية في الشق الأول ﴿رَبِّكُمْ﴾ والكلمة الثانية في الشق الثاني ﴿رَبِّي﴾ فهو يدعوهم لأن يستغفروا ربهم وهذا يقتضي أن يعرفوه ويتخذوه رباً أولاً ثم يستغفروه ثانياً.

وقوله: إن ربي: معتزاً بربه يقول لهم، فانا اتخذته رباً وإلهاً.

رحيم: واسع الرحمة. ودود: يتجيب إلى عباده وهو غني عنهم ويتودد إليهم بإحسانه.. وهم المحاويج إليه.

قال ابن عاشور: «تفنن في إضافة الرب إلى ضمير نفسه مرة وإلى ضمير قومه أخرى لتذكيرهم بأنه ربهم كيلا يستمروا على إعراضهم.

الدود: مثال مبالغة من الود وهو المحبة، والمعنى: أن الله شديد المحبة لمن يتقرب إليه بالتوبة».

«ثم إنه لما صحح مذهب نفسه بهذه الدلائل عاد إلى تقرير ما ذكره أولاً وهو التوحيد والمنع من البخس بقوله: «ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ»، ثم بيّن لهم أن سبق الكفر والمعصية منهم لا ينبغي أن يمنعهم من الإيمان والطاعة؛ لأنه تعالى رحيم ودود يقبلُ

الإيمان من الكافر والفاسق؛ لأن رحمة بعباده وحبهم يوجب ذلك، وهذا تقرير في غاية الكمال»^(١).

من دروس الآية ٩٠:

- ١- الاستغفار مطلوب لأن العبد خطاء ومحتاج إلى عفو ربه.
- ٢- التوبة متكاملة مع الاستغفار.
- ٣- من عرف الرب عبده واستغفره وتاب إليه.
- ٤- الله رحيم بالعباد يتودد إليهم وهو الغني عنهم.
- ٥- الدعوة إلى الله ما بين الخوف والطمع.

الآية ٩١:

﴿قَالُوا يَنْشُعِبُ مَا نُنْقِهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِمُرْسِيٍّ﴾

الربط والمناسبة: انتهت في الآية السابقة مرافعة شعيب الثانية، في جولة الحوار بين شعيب وقومه، وفي هذه الآية رد قوم شعيب على شعيب وهو رد سلبى يؤكد إصرارهم على الباطل.

وهذه الآية (١٨) كلمة و(٧٧) حرفاً وترتيبها (١٥٦٤).

المعنى: قالوا يا شعيب: قال قوم شعيب له ينادونه باسمه يا شعيب.

ما نفقه كثيراً مما نقول: ما ندرك كثيراً مما دعوتنا إليه وعرضته علينا، وهو ادعاء منهم غير صحيح، فمن لا يريد شيئاً يلجأ إلى ادعاء عدم فهمه، وما الذي غمض على قوم شعيب؟ أهو العبادة؟ أم النهي عن التطفيف؟ أم النهي عن الفساد؟ ما العصي على الفهم كما زعموا. إنهم لا يريدون أن يعملوا.. ولا أن يعلموا.

ولاحظ كلمة ﴿كَثِيرًا﴾ وهي تعني معظم ما قلت وأكثره وأغلبه.

عما نقول: ولم يقولوا مما تدعونا إليه، وكأنه مجرد أقوال يدلي بها شعيب.

وإنا لنراك فينا ضعيفاً إن واسمها وخبرها مؤكد باللام ليزيد الموقف توكيداً، والرؤية في ﴿لَنَرَنَّكَ﴾ رؤية بصرية أو بصيرية أو هما، فهم يرونه بعيونهم، وهذا تؤكد حساباتهم للقوة وعواملها بمقاييسهم وبعقولهم، والضعف أي التجرد من أسباب القوة المادية التي يقدرونها أو يقدسونها.

ولولا رهطك لرجمناك: هذا هو المقطع الثالث وقبل الأخير في هذه الآية، فهم يقولون هنا ما بنوه على قولهم السابق ﴿وَإِنَّا لَنَرَنَّكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ فهم يقولون هنا ولولا عشيرتك وأقرباؤك لرجمناك وما رحمتك، إما المعنى حصبتك بالحجارة رفضاً لوجودك وطرداً أو إبعاداً لك وإما رحمتك حتى الموت.

وما أنت علينا بعزيز: ولست علينا ممتنعاً من معاقبتك وإيذاثك ونفوا هذه المسألة بما النافية التي تعني معنى ليس وتعمل عملها، و﴿أَنْتَ﴾ اسمها والباء وما تبعها من تذييل الآية بكلمة عزيز هو خبرها و«علينا» التي تقدمت متعلقة بما بعدها أي بعزيز علينا، ولولا الباء لكانت عزيز منصوبة خبر ما، ولكن بالباء فهي في محل النصب.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «حين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة والقيم الرفيعة والمثل العليا، فإنها تقبع على الأرض، وقيمها الدنيا فلا ترى حرمة يومئذ

للدعوة كريمة ولا لحقيقة كبيرة ولا تتخرج من البطش بالداعية إلا أن تكون له عصبية تؤويه وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه، أما حرمة العقيدة والحق فلا وزن لها في تلك النفوس الفارغة الخاوية).

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «الفقه: الفهم، وفقه يفقه من باب علم يعلم صار فقيهاً، والفقه العلم بالشيء، ثم صار علماً على العلم في الدين لشرفه على غيره من العلوم، ويقال: فقه الرجل يفقه فهو فقيه إذا فهم»^(١).

قال الشيخ مخلوف: «رهطك: الرهط اسم جمع، يطلق في المشهور على العصابة دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة، ورهط الرجل قومه (وعشيرته) وقبيلته الأقربون. أ. هـ».

قال الزمخشري: «وما أنت علينا بعزيز» أي لا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم، وإنما يعز علينا رهطك لأنهم من أهل ديننا لم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا. كأنه قيل: وما أنت بعزيز علينا بل رهطك هم الأعرزة علينا».

قال ابن عاشور: «الرهط إذا أضيف إلى الرجل أريد به القرابة الأدنون لأنهم لا يكونون كثيراً، فأطلقوا عليهم لفظ رهط الذي أصله الطائفة القليلة من الثلاثة إلى العشرة، ولم يقولوا قومك».

فالتقدير: ولولا رهطك مكرمون عندنا لرجمناك».

قال النيسابوري: «ولما بالغ خطيب الأنبياء في التقرير والبيان «قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ» إما لقلّة الرغبة أو قالوا تهكمًا واستهانة كما يقول الرجل

لصاحبه إذا لم يعبأ بمجديته: ما أدري ما تقول. كأنهم جعلوا كلامه تخليطاً وهذياناً لا ينفعهم كثير منه... «وَلَئِنَّا لَتَرَكُنَّ فِينَا ضَعِيفًا» عن الحسن: مهينا أي لا عزة لك فيما بيننا ولا قوة فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروهاً... ثم ذكروا أنهم إنما لم يريدوا به المكروه ولم يوقعوا به الشر لأجل رهطه - والرهط من الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى السبعة - والرجم شر القتل وهو الرمي بالحجارة، أو المراد الطرد والإبعاد ومنه الشيطان الرجيم. ثم أكدوا المذكور بقولهم «وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» وإنما العزيز علينا رهطك لا خوفاً من شوكتهم ولكن لأنهم من أهل ديننا، فالكلام واقع في فاعل العز لا في الفعل وهو العز؛ ولذلك قال في جوابهم «أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ» ولو قيل وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب^(١).

من دروس الآية ٩١:

- ١- من لا يريد عمل شيء مما قيل له يدعي عدم فهمه.
- ٢- كلام الأنبياء كله بيان واضح لا تعقيد فيه ووحى السماء أوضح.
- ٣- عدم الغموض في الرسائل حتى لا يكون لأحد ذريعة عدم الفهم.
- ٤- القيم العشائرية تزن بموازين قوة الإسناد العشائري، فمن لا عشيرة له تحميه يُستخف به وقد يُقتل فلا قيم تحمي إنما القوة.
- ٥- ضيق الصدور بالحق الواضح يجعل القوم لا يدركونه.

(١) النيسابوري، غرائب القرآن وغلابة الفرقان، ج ٤، ص ٤٦.

الآية ٩٢:

﴿قَالَ يَنْفُورُ آرْطُغِيّ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٩٢)

الربط والمناسبة: المرافعة الأولى لشعيب استغرقت ثلاث آيات والثانية ثلاث آيات والثالثة وهي هذه الجولة تتكون من آيتين وتنتهي بطلب الانتظار لما سيحل.. فهي مفصلة فاصلة، أما هذه الآية فتزد على ما جاء في سابقتها مباشرة من قيم عشائرية أنه لولا رهطك لكان لنا معك شأن، فهو يرد على هذه النبوة والنعرة، فيسألهم هل العشيرة والربع والرهط أعز عندكم من الله؟ فعجباً لكم. وقد ورد ﴿إِنْ رَبِّي...﴾ في الآيات في ختامها وها هو يتكرر في ختام هذه الآية.

وهذه الآية (١٥) كلمة و(٦٤) حرفاً وترتيبها (١٥٦٥).

المعنى: قال يا قوم: هذا هو النداء الخامس يا قوم من شعيب لقومه في هذا السياق.

آرطغي: الهمة للاستفهام والرهط جماعة الرجل وعشيرته وقومه وعزوته.

أعز عليكم: أمنع وأقوى في نظركم وأعلى وأحب، كل هذه من معاني أعز.

من الله: هل هم متفوقون في الاعتبار عندكم على قدر الله عندكم؟

واتخذتموه وراءكم ظهرياً: واتخذتم الله ودين الله وراء ظهوركم، تعالى الله عما يظن الجرمون ويفعلون. أي أنكم في الاعتبار والتقدير جعلتم الله ودينه خارج اعتباركم وتقديركم وحسابكم كالشيء الذي جعلته وراء ظهره لعدم الاهتمام وعدم التقدير. كما قال الله عن اليهود في سورة البقرة: ﴿بَدَّ قَبِيٌّ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠١].

قال الزمخشري: «فإن قلت: فالكلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه فكيف صح قوله «أرهمي أعز عليكم من الله» قلت: تهاونهم به وهو نبي الله فحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾».

قال الشيخ مخلوف: «واخذتموه وراءكم ظهرياً: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم، وتركتموه كالشيء الملقى الذي لا يلتفت إليه، والظهري: نسبة إلى الظهر وأصله الرمى إلى الظهر، وكسر الظاء فيه من تغييرات النسب، ثم توسعوا فيه فاستعملوه للمنسي المتروك. أ. هـ».

إن ربي بما تعملون محيط: وختم بالتأكيد وأضاف كلمة «رب» إلى ضميره ﷻ للتشرف والاعتزاز بالله ربه سبحانه، والتقوي، وأنكم إن كنتم اخذتموه وراءكم ظهرياً فإني اعتز به سبحانه كل الاعتزاز وأثق به كل الثقة وأتوكل عليه كل التوكل.. ومعنى محيط مقتدر لا يخرج عن إحاطة قدرته شيء ولا قوة.

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعقياً على قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَاهُ وَرَاءَ كُمِ ظَهْرِيّاً﴾: «هذه صورة حسية للترك والإعراض تزيد شناعة فعلتهم وهم يتركون الله ويعرضون عنه وهم خلقه وهو رازقهم وممتعهم بالخير الذي هم فيه، فهو البطر وجحود النعمة وقلة الحياء إلى جانب الكفر والتكذيب وسوء التقدير».

قال السمين الحلبي: «والضمير في «أخذتموه» يعود على الله؛ لأنهم يجهلون صفاته، فجعلوه أي: جعلوا أوامره ظهرياً، أي: منبوذة وراء ظهورهم. والظهري: هو المنسوب إلى الظهر وهو من تغييرات النسب كما قالوا في أمس: إمسي بكسر الهزمة، وإلى الدھر: دھري بضم الدال.

وقيل: الضمير يعودُ على العصيان، أي: واتخذتم العصيان عوناً على عداوتي، فالظَّهْرِيُّ على هذا بمعنى الْمُعِينِ الْمُقْوِي^(١). وأرى المعنى الأخير هذا بعيداً جداً.

من دروس الآية ٩٢:

- ١- أساس البلاء عدم تقدير الله عز وجل حق قدره.
- ٢- فساد مقاييس البشر أنهم يعظمون ما لا يستحق التعظيم ويغضون من قدر ذي القدر والشأن والعظمة سبحانه.
- ٣- المؤمن يقدر ربه ويتوكل عليه.
- ٤- الله محيط بكل شيء لا يخرج شيء عن إحاطته وقدرته وعلمه وتديره.
- ٥- هذا الإحساس بإحاطة الله يعطي المؤمن شعوراً بالطمأنينة والأمن والاستقرار والثقة.
- ٦- الإحاطة أقصى الصور الحسية للعلم بالشيء والقدرة عليه.

الآية ٩٣:

﴿وَيَقَوْمٌ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَن هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۝٩٣﴾

الربط والمناسبة: هذا هو النداء الأخير من شعيب لقومه والحديث الأخير بعد مرافعة طالت ومجادلة امتدت وأخذ ورد، وهم معرضون مصرّون، فالآن تأتي لحظة المفصلة: ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ﴾ ﴿وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

(١) السمين الحلبي، الدر المنصون، ج ٦، ص ٣٧٩. وقوله «النسوب إلى الظهير» هكذا في الأصل ولعل الأصوب

وهذه الآية (١٩) كلمة و(٧٩) حرفاً وترتيبها (١٥٦٦).

المعنى: **ويا قوم اعملوا على مكانتكم**: النداء السادس من شعيب لقومه، وهو النداء الأخير، كما سلف، أو الإنذار الأخير، يقول لهم، في التلطف النهائي والحاسم بعد واو العطف أو الاستئناف: ﴿وَيَقْوِرْ﴾ ويا النداء ثم قوم بجذف الياء للنداء، وبلا ألف ياء النداء، على ما هو دأب القرآن في رسمه المعجز، وهذا يفيد التقرب.. إن نفع التقرب من هؤلاء.

اعملوا على مكانتكم: اعملوا على مواقفكم ومواقعكم وثوابتكم وعلى شاكلتكم من فكر ومعتقد ومعهود ومألوف ومستقر راسخ لديكم.. وما دأبتم عليه من عمل وتعودتم، أي دوموا على عادتكم ودأبكم وإلفكم.

إنني عامل: ولم يكرر على مكاني كما قال لهم لانفهامها دون ذكر، أنتم تعملون على باطلكم وأنا أعمل بما أكرمني به الله من حق وهدى.

ولن يوقفني عن دعوتي وعبادتي وعملي وفق تعاليم ديني تعنتكم وإصراركم على باطلكم.

سوف تعلمون: دون فاء عطف، وسوف للتسويق لتفيد بأن ثم فسحة في الأمر، لا ليرأخوا لكن ليستثمروا وليرجعوا إلى ربهم.. وإذا تأخر علمهم حتى المعاينة فلا نفع في العلم حيثئذ. إنما العلم النافع في الوقت المناسب الذي يمكنك من التحول عن الباطل إلى الحق.. لتنجو.

من يأتيه عذاب يخزيه: هذه كلمة نوح لقومه قبل ٥٤ آية، وها هو شعيب يعيدها بعد هذا العدد من الآيات وبعد هذه الآلاف من السنين، والناس لا يعتبرون والتاريخ يعيد نفسه، والأمم تكرر أخطاءها، وتواجه أخطارها، وتدمر

عمارها.. فلماذا لا يتعلم البشر من تجاربهم؟ وترك النص عاماً ليحتمل احتمالات وإن كانت واضحة، لكنه التلطف في الطرح على كل حال.

واختار من أوصاف العذاب الخزي دون الأليم مثلاً، لأنهم كانوا يباطلهم منتفشين به مستكبرين متباهين على الناس، فسيتحول حالهم من هذا الانتفاش إلى الانتكاس والخزي.

ومن هو كاذب: هذا التعبير عجيب، وكان المتوقع أن يقول ومن سينجو، حتى يكون الحديث عن فريقين هما: أمة ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ وأمة ﴿إِنِّي عَنِيلٌ﴾ ومن معه، لكن الكلام بهذه الطريقة انصرف إلى الفريق نفسه، فريق ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ هذا هو الفريق نفسه، وهذا النهج هو ما كان في قصة نوح، فبعد أن قال ما قال: ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

قال بعدها ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ تُقِيمُ﴾ فهم الفريق نفسه، والنهج ذاته هنا وهناك.

مع أن ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ هنا تنصرف لهم، ويدافع بها عن نفسه فهو ليس كاذباً بفضل الله، ولكن من كذبه هو الكاذب.. ومن اتخذ إلهه هواه وجعل رب الوجود وراءه ظهيراً هو الكاذب.

وارتقبوا إنني معكم رقيب: وانتظروا ما سيأتي من مفاجآت ومن تدبير إلهي، إنني منتظر مرتقب معكم، وسرى لمن ستكون النتائج والعاقبة لمن، ومن الذي سيخسر؟ والرقيب هنا بمعنى فاعل، أي أني معكم راقب، أي كل يرتقب ما يجازيه الله به إن كان كاذباً أو مكذباً.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن المؤمن لا يعتز إلا بربه ودينه وهذا هو مفرق الطريق في الحقيقة بين التصور الإسلامي والتصور الجاهلي في كل أزمانه

وبيئاته، ومن هذه الغضبة لله والتتصل من الاعتزاز أو الاحتماء بسواه ينبعث ذلك التحدي الذي يوجهه شعيب إلى قومه، وتقوم تلك المفاصلة بينه وبينهم بعد أن كان واحداً منهم، ويفترق الطريقان فلا يلتقيان».

قال مخلوف في صفوة البيان: «اعملوا على مكانتكم: على غاية تمكنكم من أمركم، وأقصى استطاعتكم. مصدر مَكَّنَ مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن والأمر للتهديد والوعيد، وارتقبوا: انتظروا العاقبة والمآل. أ. هـ»^(١).

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «ذكرت الآية الكريمة بحروفها في سورة الأنعام برقم ١٣٥، وقد اقترنت هناك ﴿سَوَفَ﴾ بالفاء، والسبب في ذلك أن الفاء هناك للتصريح بأن الإصرار فيما هم عليه سبب لذلك، وحذفها هنا لأنه جواب سائل، قال: فماذا يكون بعد ذلك فهو أبلغ في التهويل، أ هـ بياضوي».

قال ابن عاشور: «سوف تعلمون» هنا جعلت مستأنفة استئنافاً بيانياً إذ لما فاتحهم بالتهديد كان ذلك ينشئ سؤالاً في نفوسهم عما ينشأ على هذا التهديد؟ فيجاب بالتهديد بـ«سوف تعلمون»».

قال الزمخشري: «من يأتيه» يجوز أن تكون استفهامية معلقة لفعل العلم عن عمله فيها، كأنه قيل سوف تعلمون أينما يأتيه عذاب يخزيه، وأينما هو كاذب. وأن تكون موصولة قد عمل فيها كأنه قيل: سوف تعلمون الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب.

(١) راجع مخلوف في تفسير آية الأنعام ص ١٩١ وهود ص ٢٩٨.

«سوف تعلمون» فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن في البلاغة كما هو عادة العرب البلغاء وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه».

قال أبو السعود: «والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقة لي وسائر ما أنتم عليه مما لا خير فيه... «سَوْفَ تُعَلِّمُونَ» لما هددهم عليه السلام بقوله اعملوا على مكانتكم إني عاملٌ كان مظهرًا أن يسألَ منهم سائلٌ فيقولَ فماذا يكون بعد ذلك فقليل سوف تُعَلِّمُونَ».

«مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ» وصف العذاب بالإخزاء تعريضاً بما أوعده عليه السلام به من الرجم فإنه مع كونه عذاباً فيه خزيٌّ ظاهرٌ حيث لا يكون إلا بجناية عظيمةٍ توجه»^(١).

من دروس الآية ٩٣:

- ١- الزمن جزء من العلاج.
- ٢- من لم يقنعه العقل والحجة ستقنعه الكارثة إذ تحل.
- ٣- الثقة في الدعوة مهمة والشك فشل.
- ٤- العلم في أوانه مهم وبعد فوات وقته لا ينفع.
- ٥- صاحب الحق يستمد ثقته ويقينه من الله.

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج ٤، ص ٢٣٦ - ص ٢٣٧.

الآية ٩٤:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْغَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينَ﴾ ﴿٩٤﴾

الربط والمناسبة: ختمت الآية السابقة بقوله تعالى على لسان شعيب لقومه ﴿وَأَرْقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَبِّبٌ﴾ وفي هذه الآية ها هو قد جاءهم ما كانوا يوعدون: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا...﴾ وأخذ الله الظالمين وصدق الله وعده ونصر رسله وأخذ الظالمين.

وهذه الآية (١٨) كلمة و(٨٥) حرفاً وترتيبها (١٥٦٧).

المعنى: ولما جاء أمرنا: الواو للعطف ونصح للاستئناف.

جاء أمرنا: جاء الأجل الذي حددناه للكافرين من قوم شعيب، والحجىء يعبر به للقرب، وأضاف الأمر إلى نون العظمة للتعظيم والتهويل. والأمر كلمة عامة، ولكنها هنا بمعنى الوعد، وبمعنى تنفيذه، وصدور الأمر بعقابهم.

نجينا شعيباً: عبر بنجينا، وليس أنجينا، وهي فيما أرى لتصوير نجاته وتخلي هذه النجاة. وكان أنجينا فيما أرى تعني لقطة سريعة تُجمل النجاة، وكان نجينا إبطاء اللقطة لتتملى العين هذه النجاة وتروى في استعراضها.. والله أعلم.

شعيباً هو نبي القوم الذين أهلكهم الله وهم مدين.

والذين آمنوا معه: عطف المؤمنين على نبيهم فهو رأس الناجين ورئيسهم ورسولهم والذين آمنوا معه: ولنجينا معه الذين آمنوا معه، فكما آمنوا معه نجوا معه، فالواو العاطفة مع تقدير نجينا.

برحمة منا: أي بسبب رحمة عظيمة كائنة منا، فتذكير رحمة للتعظيم.

وأخذت الذين ظلموا الصيحة: وقال السياق الكريم في الآية ٦٧: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَنِيْمًا﴾ وجاءت هناك رأس آية وليس كما هنا بعد الحديث عن نجاة شعيب ومن آمن معه، وجاءت هناك بالتذكير ﴿وَأَخَذَ﴾ وهنا بالتأنيث ﴿وَأَخَذَتْ﴾ فهل هو مجرد التنويع؟ وهذا بالطبع لا يليق بالنص القرآني، فكل حرف له وظيفة ودور يؤديه ومعنى يوصله، ولفتة ولحمة يرمي إليها.

وهل زيادة المبني ﴿وَأَخَذَتْ﴾ تدل على زيادة العذاب؟

أم أن التذكير في ﴿وَأَخَذَ﴾ يدل على زيادة العذاب؟

بكل يمكن أن يكون الجواب، والمسألة تحتاج إلى إعمال الألباب.

والرأي والله أعلم أن ﴿وَأَخَذَ﴾ أشد من وأخذت، وإن كانت النتيجة واحدة وبالنص ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَنِيْمًا﴾.

وذاة النص أيضاً ﴿كَانَ لَزِيْعَتَا فِيهَا...﴾ وجاء في الحالتين رأس آية، وزاد في ثمود ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ وبزيادة الألف أيضاً في ثمود.

ثم التقت الآيتان في لازمة أخرى ﴿أَلَا بُعْدَ لَثَمُودَ﴾.

وقالت آيتنا: ﴿أَلَا بُعْدَ لِمَنْ كَانَتْ ثَمُودُ﴾.

وأرى أن كل الدلائل تشير إلى ما ترجح من أن ثمود أشد في النكال.

فأصبحوا في ديارهم جائمين: أصبحوا، هل تعني الصباح وخاصة أن موعد عذابهم كان الصبح ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾؟

أم أنها تعني وصف الحال مطلقاً عن الزمان، وهذا في القرآن كثير، ومن أمثلته ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ﴾ ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ ﴿حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِيرِينَ﴾ ﴿فَنُصِصَ صَعِيدًا رَلَقًا﴾ ﴿أَوْ يُصِصَ مَآؤُهَُا غَوْرًا﴾.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصِصَنَّ نَدِيمِينَ﴾ ﴿فَيُصِصُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِيمِينَ﴾ ﴿وَأَصْبَحَ قُودًا أَمْرُؤُسَىٰ فَرَعًا...﴾.

والنصوص سوى هذه عديدة، وأرى أنها تعني الزمان المطلق، إنما هذه لغة العرب وأساليب العرب في التعبير، ودرة العربية وجوهرتها هذا الكتاب وقد جاء ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي يعبر بلغة العرب وبأساليب العرب.

والجثوم كناية عن الموت، أي منقلباً على وجهه هالكا.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «ويسدل الستار هنا ليرفع هناك على مصرع القوم وعلى مشهدهم جائمين في ديارهم، أخذتهم الصاعقة التي أخذت قوم صالح، فكان مصيرهم كمصيرهم خلت منهم الدور كان لم يكن لهم دور، وكان لم يعمرها حيناً من الدهر، مضوا مشيعين باللعنة وطويت صفحتهم في الوجود وفي القلوب. أ. هـ».

قال مخلوف: «وأخذت الذين ظلموا الصيحة: أهلكتهم الصيحة من الصباح وهو الصوت الشديد يقال: صاح إذا صوت بقوة، وأصل ذلك تشقيق الصوت، من قولهم: انصاح الخشب أو الثوب، إذا انشق فسمع منه صوت.. جائمين: هامدين مبتين لا يتحركون. أ. هـ».

قال حقي: «ولمَّا جاء أمرنا الذي قدرناه في الأزل من العذاب والهلاك لقوم شعيب فالأمر واحد الأمور، نجينا شعيباً قدم تنجيته إيذاناً بسبق الرحمة التي هي

مقتضى الربوبية على الغضب الذي يظهر أثره بموجب الجرائم... [ثم قال]: إن العذاب والهلاك الذي هو من باب العدل قد أضيف إلى الكفر والظلم؛ فاقضى أن يضاف الخلاص والنجاة الذي هو من باب الفضل إلى الإيمان. ولما كان الإيمان والعمل الصالح أمرًا موقوفًا على التوفيق كان مجرد فضل ورحمة... وأخذت الذين ظلموا أنفسهم بالإباء والاستكبار عن قبول دعوة شعيب الصيحة... وفي سورة الأعراف «فَأَخَذْتَهُمُ الرُّجْفَةُ» أي الزلزلة، ولعلها من روادف الصيحة المستبعة لتموج الهواء المفضي إليها^(١).

من دروس الآية ٩٤:

- ١ - صفقة الإيمان رابحة وفيها النجاة في الدنيا والآخرة.
- ٢ - صفقة الشرك والكفر ومنهج الاستهتار المنبثق عنهما صفقة خاسرة في الدنيا والآخرة.
- ٣ - ما أشقى الأقوام التي تعبت بمصيرها وتقامر بمستقبلها.
- ٤ - قصر النظر آفة خطيرة.
- ٥ - من يتحدى الله فهو عديم العقل والبصر والبصيرة.
- ٦ - الله الحليم سبحانه إذا غضب فغضبه عظيم وأخذه أليم.

(١) حقي، روح البيان، ج ٤، ص ١٨٠.

الآية ٩٥:

﴿كَانَ لَرِغْوَانٍ فِيهَا أَلَا بَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾

الربط والمناسبة: في الآية السابقة نزل العذاب بمدين ومدين وأخذهم الله وفي هذه الآية تعقيب على ذلك الأخذ فهما ليسا متسقين فقط بل شيء واحد.

وهذه الآية (١٠) كلمات و(٣٧) حرفاً وترتيبها (١٥٦٨).

المعنى: كان لم يغنوا فيها: كان أهل مدين لم يعيشوا في مدين ولم يتمتعوا ولم تكن لهم مجبوحة ورفاهية، ما داموا قد آل أمرهم إلى هذا المال، وانتهوا إلى هذا الحال، صرعى، ملقاة جثثهم على قارعة الطرق كأنهم جيف.. فما هذا المصير؟ وما الغنى قبله وما التجارة وما السيادة وما العز الذي باد؟ المهم الآن هو النتيجة، وهب أن تاجراً حقق ربحاً في صفقة أو اثنتين ثم جاءت صفقة فجعلته يبيع بيته، فما هذه التجارة؟

يا أهل مدين أين المساكن؟ أين المتاجر؟ أين القوة التي كنتم بها تفرضون قوانينكم التجارية على الناس كأنكم رأسمالية أمريكا في هذا الزمان؟ أين ذهب كل هذا؟ أين نسلكم الذي سيخلفكم في هذه الحياة؟ أين من يرث متاجركم ومنازلكم؟ لقد انقطع كل ذلك فحالكم في البؤس قل مثاله.. إلا لمن كان على مثل بؤسكم في الكفر والانحلال وعبادة المال!

ألا بعداً للمدين: ألا للاستفتاح، وهذه الصيغة في الأصل دعاء، ومعناه أبعدهم الله، ولكنه في هذا الحال حال مدين وصف حال تحول عن الدعاء، كما تقول لقتلى الروم في اليرموك قاتلهم الله ما كان أغناهم عن مثل هذا! وقد قتلوا بالفعل، لا مجرد دعاء.

كما بعدت ثمود: أي أبعدهم الله عن هذه الحياة وعن العيش وعن البقاء في الدنيا من خلال استمرار النسل، وقد سبقهم في هذه الحالة ثمود، وهم قريب منهم في المساكن. وهم مثلهم من قوم عرب، فبعداً لهؤلاء كما بعد أولئك.

قال الشيخ مخلوف في صفوة البيان: «لم يغنوا فيها: لم يقيموا فيها طويلاً في رغد، بُعداً: هلاكاً، كما بعدت ثمود: هلكت من قبل. أ. ه».

قال ابن عاشور: «كما بعدت ثمود» فهو تشبيه البعد الذي هو انقراض مدين بانقراض ثمود، ووجه الشبه التماثل في سبب عقابهم بالاستتصال، وهو عذاب الصيحة، ويجوز أن يكون المقصود من التشبيه الاستطراد بزم ثمود لأنهم كانوا أشد جراً في مناواة رسل الله، فلما نهياً المقام لاختتام الكلام في قصص الأمم البائدة ناسب أن يعاد ذكر أشدها كفراً وعناداً فشبه بمهلك مدين بمهلككم».

من دروس الآية ٩٥:

- ١- إذا كانت المقدمات مريحة والنتائج قبيحة فما قيمة المقدمات؟
- ٢- العبرة بالخواتيم.
- ٣- نهايات الكفر بائسة وإن كانت البدايات تبدو يانعة.
- ٤- والعاقبة دواماً.. للمتقين. هذا قانون رب العالمين.
- ٥- لا يعتبر اللاحق - من أسف - من درس السابق فتكرر المآسي.
- ٦- التاريخ مليء بالعبر، لكن هات من اعتبر.

الآية ٩٦:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

الربط والمناسبة: افتتح القرآن قصص هذه السورة الكريمة بقصة نوح ثم ثنى بقصة هود فقصة صالح ثم انتقل إلى قصة إبراهيم وذكر لوطاً عليه السلام ذكراً ثم شعيب، وانتقل الآن إلى قصة موسى وفرعون.. فالقصص مرتبة زمنياً.

وقد افتتحت قصص السورة بذات فاتحة هذه القصة فقال القرآن في مطلع قصة نوح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ...﴾ ثم عطف عليها قصة هود مع قومه دون قوله «ولقد أرسلنا» بل قال ﴿وَالْيَا عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ثم قال: ﴿وَالْيَا ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾.

أما قصة إبراهيم فجاءت غمطاً مختلفاً: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ ولوط ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾.

وعطف مدين على ثمود فقال: ﴿وَالْيَا مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾..

فلما جاء إلى قصة موسى وفرعون وهي خاتمة قصص هذه السورة، عاد السياق إلى ما افتتح به القصص أعني إلى مقدمة وفاتحة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا...﴾ وكأن قصة موسى بعد هذا الفصل الطويل وبعد العطف عطفاً فقط، احتاج الأمر أن نعيد في الخاتمة صيغة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا...﴾ ليتعاقب البدء مع الختام على ما هي عادة خير الكلام والله تعالى أعلم وهو الملك العلام.

وهذه الآية (٦) كلمات و(٣٠) حرفاً وترتيبها (١٥٦٩).

المعنى: ولقد أرسلنا موسى بآياتنا: الواو للاستئناف أو للعطف بيان، واللام للقسمة وقد للتحقيق فهي في أعلى درجات التوكيد، هل لأن القوم متشككون أم لأن الأمر مهم كان هذا التوكيد أم للأمرين معاً وهو الأجمع والأروع.

أرسلنا: بنون العظمة لتدل على عظمة المرسل والرسول والرسالة والمهمة المرسل بها هذا الرسول.

بآياتنا: أرسلته بكذا.. أي لهذه المهمة محملاً بهذه الرسالة.

فالباء متعلقة بأرسلنا، وتبين بم أرسل.

وآياتنا تشمل كلمات الله التي يبلغها لفرعون وإن لم تكن كتاباً سماوياً قد أنزل بعد، والمعنى الثاني هو المعجزات التي رافقت موسى وأيد الله بها موسى.

وسلطان مبين: هل السلطان المبين هو المعجزات؟ وقبل الجواب نستمع إلى

هذه الآية من سورة القصص: ﴿وَجَعَلْ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيٰتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْفٰلِیُونَ﴾.

ويبدو والله أعلم أن السلطان حماية من الله وقوة تأثير وهيبة تحميها من تجرؤ فرعون.. ولو قلنا إن الآيات هي الكلمات التي يبلغها والسلطان هو المعجزات ما كان ذلك مستبعداً أبداً.

على أن السلطان في اللغة معروف وهو القوة والنفوذ ويطلق على الحجة لأنها قوة.. والمبين الظاهر الواضح الجلي الحاسم.

قال الزخشري: «بآياتنا وسلطان مبين» فيه وجهان: الأول: أن يراد أن هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته.

والثاني: أن يراد بالسلطان المبين العصا لأنها أبهرها.

قال ابن عاشور: «بآياتنا» الباء للمصاحبة، فإن ظهور الآيات كان مصاحباً لزمن الإرسال إلى فرعون وهو مدة دعوة موسى عليه السلام فرعون وملاه». قال ابن عجيبة: «وَسُلْطَانٌ مُبِينٌ وتسلط ظاهر على فرعون، أو برهان بين على نبوته»^(١).

من دروس الآية ٩٦:

- ١- السلطان هبة يلقيها الله على الرسل ومن تبعهم من الدعاة أو هي الحجة.
- ٢- لا يدمع كلمات الله وهي قاطعة معجزة من حسن عرض وحجة تبلغ بها الآيات.

- ٣- لو كان الدين إكراهاً وإجباراً ما كان إرسال الرسل منهجاً إلهياً.
- ٤- معركة الأفكار أخطر معركة وتحتاج إلى تدريب كسائر المعارك.

الآية ٩٧:

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيْمًا قَبْلُ مَا أَمَرُ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمَرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن إرسال موسى بالآيات والسلطان المبين، لكنها لم تبين لمن أرسل، فبينت هذه الآية لمن أرسل موسى، وأنه أرسل إلى فرعون وملئه.. ولم يذكر النص الكريم القوم، مع أن السورة مليئة بذكر القوم فكل رسول يرسل إلى قومه، ولكن فرعون نموذج مختلف ونمط جديد في سيرة وتاريخ البشرية وحياة الشعوب والأمم، وتطور سلبي في تركيز القوة في يد مجموعة، هم فرعون والملا، وصحيح أن الملا برزوا منذ قصة نوح، لكن لم يبرز القصص القرآني

(١) ابن عجيبة، البحر المحيد، ج ٢، ص ٥٥٥.

حاكماً كما فعل في قصة موسى، فدائماً كان الملا يتصدى، إنما الآن أصبح للملا قائد يقود المخططات ويحرك المؤامرات ويحرك القوات.. فتنبه لدقيق الإشارات في القصص التي تعرضها هذه الآيات من سورة هود عليه الصلوات.

وهذه الآية (١٠) كلمات و(٤٥) حرفاً وترتيبها (١٥٧٠).

المعنى: إلى فرعون وملئه: إلى: للغاية، وهي متعلقة بالآية السابقة وتحديدًا بكلمة ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فرعون: هو وصف الحاكم في مصر. وليس اسمه كما قد يتوهم بعض، ومثل هذا موجود في كل الأمم فالقيصر في الحضارة الرومانية، وكسرى في الحضارة الفارسية.. وهكذا.. وفي باقي الأمم يسمى الحاكم بمنصبه كذلك فالأمير أو الرئيس أو الملك أو المستشار كما في ألمانيا، وقد يذكر الاسم، وقد يكفي بالمنصب دون الاسم.

وأما الملا فهم المحيطون بالحاكم، وهم غالباً متقنون بعناية فائقة، بحيث يكون انسجام في التشكيلة فلا يجب المستبد أن يكون عنده معارضة حقيقية، وإنما الشكلية من نوع: ﴿وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝٢٦ يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلَيْهِ﴾ بينما الفريق الآخر يقول: ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝٢٧ يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلَيْهِ﴾ ففريق يهول يريد الحائزين على أعلى درجات التخصص في السحر للاحتياط للمواجهة، وفريق يهون ويريدهم بأدنى اختصاص - لو لزم - بشأن موسى في نظرهم يعالج بالسحر والسحرة، وإنما الخلاف على التفصيل. فالخلاف بين الفريقين صوري وشكلي، ولكن في الجوهر هم متفقون على رد دعوة موسى ومقاومته ومقاومتها ومجابهته ومجابهتها بهؤلاء، قبل أن يتصعد الأمر إلى مجابهة بالقوة إن لزم الأمر.. فالخطوط العريضة والرئيسة محل اتفاق.. وإنما المعارضة إن سميت تنويعات في اللحن الواحد. هكذا يريدون. والملا الآن في العالم هم المتنفذون من مراكز الدراسات

ومراكز القوى الاقتصادية والإعلام وأصحاب شركاتها، والمستشارون، وأصحاب المناصب العليا الرسمية. وقد يكون الملاء غير ظاهر للعيان لكنه يرسم سياسات، أو يسهم في رسمها^(١).

فاتبعوا أمر فرعون: الفاء تفيد المسارعة، وهي مقصودة لهذا المعنى، وللإيحاء به.. أي أن القوم أعني الملاء ومعلمهم، ردوا فوراً برفض دعوة موسى وتمسكوا بالوضع القائم، الذي أطلق عليه القرآن: ﴿أَمَرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي قانونه وحكمه وأحكامه ومنهجه في السياسة والاقتصاد والاجتماع، وهو المنهج القائم على التمييز والمحابة والاستئثار والتمتع بالخيرات من قبل فئة هم الملاء ومن يلوذ بهم، ويتصل بدائرتهم. لخص القرآن كل ذلك بكلمة وأضافها إلى فرعون ﴿أَمَرَ فِرْعَوْنَ﴾ ولخص موقف الملاء أيضاً بكلمة مع فاء التعقيب كما أشرنا: ﴿فَاتَّبَعُوا﴾ فإيا للإعجاز والإيجاز وحشد المعاني بأقل الألفاظ وأغناها بالدلالة والإيحاء بالمطلوب.

ولا يتركنا القرآن في عماية بالنسبة لأمر فرعون، فلا بد أن يصدر حكمه، ويبين صفة هذا الحكم وهذا الأمر، فيختم الآية بقوله حكماً على أمر فرعون ﴿وَمَا أَمَرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ وجمع العلل كلها والمساوئ المتجمعة في نظام فرعون بكلمة أو في كلمة أيضاً هي نفي الرشد عن نظامه، ويا للروعة في هذا الإيجاز المدهش والإعجاز المعجب، إي والله، ﴿وَمَا أَمَرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ ولو تأملت لوجدت هذا سمة أغلب ما يدور في العالم من أحوال وأوضاع وسياسات، فالعالم كله منحاز للباطل، وتأمل

(١) كان ميردوخ ملك وسائل الإعلام في العالم وبريطانيا وأمريكا، كان يدعو بلير رئيس الوزراء في نهاية الألفية الماضية ومطلع الحالية، وهو من وراء الكواليس يتدخل في تعيين وزراء، أو تغيير قرارات، أو سن قوانين.. وكان بلير لا يتأخر عن دعوته ومثل ميردوخ موجود في كل دول العالم وليس فقط في دولة عريقة ذات تقاليد كبريطانيا.

كيف يقف العالم كله لحماية الإلحاد والشذوذ وتقول رأس المال والخصخصة لتستولي رؤوس الأموال والشركات التي هي لهم، لتستولي على ثروات الشعوب. والرشد ملخص للقيادة الحكيمة والمبادئ السليمة والقوانين الرحيمة.. ولذا وصفت فترة خلفاء الرسول عليه الصلوات بالحكم الراشدي، ووصف الخلفاء بـ«الخلفاء الراشدون» وسمي عمر بن عبد العزيز بالراشدي الخامس أو خامس الراشدين، وبشرنا النبي عليه الصلوات بعودة الخلافة الراشدة، وليس أي خلافة مدعاة، وفي صحبة موسى مع العبد الصالح كان مطلبه من هذه الرحلة وهدفه والغاية منها ﴿عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَٰنَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

والأيتام لا تُدفع إليهم أموالهم إلا إذا ﴿ءَاتَيْتُم مِّنْهُمْ رُّشْدًا﴾ فالسَّفه الذي هو نقيض الرشد عدو المال وعدو الإدارة وعدو السياسة ونقيض الحكمة والمصلحة والإعداد، وهو رمز التبديد والتبذير والتخريب والتدمير والتمزيق والتقطيع.

ولو تأملنا ما رزق الله به العالم العربي من ثروات ثم نظرنا ما مقدار العائد على الأمة منها لوجدنا قريباً من العدم، فلا صناعة متطورة ولا زراعة متقدمة، ولا إدارة محدثة، ولا بحث علمي معتنى به، ولا جامعات راقية، ولا خدمات صحية واجتماعية على مستوى ما يتمتع به العالم، فلماذا؟

إنه كلمة ويتلخص بلفظة: الرشد، الذي إن وجد فالسعادة والتقدم وإن فقد فالشقاء والعدم والندم.

«إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ جَاعَتُهُ، فَأَتَبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ أَي: اتبعوا أمره بالكفر بموسى، أو: فما اتبعوا موسى الهادي إلى الحق، المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة، واتبعوا طريقة فرعون المنهمك في الضلالة والطغيان، الداعي إلى ما لا يخفى فساده على من

له أدنى مسكة من العقل لفرط جهالتهم، وعدم استبصارهم، وما أمرُ فرعونَ برشيدٍ أي: ليس أمره برشد وصواب، وإنما هو غي وضلال^(١).

قال الزمخشري: «أي أنهم عابوا الآيات والسلطان المبين في أمر موسى عليه السلام وعلموا أن معه الرشد والحق ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط».

قال ابن عاشور: «المقصود أن أمر فرعون سفة إذ لا واسطة بين الرشد والسفة، ولكن عدل عن وصف أمره بالسفيه إلى نفي الرشد عنه تجهيلاً للذين اتبعوا أمره، لأن شأن العقلاء أن يتطلبوا الاقتداء بما فيه صلاح وأنهم اتبعوا ما ليس فيه أمانة على سداذه واستحقاقه لأن يتبع فماذا غرهم باتباعه».

من دروس الآية ٩٧:

- ١- الرسل عدتهم ووسيلتهم الكلمة والحجة والبيئة.
- ٢- أصحاب المصالح والنفوذ هم من يملك القوة ويقاوم دعوة الأنبياء بالقوة.
- ٣- كل الرسل كانوا يرسلون إلى أقوامهم بينما أرسل موسى إلى شخص هو فرعون والملا المساعد له.
- ٤- التاريخ البشري في الظاهر يسير نحو تمكين الشعوب من حكم نفسها باسم ما يسمى الديمقراطية، وهي خدعة ضخمة، بينما المتحكم الحقيقي ليس الشعب ولا حتى الرؤساء، إنما هم أصحاب رؤوس الأموال، الذين يتحكمون بالسياسة والساسة، والشعوب تفرج ويمثل عليها أنها تحكم باسم الصناديق والانتخاب، بينما هم أعني الملا من يقدم لك من تنتخبه فيصوره بصورة المنقذ والمخلص، إلى أن تنتهي اللعبة وينكشف الغطاء عن لا شيء، فتعاد الكرة، وبوش الابن كان قمة أو

غاية في الغباء كما تقول أمه فما الذي أنجحه؟ إنها الشركات، ومن جاء بفلان أو فلان؟ الجواب نفسه.

٥- طريق التغيير غير يسير بما يوضع فيه من عقبات والكثير من التكدير.

٦- الملائكة تختلف صورته، وفكرته واحدة على مر الأجيال والأقوام.

٧- الرشده هو ما ينقص العالم والأمة الإسلامية بالذات هذه الأيام.

الآية ٩٨:

﴿يَتَقَدَّمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْوَرْدَ الْمَرْوُودُ﴾ (٩٨)

الربط والمناسبة: ختمت الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُهُمْ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وهذه الآية تبين كيف أدى به انعدام الرشده إلى جهنم حيث يكون طليعة قومه إلى النار ويتقدمهم إلى جهنم ويثس القرار.. فما أبعد هذا عن الرشده!

دمار في الدنيا بإغراق من معه جميعاً والنار في الآخرة.

وهذه الآية (٩) كلمات و(٤٥) حرفاً وترتيبها (١٥٧١).

المعنى: يقدم قومه: يتقدم قومه ويؤمهم إلى النار، وصدق الله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا

كُلَّ نَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُونَ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ

﴿١١﴾ وَأَنْتَبِعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾.

يوم القيامة: كما كان يتقدمهم في الدنيا، وفي الدنيا أوردتهم البوار والخسار والضنك في العيش، وتقدمه في الآخرة سيجرهم وراءه إلى النار، فما أخسرها من صفقة، والويل لمن لا يتعلم ولا يعتبر.

وبئس الورد المورد: وساء هذا الوارد والورد المورد.

وبئس القرار وبئس المصير وبئس المورد!

يقول مخلوف: «يقدم قومه: يتقدمهم ويقودهم إلى النار، كما قادهم في الدنيا إلى الكفر والضلال، من قدم يقدم قدماً وقُدُوماً، أي تقدم، فأوردهم النار: أدخلهم فيها بكفره وكفرهم، الورد المورد: المدخل المدخول فيه وهو النار».

قال الزخشري: «فإن قلت: هلا قيل يقدم قومه فيوردهم، ولم جيء بلفظ الماضي؟ قلت: لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به، فكانه قيل: يقدمهم فيوردهم النار لا محالة، و«الورد المورد» الذي وردوه شبه بالفارط الذي يتقدم الواردة إلى الماء وشبه اتباعه بالواردة، ثم قيل: بئس الورد الذي يردونه النار».

قال ابن عاشور: «فأوردهم النار» استعارة الإيراد إلى التقدم بالناس إلى العذاب، وهي تهكمية لأن الإيراد يكون لأجل الانتفاع بالسقي وأما التقدم بقومه إلى النار فهو ضد ذلك.

وإنما جاءهم «فأوردهم» بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوع ذلك الإيراد وإلا فقرينة قوله: «يوم القيامة» تدل على أنه لم يقع في الماضي».

يقول محمد طه الدرة: «ونزل النار منزلة الماء، فسمى إتيانها مورداً على سبيل الاستعارة التصريحية، وقيل استعارة مكنية تهكمية للضد وهي الماء».

فإن المورد يراد لتبريد الأكباد وتسكين العطش، والنار بالضد من هذا المورد المنهل من الماء، والمورود الماء الذي يورد والموضع الذي يورد، وهو بمعنى المفعول، ومن يرد على الماء يقال له: وارد وجمعه: واردون ووراد^(١).

قال المظهرى: «يَقْدُمُ قَوْمَهُ أَي يَتَقَدَّمُهُمْ يُقَالُ: قَدِمَ بِمَعْنَى تَقَدَّمَ «يَوْمَ الْقِيَامَةِ» إِلَى النَّارِ كَمَا كَانَ يَتَقَدَّمُهُمْ فِي الدُّنْيَا إِلَى الضَّلَالِ «فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ» ذَكَرَهُ بِلَفْظِ الْمَاضِي مَبَالِغَةً فِي تَحْقِيقِهِ وَنَزَلَ النَّارَ لَهُمْ مَنَزَلَةُ الْمَاءِ حَتَّى سَمِيَ إِبْتِهَاً وَرُوداً «وَيُشْسَ الْوَرْدُ الْمَوْزُودُ» أَي بِشَسِّ الْوَرْدِ الَّذِي وَرَدُوهُ، فَانْه يَرَادُ لِتَبْرِيدِ الْكَبِدِ وَتَسْكِينِ الْعَطَشِ وَالنَّارِ بِالضَّدِّ»^(١).

من دروس الآية ٩٨:

- ١- أئمة الضلال في الدنيا أئمة النار في الآخرة.
- ٢- فرعون نموذج لكل طاغية دمر عيش قومه ودمر مصيرهم وآخرتهم.
- ٣- هذا القصص يقصه القرآن ليعتبر الخلق ولا يقامروا بمصائرهم.
- ٤- ما أسوأ من يبيع آخرته بثمرن من الدنيا قليل.. بالغاً ما بلغ.
- ٥- الذي يسير بلا تفكير يصبح كالقطيع يتنازل عن أخص خصائص الأدمية وهي حرية الإرادة والاختيار.

الآية ٩٩:

﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ لِلرَّفْدِ الْمَرْفُودِ ﴿١١﴾﴾

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن تقدم فرعون قومه إلى النار، وعادت هذه الآية بالاتباع والمتبوعين إلى ساحة الدنيا لتعرفنا أنهم ألحقوا فيها باللعنات تطاردتهم وتتبعهم، أما يوم القيامة فبئس الرفد والمرتفق.

وهذه الآية (٩) كلمات و(٤١) حرفاً وترتيبها (١٥٧٢).

المعنى: ما أشبه هذه الآية بآية القصص التي استشهدنا بها قبل قليل.

وأتبعوا: وألحقوا في هذه الحياة الدنيا لعنة، وبني الفعل وأتبعوا للمجهول يشمل كل أحد فالله يلعنهم ورسله المؤمنون، بل تلعنهم الخلائق كلها.. والملائكة في أول الخلق الذين يلعنون فرعون ومن تبعه، كما قال الله تعالى عن أمثالهم: ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وقال: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاحِقُونَ﴾.

في هذه: اكتفى بـ«هذه» اسم الإشارة مع الضمير دون ذكر الدنيا، لوضوح المقصد، وأنها المقصودة أي الدنيا.. وحذفها إما للإيجاز، وإما للأنفهام، وإما لهما معاً، وإما لأبراز الآخرة وهوان الدنيا.

ويوم القيامة بشس الرغد المرفود: بشس العطاء الذي يعطونه يوم القيامة، وبشس ما قدم فرعون لقومه في الدنيا والآخرة.

قال خلوف: «بشس الرغد المرفود: الرغد: العطاء، يقال: رغده، يرفده رغداً، أعطاه والرغد - بالكسر -، اسم منه، وأصله ما يضاف إليه غيره ليعمره (ويدعمه) ويقيمه، ومنه: رغد الحائط دعمه، وقد لُعنوا في الدنيا، ولُعنوا في الآخرة. أي بشس العطاء المعطى لهم تلك اللعنة المضاعفة، وسميت اللعنة رغداً تهكماً بهم. أ. هـ».

قال الشوكاني: «ثُمَّ دَمَّهِمْ بَعْدَ ذَمِّ الْمَكَانِ الَّذِي يَرُدُّونَهُ، فَقَالَ: وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَتَهُ، أَي: أَتَّبِعَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ مُطْلَقاً، أَوِ الْمَلَأَ خَاصَّةً، أَوْ هُمْ وَفِرْعَوْنُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً عَظِيمَةً، أَي: طَرْدًا وَإِبْعَادًا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَي: وَأَتَّبِعُوا لَعْنَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَلْعَنُهُمْ أَهْلُ الْمَحْشَرِ جَمِيعًا، ثُمَّ إِنَّهُ جَعَلَ اللَّعْنَةَ رَغْدًا لَهُمْ، عَلَى طَرِيقَةِ التَّهْكِيمِ، فَقَالَ: بِشَسَ الرُّغْدِ الْمَرْفُودِ. قَالَ الْكِسَائِيُّ وَأَبُو عُبَيْدَةَ: رَفَدْتُهُ، أَرَفَدْتُهُ، رَفَدًا: أَمْنْتُهُ وَأَعْطَيْتُهُ، وَأَسْمُ الْعَطِيَّةِ: الرُّغْدُ، أَي: بِشَسَ الْعَطَاءِ وَالْإِعَانَةِ مَا أَعْطَوْهُمْ إِيَّاهُ، وَأَعَانَوْهُمْ بِهِ،

وَالْمَخْصُوصُ بِالذِّمِّ مَحْذُوفٌ، أَي: رَفَذَهُمْ، وَهُوَ اللَّعْنَةُ الَّتِي أُتْبِعُوهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَأَنَّهَا لَعْنَةٌ بَعْدَ لَعْنَةٍ تَمُدُّ الْآخِرَى الْأُولَى وَتُؤَبِّدُهَا^(١).

قال الزمخشري: «بئس الرد المرفود»: أي بئس: العون المعان وذلك أن اللعنة في الدنيا ردت للعذاب ومدد له وقد ردت باللعنة في الآخرة، وقيل: بئس العطاء المعطى».

من دروس الآية ٩٩:

- ١- اللعنة تلاحق من ظلموا الخلق ودمروا حاضرهم ومستقبلهم.
- ٢- ونموذج لهؤلاء الملعونين فرعون وملؤه وقومه.
- ٣- ما أشقى من أضرع وبدد دنياه وآخرته.

الآية ١٠٠:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾

الربط والمناسبة: هذا تعليق على قصة فرعون وما آل إليه أمره وقومه في الدنيا والآخرة، بل هذا تعليق على سائر قصص السورة، يشمل قصة فرعون وكل من سبقه من الأقوام المهلكة.

وهذه الآية (٩) كلمات و(٣٦) حرفاً وترتيبها (١٥٧٣).

المعنى: ذلك: اسم إشارة واللام للبعد والكاف للخطاب، فكأنها ثلاث كلمات وهي كلمة واحدة.

واسم الإشارة يعود إلى كل ما ذكر من قصص السورة التي كان ختامها قصة فرعون.

من أنباء القرى^(١): من الأخبار ذات الشأن، أخبار القرى، والمقصود بالقرية، وفق المصطلح القرآني، وهو ما يعني القوم أو الشعب أو الأمة، أو أحياناً حضارة برمتها، كالحضارة الفرعونية، أو حضارة عاد.. أو ثمود.. فهذه الأقوام أنشأت حضارة، وليست مجرد قرية كما هو المصطلح الدارج اليوم.

نقصه^(٢) عليك: نرويه لك بأسلوب القصة، الذي يستعذبه كل أحد، فكيف قصص القرآن الموجز المعجز بمنهجيته المتفردة الفذة في القصص، والله تعالى هو الذي يقص هذا القصص عليك يا أعظم الرسل في هذا الكتاب أعظم الكتب.

منها قائم وحصيد: منها ما زالت آثاره وتؤثر عليه وتدل عليه ومنها ما هو حصيد فلا ترى له أثراً ولا بقية باقية بل درس واندرس وأصبح مادة للدرس.

قال الزخشي: «منها» الضمير عائد على القرى، أي: بعضها باقٍ وبعضها عاني الأثر كالزروع القائم على ساقه والذي حُصد.

قال ابن عاشور: «قائم» صفة لموصوف محذوف دلّ عليه عطف «وحصيد» والمعنى: منها زرع قائم وزرع حصيد، وهذا تشبيه بليغ. والقائم: الزرع المستقل على سوقه. والحصيد: الزرع المحصود، فعيل بمعنى مفعول، وكلاهما مشبّه به للباقي من القرى والعافي.

(١) القرى: جمع قرية. وهي في الأصل اسم للمكان الذي يجتمع فيه القوم، وهو يطلق على المدينة الكبيرة وغيرها. وقد جعل الله سبحانه مكة أم القرى قال: ﴿وَلَنُنْزِلَنَّ الْقُرْآنَ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. وقد وردت القرية ٣٣ مرة في القرآن.

(٢) نقصه: والقص تتبع الأثر، يقال: قص فلان أثر فلان، أي تتبعه ليعرف أين ذهب، ومنه قوله تعالى عن أم موسى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أي اتبعي أثره. والقص كذلك رواية الخبر وهذا تتبع وهذا تتبع، ولم ترد نقصه في القرآن إلا هنا في هود.

قال الجاوي: «ذلك بعض أخبار القرى المهلكة بجنابة أهلها، مقصوص عليك لتخبر به قومك لعلهم يعتبرون، وإلا فينزل بهم مثل ما نزل بالقرى المهلكة «مِنْهَا» أي القرى «قَائِمٌ» أي أثر باق وَمِنْهَا «حَصِيدٌ» أي ذاهب الأثر، فشبه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزراع القائم على ساقه، وما محي منها بالزراع المحصود»^(١).

من دروس الآية ١٠٠:

- ١- أسلوب القصص مهم في التدريس والعرض.
- ٢- القصص القرآني قمة القصص وذروتها.
- ٣- منهج القصص القرآني منفرد وينبغي الحفاظ عليه بعدم خلطه بالإسرائيليات.
- ٤- القرى المهلكة منها ما ترك الله منه علامات تدل عليه ومنها ما درس.

الآية ١٠١:

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ﴾^(١٠١)

الربط والمناسبة: كانت الآيات السابقة تتحدث عن قصص عدد من الأقوام آخرهم فرعون والملائم المعاون له، وكيف أنهم جميعاً انتهوا بالهلاك وإلى الهلاك، وتكلمت الآيات ٩٨ و ٩٩ عن تعقيبات على قصة فرعون بالذات وهذه والسابقة تعقيب على قصص سورة هود جملة.

وهذه الآية (٢٤) كلمة و(٩٤) حرفاً وترتيبها (١٥٧٤).

(١) الجاوي، مراح لبيد لكشف معاني القرآن المجيد، ج ١، ص ٥١٧.

المعنى: وما ظلمناهم: هذا الهلاك الذي قصصته^(١) عليكم للأقوام السابقة لم يكن ظلماً ومعاذ الله أن يكون بل هو محض العدل وصریحه، فقد أمهلهم الله بما فيه مزيد عن الكفاية فما ارعوا وما ارتدعوا، وما انزجروا وما كفوا عما أُنذروا عنه ونهوا.

ولكن ظلموا أنفسهم: ولكن هؤلاء المهلكين كانوا أنفسهم يظلمون، إذ أوردوها هذه الموارد الصعبة من حيث كانوا يظنون أنهم يمتعونها وينعمونها وهم كانوا يهلكونها، لو أنهم كانوا يفطنون أو يعقلون.

فما أغنت عنهم آلتهم: فما دفعت عنهم آلتهم المدعاة المزعومة عذاب الله إذ حل بهم.

التي يدعون من دون الله: هذه الآلهة التي كانت تُعبد وتُدعى من دون الله، مع أنها لم تخلق ولم ترزق ولا تملك شيئاً فما أشد حماقة من كفر بالله وأشرك هذه الأوهام.

من شيء: زيادة من كما في المصطلح النحوي لا البلاغي لإفادة شيء أي شيء مهما قل أو ضؤل، أغنت هذه الآلهة إطلاقاً.. لم تجد ولا أي شيء.

لما جاء أمر ربك: لما جاء عذاب الله وحق وعد الله وحل أجل الله، الذي ضربه هلاك المكذبين الكافرين.

وأضاف ربك إلى ضمير المخاطب وهو سيد الخلق تكريماً له وتشريفاً.

وما زادوهم غير تتيب: وما زاد الزعماء ولا الآلهة المزعومة، ما زادت من تبعوها واعتقدوها وتوهموها بمن عبدوها ودعوها بعد أن ادعوها ما زادتهم إلا هلاكاً ووباراً وخساراً وتدميراً.

(١) وسميت الحكاية قصة لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً. الدرر المجلد السادس ص ٣٧٨.

قال مخلوف: «غير تتيب: غير تخسير وإهلاك، والتب والتباب والتتيب النقص والخسارة، يقال: تبت يده: أي خسرتا: وهي كناية عن الهلاك. أ. هـ^(١)».

قال ابن عاشور: «وما زادوهم غير تتيب» علاوة وارتقاء على عدم نفعهم عند الحاجة بأنهم لم يكن شأنهم عدم الإغناء عنهم فحسب ولكنهم زادتهم تتيباً وخسراناً، أي زادتهم أسباب الخسران. وظاهر هذا أن أصنامهم زادتهم تتيباً لما جاء أمر الله، لأنه عطف على الفعل المقيد بـ«لما» التوقيتية المفيدة أن ذلك كان في وقت مجيء أمر الله وهو حلول العذاب.

قال القاسمي: «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ بِإِهْلَاكِنَا إِيَّاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَيْ بتعريضها لما أوجبه من الشرك وعبادة الأوثان والظلم فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتِيْبٍ أَيْ إهلاك وتخسير»^(٢).

من دروس الآية ١٠١:

- ١ - لا يظلم ربك أحداً.
- ٢ - المهلكون لم يظلمهم الله، بل أمهلهم ومد لهم الحبل طويلاً.
- ٣ - المهلكون هم تسببوا في هلاك أنفسهم وهم ظلموها.
- ٤ - المشركون لم يجنوا من شركهم إلا الدمار.
- ٥ - لا يغني أحد عن أحد شيئاً إذا حل عذاب الله.
- ٦ - كم سيطول ندم من اتخذ إلهاً سوى الله.
- ٧ - لفظ (تتيب) أقوى بيناته اللفظي وهو دليل على الخسارة والدمار.

(١) التتيب والتباب مصدران والفعل تَبَّ ومنه قوله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أي خسرت وهلكت.

(٢) القاسمي، محاسن التأويل، ج٦، ص ١٣٠.

الآية ١٠٢:

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢)

الربط والمناسبة: بعد أن تكلم السياق عن عقاب فرعون في الآية ٩٨ وأنه طليعة قومه إلى النار، والآية ٩٩ وعن لعنته في الدنيا.. ثم عمم السياق الحديث عن المعذبين عموماً في الآية ١٠٠ والآية ١٠١، وفي هذا السياق جاءت هذه الآية.

وهذه الآية (١٢) كلمة و(٤٣) حرفاً وترتيبها (١٥٧٥).

المعنى: وكذلك: الواو إما عاطفة حالة على حالة وقصة على قصة، وإما استئنافية جواباً عن سؤال مقدر نشأ عن الكلام السابق.

والكاف للتشبيه، إما تشبيه حالة بحالة، أي كما أخذ الأقوام السابقة أخذ فرعون وجنوده، وإما من تشبيه الشيء بنفسه إذا بلغ غاية ما فوقها غاية، وهذا كثير في القرآن ومنه لا على الحصر وإنما للتمثيل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا..﴾ وعشرات غيرها.

أخذ ربك: أول ما يستوقف لفظ الأخذ، وكأنه سبحانه كان قد تركهم ثم بعد أن أمهلهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر ومنه ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ...﴾ (١).

ثم نقف عند الإضافات: إضافة الأخذ إلى لفظ الرب ليفيد عظمتة وقوته أي الأخذ، لأنه من الرب العظيم.. وأضاف الرب إلى ضمير خطابه ﷺ، للعناية

(١) وورد في هود ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ﴾ [٩٤] وورد ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ﴾ [٦٧] ورد أخذ ١١ مرة

وأخذت مرتين وورد أخذت وأخذتكم مرة لكل وورد أخذتم مرتين وأخذته كذلك، وأخذتها مرة وأخذتهم ١٠ يسكون التاء، وبضم التاء مرتين. وأخذنا ١٦ مرة فأخذناه ٣ مرات وأخذناهم ٧.. إلى آخره.. فهي غزيرة المورد.

والتشريف، وأما اختيار لفظ الرب، فهو الذي يربي والشدة تربي كذلك لمن يستحقها، بعد التربية بالتعهد واللين والتجاوز يأتي الأخذ.

إذا أخذ القرى: هذا اللفظ الثاني للأخذ في هذه الآية وسيمر ثالث وهذا التكرار لهذه المادة لتقريرها في الذهن بقوة من خلال التكرير.

وإذا: ظرف لما يستقبل من الزمان، وهي شرط أيضاً.

أخذ: الأخذ كناية عن العذاب والإهلاك، أو مجازفيه.

القرى: أهلها أي الأقوام والأمم، أو القرى بمن فيها وبساكنيتها.

وهي ظالمة: الواو للحال، والجملة الحالية تتكون من مبتدأ وخبر لكنهما في محل نصب على الحال، وهذه الجملة الحالية لتثبت العدالة الإلهية، فهو لا يأخذ البريء، وإنما يأخذ القرى الظالمة والحضارات الظالمة والأمم الظالمة، وسيمر بنا في الآية ١١٧ من هذه السورة:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ بعد أن قال في الآية ١١٦ قبلها: ﴿وَأَتَّبِعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

إن أخذه اليم شديد: ختام شديد في هذه الآية التي شحنت بهذا اللفظ شحناً لتعطي شحنة من القوة في الذهن والوجدان، وتعزيز يقين المؤمنين بنصرهم وأخذ الظالمين.

وأضاف الأخذ إلى ضميره، أي الضمير العائد إلى لفظ الرب لتعظيم الأخذ مرة أخرى.

اليم: مؤلم.. شديد.. وأضاف إليها وصفاً آخر هو: شديد. أي أخذ شديد بالم شديد.. والشديد المتين القوي العنيف.

قال الزخشي: «اليم شديد» وجيع صعب على المأخوذ وهذا تحذير من وخامة عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بذنب يقترفه، فعلى كل من أذنب أن يحذر أخذ ربه الليم الشديد فيبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال».

قال رضا: «أي: وَمِثْلُ ذَلِكَ أَخَذَ بِالْعَذَابِ وَعَلَى نَحْوِ مِنْهُ أَخَذَ رَبُّكَ لِأَهْلِ الْفُرَى فِي حَالِ ثَلْبَسِهَا بِالظُّلْمِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَكُلِّ قَوْمٍ «إِنْ أَخَذَهُ الْيَمُّ شَدِيدٌ» أَيْ وَجِيعٌ قَاسٍ لَا هَوَاةَ فِيهِ وَلَا مَفَرَّ مِنْهُ وَلَا مَنَاصَ، فَالْجُمْلَةُ بَيَانٌ لِلتَّشْبِيهِ فِيمَا قَبْلَهَا. أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَابْنُ خَالٍ وَابْنُ مَرْقُوعًا: «إِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ ۞ هَذِهِ آيَةٌ. وَهُوَ تَصْرِيحٌ بِعُمُومِهَا، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ قَلَمَا يَعْتَبِرُونَ، وَلَا سِيَمًا إِذَا كَانُوا مَعَ ظُلْمِهِمْ مَغْرُورِينَ يَدِينُ يَتَحَلَّوْنَ بَلْقِيهِ، وَلَا يَحْسَبُونَ حِسَابًا لِإِمْلَاءِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَاسْتِذْرَاجِهِ»^(١).

من دروس الآية ١٠٢:

١- عجب كيف يعرض الناس أنفسهم لغضب الله وعقابه، وكيف لا تجرؤ دولة صغيرة على تحدي دولة كبرى، ولكنهم يتجرؤون على الله لأنهم لا يعرفونه ولا يعرفون قوته وبطشه وأخذه سبحانه.

٢- نحن قصرنا في الدعوة وتعريف الناس ببرهم، وإلا لتجنبوا الاستهتار المؤدي بهم إلى النار.

٣- الله يمهل ولكنه لا يهمل فياخذ أخذاً لا يبقى ولا يذر.

- ٤- في القصص عبر والتاريخ الإنساني مليء بالعبر ولكن قل من اعتبر!
- ٥- ﴿وَهُيَ ظَالِمَةٌ﴾ ظالمة لنفسها بالشرك والفساد والإعراض عن دعوة التوحيد والصلاح.

٦- قال الخازن: «إنه من أقدم على ظلم فإنه يجب عليه أن يتدارك ذلك بالتوبة والإنابة، ورد الحقوق إلى أهلها، إن كان الظلم للغير لثلا يقع في هذا الوعيد العظيم، والعذاب الشديد. ولا يظن أن هذه الآية حكمها مختص بظالمي الأمم السابقة، بل هو عام في كل ظالم»^(١).

الآية ١٠٣:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ

مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن أخذ الله القرى وهي ظالمة، وأن هذا الأخذ أليم شديد، وهنا يقول عنه إنه آية أو فيه أي هذا الأخذ آية وعلامة على قدرة الله التي لا يقف لها شيء، وعلى بطشه بمن تحدها، لكن هذه الآية لمن؟ إنها لمن خاف عذاب الآخرة وعرفنا النص الكريم أو الآية الكريمة به أنه يوم يجتمع فيه الناس.

وهذه الآية (١٦) كلمة و(٥٩) حرفاً وترتيبها (١٥٧٦).

المعنى: إن في ذلك لآية: إن: للتوكيد وهي من النواسخ بل كل أخواتها تنسب إليها فيقال عنهن أخوات إن أو إن وأخواتها. وهي تنصب اسمها وترفع خبرها.. أو يظل على حاله من الرفع.

في: حرف جر يفيد الاستغراق، ذلك: اسم إشارة واللام للبعد. والكاف للخطاب، فكأنها ثلاث كلمات في كلمة. وهذا من وجازة اللغة العربية، التي شرفها وتاجها هذا القرآن العظيم.

لاية: اللام في خبر إن وهي المرحلة ترحلت من المبتدأ إلى الخبر بعد أن كانت أداة استفتاح.

والآية هي العلامة الدالة، أو الدلالة على شيء، وهنا تدل على قدرة الله وأليم عقابه وشديد عذابه، وبطشه بأعدائه، ونصره لأوليائه.

لمن خاف عذاب الآخرة: من الذي يتنفع بالآيات وهذه من أهمها؟ إنه الذي يخاف عذاب الآخرة، مع أن الكلام عن عذاب الدنيا، لكن لا يعتبر إلا من آمن بالآخرة، فكان النص الكريم اختزل الإيمان كله في الإيمان بالآخرة، واختزل الإيمان بالآخرة في الخشية من عذاب الله فيها.

ذلك يوم مجموع له الناس: ذلك: اسم إشارة كسابقه، والآية شقان ما مضى أولهما وهي ٨ كلمات وهذا ثانيهما وهو ٨ كلمات، وذلك الشق الأول فيه ذلك مرة وهنا مرتان ولم يذكر اليوم هناك وهنا ذكر مرتين.

يوم: خبر المبتدأ ذلك، وما بعد يوم صفة له، وقد عبر عنه القرآن بالإضافة مرة أو مرات فقال عنه ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ﴾ وأتى بالمضاف إليه صفة هنا، ومجموع: اسم مفعول، ولم يقل فيه وإنما قال له، فهم قد جمعوا لهذا اليوم أي للحساب في هذا اليوم والجزاء.

الناس: ال للاستغراق وللجنس كله أي كل الناس وكل من يصح أن يطلق عليه أنه من الناس لا يستثنى أحد لا المؤمن ولا الكافر ولا الصغير ولا الكبير.

وذلك يوم مشهود: أعاد بعد حرف العطف اسم الإشارة ذلك وظرف الزمان يوم وأعاد الصفة المفيدة الاجتماع، لكنها قد تكون أوسع فهي قد تشمل مع الناس الملائكة، فهم شهود يشهدون في ذلك اليوم.

قال الزمخشري: «(لَا يَءَمْنُ مَنْ خَافَ...)» لعبرة له، لأنه ينظر إلى ما أحل الله بالجرمين في الدنيا وما هو إلا أنموذج مما أعد لهم في الآخرة فإذا رأى عِظْمَهُ وشِدَّتَهُ اعتبر به عظم العذاب الموعود فيكون له عبرة وعظة ولطفاً في زيادة التقوى والخشية من الله تعالى.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «الأخذ الأليم الشديد في الدنيا علامة على عذاب الآخرة، يراها من يخافون عذاب الآخرة فيخافوا من هذا العذاب، ويعبر السياق بالقلب البشري من مشاهد الأرض إلى مشاهد القيامة على طريقة القرآن في وصل الرحلتين بلا فاصل».

يقول الشيخ محمد طه الدرة: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾: «أي يشهده أهل السماوات والأرض، والأصل مشهود فيه أهل السماوات والأرض، فأتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به، إذ المراد مشهود فيه لا مشهود في نفسه، لأن سائر الأيام مشهودة كلها لجميع الناس، ومنه قولهم: لفلان مجلس مشهود وطعام محضور، قال في الحماسة:

ومشهدٍ قد كفيت الغائبين به في محفلٍ من نواصي الناس مشهود»^(١).

قال ابن عاشور: «جعل عذاب الدنيا آية دالة على عذاب الآخرة لأن القرى الظالمة توعدّها الله بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ فلما عاينوا عذاب الدنيا كان تحقّقه أمانة على تحقّق العذاب الآخر».

قال المراغي: «إن فيما قصه الله من إهلاك أولئك الأمم وبيان سنته في عاقبة الظالمين، لحجة بيّنة وعبرة ظاهرة لمن يخاف عذاب الآخرة يعتبر بها فينتقى الظلم في الدنيا على سائر ضروره، إذ يعلم أن من عذب الظالمين في الدنيا قادر أن يعذبهم في الآخرة، وأن ما حاق بهم في دار الفناء، أمّوذج لما يكون لهم في دار البقاء... **«ذَلِكَ يَوْمَ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ»** أي ذلك اليوم الذي يقع فيه عذاب الآخرة يوم يجمع له الناس كلهم ليحاسبوا على ما عملوا ثم يوفوا جزاءهم بالعدل والقسطاس. **«وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ»** أي وذلك يوم يشهده الخلائق جميعاً من الإنس والجن والملائكة وغيرهم»^(١).

من دروس الآية ١٠٣:

- ١ - لا يستفيد من آيات الله إلا المؤمن.
- ٢ - الإيمان بالآخرة من أعظم أركان الإيمان.
- ٣ - اقتصر القرآن أحياناً على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، وهنا أفردّه حتى عن الإيمان بالله لأنه يتضمنه عملياً، فما الإيمان باليوم الآخر إلا الإيمان بقاء الله.
- ٤ - وصفت الآية اليوم الآخر بأنه يوم مجموع له الناس، وأنه يوم مشهود.
- ٥ - الذين لا يخافون الآخرة تظلّ قلوبهم صماء كالصفاء لا تتفتح للآيات.

(١) تفسير المراغي، ج ١٢، ص ٨٤ - ص ٨٥.

الآية ١٠٤:

﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن يوم القيامة ووصفته، وهذه الآية تبين أن له موعداً محدداً، لن يتقدم لأن الله حدده، فالذين يستعجلونه لا يعلمون هذه الحقيقة ولا يقدرول هول ذلك اليوم.

وهذه الآية (٥) كلمات و(٢٠) حرفاً وترتيبها (١٥٧٧).

المعنى: وما تؤخره إلا لأجل معدود: الواو استئناف أو عطف، وما نافية. تؤخره: عبر بنون العظمة لأنه الأليق بعظمة ذلك اليوم وشأنه. والتأخير، هنا كناية عن الأجل المحدد، بدلالة التصريح به في قوله ﴿لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ وإنما التعبير بالتأخير حسب تصور من يستعجلون اليوم الآخر ويرونه بعيداً، وإلا فهو لن يتأخر عن مواعده ساعة ولن يتقدم. أو لطول المهلة المعطاة للناس، والله أعلم.

إلا: بعد النفي الذي سبقها تفيد الحصر والقصر، وهو قصر حقيقي.

لأجل معدود: أي لموعد مضروب محدد موقت مؤجل لا يستعجل، ولا يبدل ولا يتخلف ولا يتخلف ولا يؤخر.

ومعنى معدود أي له موعد مضروب محدد بأدق قياس الزمن بمصطلح البشر وإلا فإن الله لا تعوزه وسائل البشر سبحانه، بل البشر هم يضبطون أدوات توقيتهم على حركة الكون الذي جعله الله تعالى بحسبان، المهم أن هذا الموعد المضروب المؤقت بأجل لن يتزحزح عما عين وحدد له.

قال الزمخشري: «الأجل: يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى انتهاها فيقولون: انتهى الأجل، وبلغ الأجل آخره، ويقولون: حل الأجل فإذا جاء أجلهم يراد: آخر مدة التأجيل والعد إنما هو: للمدة لا لغايتها ونهاها».

قال ابن عاشور: «بين الله لهم أن تأخيره إلى أجل حدده الله له من يوم خلق العالم كما حدد آجال الأحياء فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٣٠ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣١﴾ [سبا: ٢٩-٣٠].

والمعدود: أصله المحسوب، وأطلق هنا كناية عن المعين المضبوط.

«وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ» أي وما تؤخر ذلك اليوم إلا لانتهاه مدة معلومة في علمنا لا تزيد ولا تنقص، وهى انتهاء مدة الدنيا، وكل شيء معدود محدود فهو قريب^(١).

من دروس الآية ١٠٤:

- ١- آجال الله لا تؤجل ولا تبدل ولا تقدم ولا تؤخر.
- ٢- يوم القيامة سماه الله الساعة للدلالة على دقة توقيته.
- ٣- يوم القيامة يستبطئه المستخف خفيف العقل وسفيه الفكر والفهم ولو عقل لاستهوله بدل ما استطوله.
- ٤- الله يمد في أجل يوم القيامة بحسب ما يرى الناس، لتبلغ الأجل الذي ضربه الله وحدده.

(١) تفسير المراغي، ج ١٢، ص ٨٤ - ص ٨٥.

الآية ١٠٥:

﴿يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ سُوءٌ مُسْتَعْتَبٌ﴾

الربط والمناسبة: مر في الآية السابقة ذكر ﴿يَوْمَ﴾ مرتين مراداً به الآخرة، وبينت الآية ١٠٤ أن له أجلاً محدداً، ووقتاً موقتاً، وهنا في هذه الآية بين حتمية مجيئه وشدة هوله بحيث إن أحداً لا يتكلم في ذلك اليوم من هول الموقف إلا بإذن الإله العظيم.

وهذه الآية (١٠) كلمات و(٣٦) حرفاً وترتيبها (١٥٧٨).

المعنى: يوم يأت: تكرار كلمة يوم للمرة الثالثة في أقل من ٣ سطور لإحضاره في الذهن، وتقريره، وتوكيده، وتعظيمه.

وحذف الياء من يأت، تخفيفاً، لإفادة سرعة مجيئه.

لا تكلم: لا نافية، وحذف التاء من تكلم وأصلها تتكلم، للتخفيف أيضاً.. والتاء المكررة ثقيلة، بالتأكيد.

المهم أنه لا يجرؤ أحد على الكلام إلا لمن طلب منه ولمن أعطي الإذن بالكلام، أما اليوم في هذه الدنيا فيتكلم من شاء بما شاء، فيلحد ويستخف بالدين ويحسد بالآخرة، والنبوات، والغيب كله، وسيعلم غداً كم كان متجاوزاً متعدياً متحدياً بلا مبرر ولا قوة.

إلا بإذنه: أي بإذن الله، وعبر بالضمير مع طول الفصل بين الضمير والعائد إليه وهو لفظ الجلالة أو كلمة ربك التي وردت قبل ٣ آيات، فهناك طول نسياناً، ولكن الاعتماد على استحضار مرجع الضمير حتى لو لم يذكر له عائد.. أصلاً.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «لإن قيل: كيف يمنع التكلم في ذلك اليوم العظيم مع قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِيدٍ عَنْ نَفْسِهَا﴾ فالجواب أن يوم القيامة طويل وفيه أحوال كثيرة مختلفة، ففي بعض الأحوال لا يقدرُونَ على الكلام لشدة الأهوال، وفي بعض يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون وفي بعضها يحاجون ويمجادلون وينكرون»^(١).

فمنهم شقي وسعيد: فمنهم أي من الناس الذين ذكروا في الآية ١٠٣ أو إلى ما تدل عليه كلمة ﴿نَفْسٌ﴾ من معنى الجمع فمقصود منها الجنس، فهي في النهاية جمع أو تفيد الجمع، من هنا عبر بضمير الجمع فقال: ﴿فَمِنْهُمْ﴾.

شقي: ضد سعيد وسعيد ضده، فبضده يُعرف الشيء، والشقي من كان من أهل الشقاء والمشقة والتعاسة والعذاب، والسعيد من كان من أهل الهناء والسعادة والراحة والرخاء والسرور. وقيل: الشقي صفة مشبهة من شقي إذا تلبس بالشقاء أي سوء الحالة وشرها.

قال الزمخشري: «الشقي الذي وجبت له النار لإساءته والسعيد الذي وجبت له الجنة لإحسانه».

﴿يَأْتِ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي ونافع بإثبات الياء وصلأ وحذفها وقفأ، وقرأ ابن كثير بإثباتها وصلأ ووقفأ، وباقي السبعة قرؤوا بحذفها وصلأ ووقفأ.

قال ابن عاشور: «المعنى: أنه لا يتكلم أحد إلا بإذن من الله كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ والمقصود من هذا إبطال اعتقاد أهل الجاهلية أن الأصنام لها حق الشفاعة عند الله».

قال السعدي: «يَوْمَ يَأْتِ» ذلك اليوم، ويجتمع الخلق «لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ» حتى الأنبياء، والملائكة الكرام، لا يشفعون إلا بإذنه، «فَمِنْهُمْ» أي: الخلق «شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ» فالأشقياء، هم الذين كفروا بالله، وكذبوا رسله، وعصوا أمره، والسعداء، هم: المؤمنون المتقون»^(١).

من دروس الآية ١٠٥:

- ١- يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن وترخيص من الله تعالى.
- ٢- الهول يعقل ويعقد الألسن يوم القيامة.
- ٣- لو استحضر الناس عظمة ذلك اليوم منذ اليوم لاستقاموا على الطريقة.
- ٤- مثل استحضار يوم القيامة مثل الطالب يستحضر الامتحانات منذ أول السنة الدراسية أو الفصل الدراسي.. فيستعد لها.
- ٥- الناس اثنان يوم القيامة إما شقي وإما سعيد.

الآية ١٠٦:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُّهُمْ فِي النَّارِ لَمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن الناس يوم القيامة وعن انقسامهم إلى قسمين: شقي وسعيد، وفي هذه الآية تتكلم عن الصنف الأول منهما وهو الشقي.. وكيف يكون حاله يوم القيامة.

وهذه الآية (٩) كلمات و(٣٧) حرفاً وترتيبها (١٥٧٩).

المعنى: فأما: الفاء للتقسيم والتفريع والتفصيل وأما كذلك، فهي للتصنيف أيضاً، وتفيد معنى الشرط.

الذين شقوا^(١): عبر بالاسم الموصول لاستحضار ما في حيزه من الصلة وهو شقوا ومعنى شقوا واضح وهو تعسوا وانتكسوا وكُتب عليهم الشقاء جراء عملهم البئيس السيء.

ففي النار: جواب الشرط، وفي للظرفية والاستغراق.

والنار: نار جهنم المهولة التي لا يعلم شأنها إلا الله - ونسأل الله السلامة منها والنجاة يوم الدين.

لهم فيها زفير وشهيق^(٢): ليس المقصود بطبيعة الحال التنفس، وإنما الإشارة إلى إحاطتهم بالنار وحسرتهم وتضجرهم، والنار نفسها لها مثل هذا: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيَّطًا وَزَفِيرًا﴾ ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ أو أن المراد أنهم يتنفسون النار إذ يسحبون الشهيق ويخرجون النار في عملية الزفير، والله أعلم.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «أما: أداة شرط، وتوكيد، وتفصيل. أما كونها أداة شرط: لأنها قائمة مقام أداة الشرط وفعله بدليل لزوم الفاء بعدها، إذ الأصل مهما يكن من شيء فالذين شقوا ففي النار. وأما كونها أداة توكيد: لأنها تحقق

(١) شقوا أصلها (شقيوا)، استثقلت الضمة على الياء فحذفت ثم حذفت الياء لالتقاءها ساكنة مع واو الجماعة، فصار (شقوا) ثم قلبت كسرة القاف ضمة لمناسبة الواو، وقل مثله في إعلال (نسوا، رضوا...) هذا وقد قرئ (شقوا).

(٢) (زفير وشهيق) الزفير إخراج النفس والشهيق رده، وفي كتب اللغة: الزفر إدخال النفس، والشهيق إخراجها. قال الشماخ:

بعيدُ مدى التطريب أول صوته زفير ويتلوهُ شهيقٌ عَشْرَج

الدرة المجلد السادس ص ٣٨٦.

الجواب وتفيد أنه واقع لا محالة لكونها علقته على متيقن. وأما كونها أداة تفصيل: لأنها في الغالب تكون مسبوقة بكلام مجمل وهي تفصله»^(١).

قال ابن عاشور: «خص بالذكر من أحوالهم في جهنم الزفير والشهيق تنفيراً من أسباب المصير إلى النار لما في ذكر هاتين الحالتين من التشويه بهن وذلك أخوف لهم من الألم».

قال مخلوف: «فأما الذين شقوا: وهم الكفار، كما أن ﴿الَّذِينَ سَعِدُوا﴾ هم المؤمنون، مطيعين وعصاة، زفير وشهيق: الزفير: إخراج النفس من الصدر من شدة الحزن، مأخوذ من الزفر، وهو الحمل على الظهر لشدته، والشهيق: رد النفس إلى الصدر، والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم. أ. هـ».

قال الخطيب: «وتلك هي حال من أحوال الذين غلبت عليهم شقوتهم، وأدانهم الديان في هذا اليوم المشهود. وذلك هو بعض ما يكون لهم في هذا اليوم، وما يشهده أهل الموقف منهم. «لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ» وفي تقديم «الزفير» وهو دفع النفس إلى الخارج، على «الشهيق» الذي هو أخذ النفس إلى داخل الجوف. وذلك على خلاف ما تتنفس الكائنات الحية، حيث تأخذ الهواء شهيقاً، ثم تدفع به إلى الخارج زفيراً. في هذا ما يكشف عن تلك الحال السيئة التي يعانيتها هؤلاء الذين شقوا. إنهم لا يتنفسون كما يتنفس الناس، فيأخذون الهواء شهيقاً، ويتنفسون أنفاس الحياة منه، ثم يلقونه زفيراً، بعد أن يأخذ الجسم حاجته منه. كلا، وإنما همهم كله هو أن يلقوا بهذا الهواء الذي تغلي به صدورهم، فهم في «زفير» متصل متقطع. وأما الشهيق فهو نار تلظى، لا يكاد أحدهم يأخذ جرعة منه حتى يردها

زفيراً. ثم يعيدها شهيقاً. وهكذا: يتنفسون ناراً، من داخل صدورهم، ومن خارجها على السواء»^(١).

من دروس الآية ١٠٦:

- ١- الأشقياء الذين حادوا الأنبياء وحادوا عن منهج السماء مصيرهم النار.
- ٢- الشقاء ليس حظاً ولا السعد ضربة حظ وإنما كل ذلك ثمرة جهد وعمل وحسن اختيار أو سوء اختيار.
- ٣- أهوال القيامة فوق الوصف، ولكن القرآن المعجز يعطينا أقصى ما في طاقة اللغة لفهم هول ذلك اليوم.

الآية ١٠٧:

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾^(١٠٧)

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن الذين شقوا وأن مصيرهم النار، وهنا بينت هذه الآية أهول من ذلك الهول وأشد من ذلك العذاب، ألا وهو خلودهم فيه، وإقامتهم الدائمة فلا خروج، وناسب ختام الربع مع ختام رحلة الذين شقوا ودخلهم النار لبيتدئ الربع الجديد بالذين سعدوا. والآية (١٥) كلمة و(٥٤) حرفاً وترتيبها (١٥٨٠).

المعنى: خالدين فيها: المخلود: المكوث بلا انقطاع وبلا نهاية. وليس المعنى مجازياً بمعنى الإقامة الطويلة، لا وإنما الإقامة الدائمة بلا آخر، فالآخرة خلود

(١) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج٦، ص ١٢٠٠ - ص ١٢٠١.

للفريقين، فلا الجنة تفنى ولا أهلها، ولا النار تفنى ولا أهلها، وهنا دار الإقامة المؤقتة العابرة، وهناك دار المقامة.. أي الإقامة الدائمة.

ما دامت السماوات والأرض: هذا تأكيد للخلود لا تخصيص له، ولا استثناء منه، فالسماوات والأرض تبدلان: ﴿يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ وتلك السموات والأرض باقية أما هذه فإلى اندثار وانهايار وانقطاع ودمار كالدينا.. وأما تلك فإلى بقاء ودوام بلا انقضاء ولا انقطاع ولا انتهاء.. كالأخرة.

إلا ما شاء ربك: هذا الاستثناء كذلك لتأكيد البقاء، وإني أراه كقوله تعالى: ﴿سُقِّرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (٦) ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وقد شاء الله ألا ينسى فهو إذا تأكيد عدم النسيان.

فقيم هذه الصيغة إذا؟ أرى أنها جاءت لبيان أن الخلود ليس ذاتياً وإنما هو بإرادة الله ووفق مشيئته، فلو لم يشأ لم يكن لأحد هذا الخلود. هو باختصار تأكيد لا استثناء على ظاهره، أو هو استثناء منقطع، وهو لا يفيد معنى الاستثناء وهذا كقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٣٠) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ وإبليس قطعاً ليس من الملائكة فهو استثناء منقطع. وأضاف الرب إلى ضمير المخاطب لتعظيم شأنه ﷺ.

إن ربك فعال لما يريد: وكرر إضافة لفظ الرب إلى ضمير خطابه عليه الصلوات للتشريف والتلطف والرعاية.

وصيغة فعّال^(١) واضح إفادتها الكثرة فهو يفعل ويفعل، بلا انقطاع، ويفعل المرة تلو المرة متى شاء وكيف شاء.

وقوله لما يريد: أي ما أراداه فعله وأنفذه لا يحول دون نفاذ أمره وإرادته شيء ولا حائل ولا مانع ولا معيق.

(١) وهل تعلم أن هذه الصيغة لم ترد إلا هنا ومرة في البروج بالنص هذا نفسه أي فعال لما يريد.

فما أرادته كان بمجرد إرادته تكون الأشياء، «سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون».

قال الزمخشري: «إلا ما شاء ربك» هو استثناء من الخلود في عذاب النار ومن الخلود في نعيم الجنة، وذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالمهرير، وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار، وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم وخسؤه لهم وإهانتهم إيهاهم، وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجلّ موقعاً منهم وهو رضوان الله كقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾. قلت: هو تصرف من الزمخشري في نطاق ما يسمح به فهم النص.

قال أهل المعاني: ﴿خَلِّيبِكْ فِيهَا﴾ هذه عبارة عن التأييد، وذلك على عادة العرب، فإنهم يقولون ألا آتيك ما دامت السموات والأرض، وما اختلف الليل والنهار أو ما جن ليل أو سال سيل أو ما ناح حمام، يريدون بذلك التأييد^(١).

قال مخلوف: «ما دامت السموات والأرض: أي مدة دوامهما، والمقصود التأييد ونفي الانقطاع، على حد قول العرب: لا أفعل كذا ما اختلف الليل والنهار، أو ما لاح كوكب، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ نقل ابن عطية أنه على طريق الاستثناء ندب إليه الشرع في كل كلام، فهو على حد ﴿لَتَنَدَّخُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَائِزِينَ﴾ وهذا الاستثناء في معنى الشرط كأنه قيل: إن شاء ربك، فلا يوصف بمقتضى أو منقطع (أي الاستثناء).. والنكتة فيه إرشاد العباد إلى تفويض جميع الأمور إليه جل شأنه، وإعلامهم أنها منوطة بمشيئته، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا حق لأحد عليه،

ولا يجب عليه شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَقَالَ لَمَّا يُرِيدُ﴾ وقيل ﴿إِلَّا﴾ حرف عطف بمعنى الواو، والمعنى: وما شاء ربك زائداً على ذلك، والمراد إفادة التأييد والدوام. أ. هـ.

وأورد دروزة تعليقا عريفاً على جملة: «خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ» فقال: وَقَالُوا إِنَّهُ عَلَى طَرِيقَةِ قَوْلِ الْعَرَبِ: «مَا لَاحُ كَوْكَبٌ» و «مَا أَقَامَ ثَبِيرٌ» و «مَا دَامَتِ السَّمَاءُ سَمَاءً وَالْأَرْضُ أَرْضاً» ويريدون بذلك التأييد... يعني أن التعبير أسلوبياً مما اعتاد العرب استعماله وهم يقصدون التأييد. وهو قول وجيه يزيل وهم التناقض الذي قد يبدو بين العبارة القرآنية هنا وبين آيات كثيرة وردت فيها جملة خَالِدِينَ فِيهَا بالنسبة لأهل الجنة وأهل النار بدون قيدٍ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ^(١).

من دروس الآية ١٠٧:

- ١- خلود الكافرين في النار بإذن الله وليس خلوداً ذاتياً أو كلياً.
- ٢- ينبغي معرفة طرائق وأساليب التعبير في اللغة العربية لمعرفة أساليب التعبير في القرآن، أقصد ورود الاستثناء دون أن يعني إلغاء للخلود... لأنه منقطع.
- ٣- السماوات والأرض ستبدلان والجديدتان باقيتان كالمخلوقات بعد البعث.
- ٤- ﴿فَقَالَ لَمَّا يُرِيدُ﴾ هذه الصفة تكررت فقط هنا وفي البروج وهي تعني أن إرادة الله لا يعوقها شيء ولا يقف لها شيء.

الآية ١٠٨:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَوَيْ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاةٌ غَيْرُ مَجْذُورٍ﴾ (١٠٨)

الربط والمناصفة: في نهاية الربع السابق كانت الآيات السابقة وهي الأخيرة منه تتحدث عن تقسيم الناس يوم القيامة إلى شقي وسعيد (١٠٥) ثم تكلمت الآية ١٠٦ و ١٠٧ عن الذين شقوا وخلودهم في العذاب.

ومن الطبيعي أن تتكلم الآية بعد ذلك وهي هذه الآية عن القسم لأولئك والمقابل لهم وهم الذين سعدوا وما ينتظرهم من نعيم دائم.

فالآيات نسق أي نسق وبينها اتساق أي اتساق.

وهذه الآية (١٨) كلمة و(٧٢) حرفاً وترتيبها (١٥٨١).

المعنى: وأما: عطف على فاما، وإن كانت تصح استئنافاً، لكن الأولى بالطبع عطفها، وأما للتنويع والتقسيم.

الذين سعدوا: أي وأما الفريق الذين سعدوا، أي كانت لهم السعادة في مقابل أولئك الذين كتبت لهم بعملهم وعليهم، كتبت الشقاوة، فأولئك شيء وهؤلاء السعداء المكرمون شيء آخر مختلف جداً، كالفرق بين الملائكة والشياطين.. هؤلاء لهم الإكرام والتشريف والإعزاز والنعيم المقيم وأولئك ويا لشقوتهم لهم الحميم والجحيم والعذاب المقيم الذي ينفذ منهم إلى الصميم.

وبنى شقوا للمعلوم لأنه بكسب أيديهم، وبنى الذين سعدوا للمجهول، لأن قسماً كبيراً مما هم فيه من النعيم فضل من الله وعطاء كريم، والله المثل الأعلى، فقد تزيد المدرسة أو الوزارة أو الجامعة علامات للطلاب الذين دون معدل النجاح دون أن يشعر أولئك الطلبة ويحسبون أنهم نجحوا بكدهم وما دروا حجم المساعدة

التي قدمت لهم ولولاها بفضل الله ما كان لهم ما هم فيه من دراسات عليا ثم وظائف عليا.. ودائماً لله المولى المثل الأعلى.

ففي الجنة: أما تتضمن معنى الشرط والفاء هنا واقعة في جوابها وحرف الجر «في» للاستغراق، أي هم منعمون تماماً وبكمال التنعيم إذ يحيط بهم النعيم كأنه يغمرهم فلا يبقى منهم شيء خارج دائرة التنعيم.. ويا لسعد من أكرم بهذه الكرامة في دار الكرامة والسلامة، بعكس الذين أهينوا في دار الندامة والحسرة والمهانة.

وإذا قيلت الجنة بال التعريف والكلام في سياق الآخرة فهي قطعاً جنة الخلد، جعلها الله مستقرنا أجمعين.. يا رب العالمين.

خالدين فيها: ودائماً نقول أنعم النعيم دوام النعيم، ولو علم أهل الجنة أن نعيمهم غير مقيم لكانوا في غم مقيم وهم عظيم لزوال ما هم فيه من نعيم، وحاشا لجلال المولى الكريم أن يقطع عن أحبابه النعيم وإنما توفاهم في الدنيا لينعمهم في الآخرة، فهو قد جعل الدنيا عتبة للآخرة، ولكن من خلال عمر ضيق هو الموت وقبله الابتلاء في الدنيا، فمن نجح وفاز فالإقامة الدائمة في النعيم الغدق.

ما دامت السماوات والأرض: معلوم أن النظام الكوني الحالي إلى انقذار فالسماوات ستفطر والنجوم ستتكدر والكواكب ستتشتر وستندثر والبحار ستنفجر والسماوات والأرض ستبدل وتغير، فالسماوات والأرض المقصودة إذاً هي الخلق الجديد الدائم أي البديل عن هذه الموجودة الآن فهذه كالتناس وكل الموجودات إلى عدم ثم بعث.. فكان السماوات ستبعث مثلنا لكن بثوب جديد لا يعلم عظمته إلا الله.. كما أن البشر سيبعثون بثوب للروح جديد سوى ثوب البدن البالي هذا.. أي فهم خالدون في النعيم ما دامت السماوات والأرض الجديدتان الباقيتان وهما باقيتان بإخبار الله لنا، فربط باقياً بباقي وخالداً بخالد.

إلا ما شاء ربك: هذا استثناء منقطع لا يعني نفي ما قبله أو نقضه أو تغييره، بل يعني توكيده، بربطه بمشيئة الله، وقد شاء الله لهم الخلد فصار خلودهم مقررًا من ثلاث جهات أو ثلاثة أوجه، أولاً بتقريره المباشر: خالدين فيها، ثم بقرنه وربطه بشيء خالد آخر وهو السماوات في حلتها القشبية الجديدة فقال ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ثم بربطه بالمشيئة الإلهية التي علمنا أن قد صدرت المشيئة بخلودهم فربط الخلود بها تقرير لا نقض، فليتدبر وليتأمل.

هذا يوم كرامة لا يوم تنغيص، فلو قلنا إلا ما شاء ربك استثناء على الحقيقة لنغصنا على أهل الجنة نعيمهم ولحصل نقيض المعنى المطلوب بل هو تميم فرحتهم لا تعكير صفوهم وهناءتهم.

ويمكن أن أضيف وجهاً رابعاً هذه الإضافة للفظ رب إلى ضمير سيد الخلق بكاف الخطاب، ولم يعبر بلفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ فهل تظن أن هذه الإضافة إلى الرب في هذا المكان تكون إلا لمزيد التكريم ومزيد التنعيم والإدامة في هذا النعيم؟ فليتدبر كل ذلك.

عطاء غير مجذوذ: هذا هو التأكيد الخامس للمعنى الذي نقول من دوام النعيم والخلود المقيم.

فقد وصف مولانا العظيم هذا النعيم بأنه عطاء غير مقطوع. ووجه سادس أو لطيفة سادسة أضيفها أن مجذوذ في القرآن لم ترد إلا هنا فتفردت هذه الآية وهذه السورة بهذه الكلمة المسبوقه بالنفي لتعني النعيم غير المقطوع أو غير المنقطع..

فتأمل ثم تأمل.

قال ابن عاشور: «ليس يلزم من الاستثناء المعلق على المشيئة وقوع المشيئة، بل إنما يقتضي أنها لو تعلقت المشيئة لوقع المستثنى، وقد دلت الوعود الإلهية على أن الله لا يشاء إخراج أهل الجنة منها، وأياً ما كان فهم إذا دخلوا الجنة كانوا خالدين فيها فلا ينقطع عنهم نعيمها وهو معنى قوله تعالى: «عطاء غير مجدوذ»^(١).

قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى: قال قوم: إن عذاب الله للكافرين منقطع وله نهاية، واستدلوا بآية ﴿لَيَبْنَينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ وبأن معصية الظالم متناهية، فالعقاب عليها بما لا يتناهى ظلم، والجواب: أن قوله تعالى ﴿أَحْقَابًا﴾ لا يقتضي أن له نهاية، لأن العرب يعبرون به وينحوه على الدوام، ولا ظلم في ذلك، لأن الكافر كان عازماً على الكفر ما دام حياً فعوقب دائماً ولم يعاقب بالدائم إلا على دائم، فلم يكن عذابه إلا جزاءً وفاً^(٢).

قال الشيخ مخلوف: «غير مجدوذ: غير مقطوع عنهم، يقال: جدّه يجذّه جذاً: كسره وقطعه، ومنه الجذاد - بضم الجيم وكسرها -: لما تكسر من الشيء، والضم أنصح، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا﴾ [الأنبياء: ٥٨]. أ. هـ».

قال الأبياري: «إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ» فإن من أهل الجنة من يرقى الى ما هو أجل موقعاً، وهو رضوان الله. «غَيْرَ مَجْدُودٍ» غير مقطوع، ولكنه ممتد الى غير نهاية^(٣).

من دروس الآية ١٠٨:

١ - ضرورة إدراك أساليب اللغة العربية وأساليب العرب في بيانهم، من هنا، فإن القرآن الكريم ما فتى يذكرنا بحقيقة أن القرآن بلسان عربي.

(١) الدرّة المجلد السادس ص ٣٩٠.

(٢) الأبياري، الموسوعة القرآنية، ج ١٠، ص ١١٣.

- ٢- إدراك معاني الاستثناء مهم جداً وإلا فإننا نقع في نقيض المطلوب.
- ٣- الخلود في النعيم أعظم أوجه النعيم.
- ٤- هذه الدنيا دار الممر ودار الفناء والآخرة دار المقر ودار البقاء.
- ٥- لطائف القرآن بلا حدود فهي في كل لفظة بل في كل حرف.

الآية ١٠٩:

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَسْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفِقُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

الربط والمناسبة: ذكرت الآية السابقة خلود المؤمنين وفي ثناياها خوطب النبي ﷺ بكاف الخطاب ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ وهنا يوجه النص الكريم في هذه الآية خطاباً للنبي ﷺ قائلاً له: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ...﴾ فقد عادت الآية إلى الحديث عن الذين كانت تتكلم عنهم السورة في الآيات ١٠٦ و ١٠٧ وهو كلام عن الذين شقوا، ومن قبله الحديث عن أخذ أقوام الكافرين، وفي أوائل السورة ورد قوله عن الكافرين ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ سُدُّوهُمْ...﴾ [٥].

وخاطب الرسول بقوله في الآية ١٢ ﴿فَلَمَّا تَرَكَ بَعْضَ مَا بُوحِىَ إِلَيْكَ وَضَائِقُهُ سَدَّرَكَ أَنْ يَقُولُوا...﴾.

وفي الآية ١٣ قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ...﴾.

فكان الآية تعود إلى السياق المباشر وإلى سياق السورة كلها.

وهذه الآية (٢٠) كلمة و(٧٨) حرفاً وترتيبها (١٥٨٢).

المعنى: فلا تك^(١): الفاء عطف وتفریع، ولا الناهية «تك» مجزوم بلا ولذا حذف حرف العلة، أما حذف النون فتخفيف.

في مرية: في شك، وحاشاه، إنما هو التعليم والتوجيه والتربية، وإن شئت قلت وتوجيه أمته والإنسانية من بعده، فإذا كان أعظم الرسل يخاطب بهذا فأحر بغيره أن يحتاط لنفسه ألا يكون في مرية وفي شك.

عما يعبد هؤلاء: أي أنهم على الباطل، وهذا يقتضي أنك أنت ومن معك على الحق.

ولاحظ أنه عبر عن منهج الحياة برمته بكلمة ﴿يَعْبُدُ﴾، فليس المقصود التشكيك في عبادتهم فقط، وإنما منهج حياتهم كله خاطئ.

ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل: فهم لا يعبدون إلا ما يعبد آباؤهم فهم لم يناقشوا مسائل حياتهم، إنهم مقلدون، متبعون، تائهون، إنهم لم يفكروا في أن هذا الذي يعبدونه من الأصنام يستحق العبادة أو لا يستحق، وماذا خلق من الكون؟ وماذا يملك من مصائرنا؟ وماذا يحقق لنا إن دعونا؟ وكيف يقدر وهو حجر أصم مستقر مكانه كما وضعه البشر الذين وضعوه فكيف يُعبد هذا ولماذا؟ إنهم لم يستعملوا عقولهم ليفكروا وليسألوا ولتحققوا ليتبينوا أنهم آباؤون منقادون كما ينقاد الأعمى لمن يسيره.

وإنما لموفوهم نصيبهم غير منقوص: هل نصيبهم تعني حظهم من الدنيا؟ أم تعني حظهم وحقهم من العذاب في الآخرة؟ ولماذا لا يشملهما المعنى معاً، وهذا

(١) أصل (تك) تكون فلما دخل الجازم عليه صار (لا تكون) فحذفت الواو لالتقاء الساكنين فصار (لا تكن) ثم حذفت النون للتخفيف ولكثر الاستعمال، وهذا الحذف جائز وغير لازم وله شروط... ١- أن يكون مضارعاً ناقصاً من كان. ٢- وأن يكون مجزوماً بالسكون. ٣- وأن لا يكون بعده ساكن. ٤- ولا يتصل به ضمير متحرك كما في الآية وغيرها، وهو وارد في الكلام العربي شعراً ونثراً. الدرر المجلد السادس ص ٣٩١.

أولى وأوفى. فكفرهم لن يمنع رزقهم، فאלله يرزق من يعبده ومن لا يعبده، من يشكره ومن لا يشكره، أما مسألة البركة فشان آخر، وأما مسألة السعادة فممن يملك تحقيقها أو عدمها فأمر آخر أيضاً.

ولن ينقصوا بكفرهم من رزقهم ومما قدرته لهم.

قال الزمخشري: «ما يعبدون إلا كما يعبد آبائهم» يريد أن حالهم في الشرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت بين الحالين، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزلن بهم مثله، وهو استئناف معناه: تعليل النهي عن المربة.

قال ابن عاشور: «عبر عن عبادة الآباء بالمضارع للدلالة على استمرارهم على تلك العبادة، أي إلا كما اعتاد آبائهم عبادتهم، والقرينة على المضي قوله: «من قبل» فكانه قيل: إلا كما كان يعبد آبائهم، تنصيصاً على أنهم سلفهم في الضلال وعلى أنهم اقتدوا بهم.

«وإنما لموفوهم نصيبهم» وإنما لموفوهم نصيبهم من العذاب كما وفينا أسلافهم.

قال مخلوف: «فلا تك في مربة: أي في شك من عبادة هؤلاء المشركين، أنها ضلال مؤد إلى مثل ما حل بمن قبلهم من أمثالهم الضالين، وقوله: مما يعبد: ما: مصدرية. أ. هـ».

قال الشعراوي: «سنعطيهم جزاءهم كاملاً؛ لأنهم يفسدون في الكون، رغم أن الحق سبحانه قد جعل لكل منهم حق الاختيار في أن يفعل الشيء أو لا يفعله، وإن لم تنضبط حركة الاختيار، فالتوازن الاجتماعي يصير إلى اختلال. وما دام للإنسان حق الاختيار؛ فقد أنزل الحق سبحانه له المنهج الذي يضم التكاليف الإيمانية. وهم حين قلدوا الآباء قد ساروا في طريق إفساد الكون؛ لذلك يُوفّيهم الحق سبحانه

نصيبهم من العذاب. والمفهوم من كلمة «النصيب» أنها للرزق، ويذكرها الحق سبحانه هنا لتقرير نصيب من العذاب، وفي هذا تهكم عليهم، وسخرية منهم^(١).

من دروس الآية ١٠٩:

- ١- العقل أخطر ما يعطل في هذه الحياة.
- ٢- الأصل في العقل أن يصلك بالله وأن يقودك إلى الله لا أن يضلّك عن الله.
- ٣- الكفار آبائيون تقليديون مقلدون لا يناقشون مسلماتهم.
- ٤- الكفر لا يمنع الكفار من أن تصلهم أرزاقهم وما قدر الله لهم من أقوات وأموال.
- ٥- الرزق شيء والبركة فيه والسعادة بما أعطيته منه شيء آخر.

الآية ١١٠:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ يَتِيمُهُمْ وَلَهُمْ لِنْفَى شَكٍّ مِنْهُ مَرْسَرٌ ۝﴾

الربط والمناسبة: مر بنا في الآية ٩٦: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا...﴾ والآن نقول الآية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ...﴾ وتلك كانت مرحلة وهذه مرحلة.

وأما صلة الآية التي نحن بصدها الآن بالسياق المباشر فنقول: كان السياق المباشر بوجه النبي ﷺ ألا يكون في شك عما يعبد هؤلاء أي مشركو قومك، ومن هذا انتقل إلى قصة موسى من جديد أو إلى لقطة منها: أن قومه ضلوا بعد أن أتى

(١) تفسير الشعراوي، ج ١١، ص ٦٦٩٣.

الله موسى الكتاب وأنزله عليهم فكيف بقومك ولم يشهدوا قبلك رسالة؟ أفهم على آثار السابقين لهم، وهم في الضلال ذاته.. وقال النص السابق ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ وقال النص الذي نحن بصددہ الآن: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ ولذا فلاني أرى العلاقة وثقى والنسق واضحاً، وإن كان يحتاج إلى شيء يسير من التأمل.

وهذه الآية (١٨) كلمة و(٧٢) حرفاً وترتيبها (١٥٨٣).

المعنى: ولقد آتينا موسى الكتاب: أي كما آتيناك الكتاب آتينا موسى الكتاب، والواو للعطف، عطف موضوع على موضوع وللإستئناف تصح بلا أدنى اعتراض.

واللام الموطئة للقسم وقد للتحقيق وهي داخلة على الماضي آتينا ومعناه أعطينا ومنحنا ووهبنا والإيتاء الإعطاء.

آتينا موسى الكتاب: أعطينا موسى الكتاب أي التوراة أو الألواح.

فاختلف فيه: اختلف قومه في هذا الكتاب، أما قوم فرعون فليس الحديث عنهم، فهم ردوا النبوة والرسالة من الأساس ولم يختلفوا في الكتاب، وبنى الفعل للمجهول ليعم صوراً شتى.

ولولا كلمة سبقت من ربك: والواو عطف أو إستئناف كالأولى، ولولا الامتناعية وجوابها لقضي، كلمة سبقت أي تقدير الله وتدبيره وكلمته الفصل منذ الأزل وما دونه مولانا في الكتاب المبين أن لهم أجلاً لكان ما كان مما ستبينه الآية الآن.

وأضاف الكاف إلى لفظ الرب للتشريف والتكريم والتلطف به ﷻ.

لقضي^(١) بينهم: لحكم ولفصل بينهم بالقضاء الفصل، بإهلاك الفريق المبطل مثلاً أو غير ذلك، وبني الفعل للمجهول، لانفهام المعنى أنه لا يقضي إلا الله.. أو يقضي الله وينفذ رسوله مثلاً فللايجاز بني للمجهول، والله أعلم.

وإنهم لفي شك منه مريب: الواو للعطف أو للاستئناف أو الحال، إنهم: أي قوم موسى ولا أرى المعنى ينصرف إلا إليهم.

واللام المزحلقة في قوله لفي وهي تؤكد المعنى وفي للاستغراق.

شك: ارتياب وتردد وعدم يقين، ونكر لفظ شك للتكثير والتعظيم.

منه: أي من الكتاب الذي أنزل إلى موسى، شك أنه كلام الله أو أنه غير ذلك.

مريب: أي مرتاب فيه من قبل القوم وجعله وصفاً للشك لا للشاكين، من المجاز.

قال مخلوف: «وإنهم لفي شك منه مريب: أي وإن هؤلاء المكذبين لفي شك من القرآن أو من العذاب موقع في الريبة، أو ذي ريبة». (وراجع الآية ٦٢ من هذه السورة) أ. هـ.

قال ابن عاشور: ««وإنهم لفي شك منه مريب» أي أن المشركين لفي شك من توفية نصيبهم لأنهم لا يؤمنون بالبعث».

قال عمر حيدر في رسالة الدكتوراة: «إن هذا الاختلاف أضرب بعقائد اليهود، واتلافهم الديني، وظلوا في شك مشكوك من كتابهم التوراة التي نزلت على موسى عليه الصلاة والسلام، ذلك الشك الذي أقلقهم فأوقعهم في البلبلة والاضطراب،

(١) وردت لقضي مقترنة باللام وغير مقترنة ١٩ مرة أولها في البقرة ثم الأنعام ٤ مرات في يونس وليس لها مثيل ومرتين في هود وهذه هي التاسعة وبعدها ١٠ مرات فهي في القلب تقريباً ووردت مرتين بعد ذلك في كل من الزمر والشورى ومرة بعد ذلك في ٥ سور آخرها الأحقاف.

ولا غرابة في أن يشكوا في هذا القرآن الذي جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وقبل هذه الآية الكريمة يخاطب الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم محذراً أمته من أن يكونوا في أدنى شك ومريبة مما يعبد المشركون. ويبين الله عز وجل اختلاف المشركين كما اختلف أهل الكتاب، وفساد دينهم، وكلاهما أصحاب كتاب نزل من السماء. وقد ذكر الله عز وجل في سورة هود بعض أقوام الأنبياء، وذكر سبحانه عاقبتهم، حتى وقف الاستئصال... وفي كل ذلك توجيه للمسلمين أن يثبتوا على دينهم، موقنين أنه هو الحق. وكل من أقوام الأنبياء السابقين العاصين، وأهل الكتاب الكافرين، والمشركين من العرب، ليس عندهم حجة على ما يقولون. ودين الإسلام أحق أن يتبع، وأن يجتمع أهله ولا يختلفوا ولا يتفرقوا. وبعد هذه الآية، يخبر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستقيم هو ومن معه من المؤمنين، استقامة تجمعهم تحت راية العقيدة الإسلامية، وأن لا يركنوا ويميلوا إلى الذين ظلموا المختلفين^(١).

ثم قال في موضع آخر من رسالته: «وفي سورة هود الانحراف الوحيد المذكور عن بني إسرائيل هو الاختلاف في الكتاب، وكأنني أستخلص التوجيه للأمة الإسلامية بأن لا يختلفوا ما دام كتاب الله بينهم، وهذا من أعظم الاستعداد للمواجهة... وبعد هذه الآية الكريمة تأتي عدة وصايا للنبي ﷺ وأمته معه، وكأنها تدهم على معالم طريق العزة والنصر والتمكين، وهي:

➤ فاستقم كما أمرت يا نبي الله صلى عليك الله وسلم، وليستقم من تاب معك.

➤ لا تطغوا فإن الله بصير بما تعملون.

(١) عمر حيدر، المرافات بني إسرائيل السلوكية وأثرها على الإنسانية، (رسالة دكتوراة)، ص ١٠٢.

➤ لا تركنوا وتميلوا إلى الذين ظلموا، وتوافقوهم وترضوا بما هم عليه من الظلم، فإن ذلك موجب لأن تمسكم النار، وإذا كان ذلك الوعيد لمن يركن للظالمين، فكيف بحال الظالمين أنفسهم؟!

➤ أقم الصلاة ليلاً ونهاراً يا رسول الله (والعبرة بعموم الخطاب لا بخصوص السبب).

➤ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

هذه الوصايا جماع الخير، وما أعظمها في المواجهة، خاصة وأنها ذكرت في هذا السياق! ^(١).

من دروس الآية ١١٠:

١- أمم الأنبياء بعد أنبيائهم تتبدل أحوالهم وتتغير مواقفهم من كتابهم ورسالة نبيهم.

٢- أوضح مثال على تقلب الأمم بنو إسرائيل.

٣- اختلاف الأمم في الكتاب كقيل بأن يقضي الله بإهلاك من يرتاب في الكتاب أو يقضي فيهم بحكمه الذي يقدره هو سبحانه، لولا أن كلمة من الله سبقت بالإمهال مثلاً أو بما قدر الله من أحوال.

٤- لا تزال الأمم في شك من أمر كتابها كأنها لم تكن مؤمنة يوماً.

٥- من رأى أمة الإسلام اليوم وقد تحول كثير من أفرادها إلى العلمانية أو الإلحاد أو الليبرالية أو الاشتراكية أو الوجودية أو الشيوعية أو العنصرية أو القومية أو المادية بصورها.. أو غير ذلك يدرك معنى هذه الآية في واقع متجل لا يحتاج إلى قاموس لفك معاني الألفاظ.

الآية ١١١:

﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقْتَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

الربط والمناسبة: الربط هنا ظاهر بين لا يحتاج إلى تبين، فقد كان النص السابق أو الآية السابقة تقول: ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الفريقين المختلفين. وهنا يقول: ﴿وَإِنْ كَلَّا﴾ أي كلا الفريقين المذكورين سيأخذ جزاء عمله وافياً.. من وثق ومن شك.. ومن عمل ومن عطل وأهمل وفي الآية السابقة لفظ الرب مضاف إلى كاف خطابه عليه الصلوات ﴿رَبُّكَ﴾ وفي هذه كذلك.

وهذه الآية (١٠) كلمات و(٤٢) حرفاً وترتيبها (١٥٨٤).

المعنى: وَإِنْ كَلَّا: الواو للعطف وإن واسمها.

لما ليؤفقيهم: بمعنى إلا ليؤفقيهم، واللام في ليؤفقيهم هي المرحلة في خبر إن أو لام القسم.

ليؤفقيهم ربك أعمالهم: فعل ومفعول به أول وفاعل ومفعول به ثان.

والمقصود أنه سيجزيهم بأعمالهم جزاء وافياً كاملاً دقيقاً.

سواء كان هؤلاء أم هؤلاء، أي من وفى وحافظ على دينه، ومن بدل ونقض، فكل سيجازى بما عمل.

إنه بما يعملون خبير: ولما كان التركيز على أعمال العباد كان التقديم لقوله بما يعملون على اسم خبير.

وفي المواطن التي يكون فيها التركيز على فعل الإله وعلمه واطلاعه يقدم الاسم خبير على عمل من يعمل وإليك الأمثلة:

ففي سورة البقرة في الحديث عن المتوفى عنها زوجها والمطلقات قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾.

وفي الآية ٢٧١ من سورة البقرة وهي تتحدث عن الصدقات وإبدائها وإخفائها قال في ختامها: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾.

بينما في سورة آل عمران في الآية ١٥٣ في التعقيب على مصاب المسلمين في غزوة أحد قال في ختام الآية: ﴿فَأَنْتَبِكُمْ عَمَّا فِطَرَ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١).

والخير: العليم المطلع على دقائق الأشياء الذي لا يغيب عن علمه شيء.
وقد ورد هذا اللفظ ٣٣ مرة في القرآن بهذه الصيغة سوى خيراً فقد ورد ١٢ مرة.

قال ابن عاشور: «وفي تفسير الفخر: سمعت بعض الأفاضل قال: إن الله تعالى لما أخبر عن توفية الأجزية على المستحقين في هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التوكيدات، أولها: كلمة (إن) وهي للتأكيد، وثانيها: (كل) وهي أيضاً للتوكيد، وثالثها: اللام الداخلة على خبر (إن). ورابعها: حرف (ما) إذا جعلناه موصولاً

(١) وتسير الآيات على هذا النسق في القرآن كله ففي آل عمران ١٨٠: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ وفي التوبة ١٦: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ والمائدة ٨: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهود ١١١: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ وفي النور ٣٠: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ يَمَّا يَصْنَعُونَ﴾، والنور ٥٣: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وفي النمل ٨٨: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وفي لقمان ٢٩: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ وفي الحديد ١٠: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ والمجادلة ٣ و١١: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ والمجادلة ١٣: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، والحشر ١٨: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ والمنافقون ١١: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ والتغابن ٨: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾.

على قول الفراء، وخامسها: القسم المضمر، وسادسها: اللام الداخلة على جواب القسم، وسابعها: النون المؤكدة في قوله: «ليوفينهم».

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «قرأ بعضهم (إن، لما) مخففتين وبعضهم خفف (إن) وثقل (لما) وبعضهم شددهما، وبعضهم شدد (إن) وخفف (لما) فهذه أربع قراءات في هذين الحرفين وكلها متواترة»^(١).

قال الشيخ مخلوف: «وإنَّ كلاً لما ليوفينهم: قرئ بتشديد إنَّ ولما، وقد قيل في إعرابها: إن «كلاً» اسم «إن»، واللام في «لما» هي الداخلة في خبر إن، وما بعد اللام هو من الجارة، وما الموصولة أو الموصوفة المراد بها هنا من يعقل (يعني كأنه قال: لمن ما) فقلبت النون ميماً للإدغام، فاجتمع ثلاث ميمات فحذفت واحدة منها للتخفيف فصارت «لما» والجار المجرور (على هذا القول والتقدير وننقله وقد لا نرجحه) خبر إن، وجملة «ليوفينهم» وهي قسم وجوابه، صلة أو صفة لـ«ما» والمعنى وإن كلاً لمن الذين، أو لمن خلق، والله ليوفينهم جزاء أعمالهم. أ. هـ.

من دروس الآية ١١١:

١- الجزاء الأوفى يوم القيامة.

٢- الحساب على الأعمال فلا تظلم نفس شيئاً.

٣- لا يلوم المقصر إلا نفسه.

٤- يتقدم في التعبير ﴿إِنَّهُمْ يَمَلَكُونَ حَيْثُ﴾ أو بما يعملون عندما يكون التركيز

على الأعمال لإحسان العمل، وفي الأثر «وأخلص العمل فإن الناقد بصير» أو خبير.

٥- يتقدم في التعبير القرآني ﴿خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ عندما يكون الحديث عن علم الله.

٦- وردت الصيغتان في القرآن متساويتين ٩ مرات لكل فتأمل.

٧- الإيمان وعمل الصالحات ملخص المجموعتين من أنماط التعبير ﴿خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ و﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾.

٨- الأسماء الحسنى واستحضارها تربي النفس وتزكيها.

الآية ١١٢:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١٢)

الربط والمناسبة: التوجيهات لرسول الله ﷺ من مولاه سبحانه، تترى، فبعد أن نهاه بقوله ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ...﴾ [١٠٩]، فالآن يأمره عليه أزكى الصلوات فيقول له سبحانه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ وأمر آخر أن موسى ذكر وأمه في الآية ١١٠ وأنهم اختلفوا من بعده وفارقوا نهجه وما استقاموا على خطته وطريقته، وهنا يذكر النبي ﷺ وأمه ويؤمر هو وهم بالاستقامة على المنهج والدوام على هذا الحال ولا يختلفوا ولا تختلف أحوالهم عما هم عليه وأنت فيهم. فتأمل. وقد ختمت السابقة بقوله: ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ وختمت هذه بالخطاب ﴿وَأِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

والآية (١٢) كلمة و(٤٦) حرفاً وترتيبها (١٥٨٥).

المعنى: فاستقم: الفاء تفريع على ما سبق وبناء عليه.

استقم: فعل أمر بمعنى الازدياد من الاستقامة وإلا فهو سيد من استقام عليه الصلاة والسلام، أو الدوام عليها، والمحافظة على هذا الأمر.

وقد ورد الأمر استقم في القرآن كله مرتين هذه أولاهما والآخره منهما في الشورى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [١٥].

والألف والسين والتاء تزداد على الفعل للطلب وللتقوية في الأمر كما في قوله: ﴿اسْتَيْسَرَ﴾ ﴿اسْتَوْقَدَ﴾ ﴿اسْتَخْرَجَهَا﴾ ﴿اسْتَخْلَصَهُ﴾.

كما أمرت: الاستقامة كما بينها الله لك وكما حددها منهجه لك وهذا أمر دقيق في غاية الأهمية، فبعض الناس يشدد على الناس بدعوى الزهد ودعوى الورع ويحرم عليهم ما أحل الله بدعوى الاحتياط، ويفرض عليهم ما ليس مفروضاً بدعوى الازدياد في الخير ومن الخير، ويبدع ما ليس من البدع تضيقاً على الناس وتحكماً فيهم بجهل أو بتسلط خفي أو ظاهر أو لدواعي الجهل فحسب، وكل هذا ليس من الاستقامة بل هو من الانحراف والغلو والتشدد وما أغنانا عن كل ذلك، وقديماً قال علماؤنا: ألا قاتلَ الله الإفراط والتفريط. فكيلا الأمرين مذموم، ومثلما أن التفريط مذموم فلا يظنن ظان أن الإفراط بعكسه محمود، لا بل قد يكون مذموماً أكثر، فالتفريط معصية، وتحريم ما أحل الله للناس قد يصل إلى درجة التآله، وهذا ليس معصية. فحسب بل هو أبعد منها بكثير فليحذر وليلتزم قول الحق: كما أمرت. أي مثلما طَلَب منك وكما بين لك فلا تزد ولا تنقص، ولذا فإن الأثر الوارد «شييتني هود...» صرفها بعض العلماء إلى هذه الآية.

وقد أكد هذا الذي نقول قوله تعالى بعد قليل في الآية نفسها: ﴿وَلَا تَطَّوَّرَا﴾.

فما أجل القرآن وما أجل منهجه وما أجل وأعدل وأكمل وسطيته التي لا إفراط فيها ولا تفريط^(١).

ومن تاب معك: أي وليستقم كما استقمت أنت يا رسول الله من تاب معك أيضاً، ولاحظ أنه لم يقل ومن آمن معك، فكان هذه المسألة مسلمة تعداها الخطاب وانتقل لما بعدها، وتأمل أن التوبة لا تكون إلا من تقصير وهذا شأن البشر، وربهم يتقبلهم على ما هم عليه من ضعف ويحبر كسرهم وضعفهم ويتقبل مخطئهم لكن فليكن تائبهم وليس مصرهم^(٢).

ولا تطغوا: ولا تعتدوا، والطغيان التجاوز وهو مفهوم واسع فقد يطغى الإنسان إذا ملك أو أصبح ذا سلطان، وقد يطغى بلا سلطان، فمن جهله قد يشدد على نفسه، وهذا مجد ذاته طغيان وقد يعتدي في الدعاء، ومن هنا قال الله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ نَضِرُّكُمْ وَخَفِيَّةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

والعدوان في الدعاء صوره عديدة جداً، وأعد هذا كله من صور الطغيان وقد يتعسف متعسف في إقامة حدود الله، فلا يأخذ بالبينات الكافية، ولا يراعي الظروف المخففة إذ تدرأ الحدود بالشبهات وهذا الدين دقيق حساس لا يحتمل تدنياً بلا إحساس.

(١) قال ابن القيم رحمه الله في كتابه جامع الآداب: قال بعض السلف: ليحذر أحدكم أن يقول: أحل الله كذا، وحرم الله كذا، فيقول الله: كذبت، لم أحل هذا، ولم أحرم هذا، يعني التحليل والتحریم بالرأي المجرد بلا برهان من الله ورسوله. ج ١ ص ٣٣٥ ط ١ دار الوفاء ودار ابن حزم ١٤٢٣-٢٠٠٢.

(٢) قال ابن رجب الحنبلي في لطائف المعارف: «إن الله تعالى يحب أن يعفو ويغفر، ومن أسمائه الغفار والعفو والتواب فلو عصم الخلق فلمن كان العفو والمغفرة». ص ٥٨ ط ٨ دار ابن كثير ١٤٢٧-٢٠٠٦ دمشق.

إنه بما تعملون بصير: ولاحظ أن السابقة كانت عنهم أعني بني إسرائيل ومن لف لفهم والناس أجمعين على العموم في نهاية المطاف أما هذه فتتكلّم عن نبينا وأمّتنا إلى قيام الساعة.

من هنا جاء الخطاب.. وملحظ آخر أنه قال هناك: ﴿خَيْرٌ﴾ وهو العليم بالخفايا، دلالة أن القوم قد يبطنون أشياء يكتُمونها في أنفسهم من شك أو انحراف أو نوايا خبيثة، فالله يخرجها ويطلع عليها ويعلمها، ويعلم التواءاتهم وكهوف نفوسهم وعفوناتها ورطوبة عتمتها وظلمتها ودهاليزها.

أما أنتم أيها المؤمنون فالأصل أنكم صفحة مكشوفة، نعم قد تقع منكم أخطاء فأنتم بشر، ولكنها تحت عين المراقبة، وإن تبتم كانت كأن لم تكن.

وقد ورد بصير ٣٦ مرة، وورد خير ٣٣ مرة كما مر^(١).

وورد بصيراً ١٥ مرة وورد خبيراً ١٢ مرة.

أي بالنسب ذاتها، فسبحان من هذا كلامه.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إنه مما يستحق الانتباه هنا أن النهي الذي أعقب الأمر بالاستقامة لم يكن نهياً عن القصور والتقصير، إنما كان نهياً عن الطغيان وهو المبالغة التي تحول هذا الدين من يسر إلى عسر والله يريد دينه كما أنزله».

قال الشيخ حسنين مخلوف: «فاستقم: الزم النهج المستقيم المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، أنت ومن آمن معك كما أمرك الله تعالى، ﴿وَلَا تَقْرَ﴾ أي لا

(١) ورد ﴿بَصِيرٌ يَمَّا يَمْلُوكَ﴾ أو ﴿يَمَّا تَمْلُوكَ﴾ وورد ﴿يَمَّا يَمْلُوكَ بَصِيرٌ﴾ حوالي عشرين مرة والباقي سميع بصير أو وما يستوي الأعمى والبصير أو إنه هو السميع البصير.

تجاوزوا ما حدد لكم بإفراط أو تفريط ﴿وَلَا تَزْكُوا﴾: أي لا تميلوا ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم (أقول: أو مطلقاً) بشرك أو معصية، يقال ركن إليه لنصر وعلم ونفع، إذا اعتمد عليه. ويستثنى من ذلك للضرورة صحة الظالم على التقية مع حرمة الميل القلبي إليه. أ. هـ.

قال سيد طنطاوي: «والمعنى: لقد علمت أيها الرسول الكريم حال السعداء وحال الأشقياء، وعرفت أن كل مكلف سيوفى جزاء أعماله. وما دام الأمر كذلك فالزم أنت ومن معك من المؤمنين طريق الاستقامة على الحق، وداوموا على ذلك كما أمركم الله، بدون إفراط أو تفريط، واحذروا أن تتجاوزوا حدود الاعتدال في كل أقوالكم وأعمالكم. ووجه سبحانه الأمر بالاستقامة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تنويهاً بشأنه، وليبنى عليه قوله كما أمرت، فيشير بذلك إلى أنه عليه الصلاة والسلام هو وحده المتلقي للأوامر الشرعية من الله تعالى. وقد جمع قوله تعالى فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ أصول الإصلاح الديني وفروعه، كما جمع قوله تعالى «ولا تطغوا» أصول النهي عن المفاسد وفروعه، فكانت الآية الكريمة بذلك جامعة لإقامة المصالح ولدرء المفاسد»^(١).

من دروس الآية ١١٢:

- ١- الاستقامة على الدين روح الدين.
- ٢- رب تدين مغلول يصد الناس عن جمال الدين وروحه السمحة.
- ٣- تنزل هذه التوجيهات بعدم الطغيان، والمقصود توجيه المؤمنين مع أنهم هم من يقع عليهم الطغيان، وأحر من قاسى الطغيان ألا يقع منه طغيان.

٤- أسماء الله الحسنى تختتم بها الآيات بما يناسب معاني الآية وما تطرحه من موضوعات وقضايا.

٥- الإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير.

الآية ١١٢:

﴿وَلَا تَرْكُؤْا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ

لَا تُنصَرُونَ﴾ (١١٢)

الربط والمناسبة: وجه رسول الله عليه الصلوات بنهي الله له: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ ثم وجه هو وأمه بالأمر بالاستقامة وبقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْلُبُوا﴾ بنهيهم وحاشاهم عن الطغيان. والآن ينهون عن الركون إلى الذين ظلموا فهو النار بعينها فيقال لهم: ﴿وَلَا تَرْكُؤْا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فالآيات نسق من حيث إنها جميعاً في سياق التوجيه والتربية والتعليم والتركية.

وهذه الآية (١٧) كلمة و(٦٦) حرفاً وترتيبها (١٥٨٦).

المعنى: ولا تركنوا: الواو للعطف ولا ناهية وتركنا مجزوم بالنهي بحذف النون.

والمعنى العظيم المقصود هو عدم الركون إلى الظالمين، وهذا توجيه عجيب، في محله بالطبع، فالظالمون في مكة كانوا يمارسون الضغط والتعذيب على المؤمنين، ولنا أن نتصور أن هوداً أنزلت في أشد مراحل ضغط أهل مكة على المسلمين، من هنا قلت هذا توجيه عجيب، ولكنه على النفس البشرية العجيبة، غير عجيب فالنفس

قد تركز إلى جلادها^(١)، إذ تتوهم أن هذا الركون قد يخفف عنها الضغط، وهم في هذا واهمون، إنه الموت.

ولذلك فإنني دائماً أشير إلى ضرورة التفسير النفسي للقرآن، فلا يكفي التفسير اللفظي أو بيان معاني الحروف، وهذا مطلوب بالطبع، لكن التفسير النفسي أبلغ أثراً وأعمق غوصاً، وأبعد غوراً، وأعم نفعاً، وأدوم تأثيراً، ومن هنا قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلٌ بَلِيغٌ﴾ ويا الله كم استوقفتني هذه الآية، فالنفس هائلة الأمداء (جمع مدى).. عظيمة الطاقات لكنها كالأرض، واسعة نعم، لكنها تركت بوراً لم تحرث بالعلم، ولم تبذر فيها بذور الخير بالتركية والتوجيه.. ومن هنا قال القرآن عن الكافرين: ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.

نعود إلى موضوعنا كيف يركن المرء أو الإنسان إلى ظالمه، وهو الذي يقاسي قسوة ظلم هذا الظالم؟ أولاً: أن يعتبر هذا الواقع البئيس الزري هو الوضع العادي والسوي، هذا أول الوهن. ثانياً: أن ينكسر أمام هذا الواقع الفاسد، وأن يردد مع البيغوات المردددين: «مفيش فايده». «والكف لا يواجه المخرز». وثالثاً: أن الإنسان مولع بالقوة بل إن كثيرين يعبدونها وهو يظن أنه بانحيازه لمن ملك القوة أصبح

(١) كم من الشعوب المستعمرة عمل فريق كبير منها في خدمة مستعمرهم وجلاد شعبهم ومغتصب أرضهم ومقدساتهم، ولا أحد ولا أعين ولا آيين بل أشير فقط، وفي الناس فطانة.

وبعد أن كتبت هذا بمدة اطلعت على ما سمي ظاهرة ستوكهولم أو متلازمة ستوكهولم وملخصها أن عصابة سطت على بنك في هذه المدينة واحتجزوهم لمدة ثم داهمت قوى الأمن المكان وحررت الرهائن فوجدوا أن فريقاً من المحتجزين كان مثالماً لفارقة من احتجزوهم فسميت هذه الظاهرة بعقدة ستوكهولم أو نحو هذا.. وفعلاً إنها دنيا عجيبة والإنسان فيها أعجب ما فيها.

قوياً، وهذا وهم كبير كبير إن الذي أصبح أكثر قوة هو الظالم الطاغوي ومستعمر بلدك وأنت ما صرت إلا عبداً لهذا القوي فيزداد طغيانه عليك^(١).

وما النفاق الذي برز في المدينة إلا صورة من هذا الركون، فالمسلمون قوة ناشئة، غير مستقرة في نظر بعض أو كثيرين، أما القوة التقليدية المعتبرة والمعدودة، فهي بنو إسرائيل أولاً بما لهم من علم وكتب يتدارسونها وثقافة يتبحرون بها، ومن غفلة العرب كانوا يعتمدونهم مرجعاً في مسائلهم حتى أكرمهم الله بالقرآن فاستقلوا معرفياً^(٢) وأصبحوا اليد العليا علمياً.. ومن هنا قال القرآن ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

مصادر قوتهم التي آملت إليهم النفوس والعقول: المال والثروة والتجارة وتصنيع السلاح وحيازته.

ثم قوة حصونهم وعتونهم وإعدادهم لساعات الخطر، ومن مصادر قوتهم تجمعهم وتفرق العرب ووجود خطة لديهم ولا خطة للعرب حتى جاء الإسلام بالطبع.

من هنا نشأ النفاق من الركون إلى الذين ظلموا من بني إسرائيل لقوتهم الظاهرة، والركون إلى قريش وحلفائها لتوهم قوتهم، ومنافقة المؤمنين لأنهم يتوقعون أن تنامي قوتهم، والمنافقون يريدون أن يشبكوا خطوطهم مع كل أصحاب القوة حاليين ومحتملين، هذا التفسير النفسي للنفاق، وبالطبع فإن أهم من

(١) ولا أريد أن أضرب المثل بإسرائيل كيف بالتعاون معها بل بالتنسيق الأمني وغيره زاد الناس ضعفاً وزادت هي قوة ولو قاوموها لضعفت هي وتقواها هم.

(٢) يبدو أن هذا ما زال في طور الأحلام والأمانى إذ الاستقلال المعرفي ما زال بعيداً ما دمتا نزوي الإسرائيلية وتنتظر لديمومتها واعتمادها وبقائها واستمرارها وحياتها بدل إماتتها ونزعم أن الحديث الشريف يدعمنا في ذلك في فهمهم للقول النبوي الشريف «وحدثوا» وليس الأمر كما فهموا، وليس هذا موضوعنا.. لكنه يمت له.

كل ما قيل عدم رسوخ اليقين في نفوس المنافقين ونعود بعد الاستطراد إلى حمى الآية المكين: ﴿وَلَا تَزْكُوتُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَكَنُوتٌ﴾ احذروا أيها المؤمنون من الركون إلى الظالمين وإن بدوا أنهم يملكون القوة الا فلتعلموا ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

فلتركنا إذاً إلى القوي المطلق سبحانه، وإن امتحن المؤمنين إلى حين بضعفهم الظاهر فإنهم كالجنين يوشك أن يكون بطلاً يغير مجرى التاريخ، فأنبغ النبغاء كيف بدأ.. ثم كيف نبغ.. وأعظم القادة الذين غيروا التاريخ كيف بدأوا؟

ألم يبدأ موسى في فم الموت؟ ثم ألم يغرق فرعون إذ لاحقه؟ هذه هي نواميس الله من غابت عنه ضل وذل وقل وزل وأضلّ واضمحل.

ومن اهتدى بالسنن وإلى السنن فقد فاز وحاز أغلى المعارف وأثمن القواعد والقوانين للنصر والتمكين. فلا تركنوا أيها المؤمنون إلى الظالمين، إن قريشاً وكل قوى الأرض إن بدت قوية ما هي إلا بيت العنكبوت^(١)، فمن ركن إلى الفاني الزائل أخذ حكمه، وهذا القوي الظالم مصيره إلى النار ومصير من ركن إليه، فمن ركب سفينة فاخرة لكن مصيرها كان إلى الغرق ماذا أفاده استمتاع ساعات في سفينة مرفهة ثم كان مصيرها أعماق البحر؟^(٢)

وكم قص علينا القرآن لا قصص التاريخ الماضي فحسب من دمار قوى الطغيان كعاد إرم ذات العماد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي

(١) ألم تر إلى سورة العنكبوت كيف توسطت سورة القصص التي قصت قصة فرعون وسورة الروم التي قصت قصة حضارة سادت الأرض كما لم تفعل حضارة من قبل وربما من بعد، وكل ذلك السابق واللاحق بيت العنكبوت.

(٢) لا أريد أن أضرب المثل بسفينة «التايتانيك» أي المتحدية وهي التي لم يصنع مثلها من قبل غرقت في أول رحلة لها ومن على متنها كانوا مطمئنين إلى أنهم ركبو أكثر سفينة أماناً وما دروا أنه من مامنه يؤتى الحذر، فلا أمن إلا في الجوار المكين والركن الركين جوار الله.

الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصَبَّ عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد.

أقول مع هذا القصص التاريخي فقد قص علينا قصص المستقبل حين يتخلى المتبوعون عن اتباعهم وقد أعاد فيه القرآن ليعتبر أصحاب العقول.

ونكتفي من هذا الكثير بسورة واحدة هي السورة الأولى بعد الفاتحة أعني سورة البقرة فقد قالت: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٣١﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي قَبْلَ هَٰذَا مَا كُنَّا لَنَافَعُهُ لَوْلَا أَعْمَلْنَاهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٣٣﴾﴾.

الأمر خطير جد خطير وكبير جد كبير إنه يتعلق بحياتك هذه وبالمصير، فحذار الغفلة التي تقود إلى مثل هذا الركون والرضا بالعيش الحقيق.. فالحياة مقاومة للظلم ورفض له في النفس أولاً والفكر والسلوك والثقافة، والعجب في الإنسان العجيب أن الكثيرين ممن اکتووا بالظلم أعادوا إنتاجه على غيرهم^(١).

فتمسك النار: فاء السببية والفعل بعدها منصوب بأن مقدرة، وما بعد الفاء متسبب عما قبلها وما قبلها سبب لما بعدها، طبعاً.

ولاحظ تعبير تمسككم.. وإجاءاته العجيبة، وليس المقصود من المس المس الخفيف، وإنما هذه بدايته ثم يهجم السوء.. ثم هل مس النار هين، هذا إن سلمنا

(١) لعل أبلغ نموذج هو موقفنا من بني إسرائيل فحضارتنا الوحيدة التي تعايشوا معنا فيها ولم نظلمهم وقد اکتووا بظلم كل دول أوروبا، وما ظلم بنو إسرائيل أحداً إلا نحن الذين لم نظلمهم قط. فتأمل!

أنه المس الخفيف.. أما قرات قوله تعالى ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ ﴿سَوْطٌ﴾ ربما توحى الكلمة للبعض بمحدودية الأمر، وليس كذلك.

فأعنف قوة قد تنشأ من ضغط كمية من الماء ثم تركيزها في قوة مركزة بمنفذ ضيق، إنها حينئذ أقوى من الرصاص بل تقص بها المعادن.

وما لكم من دون الله من أولياء: وليس لكم سوى الله أولياء، وزيدت ﴿مِنْ﴾ مرتين، أقول زيدت ولا زيادة في القرآن، إنما هو مصطلح النحو لا البلاغة، فهي في البلاغة في موقعها الأتم، وإنما كانت هذه الإضافة لهذا الحرف ﴿مِنْ﴾ لنفي أي نصير نفيًا باتًا قاطعاً مطلقاً شاملاً عاماً يمر بكل فرد متصور من الأولياء فلا يبقى ولا يغادر منهم أحداً.

قال الشيخ حسين مخلوف: «﴿وَلَا تَرْكَبُوا﴾: أي لا تميلوا ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم (أقول أو مطلقاً) بشرك أو معصية، يقال ركن إليه لنصر وعلم ونفع، إذا اعتمد عليه ويستثنى من ذلك للضرورة صفة الظالم على التقية مع حرمة الميل القلبي إليه. أ. هـ».

ثم لا تنصرون: ختام عظيم خطير لآية عظيمة تضمنت معنى خطيراً أن من استنصر بغير الله لن ينصره أحد، وسيخذله كل من استنصر بهم، وبنى تنصرون للمجهول ليعم كما عم ما قبله، أي فلا ناصر لهم!

قال الشيخ محمد طه الدرة: «تدل الآية على وجوب هجران أهل الكفر والمعاصي، لأن الصحبة لا تكون إلا عن مودة ومحبة، وفي الآية وعيد شديد لمن ركن إلى الظلمة أو أحبهم أو رضي بأعمالهم، فكيف حال الظلمة أنفسهم».

قال الزمخشري: «ثم» معناها الاستبعاد، لأن النصرة من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له.

قال السعدي: «ففي هذه الآية: التحذير من الركون إلى كل ظالم، والمراد بالركون، الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقه على ذلك، والرضا بما هو عليه من الظلم.

وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة، فكيف حال الظلمة بأنفسهم!!؟
نسأل الله العافية من الظلم»^(١).

من دروس الآية ١١٣:

- ١- في حالات المرض النفسي قد يركن الإنسان إلى جلاده.
- ٢- وفي حالات من القهر قد يحب الإنسان من يقهره ومن يعذبه وهذه الحالة تسمى في علم النفس الماسوشية.
- ٣- الركون إلى الظالمين يجعل الراكن واحداً من الظالمين.
- ٤ مصير من ركن للظالم ومصير من ظلم واحد.
- ٥- يظن الناس أو كثير منهم أن من ملك القوة أصبح متحكماً بمصائر الحياة، فأمريكا اليوم مثلاً تُعبد في الأرض وما علم الناس أنها وقياداتها أكثر هشاشة من كل ما يتخيلون.
- ٦- النفاق منشؤه توهم قوة من ينافقه المنافقون.
- ٧- لا وليَ إلا الله ولا ناصر إلا الله.
- ٨- يا تُعس من استنصر بغير الناصر الحقيقي!

٩- الركون إلى الظالم إقرارٌ بظلمه.

١٠- أهمية دراسة حالات علم النفس المرضي لمعرفة آليات هذا الركون النفسية لمعالجتها وتحسين النفس من مزalcها.

الآية ١١٤:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرُ

لِلذَّكْرِ﴾

الربط والمناسبة: التوجيهات الربانية للمصطفى وللأمة متوالية، فقد نهوا عن الركون إلى الظالمين في الآية ١١٣ وفي هذه يقال لهم أن يقيموا الصلاة، أي أن يركنوا إلى الله، وعنوان ذلك إقامتهم الصلاة.

وهذه الآية (١٤) كلمة و(٦٥) حرفاً وترتيبها (١٥٨٧).

المعنى: وأقم الصلاة: الأمر لسيد المأمورين ﷺ ولأتمته قطعاً من بعده فهو طليعة أتمته ورائدهم.

والواو تصح للعطف موضوعاً على موضوع أو للاستئناف.

وأقم الصلاة: فعل أمر، والإقامة أداء الصلاة بأركانها وروحها من الخشوع، وتدبر الآيات.

طرفي النهار: أعتقد أنها تشير إلى الصلوات الخمس، والمقصود بطرفي النهار فيما أرى النهار كله مشاراً إليه بطرفيه ومكنى بهما عنه. كقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ...﴾ فقد شملت الصلوات الخمس، ولا أرى أن الصلاة كانت صلاتين الفجر والعصر أو الفجر

والمغرب وذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس، هذا فيما أرى لا يكون. والله أعلم. وطرف الشيء: متناه من أوله أو من آخره، فالثنية صريحة في أن المراد أول النهار وآخره. (هكذا ترى كثير من التفاسير ولا نرى ما ترى).

أو أن طرفي النهار هما على ظاهر المعنى وظاهر التعبير، الفجر والعصر أو الفجر والمغرب، لا على أنهما كل الصلوات، ولكن على أنهما من أهم الصلوات. والنهار: ما بين الفجر إلى غروب الشمس، وسمي نهاراً لأن الضياء ينهر فيه، أي يبرز كما يبرز النهر.

وزلفاً من الليل: هل هي صلاة المغرب والعشاء كما هو المفروض أو زلفاً من الليل التهجد والقيام كما قال في الإسراء بعد ذكر الصلوات كما في النص الذي سبق، وقال بعده: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ الاحتمالان قائمان.

وإن كنت أميل إلى الاعتبار الأول فتكون الصلوات الخمس قد ذكرت بطرفي النهار متضمنة الفجر والظهر والعصر وزلفاً من الليل أي المغرب والعشاء والاحتمال الثاني قائم بالطبع.. والله تعالى أعلم دائماً، وإنما نحن نحاول الفهم وقد نصيب وقد نخطئ.

إن الحسنات يذهبن السيئات: ربط الآية هذه، وغيرها في كثير من الأحيان بسبب نزول معين لا أراه، وإنما الآية نص عام مطلق ويظل كما هو دون ربطه بسبب نزول يصح أو لا يصح.

فالحسنات تمحو السيئات وتذهبها وتكفرها.

ذلك ذكرى للذاكرين: أي ذلك الذي ذكرته الآية من إقامة الصلاة وأن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك كله ذكرى وتذكرة للذاكرين أي للذاكرين الله والمتذكرين هذه الحقائق.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «الصلاة في اللغة الدعاء والتضرع وهي في الشرع أقوال وأفعال مخصوصة، مبتدأة بالتكبير مختمة بالتسليم، ولها شروط وأركان ومبطلات ومكروهات مذكورة في الفقه الإسلامي، والصلاة من العبد معناها التضرع والدعاء، ومن الملائكة على العبد معناها الاستغفار، ومن الله على عباده الرحمة وإنزال البركات، وقد جمعت الأنواع الثلاثة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾».

قال الشيخ حسنين مخلوف: «واقم الصلاة: أي أد الصلاة المكتوبة على تمامها في طرفي النهار، وهما الغداة والعشي، وصلاة الغداة: الصبح، وصلاة العشي - وهو من الزوال إلى الغروب -: الظهر والعصر.

وزلفا من الليل: أي طائفة من أوله، وهي صلاة المغرب والعشاء، جمع زلفة، كعُرف وعُرفة.

إن الحسنات يذهبن السيئات: إن الأعمال الحسنة كالصلاة والصدقة والاستغفار ونحوها من أعمال البر، وكالعزم على اجتناب الكبيرة، يكفرن السيئات ويذهبن المؤاخذه عليها. والمراد بها: الذنوب الصغائر، لأن الكبائر تكفرها التوبة ذكرى للذاكرين: عظة للمتعتزين. أ. هـ.

قال ابن عاشور: «المقصود أن تكون الصلاة أول أعمال المسلم إذا أصبح وهي صلاة الصبح، وآخر أعماله إذا أمسى وهي صلاة العشاء لتكون السيئات الحاصلة فيما بين ذلك محوطة بالحسنات الحافظة بها».

قال الجزائري: «من هداية الآيتين (هذه وتاليتها):

أولاً: بيان أوقات الصلوات الخمس إذ طرفي النهار هما الصبح وفيها صلاة الصبح والعشي وفيها صلاة الظهر والعصر كما أن زلفاً من الليل هي ساعاته فيها صلاة المغرب والعشاء.

ثانياً: بيان سنة الله تعالى في أن الحسنة تمحو السيئة وفي الحديث: «الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينها ما لم تغش الكبائر».

ثالثاً: وجوب الصبر والإحسان وأنهما من أفضل الأعمال^(١).

من دروس الآية ١١٤:

- ١- الصلاة هي الصلة بالله والخليل الموصول بين العبد وربّه.
- ٢- إقامة الصلاة أداؤها بتمامها وكمالها وأركانها وروحها وآدابها.
- ٣- وزعت الصلوات على النهار والأوقات حتى يكون العبد دائم الصلوات بالله.
- ٤- الحسنات يذهبن السيئات هذا قانون إلهي يبين رحمة الله بالعباد وإرادة إدخالهم الجنة.
- ٥- الآيات والعبادات تذكّرة حتى لا يغفل الإنسان فالغفلة هلكة.
- ٦- الأمر من الله بعدم الركون إلى الظالمين.. إذاً لا بد للنفس من جهة تركز إليها.. التوجيه بالصلاة أي الركون إلى الله الحق الثابت الذي يستمد منه الزاد لتحمل المشقة في الدعوة.

الآية ١١٥:

﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٥)

الربط والمناسبة: وأقم الصلاة فاتحة الآية السابقة، واصبر فاتحة هذه الآية، وكثيراً ما ربط القرآن الصلاة والصبر بدءاً من قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ..﴾ ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ ﴿وَأَمْرَ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْبِرْ عَلَيَّهَا..﴾.

فالأيتان من هذه الناحية نسق، وهذا أمر معطوف على أمر.. وهما خطاب للمصطفى ﷺ، وثالثاً هذه الآية القصيرة هي ختام هذه المجموعة من التوجيهات فهي أنساق لا نسق واحد.

وهذه الآية (٧) كلمات و(٢٩) حرفاً وترتيبها (١٥٨٨).

المعنى: واصبر: الواو للعطف على وأقم الصلاة، واصبر فعل أمر لسيد المأمورين ثم لكل المأمورين من بعده ﷺ والصبر يجري في عروق التدين والدين فلا يغيب عن عبادة، ولا يغيب عن توجيه، ولا يغيب عن سنة الله في المجتمعات.. من هنا يردد العلماء: الدين نصفان أحدهما الصبر والآخر الشكر.

فإن الله لا يضيع أجر المحسنين: الفاء متفرعة عما سبقها، وإن للتوكيد وللفظ الجلالة اسمها وما بعده خبرها.

يعني أن الله سيحفظ أجر المحسنين عنده فلا يضيع أبداً لأنه — المولى العظيم، وهذا كناية عن إيصالهم أجرهم وجزاءهم يوم القيامة، والصبر والإحسان كثيراً ما اقترنا ومن ذلك ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحَقُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ وفي آل عمران في سياق الحديث عن أحد ختم الآية ١٤٦ بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ وختم

الآية ١٤٨ ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وأحياناً يذكر الصبر لا باللفظ وإنما بالسلوك الذي يعنيه كقوله في خواتيم التوبة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَمْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٢٠].

قال الزمخشري: «كأنه قال: وعليك بما هو أهم مما ذكرت به وأحق بالوصية وهو: الصبر على امتثال ما أمرت به والانتفاء عما نهيت عنه فلا يتم شيء منه إلا به».

قال ابن عاشور: «ومناسبة وقوع الأمر بالصبر عقب الأمر بالاستقامة والنهي عن الركون إلى الذين ظلموا، أن المأمورات لا تخلو من مشقة عظيمة ومخالفة لهوى كثير من النفوس، فناسب أن يكون الأمر بالصبر بعد ذلك ليكون الصبر على الجميع كل بما يناسبه».

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «الصلاة في أساسها ذكر وتحتاج إلى صبر، والاستقامة في حاجة إلى صبر كما أن انتظار الأجل لتحقيق سنة الله في المكذبين يحتاج إلى صبر ومن ثم كان التعقيب على الأمر بالاستقامة».

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «الصبر هو حبس النفس من الجزع عند المصيبة، وحبس اللسان عن الشكوى، وهو مر المذاق إلا أنه حلو العواقب».

وهو على ثلاثة أنواع: صبر على الطاعة وصبر عن المعصية وصبر على البلاء، ومن أسماء الله عز وجل الصبور».

من دروس الآية ١١٥:

١- الصبر قيمة عظيمة من قيم هذا الدين العظيم.

٢- الصبر والإحسان كثيراً ما اقترنا.

٣- الصبر ثقة بالله وتصديق لوعده وانتظار لأقذاره.

٤- الصبر عمل وليس موقفاً سلبياً وانتظاراً دون مقدمات.

٥- الاستقامة إحسان، وإقامة الصلاة في أوقاتها إحسان، والصبر إحسان

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الآية ١١٦:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَنَوَتْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ۚ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِمْ وَكَانُوا تَاجِرِينَ ﴿١١٦﴾﴾

الربط والمناسبة: قصت سورة هود عدداً من قصص الأقوام مع أنبيائهم، ورفضهم لدعوات الأنبياء، وما تلقوا نتيجة ذلك من عقاب وعذاب واستئصال. فقد قصت قصة نوح مع قومه ثم هود مع قومه عاد ثم صالح مع قومه ثمود ثم إبراهيم، ولوط مع قومه الذين عاش بينهم ثم شعيب مع مدين ثم ختمت كل ذلك بقصة موسى مع فرعون وكيف أهلك من تبعه من قومه في الدنيا وسيوردهم النار في الآخرة.

وعقب مولانا على كل ذلك بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ﴾

ثم توجيهات للنبي عليه الصلوات ولمن تبعه عليهم الرضوان، ثم هذه الآية التي ترسم النهج البديل عن الإعراض والتكذيب أن يكون أولو بقية في كل قوم يقفون في وجه الفساد ليمنعوا القوم من تأليه الطغاة وهو مقدمة الهلاك.. فالآية نسق تام مطلق مع السياق.

وهذه الآية (٢٦) كلمة و(١١١) حرفاً وترتيبها (١٥٨٩).

المعنى: فلولا كان: الفاء تفريع على ما سبق، ولولا تحضيضية بمعنى هلاً كان، يعني كان ينبغي أن يكون.
من القرون من قبلكم: من الأمم في القرون الخوالي التي سبقتكم ومضت من قبلكم.

أولو بقية: أي أصحاب دين وهمة وعزم، وليست تعني القليل من الشيء..
كما يتبادر من لفظ بقية أي ما يتبقى من الشيء، وإنما المقصود أصل ومبادئ تحملهم على الإيجابية والفعالية والتغيير. قال الشاعر: إن تذنبوا ثم يأتيني بقتيكم.
ينهون عن الفساد في الأرض: ينهاون عن ما تعج به الأرض من الفساد، ولاحظ أنه عبر بالماضي ثم انتقل إلى المضارع ليفيد تصوير الأمر من ناحية، واستمراريته وتجده من ناحية، وليس نهوا وانتهى كما هو المتوقع من اللفظ.. لا وإنما القرآن يريد بها مستمرة هذه الروح. والفساد عام يشمل فساد العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة.

والأرض عامة كذلك، للدلالة على أن إيجابيتهم لا تقتصر على أرض دون أرض، وإنما حيث كانوا أثروا..

إلا قليلاً من أمثينا منهم: استثنى القرآن من هذا التحضيض والطلب، فئة قليلة كانت بالفعل ممن اتصف بهذه الصفة ممن أنجاهم الله ممن كانوا مع الأنبياء فنجوا معهم، وهذا يعني أن النجاة مرهونة بالإيجابية والنهي عن الفساد وتغيير المنكر بالدعوة والإصلاح.

واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه: وأما الذين ظلموا في المجتمع والمفسدون في الأرض منهم. فقد داموا على ما هم عليه، واستمروا على ما هم فيه ونهجوا

نهجهم وما تعدوه وما أترفوا فيه وتنعموا فيه، وكان الإصلاح مجرمهم هذا الترف ويتناقض مع امتيازاتهم، فقاموا الإصلاح وداوموا على إلفهم وفسادهم.

وكانوا مجرمين: بدأ بكان وختم الآية بها، وكان كانت رقم (٢) من البداية وكذلك في آخر الكلام، فهي متسقة حتى في موضعها.. وكان المترفون المفسدون مجرمين في مجتمعاتهم وأقوامهم وفي الأرض.

قال الزغشري: «واتبع الدين ظلموا ما أترفوا فيه» أراد بالذين ظلموا تاركي النهي عن المنكر، أي: لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعقدوا همهم بالشهوات واتبعوا ما عرفوا فيه التمتع والترف من حب الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش الهنيء ورفضوا ما وراء ذلك ونبذوه وراء ظهورهم».

قال الشيخ مخلوف: «من القرون: من الأمم الماضية، أولو بقية: ذوو خصلة باقية من العقل، أو ذوو فضل، وأصل البقية: ما يصطفيه الإنسان لنفسه، ويدخره ليتنفع به، ومنه: فلان من بقية القوم، أي من خيارهم، والمراد: إنه لم يكن منهم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا ما استثنى.

ما أترفوا فيه: ما أنعموا فيه من الثروة والعيش الهنيء والشهوات العاجلة، فبطروا النعمة واستكبروا وكفروا بالله أو فسقوا عن أمره، من الترفه وهي النعمة، والطعام الطيب، والشيء الظريف تخص به صاحبك يقال: ترف، كفرح - تنعم. وأترفته النعمة: أطعته أو نعمته، والمترف: المتنعم لا يمنع من نعمه. أ. هـ».

قال ابن عاشور: «من» في قوله: «من المحيينا» بيانية، بيان للقليل لأن الذين أنجاهم الله من القرون هم القليل الذين ينهون عن الفساد وهم أتباع الرسل.

وفي البيان إشارة إلى أن نهيمهم عن الفساد هو سبب إنجاء تلك القرون، لأن النهي سبب السبب إذ النهي يسبب الإقلاع عن المعاصي الذي هو سبب النجاة.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «الآية تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم، فالأمة التي يقع فيها الفساد فتجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية لا يأخذها العذاب والتدمير، وأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، فإن سنة الله تحق عليها إما بهلاك الاستتصال أو الانحلال والاختلال».

قال الحجازي: «فهل كان من الأمم السابق قصصها، والتي مضت قبلكم جماعة أولو بقية وعقل، وأصحاب رأى وعزم ينهون عن الفساد في الأرض، ويأمرون بالمعروف لا يبالون شيئا ولا يخافون خطرا، لا يمنعون منه لومة لائم، ولا جاء سلطان جائر.

ولولا التي في الآية للتحضيض والحث على عمل ما بعدها مع الإشارة إلى الأسف لعدم تحقيقه فيما مضى. لكن قليلا من الذين أنجيتهم مع رسلهم كانوا أولى بقية نهوا عن المنكر وأمروا بالمعروف، واتبع الذين ظلموا أنفسهم - وهم الأكثرية الكثيرة في تلك الأمم - ما أترفوا فيه، من نعمة وعافية ودولة وسلطان، فكانت الأكثرية لا تأمر بمعروف ولا تنهى عن منكر، ولكنهم عقدوا عزمهم على اتباع الشهوات، وساروا وراء ما فيه التمتع والترف من حب الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش الهنيء ورفضوا ما وراء ذلك، ونبذوه وراءهم ظهريا، وكانوا مجرمين! وأى إجرام أكثر من هذا؟

ومن هنا يعلم أن الترف هو الذي يدعو إلى السرف المفضى إلى الفسوق والعصيان والظلم والإجرام، يظهر هذا في الكبار والموسرين ثم ينتقل إلى الفقراء

المعوزين ففسد حال الأمم وتدهور أخلاقها ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦] ^(١).

من دروس الآية ١١٦:

- ١- دعوات الإصلاح ضمانات من دمار المجتمعات.
- ٢- المصلحون عبر الزمان قلة والمفسدون كثرة.
- ٣- عبر القرآن عن العزيمة والهمة والإرادة بالبقية.
- ٤- المترفون والظالمون والمفسدون لا يجبون التغيير ولا دعوات التغيير ولا الإصلاح ودعواته.
- ٥- الفساد والإجرام والظلم متلازمة اجتماعية ووجودية.
- ٦- المؤمنون المصلحون هم صمام الأمان للأمم والشعوب.

الآية ١١٧:

﴿ وَمَا كَانَ نَرِيكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَةَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن ضرورة وجود مصلحين وحثت وحضت عليه بلولا التحضيضية وأن المصلحين أولو بقية وأنهم ناجون، وفي هذه الآية مواصلة الحديث إذ تبين أن القرية المصلح أهلها ضمانات هذا الإصلاح لها من الهلاك، فما كان الله ليهلك قرية أهلها مصلحون.

وهذه الآية (٨) كلمات و(٣٨) حرفاً وترتيبها (١٥٩٠).

(١) الحجازي، التفسير الواضح، ج ٢، ص ١٥٤ ص ١٥٥.

المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلم: الواو للاستئناف أو للعطف، وصيغة وما كان تفيد أشد النفي، وأضاف الرب إلى ضمير خطابه عليه الصلوات تشریفاً له وتلطفاً به.

ليهلك: وزيادة اللام على يهلك للتوكيد.

القرى: أي الأقوام أهل القرى، وهذا من مجاز القرآن.

بظلم: أي ظلماً، والباء متعلقة بيهلك.

وأهلها مصلحون: الواو للحال، أي حالة كون أهلها مصلحين، والجملة مبتدأ

وخبر لكنها في محل نصب حال.

ولم يقل صالحون وإنما مصلحون، ليُفهم أن الصلاح وحده لا يكفي بل ينبغي أن يتعدى الصلاح دائرة صاحبه إلى الغير أي إلى الإصلاح، بمعنى أن يكون له دور وحضور وتأثير وفاعلية في إصلاح مجتمعه والنهي عن الفساد.

قال الزمخشري: «المعنى: استحال في الحكمة أن يهلك الله القرى ظالماً لها تنزيهاً

لذاته عن الظلم، وإيضاحاً بأن إهلاك المصلحين من الظلم».

قال ابن عاشور: «المصلحون مقابل المفسدين، فالله تعالى لا يهلك قوماً ظالماً

لهم، ولكن يهلك قوماً ظالمين أنفسهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا

وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].»

قال الزحيلي: «يبين تعالى عدله وستته في المصلحين، فقال تعالى: وَمَا كَانَ رَبُّكَ

أي ليس من شأن الله تعالى أن يهلك أهل القرى، ظالماً لها، وأهلها قوم مصلحون،

تنزيهاً لذاته تعالى عن الظلم، وإيضاحاً بأن إهلاك المصلحين من الظلم. وقيل الظلم:

الشرك، ومعناه: أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها، وهم مصلحون في

المعاملات فيما بينهم، أو في أمورهم الاجتماعية، يتعاطون الحق فيما بينهم، ولا

يضمون إلى شركهم فساداً آخر، أي لا ينزل عذاب الاستتصال لأجل كون القوم مجرد كونهم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما ينزل العذاب إذا أساءوا في المعاملات، وسعوا في الإيذاء والظلم، كما فعل قوم شعيب، وقوم هود، وقوم فرعون، وقوم لوط. ويؤيده أن الأمم تبقى مع الكفر، ولا تبقى مع الظلم^(١).

من دروس الآية ١١٧:

- ١- لا يهلك الله القرى ظلماً.
- ٢- إن الله إذا أهلك قرية لا بد أن تكون قرية ظالمة.
- ٣- الإصلاح والإصلاح يمنع الهلاك عن القرى والأقوام.
- ٤- الإصلاح السليبي لا يكفي وحده ولا ينجي.
- ٥- مجازات القرآن من أوجه الجمال والإعجاز فيه.

الآية ١١٨:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾

الربط والمناسبة: عجيبة هذه السورة في كثافة ورود لفظ ﴿رَبُّكَ﴾ فيها ففيها أعلى ما في القرآن من هذه الكلمة وهو ١٧ مرة ولا يعادلها إلا سورة الأنعام فإذا علمنا أن الأنعام تزيد أكثر من ٤٠ آية عن سورة هود، فتكون سورة هود هي أكثر سورة في القرآن ذكرت كلمة ربك.. وذلك فيما يبدو لشدة المرحلة التي نزلت فيها هذه السورة وهي أواخر العهد المكي، وقد وردت كلمة ربك ١٢ مرة من الآية ١٠١ إلى الآية ١٢٣ ختام السورة بمعدل كل آيتين مرة، وهذا لا نظير له أيضاً..

(١) الزحيلي، المنير، ج ١٢، ص ١٧٨.

وكل ذلك لمواساته، وكان سورة هود التي شيت الرسول ﷺ هي أكثر سورة واسته أيضاً.

هذا أمر عام عن جو السورة واتساق الآية مع الجو العام لها.

أما النسق المباشر مع السياق فقد كلمتنا الآية ١٠٥ عن تقسيم الناس إلى شقي وسعيد ثم نهت السورة النبي أن يكون ﴿فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُ هَتُولَاءَ﴾ إشارة إلى الكفار، ثم قالت السورة: ﴿وَإِنَّ كَلًّا لَّمَّا لَيُؤْفِقَنَّهْم رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾ إشارة دائمة إلى انقسام الناس، ثم حضت الآية على ضرورة أن يظل في المجتمع أولو بقية يصلحون ما أفسد الظالمون ﴿وَأَتَّبِعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ثم بينت الآية ١١٧ أن الله لا يهلك القرى ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ في هذا الجو من انقسام الناس وأصنافهم جاءت هذه الآية أن الله لو شاء ﴿لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فيا لموقع هذه الآية في ختام هذه السورة أو خواتيمها.

وهذه الآية (١٠) كلمات و(٤١) حرفاً وترتيبها (١٥٩١).

المعنى: ولو شاء ربك: الواو للاستئناف وهو أولى وتجاوز عاطفة، لو: حرف تمن في اللغة، لكنها هنا بمعنى أو تفيد طلاقة المشيئة، وأنه لو شاء لكان ما شاء.. ولكنه شاء بخلاف هذا المفترض، وكله بمشيئته، التي لا يند ولا يخرج عنها شيء، سبحانه.

وأضاف لفظ الرب إلى كاف الخطاب العائد إلى أعظم مخاطب من الخلق ﷺ تلطفاً به وترفقاً ومواساة.

لجعل الناس أمة واحدة: اللام واقعة في جواب لو، فلو شاء الله أن يكون الناس أمة واحدة - أي على الإيمان - لصاروا ولجعلهم سبحانه، بأن يخلقهم

مehتدين بالخلق لا يملكون المشيئة ولا الإرادة ولا الاختيار كالملائكة مثلاً، وإذا كان الخلق كلهم على الهدى، ولا نفترض أنه لو شاء لجعلهم أمة واحدة على الكفر، فهذا فيما أرى لا محل له، فلم افترضه؟

فخلق الناس على إرادة واختيار هو الذي جعل منهم المؤمن والكافر والشقي والسعيد، لا الإيجاب ولا الإرغام ولا الإكراه، معاذ الله، ولو أجبر الله الناس على شيء لما كان ذاك الشيء إلا الإيمان وهذا مناقض لروح الدين إذ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

وهذه نقطة جوهرية مفصلية ينبغي أن نفهم جيداً.

ومن آفات الفهم عند كثير من الناس عدم إدراك هذه السنة وهذا الناموس الإلهي.

ولا يزالون مختلفين: فما دام البشر يملكون الاختيار سيظل منهم من يسيء الاختيار، ومن يذهب إلى معسكر الباطل والضلال ويكون مع الكفار، فيقع الخلاف، الذي سيظل البشر فيه إلى ما شاء الله بانتهاء الحياة ذاتها.

فالاختلاف سنة الوجود البشري على هذه الأرض، ومنشؤه حتى لا نسيء الفهم خلق البشر مختارين، ولو خلقوا كالملائكة ما كان من داع لخلقهم أصلاً، فقيمة هؤلاء البشر هي في الإرادة والاختيار ولئن أساء بعض الاختيار فلا يلغى لأجل من أساء، لا يلغى أعظم ما يمتاز به الإنسان وبه فضل وبه كرم وكانت له الخلافة وحمل الأمانة التي عجزت عنها السماوات والأرض والجبال وحملها الإنسان، وبها أسجدت له الملائكة تكريماً واعترافاً بالتميز فلله الحمد على ما اختار لنا: أن يكون لنا اختيار.. واللهم يا من خلقتنا على هذا الاختيار وفقنا على الدوام

لحسن الاختيار، وجنبنا سوء الاختيار والعتار والمصير إلى النار.. يا عزيز يا غفار.
(آمين)

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «اقتضت سنة الله ومشيته أن الذي يختار الهدى كالذي يختار الضلال سواء في أنه تصرف حسب سنة الله في خلقه ووفق مشيته في أن يكون لهذا المخلوق أن يختار وأن يلقي جزاء منهجه الذي اختار».

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «في الآية دليل ظاهر على أن الأمر غير الإرادة، وأنه تعالى لم يرد الإيمان من كل أحد، وأن ما أراده يجب وقوعه، وإذا علمت أن الإرادة نزوع النفس وميلها إلى الفعل بحيث يحملها عليه، ويقال للقوة التي هي مبتدأ النزوع، وكلا المعنيين غير متصور اتصاف الباري تعالى به، ولذا اختلف في معنى إرادته»^(١).

قال الزمخشري: «المعنى: لا يضطرهم إلى أن يكونوا أهل أمة واحدة، أي ملة واحدة وهي ملة الإسلام كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وهذا الكلام يتضمن نفي اضطرارهم، وإنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه مكنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل».

قال ابن عاشور: «ولو شاء لخلق العقول البشرية على إلهام متحد لا تعدوه، كما خلق إدراك الحيوانات العُجم على نظام لا تتخطاه من أول النشأة إلى انقضاء العالم».

قال القرطبي: «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة» قال سعيد بن جبير: عَلَى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ وَحْدَهَا... «ولا يزالون مختلفين» أي عَلَى أَذْيَانٍ شَتَّى...»^(١).

من دروس الآية ١١٨:

- ١- الاختيار أعظم مزايا الإنسان.
- ٢- الإنسان بسوء الاختيار قد يحول المزايا إلى رزايا.
- ٣- إرادة الله طليقة فلو شاء شيئاً ما وقف له أحد ولا شيء ليمنع إرادته.
- ٤- اختلاف البشر ناشئ عن إرادتهم واختيارهم أو قل عن سوء الاختيار.
- ٥- من الاختلاف ما هو غير مذموم طالما كان في ظل المنهج، أما الاختلاف بالخروج عن المنهج أو الخروج عن وحدة الأمة فهذا قطعاً مذموم.
- ٦- أمة واحدة وردت في القرآن مرات والسياق يحدد واحدة على الإيمان أو على الكفر.

الآية ١١٩:

﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(١١٩)

الربط والمناسبة: لشدة اتصال هذه الآية بسابقتها لا يبحث لها عن اتصال فتبتدئ الآية بإلا وهي استثناء مما سبق ذكره في السابقة وهو ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾^(١١٨) إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ ﴿ وفيها لفظ ربك كسابقتها.

بل تكرر فيها مرتين وبقيت مرة واحدة في ختام آية الختام.

وهذه الآية (١٥) كلمة و(٦١) حرفاً وترتيبها (١٥٩٢).

المعنى: إلا من رحم ربك: ولا يزال الناس مختلفين و في الخلاف ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ

رَبُّكَ﴾ أي إلا من رحمهم من هذا الاختلاف بأن اتفقوا ولم يتنازعوا، إذ جمعهم الإيمان وحسن الفهم وخلص النوايا، وعدم التنازع على المناصب أو التعصب أو إرادة الدنيا ومتاعها، فمن غسل قلبه من هذه الأشياء، لا والله ما نازع الناس على شيء وإن وقع فيكون طفيفاً قشرياً لا يستحق أن يتوقف عنده ويصلح بكلمة وينتهي بسرعة.. ويحل بيسر، وتعود المياه إلى صفوها وينتهي كدرها وعكرها.

فرحمة الله بالناس بهذا المنهج فوق ما يتصورون، وأما خلافهم فيدل إما على أهواء مستحكمة وإما على سوء فهم لنصوص هذا المنهج العظيم، وضيق علم وضيق عقل، ونزق شعور وطيش سهم وفهم، وعقم استنتاج واستنباط، وغلو وما إليه من شجرته الخبيثة وفروعه اليابسة من هنا تنشأ النزاعات والافتتال والاشتجار.

ولذلك خلقهم: الظاهر أن المعنى: ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم ليصطرع الحق والباطل وينصر الله في نهاية الجولة ينصر الحق على الباطل، ويدخل أهل الحق في الآخرة الجنة وأهل الباطل النار، ولذلك لهذا التدافع خلقهم، ولهذا الصراع الحق بين الحق والباطل خلقهم، ولهذا المصير العظيم من فوز من آمن وخسر من كفر، لهذا خلقهم.

وأبى بعض المفسرين هذا الفهم فقالوا أو رأوا أنه من غير المناسب أن يقال إن الله للخلاف خلق البشر، بل يُرجموا خلقهم وأعادوا اسم الإشارة ولام التعليل

الم متصل بها أي قوله ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أعادهه إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ فالمراد وليرحموا خلقهم.

ونقول ببساطة: النتيجة واحدة، فما حكم من نازع هؤلاء بل حاربهم؟ ليس هذا واقعاً موجوداً؟ سيقال: هذا هو نتيجة سوء اختيارهم، ونقول: الأولى أن يكون ولذلك خلقهم شاملاً للطرفين لا مشتملاً طرفاً واحداً تاركاً ذكر الطرف الآخر طالما كانت النتيجة واحدة.

والله تعالى أعلم.

وتمت كلمة ربك: أي تمت بوقوعها، فمنذ الأزل أراد الله وكان ما أراد وخلق البشر، ووقع المقدر منذ الأزل، وتمت الكلمة وأنجز ما أراد المولى سبحانه، وكذلك تتجه كلمة: ﴿وَتَمَّتْ...﴾ لا إلى ما سبقها فحسب، بل تتجه إلى ما بعدها وهو مبني على ما قبلها، من وجود البشر، ووقوع سوء اختيار يترتب عليه أن تملأ جهنم.. فكلمة وتمت كلمة ربك شاملة للبدء والمنشأ والختام والمصير، أي لم يعقها شيء ولم يحل دون حصول ما أراد الله شيء، ومن يستطيع؟

لأملأن جهنم^(١): ليس فقط سادخل من كفر من الجن والإنس النار، لا بل سأملاً جهنم من هؤلاء، ولا يعني هذا من قريب ولا بعيد أن أدخل من لا يستحق النار لأملأ جهنم لأن الله لا يظلم أحداً ذرة، وهل ظلم أشد من إدخاله النار، أي أحد من الجن أو الإنس؟ بالطبع لا، إذاً لأملأنها بالعدل أي بالحكم الحق العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة.

(١) وردت ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ في القرآن ٤ مرات كلها ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ ولها الأعراف ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [١٨] ثم آتينا هذه، ثم ما في السجدة ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [١٣] ثم ما في سورة ص ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٨٥] وورد مرة ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

من الجنة والناس أجمعين: لأملاَن جهنم من الجن ومن الناس أجمعين أي الكافرين منهم.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «الجنة: الجن بكسر الجيم فيهما والتاء في الأول للمبالغة، وكلاهما جمع جني، والجن خلق كثير لا يعلمهم إلا الله عز وجل، سموا جناً لاستتارهم عن أعين الناظرين لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرْنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾».

قال الشيخ مخلوف: «ولذلك خلقهم: أي خلق الناس مختلفين، بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل، ليكون فريق منهم في الجنة، وفريق في السعير أو لرحمته خلق من خلق. وتمت كلمة ربك: وجب حكمه وقضاؤه الأزلي. أ. هـ».

قال الزخشري: «لأملاَن جهنم من الجنة والناس أجمعين» لعلمه بكثرة من يختار الباطل».

قال ابن عاشور: «إلا من رحم ربك» يؤذن بأن المستثنى منه قوم مختلفون اختلافاً لا رحمة لهم فيه، فهو اختلاف مضاد للرحمة، وضد النعمة: النعمة فهو اختلاف أوجب الانتقام.

وتمام كلمة الرب مجاز في الصدق والتحقق كقوله تعالى: ﴿وَوَعَدْتُ رَبِّيكَ صِدْقًا وَعَدَلًا﴾ والكلمة هنا بمعنى الكلام، فكلمة الله: تقديره وإرادته أطلق عليها «كلمة» مجازاً لأنها سبب صدور كلمة (كن) وهي أمر التكوين».

«إلا من رحم ربك» استثناء منقطع، أي لَكِنْ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ بِالْإِيمَانِ وَالْهُدَى فَإِنَّهُ لَمْ يَخْتَلِفْ...

«ولذلك خلقهم»... الإشارة للاختلاف، أي وللإختلاف خلقهم. وقال [بعضهم] وَلِرَحْمَتِهِ خَلَقَهُمْ، وقيل: الإشارة بذلك للإختلاف والرحمة، وقد يشار بـ لذلك إلى شيتين متضادتين، كقوله تعالى: ﴿لَا فَارِصَ وَلَا يَكُرُّ عَوَانُ بَيْتِكَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] وَلَمْ يَقُلْ بَيْنَ ذَيْنِكَ وَلَا تَيْنِكَ... وكذلك قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] وَهَذَا أَحْسَنُ الْأَقْوَالِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، لِأَنَّهُ يَعْمُ، أَيْ وَلَمَّا ذَكَرَ خَلْقَهُمْ، وَإِلَى هَذَا أَشَارَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ فِيمَا رَوَى عَنْهُ أَشْهَبُ، قَالَ أَشْهَبُ: سَأَلْتُ مَالِكًا عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: خَلَقَهُمْ لِيَكُونَ فَرِيقٌ فِي النَّجَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ، أَيْ خَلَقَ أَهْلَ الْإِخْتِلَافِ لِلإِخْتِلَافِ، وَأَهْلَ الرَّحْمَةِ لِلرَّحْمَةِ... قَالَ الْمَهْدَوِيُّ: وَفِي الْكَلَامِ عَلَى هَذَا التَّفْذِيرِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، الْمَعْنَى: وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمَلَانُ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ.

«وَوُتِّئَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ» مَعْنَى: تَمَّتْ تَبَيَّنَ ذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ وَقَدَّرَ فِي أَرْزَلِهِ، وَتَمَامُ الْكَلِمَةِ امْتِنَاعُهَا عَنْ قَبُولِ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ. «لَأَمَلَانُ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» مِنْ لَبَّيْنِ الْجَنَسِ، أَيْ مِنْ جِنْسِ الْجَنَّةِ وَجِنْسِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ تَأْكِيدٌ، وَكَمَا أَخْبَرَ أَنَّهُ يَمْلَأُ نَارَهُ كَذَلِكَ أَخْبَرَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ أَنَّهُ يَمْلَأُ جَنَّتَهُ بِقَوْلِهِ: «وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا». خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ^(١).

من دروس الآية ١١٩:

- ١ - حكم الله عدل لا ظلم فيه ولو كان مثقال ذرة.
- ٢ - عدم الاختلاف من رحمة الله - وليس كما يظن الناس أن الخلاف رحمة.. ولن نفصل.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٩، ص ١١٤ - ص ١١٥.

٣- لا يعوق كلمة الله عائق فقد أراد وقدر وتم ما أراد.

٤- ملء النار من الجنة والناس لا يتناقض مع العدل ومع رحمة الله، لا، وإنما باستحقاق من أدخل.

الآية ١٢٠:

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ

وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠)

الربط والمناسبة: في هذه السورة التي قصت عدداً جيداً من القصص ففصلت في قصة نوح^(١)، ثم قصة هود، فقصة صالح، ثم قصة إبراهيم ولوط وشعيب وموسى وفرعون.. ففيها إذاً عدد كبير من القصص، نسيباً، وإذا ضمنا إلى القصص التعقيب فيكون معظم السورة في القصص ومن هنا جاء هذا الختام مشيراً إلى القصص، شأنها في ذلك شأن الأعراف حيث قيل هناك: ﴿فَأَقْصَصْ أَلْقِصَّصَ﴾ وقيل هنا: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ﴾.

وتثبيت الفؤاد الذي أشارت إليه الآية الكريمة يشير إلى جو السورة وجو المرحلة، فلك أن تتصور من هذه الكلمة ما ذكرت من استحضار الأجواء.

ومر في الآية ١١٤ ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ فناسب استحضار هذا المعنى في الختام

﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) وردت قصته في صفحتين ونيف أو نصف، وقصة هود في صفحة، وقصة صالح في صفحة تقريباً ثم قصة إبراهيم ولوط في صفحة ونصف ثم قصة شعيب في قريب من صفحتين وقصة موسى وفرعون في نصف صفحة، فمجموعها ٨ صفحات تقريباً فهي مع التعقيب تكاد تستغرق أكثر من ٦٠٪ من السورة.

وهذه الآية (١٧) كلمة و(٦٩) حرفاً وترتيبها (١٥٩٣).

المعنى: وكلاً نقص عليك: الواو للاستئناف وهو أولى وتصح عاطفة.

ونصبت كلا على المفعولية مقدمة على الفعل نقص والفاعل وأسلوب القص محبب للنفس موصل للمعنى بأيسر السبل، وعبر بالمضارع نقص للاستمرار والاستحضار، أي استحضار جو القصة وكأنه يتنزل أو قل تصوير الموقف.

عليك: الخطاب لسيد المخاطبين من الخلق ﷺ، وكلمة عليك تبين مقام العبودية والتكليف وأمانة التبليغ، وربانية المنشأ والمصدر والتنزيل.

من أنباء الرسل: من إما بيانية أو تبعية، أي أنباء الرسل على أنها بيانية، أو بعض أنباء الرسل على أنها تبعية، وبكل تصح ويستقيم المعنى.

والنبا^(١): الخبر الجليل ذو الشأن والقيمة فلا يقال لأي خبر نبأ إلا أن يكون على قدر من الأهمية.

من أنباء الرسل أي من أخبارهم العظيمة ذات القيمة في دعوتهم لأقوامهم وموقف أقوامهم منهم وما كان مصير كل.

ما ثبت به فؤادك: ما: موصولة بمعنى الذي أي الذي ثبت، ونقوي به فؤادك، والفؤاد قلب القلب، وصميمه وجوهره، كالألباب عقل العقل ومركزه ومجتمعه.

وجاءك في هذه الحق: المجيء تفيد القرب كما تكرر مرات، وكاف الخطاب لسيد الخلق وفي هذه أي السورة الكريمة المباركة الجليلة، واسم الإشارة هذه يفيد القرب أيضاً..

(١) النبا أخص من الخبر، لأن النبا لا يطلق إلا على كل ما له شأن وخطير من الأخبار، قال الراغب: النبا خبر ذو فائدة يحصل به علم، أو غلبة ظن، الدرر المجلد السادس ص ٤١٠.

الحق^(١): الصدق المطلق المصفى الذي لا يشوبه كدر الباطل، والحق الشيء الثابت، والحق الواقع الذي كان بلا زيادة ولا نقصان.

وموعظة: الموعظة الخطاب الذي يرقق القلوب.. ويرطب النفوس، ومنه: «وعظنا رسول الله موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا بمعنى النص الكريم.

وقوله تعالى فوق كل شيء: ﴿أَذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ فالحكمة خطاب للعقل والموعظة خطاب للقلب. ومجموعهما هو أهم أدوات الاستقبال وتلقي المعلومات.

وذكرى للمؤمنين^(٢): أي مع الموعظة المخاطبة للقلب ذكرى وتذكرة للعقل والشعور، حتى يظل الإنسان يقظاً متنبهاً فلا يغفل فالغفلة موت، ومثل السائر في هذه الحياة كمثل سائق السيارة إن غفل جاءت الحوادث وقد تكون مميتة.

قال ابن عاشور: «تثبت فؤاد النبي ﷺ زيادة يقينه ومعلوماته بما وعده الله، لأن كل ما يعاد ذكره من قصص الأنبياء وأحوال أمهم معهم يزيد تذكراً وعلماً بأن حاله جار على سنن الأنبياء، وازداد تذكراً بأن عاقبته النصر على أعدائه، وتجدد تسلياً على ما يلقاه من قومه من التكذيب وذلك يزيد صبراً، والصبر تثبيت الفؤاد».

(١) الحق ضد الباطل، قال الراغب: أصل الحق المطابقة والموافقة والحق يقال لموجد الشيء بحسب ما تقتضيه الحكمة.

ولذلك يقال: فعل الله كله حق، نحو الموت والحساب. الدرة المصدر السابق.

(٢) ورد الذكر والتذكر والتذكرة والذكرى والأمر بكل ذلك في القرآن كثيراً وبصيف عديدة ومرات عديدة.

قال الماتريدي: «كل الذي نقص عليك أو قصصنا عليك من أنباء الرسل، نبأ بعد نبأ، ونبأ على إثر نبأ؛ ما ثبت به فؤادك. وقوله: «مَا تُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ» يحتمل وجوهاً.

أحدها: ثبت به فؤادك؛ لما يحتمل أن نفسه كانت تنازعه وتناقشه بأن الذي أنزل عليه أو يأتي به ملك، أو كان ذلك من إحياء الشيطان وإلقائه عليه ووساوسه، فقص عليه من أنباء الرسل وأخبارهم.

[قلت: وهو قول ضعيف جداً، لا يليق بمقام صفوة العالم صلوات ربي وسلامه عليه].

وإنما ذكرناه عينة على ما ينبغي التنبه له من أقوال المفسرين وقد سمي الماتريدي تفسيره: تأويلات أهل السنة. وهذا القول لا يرتضيه أحد من أهل السنة، لشدة ضعفه، بل لتهافته وعدم قابليته للاعتماد بين الأقوال.

والثاني: قص عليه أنباء الرسل واحداً بعد واحد؛ ليثبت به فؤاده ليعلم كيفية معاملتهم قومهم، وماذا لقوا من قومهم، وكيف صبروا على أذاهم ليصبر هو على ما صبر أولئك، وليعامل هو قومه بمثل معاملتهم. [قلت: وهو توجيه وجيه]

ويشبه أن يكون قوله: «مَا تُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ» نبأ بعد نبأ؛ لنتظر ونتفكر في كل نبأ وخبر، وتعرف ما فيه، فيكون ذلك أثبت في قلبه، وهو كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۖ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، بإنزال الآية واحدة بعد واحدة، وسورة بعد سورة، وذلك أثبت في فؤاده من إنزاله جملة؛ لأنه يزدحم في مسامعه وفؤاده، وإذا كان بالتفريق نظر وتفكر، فهو أثبت في قلبه وفؤاده، والله أعلم.

وقوله - عَزَّ وَجَلَّ - : «وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ» قَالَ بَعْضُهُمْ: «وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ» أي: في هذه الأنباء التي قصها عليك جاءك فيها الحق»^(١).

من دروس الآية ١٢٠:

- ١ - القصص يثبت فؤاد النبي والمؤمنين.
- ٢ - التثبيت من خلال استحضار السنن وقوانين الله، ومن فهمها ثبت بإذن الله.
- ٣ - القصص موعظة تحمي القلوب وتذكرة تنبه العقول.
- ٤ - ختام السور جامع لموضوعات السور.

الآية ١٢١:

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾

الربط والمناسبة: ختمت الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولكن السياق بين أن هناك دائماً صنفاً آخر من البشر يمشي معاكساً لهذا الاتجاه الإيماني، فلا يؤمن، من هنا جاء الخطاب في هذه الآية ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وأيضاً ثم وجه آخر بل وجوه في التناسق والمناسبة فإن في قصص هذه السورة ما كان فيه الأنبياء يفاصلون أقوامهم في ختام دعوتهم فشعيب يقول لقومه: ﴿وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

(١) الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ج ٦، ص ١٠٢.

وها هو القرآن يقول للنبي الكريم ﷺ أن يقول لقومه القولة ذاتها: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ...﴾.

وهذه الآية (٩) كلمات و(٤٠) حرفاً وترتيبها (١٥٩٤).

المعنى: وقل: الواو للاستئناف وتصح للعطف، وقل فعل أمر من الإله العظيم للرسول الكريم أن يقول لقومه في ختام هذه السورة.

للذين لا يؤمنون: لم يقل للكافرين، وإنما قال للذين لا يؤمنون واعتقد أن فيها تلطفاً في الخطاب، فلعلهم يؤمنون.

اعملوا على مكانتكم: اعملوا على ما تعتقدون وما استقر في عقولكم من فكر وقناعات وما تعودتم عليه من عمل، وهذا ليس للتخيير فحسب ولكنه يتضمن التهديد لمن أساء الاختيار في ضوء السياق.

إنا عاملون^(١): إنا نحن أيضاً عاملون مستمرون ثابتون لا يوقفنا قلة ولا عدم إمكانات، بل ماضون لا يلوينا شيء، عاملون لا يحولنا ولا يشينا شيء.

قال الشيخ مخلوف: «على مكانتكم: على حالتكم التي أنتم عليها وهي الكفر، والأمر للتهديد. (وقد مر مثل هذا النص في الآية ٩٣ وهناك قال الشيخ: على مكانتكم: على غاية تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم، وفي الأنعام آية ١٣٥ قال في تفسيرها الشيخ: مكانتكم: مصدر مكن إذا تمكن أبلغ التمكن»^(٢).

(١) وردت عاملون في ٤ سور هذه أولاها ثم المؤمنون ٦٣ ﴿وَلَقَدْ أَعْمَلْنَا مِنْ دُونِ ذَلِكَ لَهُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ والصفات ٦١

﴿لَيْسَ هَذَا قَلِيلٌ مِمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والآخر في فصلت آية ٥: ﴿وَمِنْ بَيْنَا وَبَيْنَكَ جَبَابٌ فَعَمَلْنَا بَيْنَ عَمَلَيْنَا﴾.

ووردت العاملين ٤ مرات أيضاً: ٣ مرات منها: ﴿وَقَدْ أَجْرًا كَثِيرًا﴾ آل عمران ١٣٦، والنعكبوت ٥٨، والزمر ٧٤، والرابعة التوبة ﴿وَالْكَافِرِينَ عَلَيْهِمْ﴾.

(٢) انظر صفوة البيان ص ١٩١، ٢٩٨، ٣٠٢.

قال الخازن: «فيه وعيد وتهديد، يعني اعملوا ما أنتم عاملون فستعلمون عاقبة ذلك العمل فهو كقوله: اعملوا ما شئتم «إِنَّا عَامِلُونَ» يعني ما أمرنا به ربنا»^(١).

من دروس الآية ١٢١:

- ١ - المفاصلة في نهاية المطاف أمر لا مفر منه.
- ٢ - الثقة بعد الثقة في الله ومنهجه، الثقة بالنفس.
- ٣ - كل يعمل على شاكلته هذا قانون الله.

الآية ١٢٢:

﴿وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾

الربط والمناسبة: هذه لعلها أقصر آية في سورة هود، وهي تمة الكلام السابق فلا تحتاج إلى بحث مناسبة واتساق، فهناك في السابقة قال: ﴿اعْمَلُوا...﴾ وهنا ﴿وَأَنْتَظِرُوا...﴾ فهي متكاملتان.

وهذه الآية (٣) كلمات و(١٨) حرفاً وترتيبها (١٥٩٥).

المعنى: وانتظروا إنا منتظرون: الزمن جزء من العلاج، وما دمت لا تؤمنون، وعلى ذلك أنتم مصرون، فانتظروا إنا منتظرون. انتظروا ما ستأتي به الأيام من أقدار الله وتديره وعقابه إن أصررت على هذا العناد والتكذيب والكفر، فأنتم تنتظرون ربما تحول الأيام لصالحكم ضد النبي ومن آمن معه، ونحن نتظر كذلك تحول الأيام لصالحنا ضدكم.

(١) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج ٢، ص ٥٠٩.

فما دام كذلك فلينتظر كل في محله وموقعه ومكانه ودع الأيام تكشف عما سيكون.

وليس معنى الانتظار التوقف عن العمل، لا، وإنما انتظار مع العمل ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ واستمرار في خط الدعوة إلى الله والبيان وإقامة الحجة.

وتأمل الجرس والإيقاع الصوتي بالكلمات الثلاث فيها النون تغن أي تقرأ بالغنة، والغنة فيها جمال وإيقاع وجرس جميل وإطالة وقت النطق فكأنه مع جمال الإيقاع أعطاك الإيجاء بالمهلة والانتظار. فتأمل.

«وَانْتَظِرُوا» يعني ما يعدكم به الشيطان «إِنَّا مُتَنَظِّرُونَ» يعني ما يحل بكم من نعمة الله وعذابه إما في الدنيا وإما في الآخرة»^(١).

قال الزمخشري: «إِنَّا مُتَنَظِّرُونَ» أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله من النقم النازلة بأشباهكم».

قال ابن عاشور: «إِنَّا عاملون» «إِنَّا مُتَنَظِّرُونَ» للنبي والمؤمنين الذين معه، وفي أمر الله رسوله بأن يقول ذلك على لسان المؤمنين شهادة من الله بصدق إيمانهم، وفيه تفويض إلى رأس الأمة بأن يقطع أمراً عن أمته ثقة بأنهم لا يردون فعله»^(٢).

من دروس الآية ١٢٢:

١- الزمن جزء من العلاج.

٢- إن انتهى العقل إلى الإغلاق فلم يبق إلا الفراق وانتظار النتائج.

(١) الخازن، ج ٢، ص ٥٠٩.

(٢) يقصد ابن عاشور أنه أي الرسول عليه الصلوات ينطق باسم أمته ثقة بأنهم سيصدقون على ما يقول ويقرونه عليه.

٣- الكل منتظر على توقع أن تكون الجولة لصالحه.

٤- دع الأيام تكشف عن المخبوء.

٥- هذا الموقف من الانتظار ليس سلباً ولا عدماً ولكنه عين الإيجاب، هذا تماماً كما ينتظر المريض أن يؤتي الدواء أكله بعد أن تناوله.

٦- «وانظروا» تهديد ووعيد كما يقال: سوف ترى.

الآية ١٢٣:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

الربط والمناسبة: هذا أروع ختام لهذه السورة الرائعة، وهو متصل بالسباق والسياق أتم اتصال وأروع، فما دام قال لهم اعملوا فنحن أيضاً عاملون وانتظروا فنحن أيضاً منتظرون فماذا بقي أن يقول إلا ما قالت آية الختام ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ...﴾.

وأما قوله فاعبده فيرنو إلى قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾.

فالآية الختامية مرتبطة بكل موضوع السورة على الإجمال دون أن ندخل في التفصيل وهذه طبيعة الختام.. وآيات الختام.

وهذه الآية (١٦) كلمة و(٧٠) حرفاً وترتيبها (١٥٩٦).

المعنى: والله غيب السماوات والأرض: هذه صيغة تفيد الاختصاص أي له وحده سبحانه لا لأحد سواه شيء منه. غيب السماوات والأرض: أي ما غيب

عن الناس، والغيب أنواع، وعوالم كثيرة فالملائكة غيب لا نراه الآن وسنراه غداً، وبعض موجودات الكون كان غيباً فاكشفناه، وبعض القضايا كانت غيباً تاريخياً فتعلمناه أو درسناه أو بالحفريات استخرجناه آثاراً دللتنا على ما كنا لا نعرفه.

ومن الغيب ما لن نعرفه.. وهذا كله ليس المقصود، إنما المقصود ما تحبته الأيام من غيب نحن لا نعلمه ولكنه في علم الله وتديره وتقديره كائن في مواعيده، فهذا الذي نعمل له وننتظره، وأنتم تعملون لأي شيء وتنتظرون أي شيء؟ كل هذا غيب سنعلمه نحن وأنتم..

وأما نص الآية فمطلق يشمل أولاً موضع الحديث بشكل رئيس، ويبقى النص على إطلاقه وعمومه، فالغيب لله وحده.

وأضاف الغيب إلى السماوات والأرض أي الغيب الكائن فيهما والموجود الآن غائباً عنا فيهما. واللام في «الله» للملك وهو ملك إحاطة العلم.

وإليه يرجع الأمر كله: هذه صيغة من صيغ الحصر أيضاً أي لا يرجع إلى أحد سواه، والأمر مطلق وأكدته بلفظ كله. والتعريف في «الأمر» تعريف الجنس فيعم الأمور.

فاعبده: هذه هي النتيجة المنطقية والحتمية فما دام كذلك فينبغي أن تكون العبادة له وحده.

وتوكل عليه: أي اجعل توكلك كله واعتمادك عليه وحده لا على أحد سواه، ولا نريد أن نكرر إلا نضرب الأسباب بالتوكل ونناقض ونباعد ما بينهما، فهذا أمر قد ابدئ فيه وأعيد.. فلا نعيد، بل نحن متسبيون متوكلون، أي جامعون. ما بين الأسباب والتوكل بلا اضطراب ولا تناقض.

وما ربك بغافل عما تعملون: وما: بمعنى ليس وتعمل عملها، والباء مزيدة نحوياً للتوكيد.. أي: وليس ربك غافلاً عما تعملون أنتم وعما يعمل غيركم فتعملون عامة شاملة للجميع.

وهذا الختام لم يتكرر إلا هنا وفي النمل^(١).

والغافل الذي يغيب عنه أشياء، والله تعالى لا يغفل ولا يغيب عنه شيء، وحاشا لجلاله، فهذا الكون الهائل لو غفل عنه لحظة لكانت أمور لا يمكن تصورها، فلو غفل قائد سيارة لحظة لكانت كوارث.. فتأمل.

قال الزمخشري: «واليه يرجع الأمر كله» بد أن يرجع إليه أمرهم وأمرك فينتقم لك منهم «فاعبده وتوكل عليه» فإنه كافيك وكافلك».

قال ابن عاشور: «المراد أن يعبد دون غيره ويتوكل عليه دون غيره، بقرينة «واليه يرجع الأمر كله» لأن الذي يرجع إليه كل أمر لا يعقل أن يصرف شيء من العبادة ولا من التوكل إلى غيره، فلذلك لم يؤت بصيغة تدل على تخصيصه بالعبادة للاستغناء عن ذلك بوجوب سبب تخصيصه بهما».

قال العاني: «وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» من كل ما يقع فيها وفوقها وتحتها، ومن كان كذلك فلا يخفى عليه شيء من أعمال من هو بينهما وأعلاهما وأسفلهما «وَالِلَّهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ» فيما يتعلق فيكم وفي غيركم، وعليه فلا بد من

(١) وما أشبه السورتين فختام هذه بالآية ١٢٣ وختام تلك ٩٣ وفيهما من القصص المشترك والمعاني المشتركة.

ففي الختام هنا قال: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ وهناك قال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ آعْبُدَ رَبَّ هَٰذَا وَالْبَدَءَ﴾.

وهنا قال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وهنا قال: ﴿سَيَرْكَبُهُ مَائِنُهُ، فَتَعْرِفُونَهَا﴾.

أي سيكشف لكم عن ذلك الغيب. والله أعلم.

مصيركم إليه فينتقم من الكافر، وينعم المؤمن، ثم التفت إلى صفته محمد ﷺ فقال عزّ قوله وأنت يا أكمل الرسل «فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ» فهو كافيك وكافلك... ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم متوكل على ربه حق التوكل، وإنما يراد منه الدوام والاستمرار، أي فداوم على ما أنت عليه يا سيد الرسل ولا تبال بالذين لا يؤمنون بك، ولا يضيق صدرك من تكذيبهم «وَمَا رَيْكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» أنت ومن آمن بك وأمتك كلهم مؤمنهم وكافرهم، لأن أعمالكم جميعا يحصيها عليكم ويمجازيكم عليها السيء بمثله والحسن بأمثاله. وفي هذه الآية إشارة إلى أن العبد غير الموفق غافل عن عمله لا يدري ما يفعل به، حتى إذا وقع أمر الله به انتبه فندم من حيث لا ينفعه الندم. أجارنا الله من ذلك»^(١).

قال الباقراني صاحب كتاب (إعجاز القرآن): «نظم القرآن الكريم.. الجملة تشتمل على بلاغة منفردة، والأسلوب يختص بمعنى آخر من الشرف، ثم الفواتح والخواتم والمبادئ والمثاني والطوالع والمقاطع والوسائط والفواصل، ثم الكلام في نظم السور والآيات، ثم في تفاصيل التفاصيل، ثم في الكثير والقليل.

وأنت تتبين في كل ما تصرف فيه من الأنواع، أنه على سمت شريف، ومرقب منيف، يهر إذا أخذ في النوع الربّي، والأمر الشرعي، والكلام الإلهي، الدال على أنه يصدر عن عزة الملوك، وشرف الجبروت».

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

من دروس الآية ١٢٣:

١ - آيات الختام تجمع أهم قضايا السورة.

٢ - الغيب كله لله.

٣- المؤمن يؤمن بالغيب والكافر سيؤمن بالغيب عندما يراه فليس إيماناً إذأ ولا يقبل ولا يؤجر عليه، والعاقل من آمن فتقبل منه وأجر.

٤- العبادة لا تكون إلا للذي يعلم غيب السماوات والأرض، والتوكل لا يكون إلا عليه سبحانه.

٥- الأمر كله لله.

٦- ختام مشترك بين سورتين هما هود والنمل والقواسم بينهما وافرة وهذا دأب في القرآن.

وصلى الله على محمد والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

الرقم	المؤلف	الكتاب	دار النشر	العام
١	الأيباري	الموسوعة القرآنية	مؤسسة سجل العرب	١٤٠٥ هـ
٢	الألباني	صحيح الجامع الصحيح	المكتب الإسلامي	١٤٣٠ هـ
٣	الآلوسي	روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني	دار الكتب العلمية	١٤١٥ هـ
٤	البغوي	معالم التنزيل في تفسير القرآن	دار إحياء التراث العربي	١٤٢٠ هـ
٥	البقاعي	نظم الدرر في تناسب الآيات والسور	دار الكتاب الإسلامي	-
٦	البيضاوي	أنوار التنزيل وأسرار التأويل	دار إحياء التراث العربي	١٤١٨ هـ
٧	الثعالبي	الجواهر الحسان في تفسير القرآن	دار إحياء التراث العربي	١٤١٨ هـ
٨	الثعلبي	الكشف والبيان عن تفسير القرآن	دار إحياء التراث العربي	١٤٢٢ هـ

٩	الجاجي	النسق القرآني: دراسة	ط ١، دار القبلة	١٤٣١هـ -
	محمد ديب	أسلوبية	ومؤسسة علوم القرآن	٢٠١٠م
١٠	الجاوي	مراح لبيد لكشف	دار الكتب	١٤١٧هـ
		معنى القرآن المجيد	العلمية	
١١	الجزائري	أيسر التفاسير لكلام	مكتبة العلوم	١٨٠٦هـ
		العلي الكبير	والحكم	
١٢	ابن جزري	التسهيل لعلوم التنزيل	دار الأرقم بن أبي الأرقم	١٤١٦هـ
١٣	الخصاص	أحكام القرآن	دار إحياء الكتب العربية	١٤١٢هـ ١٩٩٢م
١٤	ابن الجوزي	زاد المسير في علم التفسير	دار الكتاب العربي	١٤٢٢هـ
١٥	حجازي، محمد محمود	التفسير الواضح	دار الجيل الجديد	١٤١٣هـ
١٦	حقي	روح البيان	دار الفكر	-
١٧	حومد	أيسر التفاسير	دار القلم	١٤١٩هـ
	أسعد محمود			٢٠٠٩م
١٨	أبو حيان	البحر المحيط في التفسير	دار الفكر	١٤٢٠هـ
١٩	الخانز	لباب التأويل في معاني التنزيل	دار الكتب العلمية	١٤١٥هـ
٢٠	الخطيب	التفسير القرآني للقرآن	دار الفكر العربي	-

٤٤٣	تفسير سورة هود		
١٣٨٣ هـ	دار إحياء الكتب العلمية	التفسير الحديث [حسب ترتيب النزول]	٢١ دروزة
١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م	دار ابن كثير	إعراب القرآن وبيانه	٢٢ الدرويش محي الدين
١٤١٢ هـ	مكتبة نزار مصطفى الباز	المفردات في غريب القرآن	٢٣ الراغب الأصفهاني
١٤٢٠ هـ	دار إحياء التراث العربي	مفاتيح الغيب	٢٤ الرازي
١٤٢٧ هـ ٢٠٠٦ م	ط ٨، دار ابن كثير دمشق	لطائف المعارف	٢٥ ابن رجب الحنبلي
١٩٩٠ م	الهيئة المصرية العامة للكتاب	تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)	٢٦ رضا
١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م	ط ١، عالم الكتب بيروت	معاني القرآن وإعرابه	٢٧ الزجاج
١٤١٨ هـ	دار الفكر المعاصر	التفسير المنير في العقيدة والشرعة والمنهج	٢٨ الزحيلي
	ط الشعب القاهرة	أساس البلاغة	٢٩ الزغشري
-	دار الفكر العربي	زهرة التفاسير	٣٠ أبو زهرة

٣١	السعدي	تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان	مؤسسة الرسالة	١٤٢٠هـ
٣٢	أبو السعود	إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم	دار إحياء التراث العربي	-
٣٣	سليمان الجمل	الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية	المطبعة العامرة الشرقية	١٨٨٤م
٣٤	السمرقندي	بحر العلوم	-	-
٣٥	السمعاني	تفسير القرآن	دار الوطن	١٤١٨هـ
٣٦	السمين الحلبي	الدر المصون في علوم الكتاب المكنون	ط١، دار القلم	١٤٠٨هـ
	أحمد بن يوسف		تحقيق أحمد الخراط	١٩٨٧م
٣٧	سيد طنطاوي	التفسير الوسيط للقرآن الكريم	دار نهضة مصر	١٩٩٨م
٣٨	سيد قطب	التصوير الفني في القرآن	دار الشروق	١٤٢٣هـ
٣٩	سيد قطب	في ظلال القرآن	دار الشروق	١٤١٢هـ
٤٠	السيوطي	معترك الأقران في إعجاز القرآن	دار الكتب العلمية	١٤٠٨هـ
			بيروت	١٩٨٨م
٤١	الشعراوي	تفسير الشعراوي - الخفاطر	مطابع أخبار اليوم	١٩٩٧م

٤٢	الشنقيطي	أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن	دار الفكر	١٤١٥ هـ
٤٣	الشوكاني	فتح القدير	دار ابن كثير	١٤١٤ هـ
٤٤	الصابوني	صفوة التفاسير	دار الصابوني	١٤١٧ هـ
٤٥	صافي	الجدول في إعراب القرآن الكريم	دار الرشيد - مؤسسة الإيمان	١٤١٨ هـ
٤٦	طارق عزت	بلاغة الترتيب بين الجمل المتعاطفة بالواو في الذكر الحكيم	رسالة دكتوراه مخطوطة	
٤٧	الطبري	جامع البيان في تأويل القرآن	الرسالة	٢٠٠٠ م
٤٨	ابن عادل	اللباب في علوم الكتاب	دار الكتب العلمية	١٤١٩ هـ
٤٩	عبد الباقي محمد فؤاد	المعجم المفهرس لألفاظ القرآن	ط دار الشعب القاهرة	١٩٦٧ م
٥٠	ابن عجيبة	البحر المديد في تفسير القرآن المجيد	حسن عباس زكي	١٤١٩ هـ
٥١	ابن عرفة	تفسير ابن عرفة	دار الكتب العلمية	٢٠٠٨ م
٥٢	العز بن عبد السلام	تفسير القرآن (مختصر تفسير الماوردي)	دار ابن حزم	١٤١٦ هـ
٥٣	ابن عطية	المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز	دار الكتب العلمية	١٤٢٢ هـ

٥٤	عمر حيدر	المحرفات بني إسرائيل	رسالة دكتوراه	٢٠١٧م
٥٥	الفراء	معاني القرآن	دار المصرية	-
٥٦	الفيومي	المصباح المنير في غريب	ط ٦ المطبعة	١٩٢٦م
	أحمد بن محمد	الشرح الكبير للرافعي	الأميرية القاهرة	
٥٧	القاسمي	محاسن التأويل	دار الكتب العلمية	١٤١٨هـ
٥٨	القرطبي	الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي	دار الكتب المصرية	١٣٨٤هـ
٥٩	ابن قتيبة	غريب القرآن	مكتبة الهلال	١٤١٠هـ
٦٠	القشيري	لطائف الإشارات	الهيئة المصرية العامة للكتاب	-
٦١	القطان	تيسير التفسير	-	-
	إبراهيم			
٦٢	ابن القيم	جامع الآداب	ط ١، دار الوفاء ودار ابن حزم جدة	١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م
٦٣	ابن كثير	تفسير القرآن العظيم	دار طيبة	١٤٢٠هـ
٦٤	لجنة من علماء الأزهر	المتخب في تفسير القرآن الكريم	المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية	١٤١٦هـ
٦٥	الماتريدي	تأويلات أهل السنة	مؤسسة الرسالة بيروت	١٤٢٥هـ

٦٦	الماوردي	تفسير الماوردي =	دار الكتب	-
		النكت والعيون	العلمية	
٦٧	محمد عبد	أوضح التفاسير	المطبعة المصرية	١٣٨٣هـ
	اللطيف		ومكتبتها	١٩٦٤م
٦٨	مخلف	كلمات القرآن تفسير	دار ابن حزم	١٤١٨هـ
	حسين	وبيان		
٦٩	المراغي	تفسير المراغي	مطبعة مصطفى	١٣٦٥هـ
			البابى الحلبي	
٧٠	المظهري	تفسير المظهري	الرشدية	١٤١٢هـ
٧١	مكي	الهداية إلى بلوغ النهاية	جامعة الشارقة	١٤٢٩هـ
٧٢	أبو موسى	دلالات التراكيب	مكتبة وهبة	١٤٠٨هـ
	محمد محمد			١٩٨٧م
٧٣	أبو موسى	من أسرار التعبير	مكتبة وهبة	١٤١٦هـ
	محمد محمد	القرآني	القاهرة	١٩٩١م
		دراسة تحليلية لسورة		
		الأحزاب		
٧٤	نجم الدين	إيجاز البيان عن معاني	دار الغرب	١٤١٥هـ
	النيسابوري	القرآن	الإسلامي	
٧٥	النحاس	إعراب القرآن	دار الكتب	١٤٢١هـ
			العلمية	
٧٦	نخبة من	التفسير الميسر	مجمع الملك فهد	١٤٣٠هـ
	أساتذة التفسير			

٧٧	النيسابوري	غرائب القرآن ورغائب الفرقان	دار الكتب العلمية	١٤١٦هـ
٧٨	النسفي	مدارك التنزيل وحقائق التأويل	دار الكلم الطيب	١٤١٩هـ
٧٩	الواحدي	الوجيز في تفسير الكتاب العزيز	دار القلم	١٤١٥هـ

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٤
تقديم	٥
سورة هود	١٣
الآية ١	١٤
الآية ٢	٢٣
الآية ٣	٢٥
الآية ٤	٢٩
الآية ٥	٣١
الآية ٦	٣٥
الآية ٧	٣٨
الآية ٨	٤٤
الآية ٩	٥١
الآية ١٠	٥٥
الآية ١١	٥٨
الآية ١٢	٦٢

٦٨	الآية ١٣
٧٢	الآية ١٤
٧٥	الآية ١٥
٧٨	الآية ١٦
٨١	الآية ١٧
٨٩	الآية ١٨
٩٣	الآية ١٩
٩٦	الآية ٢٠
١٠٠	الآية ٢١
١٠٢	الآية ٢٢
١٠٣	الآية ٢٣
١٠٥	الآية ٢٤
١٠٨	الآية ٢٥
١١١	الآية ٢٦
١١٣	الآية ٢٧
١١٨	الآية ٢٨
١٢١	الآية ٢٩
١٢٥	الآية ٣٠

١٢٦	الآية ٣١
١٣٢	الآية ٣٢
١٣٤	الآية ٣٣
١٣٦	الآية ٣٤
١٣٨	الآية ٣٥
١٤١	الآية ٣٦
١٤٤	الآية ٣٧
١٤٧	الآية ٣٨
١٥٠	الآية ٣٩
١٥٣	الآية ٤٠
١٥٨	الآية ٤١
١٦١	الآية ٤٢
١٦٥	الآية ٤٣
١٦٩	الآية ٤٤
١٧٦	الآية ٤٥
١٧٩	الآية ٤٦
١٨٥	الآية ٤٧
١٨٦	الآية ٤٨

١٩١	الآية ٤٩
١٩٦	الآية ٥٠
٢٠٠	الآية ٥١
٢٠٢	الآية ٥٢
٢٠٦	الآية ٥٣
٢٠٩	الآية ٥٤
٢١١	الآية ٥٥
٢١٣	الآية ٥٦
٢١٦	الآية ٥٧
٢١٩	الآية ٥٨
٢٢٢	الآية ٥٩
٢٢٥	الآية ٦٠
٢٢٩	الآية ٦١
٢٣٦	الآية ٦٢
٢٣٩	الآية ٦٣
٢٤٢	الآية ٦٤
٢٤٥	الآية ٦٥
٢٤٨	الآية ٦٦

٢٥١	الآية ٦٧
٢٥٤	الآية ٦٨
٢٥٦	الآية ٦٩
٢٥٩	الآية ٧٠
٢٦٢	الآية ٧١
٢٦٥	الآية ٧٢
٢٦٨	الآية ٧٣
٢٧٢	الآية ٧٤
٢٧٦	الآية ٧٥
٢٧٨	الآية ٧٦
٢٨١	الآية ٧٧
٢٨٥	الآية ٧٨
٢٨٩	الآية ٧٩
٢٩٢	الآية ٨٠
٢٩٥	الآية ٨١
٢٩٨	الآية ٨٢
٣٠٢	الآية ٨٣
٣٠٣	الآية ٨٤

٣٠٩	الآية ٨٥
٣١٤	الآية ٨٦
٣١٧	الآية ٨٧
٣٢١	الآية ٨٨
٣٢٤	الآية ٨٩
٣٢٧	الآية ٩٠
٣٢٩	الآية ٩١
٣٣٣	الآية ٩٢
٣٣٥	الآية ٩٣
٣٤٠	الآية ٩٤
٣٤٤	الآية ٩٥
٣٤٦	الآية ٩٦
٣٤٨	الآية ٩٧
٣٥٣	الآية ٩٨
٣٥٥	الآية ٩٩
٣٥٧	الآية ١٠٠
٣٥٩	الآية ١٠١
٣٦٢	الآية ١٠٢

٤٥٥	تفسير سورة هود
٣٦٥	الآية ١٠٣
٣٦٩	الآية ١٠٤
٣٧١	الآية ١٠٥
٣٧٣	الآية ١٠٦
٣٧٦	الآية ١٠٧
٣٨٠	الآية ١٠٨
٣٨٤	الآية ١٠٩
٣٨٧	الآية ١١٠
٣٩٢	الآية ١١١
٣٩٥	الآية ١١٢
٤٠٠	الآية ١١٣
٤٠٧	الآية ١١٤
٤١١	الآية ١١٥
٤١٣	الآية ١١٦
٤١٧	الآية ١١٧
٤١٩	الآية ١١٨
٤٢٣	الآية ١١٩
٤٢٨	الآية ١٢٠

٤٣٢	الآية ١٢١
٤٣٤	الآية ١٢٢
٤٣٦	الآية ١٢٣
٤٤١	المصادر والمراجع